الثورة - والحرية

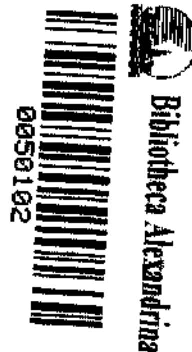
سندباد مصرى

جولات فى رحاب التاريخ

تأليف: حسين فوزى

سندباد مصري

حسين فوزي





دار المعارف


محمد خطاب

سندباد مصري




MOHAMED KHATAB

حسين فوزى

سندباد مصرى

جولات فى رحاب التاريخ

« من أرادها بسوء قصمه الله »

كعب الأحبار

الطبعة الثالثة





دار المعارف



الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج . م . ع .

إلى صديقى

الفنان والكاتب الكبير

توفيق الحكيم




MOHAMED KHATAB

فهرست

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

III

الضياء

صفحة

مقدمة

لا فضل لى فى هذا الكتاب إلا أن رسمت خطته . ونظمت فصوله تبعاً لانفعالاتى الشخصية بتاريخ بلادى ، وتركيز فكرى فترات طويلة فى أحقاب هذا التاريخ الذى عشت فى طفولتى نهاية حقبة منه . فقد ولدت ومصر إيالة عثمانية ، أو ما كان يعرف فى الدجل السياسى باسم السيادة الاسمية لتركيا على مصر ، وسمعت وأنا حدث خطباء مساجد القاهرة يدعون للسلطان محمد رشاد . ولعبت الجمباز فى المدرسة الابتدائية على نداءات لغة لا أعرفها ، قيل إنها التركية . ثم شهدت تغير الراية الحمراء ذات الهلال والنجمة الواحدة ، إلى ذات الأهلة الثلاثة بنجومها ، فالعلم الأخضر المثلث النجوم فى هلال واحد ، فراية الجمهورية العربية المتحدة ذات الألوان الثلاثة والنجمين الأخضرين .. كما شاهدت جنود الاحتلال يبدلون أرديتهم الحمراء الفاقعة ، باللباس الكاكى . وكانت أنفى تتبين رائحة الجندى البريطانى على بعد خطوات ، ويقول أهلى بأننى فى طفولتى كنت أفزع لمرأى أولئك الحمر وجوهاً ولباساً .

أدركت من شئون بلادى ، وبعض أمور العالم ، ما يدركه غلام ، عند إعلان الحرب العالمية الأولى . وعشت فى خضم ثورة ١٩١٩ طالباً ، وراقبت أعقابها بعقل شباب المدارس العليا ، حتى غادرت البلاد عام ١٩٢٥ لأتابع تعليمى ، وغبت عنها خمس سنوات ، عشت أثناءها مع أهل الغرب بعقلية أوربية وقلب مصرى . وعودتنى حياتى العلمية فى مصر والخارج أن لا أصدر حكماً قبل أن أتبين الأمور بكل ملابساتها . وعرفت أن الحقيقة فى مسائل الرأى بعيدة المنال ، على العكس من بعض المسائل العلمية التى تقوم على قوانين الطبيعة ، كالبديهيات الرياضية ، أو المؤسسة على الفحص المباشر وتسجيل الملاحظات . أقول بعض المسائل العلمية . لأنه حتى العلم لا يقف عند حدود الوصف التشريحى ، والتسجيل الموضوعى ، وإنما يتقدم بخطوات يعمل الاستقراء فيها عملا كبيراً ، فنجرى على العلم أحكام سرمدية ، لأن العقل يخطئ كما يصيب .

واجتزت الحرب العالمية الثانية فى وعى كامل لأهدافها القريبة والبعيدة ، على الرغم من أكاذيب المتحاربين ، وصراع المذاهب السياسية التى عرفتها فيما بين الحربين . فقد درجت أيام التحصيل بأوربا على أن أطالع فى صحف المساء رأياً ينقض ما طالعت فى صحف الصباح ، فلا أميل يمنة أو يسرة . ودربت نفسى على فهم موضوعى لا بأس به لأهل اليمين وأهل اليسار ، بفضل تلك المتابعة اليومية لصراع الأفكار السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى أوربا . وقد أعدنى ذلك ، بعد عودتى إلى بلادى ، للحياة فوق المعترك السياسى ، لا فى غماره ، لا سيما وأن دورى فى الكفاح كان ميدانه العلم وتطبيقاته .

أومن بوطنى ، وشعب بلادى ، المؤلف من ملايين المحرومين من الصحة ، ومن التعليم ، من الرفاهية الجثمانية والعقلية . لذلك كانت من أسعد اللحظات التاريخية التى عرفتها فى حياتى ، لحظة أبلغت تليفونياً من القاهرة ، وأنا فى الإسكندرية ، خبر قيام الضباط الأحرار بثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، وأحسست فيما يشبه الإلهام بأن فجراً جديداً ، صحيحاً لا كاذباً ، قد طلع فى أفق التاريخ المصرى . وربما كان ذلك الفجر هو الذى أنار لى طريقى إلى تأليف هذا الكتاب الذى لم يكن فى الإمكان كتابته قبل قيام هذه الثورة .

والحق أنى منذ زمان طويل أطمع فى وضع كتاب على هامش التاريخ ، أصور فيه الحياة المصرية منذ نشأتها ، صورة صادقة لما اختلجت به نفسى منذ تيقظ فىّ الشعور والإدراك ، سواء أمام النيل ، وفوق واديه الخصيب ، أو فى عرض البحر مقبلا من البحر الأحمر ، بعد رحلة طويلة بالمحيط الهندى ، عابراً قناة السويس إلى بحرنا الأبيض ، أو جوّاباً على سطح بحيرات الدلتا الواسعة ، أو متنقلا بين بحيرة قارون ومديرية الفيوم ، أو مخترقاً الصحراء إلى الواحات النائية ، أو متأملاً آثار أجدادى فى المتاحف هنا ، وفى الخارج ، أو مرتاداً أطلال بلادى القائمة فيما بين الشلال والدلتا : أطلال العصر القديم ، والحقبة اليونانية الرومانية ، وآثار العهد القبطى ، والعصور الإسلامية .

أحسست فى هذه التجارب بالوحدة الكامنة خلف كل تلك الحضارات المتعاقبة ، فى السراء والبأساء ، الوحدة القوية المتماسكة التى جعلتنى أشعر بأننى

ابن أعرق الشعوب طرًّا . تلمست تلك الوحدة فعرفتها في حقيقتها الإنسانية ، عرفتها في المصرى فرداً وشعباً ، مهما تعدد حكامه ، وتداولته الإحن والأرزاء .

كتابي صور من ملحمة هذا الشعب الذى أفخر بأنني واحد من آحاده .

لست مؤرخاً ، لا بالفكر ولا بالمهنة ، وإن كنت غير مجرد تماماً من الإحساس بالتاريخ . اعتمدت في كتابته على الخلجات الروحية التي أشرت إليها ، وعلى ما طالعت من كتب الأولين والآخرين في تاريخ بلادى ، وعلى القليل الذى عشته من ذلك التاريخ بلحمى ودمى وتفكيرى .

كتبته في بحبوحة الأدب والفن : حرية في الفكر ، وتحرر في الأسلوب ، وتصرّف في نقل النصوص المصرية القديمة التي التزم العلماء في ترجمتها التزامات لم أر أن أقيد نفسى بها ، بعد أن لمست المفارقات في ترجمة النص الواحد ، ما دمت محتفظاً بالروح والمعنى اللذين تبينتهما خلال اختلاف المترجمين .

وفى صفحات غير قليلة ، استعرت نصوص المؤرخين المصريين في القرون الوسطى ، وفى القرنين الماضيين ، وبخاصة نصوص ابن إياس فيما يتصل بالغزو العثمانى ، ونصوص الجبرتى فيما يتعلق بالمماليك ، والفرنسيين ، ومحمد على ، منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل التاسع عشر . ولم تخرج بعض الفصول الأولى من الكتاب عن مجرد ترتيب الوقائع ترتيباً دراميًّا ، مع إحداث تعديلات طفيفة جدًّا في نصوص تلك الحوليات العظيمة .

ليس من قبيل افتعال التواضع إذن أن أقول لى أول مقدمتى بأن لا فضل لى في وضع هذا الكتاب ، ولنزعم في شيء من السخرية بأنفسنا أن دورنا فيه كان أشبه بدور المخرج السينمائى الذى لا يكتب القصة ، ولا يستخلص السيناريو ، ولا يضع الحوار ، ولا يصمم الديكور ولا يبنيه ، ولا يعمل على أجهزة الإضاءة ، ولا يمثل ولا يصور . إنما هو يستخدم كل ما تضعه حرفة السينما وصناعتها وفن رجالها ونسائها بين يديه من ممكنات ، ليجمع ذلك في صورة تتجلى في ذهنه أولا . وقد ينجح في تنفيذ الصورة الذهنية ، وقد يخيب .

وهذا هو حظى نفسه في كتابى : أن أكون وفقت ، أو أكون قد أخفقت في إخراج الصور الذهنية الوجدانية التي طبعها في نفسى تاريخ مصر كله ،

كوحدة متكاملة ، أو كما قلت فى ثنايا الكتاب ، كرواية كبيرة ذات فصول بطلها الشعب المصرى ، لا كمجموعة قصص منفصلة لكاتب واحد ، أو لكتاب عديدين .

كتابى أدب محض ، أحاسب عليه فى حدود الأدب والفن . إلا أن واجبى نحو حقائق التاريخ اقتضانى أن آذيله بمجمل لتاريخ مصر ، أرجو أن يلقى عليه القارئ نظرة سريعة قبل البدء بمطالعة الكتاب . على أن يعود إليه كلما دعاه إلى ذلك داع ، كما أن واجبى نحو الأمانة فى النقل . وإرجاع الفضل لذويه — مع تجنب الهوامش — فرض علىّ أن أضع ثبتاً بالكتب التى طالعتها إعداداً للكتاب .

ولقد قدرت أن حرية التأليف الأدبى لا تلزمنى بمطالعة « كل » ما كتب فى تاريخ مصر ، ولو كنت مؤرخاً لكان من أوليات واجبى أن أدرسها عن بكرة أبيها ؛ ولعل القارئ غير المختص لا يتصور ما وراء هذه الدراسة من جهد قد يستنفد العمر كله . فالببليوغرافيا الكاملة لتاريخ مصر وحضاراتها . فى اللغات الحية والميتة ، قد يضيق بها مجلد فى حجم هذا الكتاب . والمؤرخ يعرف حدوده ، فهو ممنوع بحكم الدقة العلمية من أن يحاول مثل هذه المحاولة .

أما الأديب — وقد يقتنع القارئ بحجته أو لا يقتنع ، مادمت أتحمل وحدى وزر عملى — فقد انتفع انتفاعاً كاملا بحرية الفن والأدب . وكل ما أرجوه أن لا أكون أسأت كثيراً إلى الحرية التى يمنحها الفكر المطلق .

الإسكندرية من ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ إلى ٣٠ نوفبر ١٩٥٥
القاهرة من ٨ يناير ١٩٥٩ إلى ١٠ يولية ١٩٥٩
الإسكندرية من ١١ يولية ١٩٥٩ إلى ١١ ستمبر ١٩٥٩
القاهرة من ١٢ ستمبر ١٩٥٩ إلى ٤ أكتوبر ١٩٥٩

ملحوظة : خالفت بعض ما انتهى إليه العرف من تسمية آلهة المصريين حور ، أو حوريس ، وأوزير ، وتحوت ، وساتحور ، ومن تسمية أسرة اللاحيديين — وصحتها اللاجوسيين ، أبناء لاجوس — البطالمة ، وفضلت العودة إلى الأسماء الأكثر ذيوعاً ، مثل : هوروس ، وأوزيريس ، وتوت ، وهاتور ، لأننى إذا قلت أوزير تحتم أن أقول « إيز » . كما أنى لا أستطيع أن أقول حور ، وبعض بلادنا ما تزال

تحمل اسم الإله الصقر : سنهور ، سندنهور ، دمنهور ؛ ولا أقول تحوت وحاتحور ، وأشهرنا القبطية تحتوى على اسميهما فى شهرى « توت » و « هاتور » .

وجمع بطليموس على بطالمة ، صحيح لغة ، ولكن مؤرخى مصر ، وعلى رأسهم شيخهم العظيم تقى الدين المقريزى ، درجوا على صيغة الجمع « بطالسة » ، فأخذت بهذا الجمع حفاظاً على القديم .

وفى استعارتى أسلوبى ابن إياس والشيخ عبد الرحمن الجبرتى لم أحاول تصحيحاً لغوياً ، كأن أقول « تفرج بالأهرام » بدل « تفرج على الأهرام » ، لا لمجرد المحافظة على أسلوب ذاهب : بل لأن تطور اللغة يلزمنا هنا بتغيير حرف الجر . فكلمة تفرج من فرج وفرّج ، تعنى كشف الهم ، وتنصرف إلى الترويح عن النفس ولكنها تحولت فى الاستعمال إلى معنى « الفرجة » — الكلمة العامية . لأن الكلمة العربية معناها : كل منفرج بين شيئين ! — وبذلك أضاف استعمالها فى هذا المعنى شيئاً جديداً ، غير كشف الغمة ، وهو : الرؤية والمشاهدة . وهنا نضطر إلى القول « تفرج على » ، لأن تفرج ب تنصرف إلى شيء آخر ، كأن تتفرج بسيجارة ، وتتفرج بلحن موسيقى ، وتتفرج بعشرة طاولة .

وأما تحولى إلى العامية فى بعض الألفاظ ، وبعض التراكيب ، فهو مذهب لى قديم ، وضعته موضع الامتحان فى أول كتاب لى ، نشرته سنة ١٩٣٧ ، وهو « سندباد عصرى » وزادتنى الأيام تمسكاً به ، فهو لا يبدو اليوم ناشزاً كما كان يبدو منذ عشرين عاماً ، لأن الجيل الحى من كتاب اليوم أخذ به ، بل وأبدع فيه .

I

الظلام

الجمعة الحزينة

ينزل الستار

نكتة الفرنساوية

الباشا والمصرلية

زبانية عتاة

ولدى

مصر والحضارة الغربية

الجمعة الحزينة

كانت نهاية عام ٩٢٢ من الهجرة يوم جمعة ، وختم أئمة المساجد بمصر والقاهرة خطبهم بهذا الدعاء : « انصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفّر سليم شاه ، اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة ، يا رب العالمين » .

وفى شهر جمادى الآخرة من سنة ٩٢٣ [١٥١٧ م] ، جلس كاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، فى وطاقه بالروضة تجاه المقياس ، يقضى الأسابيع الأخيرة من إقامته بالديار المصرية فى لعب الشطرنج مع أبطال اللعبة ، من أمثال النصر محمد بن الوردى ، والشهابى أحمد الإسكندرانى .

كانت أيام هناء ورفاهية ، فقد استطاع ابن بايزيد فى نصف عام أن يضيف إلى ملك آل عثمان إمبراطورية بالتمام والكمال ، هى تلك الدولة الكبرى التى أقامها المماليك فى مصر منذ ثلاثة قرون ، والتى امتدت من اليمن جنوباً ، حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا ، وعلى شاطئ بحر الروم من خليج الإسكندرونة حتى بلاد برقة ، وعلى ضفاف النيل حتى أعالى النوبة .

تفرج سليم على الأهرام وتعجب من بنائها ، وغسل وجهه من ماء بئر البلسان بالمطرية ، وما أظنه عنى بالمسلة ، أو بقصة استراحة يوسف النجار ومريم العذراء وطفلها فى ظلال الجميزة الألفية . وسافر إلى الإسكندرية ليأمر بحبس ألفين من المصريين من رجال الحرف والصناعات وكبار المباشرين والتجار إلى جانب من القضاة والأعيان والأمراء والمقدمين ، حبسهم فى أبراج الإسكندرية وخاناتها ، انتظاراً لقيام المراكب بهم إلى القسطنطينية . وكان قد نزع من بيوت مصر والقاهرة أثمن ما فيها من منقول وثابت ، حتى الأخشاب والبلاط والرخام والأسقف المُزَرْكَشة والأعمدة السماقية بإيوان القلعة ، ومجموعة المصاحف والمخطوطات والمشاكى والكراسى النحاسية والمشربيات والشمعدانات والمنابر .

هذه هى الحرب الجزية ، وذلكم كان الغزو الأكبر : أن يعود سليم وأجناده العثمانية محملين بالأسلاب الغالية ، نماذج أصيلة لحضارة مشرقة ، حتى ليصبح أقل عسكره أغنى من أى أمير من أمراء المماليك ، أولئك المتغطرسين المنفوخين . إنه ليذكر رسالته إلى كبيرهم السلطان طومان باى : « أما بعد ، فإن الله أوحى إلى بأن أملك البلاد شرقاً وغرباً ، كما ملكها الإسكندر ذو القرنين ، وإنك لمملوك تباع وتشرى ، ولا تصلح لك ولاية ، وأنا ابن ملك إلى عشرين جدًّا » .

جلس الخنكار سليم شاه فى وطاقه ، يحيط به رهط من المرد ، مع بعض أمرائه الإنكشارية والإصباحية يتسامرون ويتحارفون ، وقد مدت بين أيديهم الأسمطة يتخاطفونها كالذئاب ، وافتضت برسمهم الدنان ، ثم نصبت لهم شاشة بيضاء فى صدر الإيوان ، وقف خلفها واحد من المخايلين ، بعد أن أطفأ الأنوار ، إلا مصباحاً كبيراً خلف الشاشة ، تلعب عليها ظلال تصاوير من الورق . ترسم رحبة باب زويلة ، تحيط بها أجناد غرباء . ويخرج من البوابة رجل يركب أكديشاً ، وربما جملا ، ويترجل مرفوع الرأس ، طويل اللحية ، يتسلمه المشاعلية ليضعوا الحبل فى عنقه ، ويشدوا الحبل المعلق بقاعدة برج البوابة ، فينقطع الحبل بالمشنوق ، ويعود المشاعلية إلى وضع الحية مرة أخرى حول عنق الرجل ، وينقطع الحبل مرة ثانية ، وفى الثالثة يتدلى الرجل وتستدير لحيته إلى أعلى ، وتلعب سيقانه فى الهواء هنيهة ، ثم يسكن حراكه . والمحبظ يصطحب مخايلته بأزجال وفكاهات يضحك الصبيان المرد من فحشها وسلاطتها ، ويضحك العثمانيون دون أن يفهموا حرفاً ، والسلطان منشرح الصدر لهذه المخايلة . فإذا مثل المحبظ بين أيديه ، أنعم عليه بثمانين ديناراً ، وبقفطان من المخمل المذهب ، وهو يقول له : « تعال معنا إلى إسطنبول حتى يتفرج ابنى على ذلك » .

بماذا انشرح صدر الخنكار سليم شاه ؟ وعلام الخلعة والدنانير للمخايل السفيه الفاحش ؟ وفيم يطلب إليه السفر إلى إسطنبول حتى « يتفرج ابنه على ذلك » ؟ يتفرج على عملية شنق ، والشنق أهون ما تعرفه العثمانية من ضروب الإعدام ؟ علام يتفرج ابن سليم ، وقد جاء قومه إلى مصر بضروب من القصاص والتعذيب فاقت ما جرت به عادة المماليك ، مع ما كان عليه هؤلاء من القسوة والوحشية ،

فأضيف الخازوق بالطريقة الرأسية ، وعلى طريقة شك الباذنجان ، إلى التكليب والتوسيط وتهشيم الرأس بالطبر ، وقطع الرءوس ونشرها على الحبال ، ورشقها فى المدارى والرماح ، أو فوق الأسوار .

طاب سعد السفاح العثمانى بمنظر انتصاره على عدوه طومان باى آخر سلاطين المماليك . وكان الأشرف طومان باى عدواً عنيداً ، وصنو مقاومة لا تعرف فى الحرب هوادة . تركه السلطان قانصوه الغورى نائباً للغيبة ، عندما ذهب إلى شمالى حلب ليلاقى ابن عثمان على مرج دابق ، وليموت هناك بخلط فالج ، وسط عسكره المدحور .

وكان طومان باى فى أربعيناته راغباً عن سلطنة مصر ، قبلها بإلحاح العارف بالله الشيخ أبى السعود ، وقد اقتاده إليه ، بتل الجارح عند مصر العتيقة، مقدمو الألوف ، وأمراء الطبلخانات والعشراوات . فأحضر لهم الشيخ المصرى مصحفاً يحلفون عليه يمين الإخلاص للدودار طومان باى إذا سلطنوه ، و « ألا يخونوه ولا يغدروه ، وألا يخامروا عليه » . ثم حلفهم ألا يعودوا إلى ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، وأن يبطلوا ما أحدث الغورى من المظالم ، وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، « فإن الله تعالى ما كسركم وأذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، إلا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر » . فقال أمراء الجراكسة : « تبنا إلى الله تعالى عن الظلم من اليوم » .

ويظهر أنهم فسروا توبتهم عن الظلم بأن يتوبوا أيضاً عن الحرب — صنعتهم وحرفتهم — حتى لو كان دفاعاً عن رزقهم وإقطاعاتهم ! فهذا الأمير طقطباى حاجب الحجاب يقول ، إذ يأمره الأشرف طومان باى بالسفر لقتال ابن عثمان : « أنا عزمت على السفر إلى البحيرة ، وقد جعلتنى متحدثاً فى كشوفيتها » ويرد عليه السلطان : « الخروج إلى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج إلى البحيرة » .

وعندما يطلب السلطان إلى الآخرين الخروج لملاقاة ابن عثمان، وينفق عليهم — لكل مملوك — ثلاثين ديناراً، وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين ديناراً، يرمون بتلك النفقة فى وجهه ويقولون : « لا نسافر حتى نأخذ مائة دينار لكل مملوك ! » . ويصيح السلطان حانقاً : « هذا ابن أستاذكم سيدى محمد ابن السلطان الغورى، اسألوه

هل ترك أبوه شيئاً من المال ؟ ولقد أخذتم من الأشرف قانصوه الغورى ثلاثين ديناراً ولم تقاتلوا شيئاً ، وكسرتم السلطان وخنتموه حتى قتل . اسمعوا ! إنى نازل عن السلطنة ، ومتوجه إلى مكة أو غيرها من البلاد ، فولوا من تختارونه » .

ويرد المماليك الذين ربوا على الحرب ، والذين يطالبهم السلطان بالقتال دفاعاً عن بلادهم ورزقهم وإقطاعهم : « إن كنت تعمل سلطاناً فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وإن رحت فلعنة الله عليك ، وغيرك يجئ ويعمل سلطاناً » .

أولئك هم المماليك الذين حلفوا بين يدى العارف بالله أبى السعود الجارحى يمين الولاء والإخلاص لسلطانهم ، والذين تابوا إلى الله تعالى !

وتقوم ضجة كبيرة فى الرميلة ، فيشاع أن عسكر ابن عثمان وصلوا إلى قرب المطرية ، فيصرخ السلطان : « كم قلنا لكم اخرجوا للتجريدة ، وأنتم لا ترضون أن تسافروا ! » .

ثم تكذب الإشاعة ، إنما الصحيح أن ابن عثمان زاحف على مصر ، وأنه بلغ قطيا ، ودخل الشرقية ، واقترب من بركة الحاج ومعسكر الريدانية . فيرضى الأمراء بتفرقة خمسة وعشرين ديناراً للمملوك ، وثمن الأضحية على العادة ، فنحن فى شهر ذى الحجة .

* * *

ماذا تنتظر من هؤلاء الأجناد المرتزقة ، لا يعرفون حرمة لمصر ، ولا لأى بلد آخر ، ولا قرابة تجمعهم أكثر من أن يكونوا قرانصة ، أو من جلبان أستاذهم السلطان ، جمعهم الياسرجى الذى باعهم فى « دكة المماليك » بالقرب من باب زويلة؟

ما أشبههم بالمغاربة الذين استدعاهم السلطان إلى القلعة ، وطالبهم أن يجندوا من بينهم ألف إنسان يخرجون فى التجريدة لملاقاة ابن عثمان ، وإذا بهم يرفضون بحجة أنهم لا يقاتلون إلا الإفرنج ، وأنهم لا يقاتلون مسلمين ، ويضيفون « ونحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر » .

هذه عدة مصر لملاقاة السلطان العثمانى ، وعساكره كالجراد المنتشر ، ومدفعيته تعتمد على أحدث ما كان يصنع منها فى ذلك الزمان . أى أمل فى فوز الأجناد

الجراكسة . وهذا روحهم ؟ وكيف تدفع مصر عداتها ، وأبناؤها لا يعرفون من أمر الحرابة شيئاً ؟ نسوا بمضى الزمن صنعة الجندية ، منذ غزاهم الفرس ، بل قبل ذلك فى أواخر عهد الأسرات !

غزاتهم لا يريدون منهم إلا أن يظلوا البقرة الحلوب . فهذا الإمبراطور الرومانى طباريوس يكتب لعامله : « أرسلتك لتجز صوف الغنم ، لا لتسلخ جلده » . وهذا الخليفة الراشد يفرح بزيادة الخراج على يد الوالى الذى أرسله ، بعد إقالة عمرو بن العاص ، وينادى على فاتح مصر ليقول له : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » . فيجيبه القائد الكبير القلب : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ! » .

نحن الفرس ، نحن المقدونيين ، نحن الرومان ، نحن الروم ، نحن العرب ، المغاربة ، الكرد ، أبناء فرغانة وكردستان ، نتوكل بأمر الحرب والضرب ، ونتولى عنكم أيها المصريون صناعة الحرب . لأن صناعتكم يا أهل مصر هى إحياء موات الأرض ، وصناعتنا القتل والنهب والسلب ، والكرّ والفرّ والدفاع والغزو . تحرثون وتبذرون وتحصدون ، ونخرب وندمر ونسطو . حرفتكم بناء القصور والمعابد والمدارس والمساجد والحوانق والترب ، ونسج الحرير والكتان ، والتكفيت والتذهيب والنقش ، وحرفتنا الحكم ، والظلم والاستيلاء ؛ صناعتكم – يا أولاد مصر – هى الحضارة والتعمير ، بس !

ولم يتجهز ابن عثمان لغزو مصر بأسلحة القتال العلنى وحدها ، بل ضم إليه فى السر جماعة من المماليك الخونة تآمروا على السلطان الغورى من أمثال خاير بك الجركسى ، وجان بردى الغزالى ، ويونس العادلى ، والسمرقندى . وقد كوفئ خاير بك – أو خاين بك على لسان المصريين – بالولاية على مصر ، بعد استتباب الأمر لأولاد عثمان ؛ كما تولى جان بردى أمر بلاد الشام . ويعيش خاير بك سوط عذاب على المصريين حتى وفاته : يشنق ، ويوسط ، ويخوزق ، ويكلّب ، ويقطع الأيدى ، ويجدع الأنوف بجريرة وبغير جريرة ! أما جان بردى الرجل القلق الطموح ، فلم تبلغه خيانته إلى أرفع مما بلغه أيام أستاذه وسلطانه ، فراح يستقل بالشام ، وحاربه ابن عثمان وهزمه . وانتهى الغزالى برأسه مرشوقاً بطرف رمح . وتسعى العدالة حثيثاً إلى يونس العادلى والسمرقندى ، فيحمل رأساهما فى

علبة إلى القاهرة قبل أن تطأ الإنكشارية والإصباحية أرضها الطاهرة .

هؤلاء الخونة وأمثالهم رسموا الطريق لابن عثمان ، وكشفوا له عن أسرار العساكر المصرية ، ومهدوا للغزو منذ خرج الخنكار سليم لمواجهة الأشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق .

كان ذلك يوم أحد ، فى الخامس والعشرين من شهر رجب ، حين ركب السلطان الغورى ، الذى أوفى على السبعين ، بتخفيفة صغيرة وملوطة . وعلى كتفه طبر ، وحوله أربعون مصحفاً فى أكياس حرير أصفر يحملها جماعة من الأشراف على رءوسهم ، ومن بينهم مصحف بخط سيدنا عثمان بن عفان ، وجماعة من أرباب الطرق الصوفية . وكان الصنجق السلطانى خلفه بنحو عشرين ذراعاً . وبرز أول من برز إلى القتال سودون العجمى أتابك العسكر ، ومعه ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، ثم المماليك القرانصة دون الجلبان . فهزموا عسكر ابن عثمان هزيمة هائلة ، وأخذوا منهم سبعة سناجق ، وغنموا المكاحل التى كانت على العجل ، وأسروا رماة البندق . وفى رواية قائد عثمانى فى جيش سليم أن هجوم المماليك الأول كان هجوماً ساحقاً ، « وكانوا يهجمون بأفراسهم ، ويصيبون ، ثم يستديرون فى خفة ، فلا يلحق بهم لاحق . ومع أن جنودنا الإصباحية لم يكونوا أقل شجاعة منهم ، فإن كرّهم لم يكن فى سرعة أولئك ، ولا فى حسن دربتهم : أما الإنكشارية رماة البندق فقد أضاعوا على المماليك تفوقهم ، وذلك بأن ركزوا طلقاتهم على جباه الخيل ، فما إن يسقط المملوك عن فرسه حتى يفقد قوته ، ويتكعبل فى رمحه الطويل الثقيل . »

ويقول إبن إياس بأن ابن عثمان هم بالهرب أو طلب الأمان ، ولكن الخونة سعوا بالفتنة بين المماليك القرانصة والمماليك الجلبان ، وأفهموا أولئك بأن الأشرف قانصوه الغورى ضنين بمماليكه الجلبان ، فما عتم القرانصة أن انحلت عزائمهم عن القتال ، وسقط الأتابكى سودون العجمى صريعاً ، يتبعه ملك الأمراء سيباى نائب الشام . وتنهزم الميمنة وتتقهقر الميسرة بقيادة خاير بك نائب حلب المتآمر على السلطان .

أما الضابط العثمانى فيقول فى مذكراته : « ويهرب خاير بك وغزالى بك ،

من قواد السلطان قانصوه لينحازوا ورجالهم إلينا . وغيرت هذه الخيانة شكل الموقعة ، وكانت أساس انتصارنا . »

وفى رواية ابن إياس أن السلطان الغورى صار واقفاً تحت الصنجق فى نفر قليل وهو ينادى : « يا أغوات هذا وقت النجدة » ، فلم يسمع له أحد قولا ، وصاروا ينسحبون من حوله ، وهو يقول لأرباب الطرق : « إدعوا الله بالنصر ، فهذا يومكم » ؛ وصار لا يجد له معيناً ولا ناصراً ، وانطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وجاءه الأمير تمر الزردكاش يقول — وقد أنزل الصنجق السلطانى وطواه وأخفاه : « يا مولانا السلطان ، عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك » . فلم يجب السلطان ، وقد أصابه خلط فالج أبطل شقه وأرخى فمه ، فأشار يطلب ماء شرب منه قليلا ، ولوى عنان فرسه ومشى به خطوتين ، ثم انقلب عنه إلى الأرض ، وفقئت مرارته ، وطلع من حلقه دم أحمر ، وأقام نحو درجة ثم طلعت روحه من شدة القهر ، ولم يعلم له خبر بعد الموقعة ، ولا وقف له على أثر ، فكأن الأرض ابتلعته فى الحال ، كما ضاع معه مصحف سيدنا عثمان ، وديست أعلام أرباب الطرق ، وصناجق الأمراء .

أما الرواية العثمانية فتقول : « وأطبق السلطان محنقاً غاضباً ، والسيف بيده ، يضرب الإصباحية يميناً وشمالا ، فيقتل منهم خلقاً كثيراً ، وينادى على السلطان سليم ، ويزعق طالباً إليه أن يتقدم ، وسليم مشغول بقيادة إنكشاريته فى مكان آخر . ويفقد كبير المماليك [أى السلطان] اتزانه ، وتخور قواه ، كما يسقط فرسه تحته إعياء ، ومثخناً بالجراح . ويموت كبير المماليك لغباً وحنقاً ، وسط المعركة . وتختم المدفعية العثمانية أمر المعركة ، وقد أسفرت عن أحد عشر ألف مملوك تغطى أجسادهم الأرض ، ولم تكلفنا الموقعة أكثر من ألفى قتيل » (؟)

* * *

لم يكتف سليم شاه بكثرة أجناده ، وقوة مكاحيله ، وفرسانه الذين يحملون رماحاً بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض ، ولم يرض بعيونه وجواسيسه من خونة المماليك ، بل يحاول قتل الأشرف طومان باى سلطان مصر ، بعد الغورى ، وهو فى وطاقه بالريدانية يتأهب لملاقاة ابن عثمان . فقد ضبطت

بالوطاق امرأة فدائية تلبس زنطاً أحمر ، وعلى وجهها لثام ، وتحت ثيابها زردية ، وهي متحملة بخنجر كبير تحت ثيابها .

تلك هي المصائب تترى على الديار المصرية منذ خرج السلطان الغورى إلى أقاصي مملكته ليوقف زحف ابن عثمان شمالىّ حلب ، حتى وطئت جنود سليم شاه أرض مصر .

لم يعرف اليأس سبيلا إلى قلب الرجل الكبير طومان باى . أقام التحصينات من الجبل الأحمر حتى غيط المطرية : خندقاً ومكاحل عليها تساتير ، وأكواماً من القش أقام فوقها الصناجق . بل قد أراد أن يخرج لملاقاة ابن عثمان وجنوده عند أطراف الصحراء الشرقية ، من ناحية الأرض المنزرعة ، قبل أن يستريح السلطان العثمانى وجنوده عقب اختراقهم تلك الصحراء ، ولكن أمراءه ومماليكه — أصحاب النفقة والجامكية — كانوا مهدودى الحيل ، فاقدى العزيمة ، فآثروا الانتظار خلف تحصيناتهم حتى كبس عليهم سليم ، وزعق النفير فى الوطاق ، ودقت الكوسات والطبول حربيًّا ، وركب العسكر قاطبة ، وأقبلت أجناد ابن عثمان كالجراد المنتشر . فكانت بين الفريقين واقعة أشد من واقعة مرج دابق . وقتل من العثمانيين ما لا يحصى عدده ، ومن بينهم سنان باشا أكبر وزراء ابن عثمان ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علاّن إلى تربة الأمير يشبك الداودار . وتدب الروح من جديد فى العثمانية ، ويجيئون من كل ناحية أفواجاً كأنهم قطع الغمام ، وينقسمون فرقتين : فرقة تجئ من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة تهجم على وطاق الريدانية ، وطرشوا الأجناد المصرية بالبندق والرصاص ، وكبسوا عليهم ، فلم تك إلا ساعة يسيرة حتى تمت الكسرة على عسكر المماليك . وثبت الأشرف طومان باى نحو عشرين درجة وهو يقاتل بنفسه مع نفر قليل من العبيد والرماة والمماليك السلحدارية ، فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية طوى الصنجق السلطانى وولى واختفى .

* * *

دخل العثمانيون القاهرة ، وطومان باى لا يريد أن يعترف بالهزيمة ؛ فإن النفس التى لا تعرف الذل قل أن تطاطئ رأسها لواقع الهوان .

هرب الأشرف طومان باى وجمع فلول أمرائه ، بعد أن نزل سليم بوطاقه عند بر بولاق ، وبعد أن تردد اسمه على منابر القاهرة فى يوم الجمعة آخر أيام سنة ٩٢٢ هجرية ؛ وإذا بآخر سلاطين مصر يكبس بليل على ابن عثمان فى وطاقه ، بعد أن أطلق على الوطاق جمالا محملة بالدريس المشتعل . فاضطربت أحوال العثمانية ، وانضم العياق والزعر والحرافيش ببولاق إلى طومان باى يمدون له يد المساعدة . . . بالمقاليع والحجارة ! واستمر القتال ليلة الخميس وليلة الجمعة حتى يوم السبت الثامن من المحرم . وامتدت الموقعة على طول خط إلى الشرق من الخليج الناصرى ، من الناصرية حتى قناطر السباع ، إلى الصليبة ، فمسجد ابن طولون حتى الرميلة . واتخذ طومان باى جامع شيخون العمرى بالصليبة مركزاً لقيادة هذه الحرب الرهيبة .

ولو انتقلت شرارة واحدة من النار التى تضطرم فى قلب طومان باى إلى كل مماليكه لأزاحوا العثمانية عن القاهرة ، وثأروا ليومهم العصيب فى الريدانية .

ولكن الجند العثمانى يكسب اليوم ، ويختفى طومان باى . وسنسمع به مرة ثالثة فى البهنسا ، وستجرى بينه وبين سليم مفاوضات ، يرفض فيها طومان باى أن يعترف لسليم بالزعامة ، ويعود الأشرف طومان باى إلى الشمال ، ويتحدى ابن عثمان أن يخرج إليه فى بر الجيزة عند منوات . ولكن طومان باى ينهزم مرة أخرى ، ويهرب إلى الدلتا ، حيث ينزل ضيفاً على شيخ العرب حسن بن مرعى . وكان ابن مرعى هذا من أعز أصحاب السلطان ، وله عليه غاية الفضل والمساعدة ، من أيام السلطان الغورى .

ويحضر شيخ العرب مصحفاً شريفاً يحلف عليه ، هو وشكر ابن أخيه ، أن لا يخونا السلطان ، ولا يغدرا به ، ولا يدلسا عليه بشئ من الأشياء . ما أسرع ما تخرج المصاحف فى تلك الأزمنة الغادرة وما أكثر ما يلقى عليها من أيمان ! وقد استراح أخيراً مصحف سيدنا عثمان فى مرج دابق ، بعد أن تلقى ما تلقى من أيمان المماليك للسلطان القائم ، وبعد أن حنثوا ما حنثوا بأيمانهم !

فليغفر المصحف الشريف لأولاد مرعى ، ولغير أولاد مرعى ، فى هذه المرة — ولن تكون الأخيرة فى تاريخ مصر — فما إن ارتفع صياح الديكة فى نجع

شيخ العرب حتى كان أولاد مرعى قد أرسلوا يخبرون ابن عثمان بأن آخر سلاطين مصر وقع بين أيديهم ، ويحتاط الأعارب بضيفهم الكريم حتى يصل عسكر سليم شاه ويضعوه فى الحديد ، ويتوجهوا به إلى ابن عثمان فى وطاقه ببر إنبابة .

دخل الأسير لابساً ملابس العرب الهوارة ، على رأسه زنط وشاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال ، فقام له ابن عثمان ، لا احتراماً ، بل خفة ورهجاً ، وجعل يلقى على مسمعه كلاماً كله غلٌ وقسوة .

وفى رواية : تقدم طومان باى نحو السلطان ، وحياه باحترام ، فرد عليه وأمر له بالجلوس . وخيم السكوت على المجلس فترة . قطعها السلطان سليم بأن أخذ فى اوم طومان باى على قتل رسل الصلح الذين أنفذهم إليه فى البهنسا . فأجاب طومان باى بأن البيكوات المماليك فعلوا ذلك وهم فى حالة هياج . فسأله سليم عن رفضه الاعتراف بسلطنته ، هو ، سليم ، ابن الملوك إلى عشرين جداً . فأجاب طومان باى بأنه ملزم بالدفاع عن بلاد هو حاكمها ، ويجب عليه حمايتها ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ثم أضاف : أما أنت ، فلا أدرى كيف تبرئ نفسك أمام الله من اعتدائك الجائر على بلادنا . فاندفع السلطان سليم يبرر مسلكه بأنه لم يباشر هذه الحرب إلا بعد فتاوى العلماء . وبعد مداخلات السلطان الغورى للاتفاق مع شاه العجم .

[وحقيقة هذه الفتاوى ذكرها فون هامر فى تاريخه الكبير للدولة العثمانية : أرسل السلطان سليم يستفتى على جمالى أفندى فى ثلاث مسائل :

الأولى : إذا نادى أحد سلاطين الإسلام بالجهاد لإبادة المارقين (أى العجم) ، فصادفته عوائق بسبب المساعدة التى يبذلها لهم سلطان آخر من سلاطين المسلمين ، فهل تبيح الشريعة الغراء لأولهما أن يقتل الثانى ويستولى على مملكته ؟

أجاب جمالى أفندى : من نصر كافراً فهو كافر .

الثانية : إذا كانت أمة من الأمم التى تدين بالإسلام (يقصد المصريين) تؤثر تزويج بناتها من الكفار (يعنى المماليك الجراكسة) ، بدلا من تزويجهم بالمسلمين ، فهل يجوز مقاتلة هذه الأمة ؟

أجاب جمالى أفندى : بلا مبالاة ولا مقاضاة .

الثالثة : إذا كانت أمة تنافق فى احتجاجها برفع كلمة الإسلام ، فتنقش آيات كريمة على الدراهم والدنانير ، مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة ، فيدنسونها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجتهم ، فكيف ينبغى معاملة هذه الأمة ؟

أجاب المفتى العثمانى : إن هذه الأمة ، إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار ، جاز إبادتها] .

واصل سليم حديثه : وعدا هذا فإن الملك لا يليق بمماليك بيعوا واشتروا .

أجاب طومان باى : لست بملوم ، يا سلطان الروم ، فالذنب كل الذنب على الخونة . وأشار إلى خاير بك وجان بردى الغزالى ، وكانا بالمجلس .

فقال سليم للجميع : ليس من العدل قتل رجل شهم صادق كهذا الرجل . وأمر أن يقيم فى وطاقه مكرماً ، حتى يستتب الأمر فى البلاد .

والقصة على هذا الوجه لا تستقيم عمّن يعرف سليم بن بايزيد ، ورهجه وشراسته . وتزعم القصة أن خاير بك وجان بردى خشيا عاقبة خيانتهما إذا بقى طومان باى على قيد الحياة . فأوعزا إلى بعض أشياعهما أن ينادوا بأعلى أصواتهم ، عند مرور السلطان سليم فى طريق ذهابه وإيابه ، قائلين : « الله ينصر السلطان طومان باى » . وكان هذا النذير كافياً لتغيير رأى السلطان العثمانى ، وإيغار صدره على طومان باى ، وصدور أمره بشنقه .

وصار أهل مصر والقاهرة بين مصدق ومكذب لخبر القبض على سلطانهم ، حتى رأوه بعيونهم يوم الاثنين الواحد والعشرين من ربيع الأول، وكان من أيام الحماسين . شاهدوه يركب أكديشاً ، وكانوا يحيونه على جانبى الطريق من بر إنبابة حتى بولاق . ثم شق موكب السلطان الأسير من المقس وباب البحر حتى بلغ سوق مرجوش ، وشق القاهرة حتى باب زويلة . وهناك ألقى نظرة على رحبة الباب ، ورفع بصره إلى قواعد الأبراج فعرف ما يراد به : رأى الإنكشارية والإصباحية ورماة النفط تحيط بالميدان . وعرف المشاعلية يرخون الحبال من قواعد البرج الغربى تحت مئذنة جامع السلطان المؤيد شيخ . فترجل عن الأكديش ،

وشمل الناس بنظره وقال : « اقرءوا لى الفاتحة ثلاث مرات » ، وبسط الناس أيديهم يرددون الفاتحة بصوت عال . ثم استدار السلطان الشهيد إلى رئيس المشاعلية وقال له : « اعمل شغلك » . فلما وضعوا الحبة فى عنقه ورفعوا الحبل انقطع به ، وسقط الأشرف طومان باى على عتبة باب زويلة . وانصرم الحبل مرة ثانية ، وجاءت « الثالثة ثابتة » ، وارتفع آخر سلاطين المماليك معلقاً برقبته . مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه من جوخ أحمر . فوقها ملوطة بيضاء بأكمام كبار ، وفى رجليه لباس من جوخ أزرق ، وخف أحمر . فلما قضى صرخ الناس عليه صرخة عظيمة . فقد كان طومان باى حسن الشكل . كريم الخلق . بطلا تصدى لقتال سليم بن بايزيد فى أسوأ الظروف ، وخزينة مصر خاوية . وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات وهو فى نفر قليل من عسكره ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة .

هذه نهاية سلطنة المماليك ، كل المماليك ، صالحية بحرية ، وجركسية برجية ، خاتمة السلطنة الكبرى التى أقامها بيبرس البندقدارى بسيفه وطبره على أجساد الصليبيين والتتار . ودعمها الناصر محمد بن قلاوون بالعقل والسياسة .

عز لمولانا السلطان . ثم شنق لمولانا السلطان !

هؤلاء الأجناد المغامرون . بيعوا فى أسواق النخاسة صبياناً بدنانير معدودة ، واستطاعوا أن ينشئوا إمبراطورية مصرية تضم مصر والشام واليمن والحجاز وبرقة ، وأن يتمموا عمل صلاح الدين يوسف الأيوبى فيجهزوا على الصليبيين ، وأن يردوا جحافل التتار عن الشام ومصر . هؤلاء المماليك الغادرون السفاحون الطامحون ، الذين لا يؤمنون إلا بالسيف والنشاب والطبر والخيل ، أولئك المنافقون — يخشون الله فى العلن ، ويعصون أحكامه فيما بينهم — هؤلاء الزناة اللواطة المارقون ، كانوا مع ذلك حماة الحرمين وأصحاب كسوة الكعبة والمقام الشريف ، يوجهون المحمل المصرى والمحمل الشامى فى كل عام إلى الأرض المقدسة . كانوا الآمرين بكتابة المصاحف والختم بماء الذهب والزعفران . بناة المدارس والمساجد والخوانق وأضرحة الأولياء تقوم اليوم شاهداً على أن جذوة الفن . ونخوة العمارة ، لم تنطفئ فى

نفوس منشئي الأهرام والمصاطب والمعابد والمقابر والكنائس والأديرة على مدى آلاف السنين .

جاءت نهايتهم شبيهة ببدايتهم عندما انهالت قباقيب مطلقة عز الدين إيبك التركمانى على رأس ضرتها شجرة الدر ، أول سلاطين المماليك ، وألقيت رمة « الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل » ، ألقيت جثة شجرة الدر من فوق القلعة إلى خندقها تلغ فيها الكلاب ، وينزل الحرافيش إليها يسرقون تكة لباسها من الحرير الغالى وفى عقدتها نوافج المسك وخالص الدر .

دولة المماليك التى زينت أسوار القاهرة وأبوابها وأسبلتها برءوس القتلى وأجساد المكلبين ، وتركت أشلاء الموسطين فى مفارق الطرق ؛ الدولة التى كانت تخلع السلطان وترسله إلى سجن الدهيشة ، أو إلى قلعة الإسكندرية ثم ترسل خلفه من يخنقه فى الترسيم ، الدولة التى ندر أن يموت سلطان من سلاطينها فى فراشه موتاً طبيعياً ، يبدو أن التاريخ حتم أن تنتهى هذه النهاية الدرامية ، فيموت سلطان مصر معلقاً بباب زويلة ، كأنه شيخ منسر ، أو واحد من أهل الزغل فى المعاملة !

ويجىء أحد « المحبظين » أو « المغزلكين » أو « المخايلين » فيرسم بأوراقه صوراً لطومان باى ، وللمشاعلية ، ولباب زويلة ، وللأجناد العثمانية ، وللحبال المعلقة بالبرج الغربى ، ويخايل بظلالها على شاشة بيضاء ، فى وطاق الخنكار سليم شاه بالروضة ، يحف به الصبيان المرد وأمراء الإنكشارية والإصباحية وهو لا يكاد يعى فى سكره . هل كانت حميا العقار أم نشوة الظفر هى التى أطاحت بآخر مشاعر الرجولة والكرم فى نفسه ؟ فلم يحس هذا السفاح العثمانى بدناءة المخايل وتعريضه ، ولم يأمر بالمحبظ أن يخوزق جزاء له على « خيال ظله » العاهر ، بل ينشرح صدره ، ويأمر له بثمانين ديناراً ذهباً ، وفراجة من المخمل المذهب ، ويربت على كتفه قائلا : « يجب أن تأتى معنا إلى إسطنبول ليرى ولدى ذلك » .

عار على مولانا السلطان ابن السلطان ، إلى عشرين ملكاً ، كما يقول سيد البرين وخاقان البحرين ، ملك العراقين وإمام الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه !

ينزل الستار

عندما يتحدث ابن إياس عن عام ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) يقول فى بساطة : « انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ٩٢٣ ، وقد خرجت هذه السنة على خير » ، ولا نحسبه هنا إلا متيمناً ، يحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه . لأن حقيقة تلك السنة أقرب إلى ما جاء فى تتمة تعليقه حين يقول إنها كانت « سنة صعبة شديدة على الناس » . وحتى فى هذا كان العلامة المؤرخ محمد ابن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ، مقتصداً فى التعبير ، فهو نفسه القائل تعليقاً على غزو العثمانيين لمصر ، وعودة سليم بن عثمان إلى إسطنبول : « ومن العجائب أن مصر صارت نيابة ، بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوى ملك مصر الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال « أليس لى ملك مصر » ، وقد تباهى ملك مصر على سائر ممالك الدنيا . ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وغنم أموالها ، وقتل أبطالها ، ولا حول ولا قوة .. ومن عهد عمرو بن العاص فاتح مصر سنة ٢٢ من الهجرة عنوة بقائم سيفه ، لم يفتحها أحد من الملوك بعده عنوة ، سوى سليم شاه ، ولم يقع مثل ذلك إلا لبختنصر فى قديم الزمان . . . ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط ، إلا ما كان فى زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل ، وزحف على البلاد بعسكره ، وأخربها ، وهدم بيت المقدس ، ثم دخل مصر وأخربها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف إنسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ليس بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من يزرع عليه الأراضى ، ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة ، وهى قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام . ثم وقع مثل ذلك لبغداد فى فتنة هولاكو . »

أصدر ابن عثمان فى أواخر شهر ربيع الثانى من تلك السنة أمره لأمير المؤمنين

العباسى : « اعمل برقك حتى تسافر إلى إسطنبول » . وخرج أمير المؤمنين « المتوكل على الله » يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى قاصداً السفر إلى إسطنبول ، ومعه أولاد عمه وصهره وآخرون من الأعيان . فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف ، وقالوا : انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت بإسطنبول ، وهذه من الحوادث المهولة .

وخرج جماعة من المباشرين ، وبعض نصارى من كتاب الخزينة ، ومن جماعة البزددارية والرسل ، وأرباب الصنائع من كل فن ، وشيخ سوق الغزل ، والزردكاشية والسيوفية والصياقلة والسباكين والحدادين ، وتجار الباسطية وتجار سوق مرجوش ، ومقدمى السقائين والنجارين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلاء ، وجماعة من اليهود السامرية وطائفة النصارى ، حوالى ١٨٠٠ نفس .

وحملت مراكب سليم بن عثمان حتى الشبابيك الحديد ، والطيقان والأبواب والسقوف .

وحمل سليم معه ، بطريق البر ، على ألف جمل — كما أشيع — أحمالا من الذهب والفضة والتحف والسلاح والصينى والنحاس المكفت ، ثم أخذ الخيول والبغال والجمال والرخام الفاخر ، ومن كل شىء أحسنه . وكذلك غنم وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره فإنهم غنموا من النهب ما لا يحصى ، وصار أقل فرد منهم أعظم من أمير مائة ، مقدم ألف .

وبطلت من القاهرة نحو خمسين صنعة .

ومسك رجال الدرك الناس على أبواب القاهرة من رئيس ووضيع ووضعوهم فى الحبال ، حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود ، وطلعوا بهم إلى القلعة ، وهناك ربطوهم ليسحبوا المكاحل النحاس الكبار ، وينزلوا بها إلى شاطئ النيل ، ويضعوها فى المراكب . وكان الرجال يربطون بالحبال فى رقابهم ، ثم يسوقونهم بالضرب الشديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس .

وكانوا قد نزلوا قبل ذلك بالعامودين السماق اللذين قلعوهما من إيوان القلعة ، وارتجت لهما الصليبة ، وقاسى الناس فى سحبهما غاية المشقة ، وحصل لهم بهدلة

من الضرب والصك وخطف العمائم .

ومن حوادث السنة أنهم أخرجوا من الخليفة العباسى نظر مشهد السيدة نفيسة ، وكان ذلك بين الخلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم . وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت ، ومن الصندوق الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور .

وقطع سدّ الخليج وجرى الماء فى الخليج الحاكمى والناصرى ، بحضور يونس باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة .

ونصب العثمانية خيمة فى وسط الرميلة ، وجعلوا فيها دنان بوزة ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة ثالثة فيها صبيان مرد لأجل المحارقة كعاداتهم فى بلادهم .

وفى يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس ، وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد . وأشيع بأن ابن عثمان باع خيمة المولد للمغاربة بأربعمائة دينار . فقطعوها وباعوها للناس ستائر وسفر . وهذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا ، قيل إن تكاليفها على السلطان الأشرف قايتباى كانت ثلاثين ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك . وكانت كهيئة قاعة ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمريات . والكل من قماش . وكانت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة إنسان ، حتى ينصبوها فى الحوش السلطانى .

ونزل رخام القلعة ووضع فى صناديق وحمل إلى المراكب . وهو الرخام الذى أمر ابن عثمان بفكه من قاعة البيسرية والدهيشة والبحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التى كانت فى الإيوان الكبير .

وصار يحيى بن بكار يركب ومعه جماعة من المرخمين . فيهجمون قاعات الناس ، ويأخذون ما فيها من الرخام السماقى والزرزورى الملون . فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيوت الأمراء قاطبة ، حتى القاعات التى ببولاق ، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش التى على بركة الرطلى ، وغير ذلك من قاعات

المباشرين والتجار وأولاد الناس ؛ والمدارس التى فيها الكتب النفيسة ؛ فلم يعرفوا الحلال من الحرام .

وهى السنة التى شنق فيها طومان باى آخر سلاطين مصر على باب زويلة ، وأقام وهو معلق حتى فاحت رائحته . وفى اليوم الثالث أحضروا له تابوتاً ؛ ووضعوه فيه ، وتوجهوا به إلى مدرسة السلطان الغورى عمه . فغسلوه وكفنوه . وصلوا عليه ، ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة .

ومضت دولة السلاطين كأنها لم تكن .

وشرعت العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة المختفين فى الترب ، ومساقى الموتى . وغيطان المطرية ، وتضرب أعناقهم .

وقبض مشايخ العربان على الأتابكى سودون الدوادار . وأحضروه بين يدى سليم الذى وبخه بالكلام . وكان جريحاً مكسور الفخذ فى حالة الأموات ، فلم تأخذه عليه شفقة . بل أركبه على حمار ، وألبسه عمامة زرقاء ؛ وجرسه فى وطاقه . وقصد أن يشهره فى القاهرة ، ولكنه مات وهو على ظهر الحمار ، فحز رأسه وعلقوها فى الوطاق .

وضرب العثمانية فى يوم واحد ٣٣٠ رأساً ، وصاروا يكبسون الحارات والبيوت ويقبضون على المماليك الجراكسة من إسطبلاتهم ، ويتوجهون إلى الوطاق بالريدانية ؛ ويضربون أعناقهم . ونصبوا صوارى وعليها حبال علقوا عليها رءوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم . حتى قيل قتل فى الريدانية فوق ٤٠٠ إنسان ما بين جراكسة وعربان من الشرقية والغربية ، وصارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباى ، فجافت منهم الأرض . وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة الصعلوك . وهم أبدان بلا رؤوس .

هذه بعض حوادث سنة ٩٢٣ هجرية التى يقول عنها ابن إياس إنها « خرجت على خير » . ولا ندرى بعد ذلك ماذا تكون السنة التى تخرج على شر ؛ ثم يزيد قليلا فيقول إنها : « كانت صعبة شديدة على الناس » . وإننا لنعذر لابن إياس هذه السذاجة فى الأسلوب ، وبحسبنا أنه عرف ووزن ثقل الرزء القوى الفادح الذى نزل بمصر . ثم أخذت مذكراته . فيما تبقى للرجل من عمر ، تصور الآثار المباشرة

للغزو العثمانى فى أوائله ، وقد عرفنا نحن أواخره !

نزل الستار على تاريخ مصر ، وأرخى الظلام سدوله على القاعة بعد خروج الممثلين والنظارة ، وهم أولئك العلماء والفنانون والتجار وأهل الحرف والصنائع والمباشرون والكتاب ، الذين أخرجوا فى ركاب سليم العثمانى . وإذا كانت مصر لم تخل تماماً من أهلها — كما حدث لها بعد غزوة بختنصر فى الألف الثانية قبل ميلاد عيسى بن مريم عليه السلام ! — فإن التاريخ المصرى سوف يصاب بظلام تاريخى يشبه ما أصابه بعد غزو الهكسوس ، ولو أننا فى العهد الحديث لا نجهل تماماً ما حدث بعد آخر صفحة من صفحات ابن إياس ، وابن زنبل الرمال ، حتى أول صفحة من مذكرات الشيخ عبد الرحمن الجبرتى . فعندنا بعض ما كتبه المؤرخون العثمانيون ، وما جاء فى مذكرات رجالهم ، وعندنا أقوال الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فيما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر الميلادى . وأحقهم بالذكر كتاب فولنيه ورسائل سافارى فى خواتيم القرن الثامن عشر .

والظلام الذى نتحدث عنه ليس ظلاماً تاريخيًّا تامًّا ، بل كان ديجوراً روحيًّا . ولا أحسب مصر فى تاريخها الطويل عرفت عهداً أظلم من تلك القرون الثلاثة بل الأربعة التى مرت على مصر بعد موقعة مرج دابق بالشام ، وموقعة سبيل علان بمشارف القاهرة .

وقبل أن نتابع ابن إياس فى يومياته عقب الغزو العثمانى يجدر بنا أن نعرف الصورة العامة التى تبدو لنا نتيجة لهذا الاحتلال . وأول ما يجبهنا هو سرعة عودة المماليك إلى التحكم فى أقدار البلاد ، لا كسلاطين يحكمون إمبراطورية مستقلة ، ولكن كفلول عصابة اجتمعت على نهب مصر ، والضحك على ذقن الباشا العثمانى الذى يحكم مصر بالنيابة عن الباب العالى . وسيصل المماليك إلى غرضهم عندما ترضى إسطنبول أن يعترف الباشا لواحد منهم بالزعامة على المصريين باسم « شيخ البلد » ، ولوكيل له باسم « أمير الحج » .

وسيبلغ واحد من مشايخ البلد مرتبة الحاكم المستقل فعلا عن الأستانة فى القرن الثامن عشر . ذلك هو على بيك الكبير ، البروفة الأولى لمحمد على باشا ، حتى يقضى عليه مملوكه وختنه وصهره محمد بيك أبو الدهب ، وتعود الأستانة إلى

إيفاد باشواتها اللصوص ، ولكن الزعامة الفعلية فى البلاد ستظل فى أيدى المماليك ، حتى يجئ صارى عسكر بونابارته ليكسر شوكتهم بعض الوقت ، ويتولى محمد على بعده مهمة القضاء الأخير عليهم فى مذبحة القلعة .

ومن السهل فهم سيطرة المماليك هذه إذا عرفنا حقيقتين : أولاهما أن الذى تولى حكم مصر نيابة عن السلطان العثمانى ، بعد سفر سليم ، كان أميراً من أمراء المماليك المصرلية ، الذين خامروا على السلطان الغورى ،وكانوا سبباً فى خراب الديار المصرية والديار الشامية ، لأنهم حسنوا لسليم بن عثمان عبارة أخذ مصر ، وضمنوا له أخذها من غير مانع ، وعرفوه كيف يصنع حتى يملكها . فيجرى ما جرى من هزيمة جيوش السلطان قانصوه الغورى فى مرج دابق إلى الشمال من حلب ، وموت السلطان واختفاء جثمانه فى المعركة ، ثم ما حدث بعد ذلك من هزيمة السلطان طومان باى ، وشنقه على باب زويلة ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة . وكان كل ذلك « بترتيب ودوليت » الأمير المملوكى خاير بيك — أو خاين بيك كما لقبه المصريون — والأمير المملوكى جان بردى الغزالى .

كوفئ الخائنان أحدهما بولاية الشام ، والثانى بولاية مصر ، أى بجوهرتى الإمبراطورية المملوكية . ولن يهمنا أمر الخائن جان بردى الغزالى ، والرجل لم يتمتع طويلا بأجر خيانته ، فقد استقل بالشام عام ٩٢٧ هـ ، وأرسل السلطان سليمان القانونى تجريدة لإخضاعه .

وزل لسان مملوك من مماليك يشبك الدوادار المصرى إذ قال فى مجلس له : « إن خاير بيك يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام » ، فأمر خاير بيك بتوسيطه ، وحاول الأمير قايتباى الدوادار أن يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به . ووسط المملوك بسوق الخيل ، واستمر مرمياً فى الرميلة ، والكلاب تنهش جثته فى الليل ، ورسم ملك الأمراء أن لا أحد يدفنه . . . وكان هذا المملوك شيخاً مسناً له أولاد وعيال .

وانتهى أمر جان بردى الغزالى عاجلا بعد أن انكسر فى أكثر من موقعة أمام عسكر السلطان سليمان القانونى ، وكانت كسرته الأخيرة مهولة ، وقبض عليه وحز رأسه وأرسل إلى إسطنبول .

أما خاير بيك ــ المدعو ملك الأمراء وكان جركسى الأصل . ومن مماليك الأشرف قايتباى ــ فقد مات فى فراشه ، بعد أن حكم مصر خمسة أعوام ؛ مات غير مأسوف عليه من أحد . ويقول ابن زنبل الرمال إن أمراء المماليك لم يكونوا يقرءون الفاتحة عليه وهم يمرون بتربته تحت القلعة ، لاهم ولا الباشوات ولا الأغوات ولا السناجق ؛ ويدعى عوام مصر أنه كانت تخرج من قبره أصوات أنين فى الليالى الحالكة .

ويبدو أن يونس باشا كبير وزراء سليم بن عثمان كان طامعاً فى تولى نيابة السلطنة بمصر . وقد تولاها فعلا أثناء إقامة سليم بالديار المصرية ، فلما سافر مع ابن عثمان . وقد ولى على مصر واحداً من المماليك المصرلية ، زل لسان يونس باشا ، ونعى على السلطان أن أعاد مصر إلى ملاكها القدامى ، وكان جزاؤه أن أطاح سليم برأسه .

ويظهر أن سليم كان قد وعد خونة المماليك بإعادة رزقهم وإقطاعاتهم كما وعد خاير بيك وجان بردى الغزالى بولاية مصر والشام مدى الحياة .

وما إن سافر سليم حتى يأمر خاير بيك بأن «يظهر الجراكسة وعليهم الأمان» . فظهر منهم الجم الكبير وهم فى أسوأ حال ، عليهم زنوط قرع ، وبرد سود ؛ وقمصان بأكمام كبار ؛ فإذا رآهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وطلع الأمير قايتباى الدوادار إلى القلعة لصرف جوامك المماليك ؛ واجتمع بملك الأمراء خاير بيك وأقام بالقلعة إلى قريب الظهر والجراكسة فى انتظاره على باب بيته ؛ فلما نزل إليهم قال : «يا أغوات ، شاورت ملك الأمراء فى أمركم فقال : انظرونا حتى يجتمع المال ، وننفق عليهم الجوامك . ولم يواعدنى على يوم معين .»

فرجعوا بغير طائل . وقد صارت وجوههم فى غاية الذل من الفقر والعرى ، ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به . ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشترى به كبشة فول يأكلها . ويضيف ابن إياس ــ وهو من أهلهم وعترتهم ــ «وكان هذا جزاء بما كانوا يعملون . فسبحان من قهر الجبابرة بعزه وسلطانه .»

ولم تلبث المراسيم أن حضرت من عند الخنكار سليم شاه ، وكان مضمونها أن يصرف خاير بيك لأولاد الناس [أى أبناء المماليك وأحفادهم] ؛ وللمماليك الجراكسة ، جوامكهم ، وأن يجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير .

وكما لم يشعر الناس بأفراح قطع الخليج ولا بالمولد النبوى عام الغزو ، فإن أحداً منهم لم يشعر بالمولد النبوى فى حكم خاير بيك ، وقيل بأن ملك الأمراء أحضر عنده للمولد عشر جوخ للمقرئين ، فضجوا من ذلك وقالوا : نحن كان يدخل علينا فى المولد النبوى الذى كان يعمله السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخه بأشرفيين .

ثم مد سماطاً بعد العصر تخاطفته العثمانية فى لمح البصر ، وبات غالب الفقهاء بلاعشاء .

وحدث أن شخصاً من العوام دخل بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها فى قفة ، فقبض عليه الحولى ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار شنبر وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه ، فرسم الوالى بشنقه ؛ وأشهر بالقاهرة وعلقت القفة فى رقبته ، وشنق على القنطرة التى بزقاق الكحل ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن . . .

هذا وملك الأمراء خاير بيك يبيت يسكر طول الليل ويصبح فى خيال السكر يحكم بين الناس بما يقوله له عقله المتأرجح .

وكأنه لم يكفه ما حمل الخنكار سليم من خيرات مصر ، فما كان أسرعه إلى إهداء السلطان العثمانى الجديد سليمان بن سليم تقدمة عظيمة : تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية ، وقماشاً فارسكوريًّا ، وغير ذلك من شاشات ومقاطع خمسينى ، وخام رفيع ، وأحمال شقادف ضمنها مرطبنات أشربة مربى .

وسافر إلى الشرقية جان بيك دوادار الأمير قايتباى الدوادار الكبير ومعه شادّ الشون والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين ، ليمسحوا جهاتها ، ويميزوا الشراقى من الرى ، ويمسحوا الأقاطيع والرزق إلخ . وصاروا ينزلون إلى البلاد ويقررون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ،

ورحل عنها الفلاحون ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس .

وفى رمضان تشحطت الأسعار فى سائر البضائع ، وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضاً ، وجلس ملك الأمراء فى المقعد بالقلعة ، فتكاثرت عليه المماليك الجراكسة ، فحنق منهم وقال للإنكشارية : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فضربوهم بالعصى على وجوههم ضرباً فاحشاً ، وحصل للمماليك فى ذلك اليوم كسر خاطر .

ولكنهم عاودوا الطلوع إلى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وفرق الأطلاق فأعطى لجماعة منهم فدان طين ونصفاً ، والبعض فداناً ، والبعض نصف فدان . فتضرر المماليك وقالوا : إيش يكفينا النصف فدان ! فسبهم القاضى سبًّا قبيحاً وقال لهم : « يا كلاب يا زرابين ! أنتم بقى لكم باب ولا راس حتى تتكلموا . بيضتم وجوهكم فى إيش حتى تستحقوا أطلاقا » ، وبهدلهم غاية البهدلة .

وفى آخر رمضان أرسل ملك الأمراء أمير علم إلى بيت الأمير قايتباى الدادوار — وكان بين الاثنين حظ نفس — وقال له : قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك فى هذه الليلة طبلخانات وكؤوسات . فأرسل الأمير الدوادار يسأل : أدق فى هذه الليلة فقط ، أو أدق الطبلخانات على بابى دائماً ؟ فلما بلغ أن القصد الليلة فقط ، لم يوافق وقال : « أدق الطبلخانات على بابى ليلة واحدة حتى تضحك الناس على ؟ » وامتنع .

وكان هذا آخر ما سمع عن التقليد القديم من تقاليد المماليك ، وهو دق الطبل على أبواب الأمراء منذ ترقيتهم إلى أمراء أربعين — أى أمراء طبلخانات — حتى بلوغهم أعلى المراتب . ويقول فى ذلك ابن إياس : « وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء حين دخل ابن عثمان إلى مصر ، وبطل ما كان يعمل فيها فى يوم العيد من المواكب الجليلة ، والخلع المتمرات ، والتشاريف السنية ، وبطلت الطرز اليلبغاوية العراض ، والفوقانيات الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة . . . ونودى فى القاهرة بأن لا أحد يصنع خيال الظل . ولا مغانى عرب ولا غير ذلك » . وفى هذا ندرك خشية ملك الأمراء من الروح

المصرى الساخر ، القادر على أن يدخل فى مغانيه وقصصه وتشخيصه كل ما يفرج به كربته ، ويتندر به من شئون الحكم .

وتزايد الضرر من عساكر الإصباحية فى حق الناس ، وصاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل إنهم خطفوا امرأة عند سلم جامع المؤيد ، تحت دكان الذى يبيع الكعك . والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ، فلم يجسر أحد أن يخلصها منهم .

واستمر النيل فى التوقف عن الزيادة ، فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيشة والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش ، وقبض الوالى على امرأة يقال لها أنس ، كانت ساكنة فى الأزبكية ، تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده للوالى كل شهر ، ضريبة عن صناعتها ؛ وكان أمرها مشهوراً ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه .

فلما زاد النيل رجع كل شىء إلى حاله ، وسبب ذلك أن العثمانية تعصبوا فى إعادة ذلك ، لأن أكثرهم كان يبيع البوزة فى الدكاكين ؛ ورسم ملك الأمراء بأن لا يعارض أولاد أنس فيما يفعلون من جمع بنات الخطا كما كانت تفعل أمهم أنس .

وأمر ملك الأمراء مرة بقتل ثمانية أنفس فى يوم جمعه ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة واقترحوا لهم العذاب حتى صاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، ويسمون ذلك طريقة شك الباذنجان .

* * *

ثم حدث التغير الذى أشرنا إليه من قبل فى معاملة الأمراء الجراكسة ، فقد قال لهم أمير الأمراء يوماً : « والله لولا أنا ما خلى الخنكار سليم منكم مملوكاً يلوح على وجه الأرض ، فإنى شفعت فيكم من القتل » ؛ فقال له الأمير قايتباى الدوادار : « الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد عيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك . »

وآية ذلك أن السلطان سليمان بن سليم كان حريصاً على أولئك الأجناد

الممتازين . وأحس ملك الأمراء بذلك فغير سياسته نحو المماليك ، وأمام هؤلاء صدورهم بعد موت سليم ، وصار ملك الأمراء يترضى خواطرهم ، وأخذ القاضي شرف الدين الصغير — وهو الذى كان قد دعاهم بالكلاب والزرابين — يخاطبهم بقوله : يا أغاوات يا أمراء !

ورسم السلطان سليمان القانونى بعودة بقية الأسرى المصريين فى إسطنبول ، فيما عدا أولاد السلاطين ، وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيعان ، لحاجة السلطان إلى مراجعة حساب الديار المصرية ؛ وفيما عدا الأمراء الجراكسة والمماليك ، فإن السلطان لم يأمر لهم بالعودة ، ولم يقبل منهم شفاعة ، واستمروا فى بلاد الروم ، ذلك أن سليمان كان قد اعتزم الانتفاع بهم فى حروبه ، وطلب فعلا إلى خاير بيك أن يرسل إليه فرقة منهم لتساعده فى فتح جزيرة رودس .

ولقد وصل الأمير قايتباى بالتجريدة المصرلية لملاقاة السلطان بجزيرة تجاه رودس أقاموا بها ثلاثة أيام ؛ وفى اليوم الثالث أوكب السلطان وجلس للعسكر جلوساً عامًّا . فلما نظر قايتباى الدوادار ، عظمه وأكرمه ، هو والأمراء صحبته ، ووقف المماليك الجراكسة قدامه ، فشكرهم وأثنى عليهم ، وقيل إن السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذى قتل المماليك وقال : أمثل هذه المماليك كانت تقتل ؟!

وقيل بأنه أنزل العسكر المصرى وطاقه عند الوزير الأعظم .

ونعرف بعد ذلك أن وجاقاً سابعاً — أى فرقة — ألف من المماليك الجراكسة وضم إلى الوجاقات العثمانية ، أى إلى جيش الاحتلال العثمانى ؛ وفى القرون التالية يندس أجناد المماليك بين الوجاقات العثمانية ذاتها .

ولبس المماليك الجراكسة ملابس على هيئة العثمانية . واختلطوا بهم حتى صاروا لا يعرف هذا من ذاك إلا بشىء واحد ، هو أن المماليك تعرف بذقونهم ، والعثمانية بغير ذقون .

وحتى هذه اللحى لم يقدر لها أن تبقى ، إذ يبدو أن « القانون » العثمانى كان ينص على حلق لحى الجند ، فاستعرض خاير بيك المماليك الجراكسة ، وصار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها بعضها ويضعها له فى يده ويقول له : « امش على القانون العثمانى فى قص اللحى وتضييق الأكمام ، وفى

كل ما تفعله العثمانية » ، فنزل المماليك من القلعة وهم فى غاية النكد .

فلم يكن المماليك – فى العهد الأول للاحتلال – يحضرون حفل استقبال رسول السلطان العثمانى ومطالعة مراسيمه . وكان الناس يؤمرون بإقامة الزينات والاحتفالات لاستقبال من كان يدعى القاصد ؛ وجاء قاصد ابن عثمان يحمل خلعة على ملك الأمراء ، وأقامت الناس الزينة نحو عشرة أيام ، وتكلفوا بسبب ذلك كلفة عظيمة من وقيد وقناديل ومشترى زيت ؛ وحصل فى هذه الزينة من العثمانية غاية الفساد ؛ من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصى ليلا ونهاراً ، حتى خرجوا بذلك عن الحد ، لا سيما ما كان يفعل فى خان الخليلى من الفسق .

ولا يعنينا أمر أولئك الجراكسة الذين لم يحسنوا الدفاع عن ملكهم وإمبراطوريتهم بقدر ما يعنينا ما أصاب أهل البلاد الأصالى من رزايا ومحن . فقد أشيع أولا – ثم ثبتت الإشاعة بعد قليل – أنه حاضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاضى قضاة ابن عثمان ، وعلى يديه مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر فى وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثاً على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية [أى المماليك الجراكسة والأتراك] ولا يعارض أحد من الناس فى ذلك ، وأن يأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال ، ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من الجراكسة ، وأولاد الترك قاطبة ، وأرباب الدولة ، ولا الإصباحية والإنكشارية [وبقية الوجاقات] يعقد عقداً إلا عند القسام ، الذى يأخذ على عقد البنت ستين نصفاً [الأشرفى يساوى ٥٠ نصفاً] والثيب ثلاثين نصفاً . فأخذ بذلك قسائم على قضاة القضاة ، واضطربت أحوال الناس ولم يتعصب أحد من القضاة لمنع ذلك عن المسلمين . وقد خافوا على مناصبهم من العزل . وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الإسلام فى أيامهم . واستطالت قضاة الروم عليهم . وقد ترادفت فى تلك الأيام الحوادث المنكرة . والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة .

وفى أواخر الشهر نفسه حضر « أولاق » من إسطنبول فى البحر المالح إلى الإسكندرية . وطلع إلى ملك الأمراء بمصر ؛ وعلى يده مرسوم من عند سليمان

ابن عثمان ، ومضمونه أن الواصل إلى الديار المصرية ، الذى يسمى سيد جلبى هو أعظم قضاة السلطان وأكبرهم ، وأن سليمان رسم بإبطال القضاة الأربعة ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم يتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة .

ولهذا معنى خطير جداً ، فإن قضاة المذاهب الأربعة - وجلهم من المصريين الأصالى - كانوا قوة الشريعة فى الدولة المصرية ، تنفذ كلمتهم على سلاطين المماليك . وقد أراد السلطان برقوق يوماً أن يستولى على الأوقاف ، فعقد مجلساً بالقصر الكبير مع الخليفة والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى والأمراء، وتكلم السلطان فى أمر محاربة تيمورلنك، وفى أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها ؛ فلم يوافق الشيخ البلقينى على ذلك ، ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية ، والعدو زاحف على البلاد . وإن لم يخرج العسكر بسرعة ، وصل العدو إلى حلب والشام ، والعسكر لا تسافر بلا نفقة . فوقع فى المجلس جدال عظيم ، ودافعوا السلطان ، وأغلظوا عليه فى القول ؛ فلما طال الأمر وقع الاتفاق بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضى سنة كاملة ، وتبقى الأوقاف على حالها ، وانفض المجلس على ذلك .

وتكرر ذلك فى سلطنة الأشرف أبى النصر سيف الدين قايتباى المحمودى الظاهرى ، عندما حاول فى تجريدته على شاه سوار أن يأخذ من الأوقاف ، مبيناً أن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصده الإبقاء منها على ما يقوم بالشعائر فقط ، ويدخل الفائض إلى الذخيرة . فمال الخليفة وقضاة الجاه إلى شىء من معنى الإجابة إلى ذلك ؛ وبينما هم على هذا إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائى الحنفى ، وكان قد تأخر عن الحضور . . . ولما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار ، وقال فى الملأ العام من ذلك المجلس : لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعى ، وإذا نفد جميع ما فى بيت المال ، ينظر إلى ما فى أيدى الأمراء والجند وعلى النساء من حلى ، فيأخذ ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوف بالحاجة ، فعند ذلك ينظر فى المهم ، فإن كان ضرورياً فى الدفاع عن المسلمين حل ذلك بشرائط متعددة . وهذا هو دين الله تعالى إن سمعت آجرك

على ذلك ، وإنْ لم تسمع فافعل ما شئت ، فإنّا نخشى الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ، ويقول لنا لماذا لم تنهوا السلطان عن ذلك ، وتوضحوا له الحق . وإذا أراد السلطان أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا . . . ثم قام ، فاتجبه منه السلطان وانفض المجلس على غير طائل ، وكثر القيل والقال ، وكثر الدعاء فى ذلك اليوم للشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وعد هذا المجلس من النوادر .

كان هذا هو سلطان القضاة الأربعة على سلطنة المماليك ، وإذا بذلك السيد چلبى قاضى ابن عثمان وقد حضر وبهدل القضاة المصريين ، ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين الناس ، وقد فتك بهم فى تلك الأيام فتكاً ذريعاً ، وجمع بين قبح الشكل والعقل ، فإنه كان أعور بفرد عين ، بلحية بيضاء . وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال فى العلم ، أجهل من حمار ، لا يدرى شيئاً فى الأحكام الشرعية ، وقدمت إليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشئ .

ووقعت من ملك الأمراء حادثة مهولة ، وهى أنه أمر بضرب المباشرين ، وأولهم الشهابى أحمد ابن الجيعان ؛ فلما حضر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضرباً مبرحاً ، حتى يقال تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة يضربونه بالعصى ، وكذلك القاضى شرف الدين كاتب المماليك ، وقد ضرب مثل سابقه وحمل مريضاً ، وكذلك القاضى شرف الدين عوض ، فمحيى الدين بن أبى إصبع ، ثم رسم بسجن الجميع فى العرقانة .

ويقول ابن إياس إن أولاد الجيعان خدموا سبعة عشر سلطاناً ، وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزائن فى أوائل دولة الأشرف برسباى . وكان أول اشتهارهم وظهورهم فى دولة السلطان المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا قط ، ولا صودروا ، ولا جرى عليهم تشويش ، وهم فى كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابى أحمد .

وفى تجريدة المماليك لمعونة سليمان القانونى فى غزو رودس ، رسم ملك الأمراء للوالى أن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل أن يجدفوا فى المراكب التى تحمل العساكر المسافرة ، فنزل الوالى وأطلق فى الناس النار ، وشرع

يقبض على كل من رآه فى الرميلة ، وفى الطريق ، وكل من قبض عليه وضعه فى الحديد وأرسله إلى السجن حتى خروج العسكر ، وتعدى الأمر من القبض على جماعة من السوقة والعبيد السود ، إلى القبض على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشترون أنفسهم بمبلغ له صورة ، ثم صار الوالى يركب ويكبس على سواحل بولاق ومصر العتيقة ويقبض على النواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل . ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقليوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنية وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يختفون فى المطامير ، وكادت مصر أن تخرب ؛ وقيل إن مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى إنسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ومات فى سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبضوا عليهم ، ماتوا من الجوع وشدة الحر والوخم ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك .

* * *

سيستمر الحال على هذا المنوال طوال القرون التالية بل ويسوء : باشا يجئ وباشا يذهب ، لا تتعدى إقامة الباشا منهم العام أو العامين ، ولا يسلم أمره لمن يليه إلا بعد أن يقدم حساباً عن إدارته ؛ فكل باشا يعرف مقدماً أنه مضطر فى النهاية إلى دفع ما سيقرر عليه بسبب هذا الحساب المغلوط .

ومعنى ذلك أن ينهب كل ما يستطيع نهبه ، استعداداً للطارئ المحتوم . وقد نهبوا كلهم ، وسلبوا وقتلوا وعذبوا ، ومن حولهم شيخ البلد وأمير الحج وبقية أمراء الجراكسة ومماليكهم : كلهم يسرقون وينهبون ويعذبون ويقتلون .

هذه صورة مصغرة تصور حال مصر فى الثلاثمائة سنة التى انقضت على الغزو العثمانى ، وهى الثلاثة القرون التى تسلمنا إلى يوميات الجبرتى ، إلا إذا توقفنا عند مذكرات فولنيه وغيره من الرحالة الأجانب ، لنعرف ما آل إليه حال مصر .

نكتة الفرنساوية

يستهل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الجزء الثالث من مذكراته استهلالا بليغاً ، وكان قد انتهى بمجلده الثانى عند سنتى ١٢١١ ، ١٢١٢ هجرية ، جامعاً لهما فى باب واحد ، معلقاً عليهما بقوله : « لم يحدث فيهما سوى ما تقدمت الإشارة إليه من أسباب نزول النوازل ، وموجبات ترادف البلاء المتراسل ، ووقوع الإنذارات الفلكية والآيات المخوفة السماوية » وكان يمكنه أن يضيف إلى هذا التعليق ما قاله عن سنة ١٢٠٩ ، وهو عندى أقوى ما جاء فى كل تاريخ الجبرتى من تصوير : « سنة ١٢٠٩ : لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم » . أقوى ما جاء فى تاريخ الجبرتى لأنه بهذه الجملة القصيرة قد لخص تاريخ مصر كله دون قصد .

حقاً لم يقع فى تاريخ مصر منذ فجر التاريخ سوى جور الهكسوس والفرس واليونان والرومان ، جور الولاة والحكام والأمراء والسلاطين والمماليك والباشوات والخديوين وتتابع مظالمهم .

فإذا جاءت سنة ١٢١٣ هجرية [١٧٩٨ م] ، أول سنى الجزء الثالث من كتاب « عجائب الآثار » ، أشعرك الشيخ عبد الرحمن بأن أمراً جللا سوف يحدث فى هذه السنة ، « أولى سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلاف الزمن ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وتوالى التدمير . »

ثم هو يلقى بالموعظة قائلا : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ». إنما الذى لا يفصح عنه هنا : من هم أهلها ! إذا كان أهلها هم الأجناد العثمانية والأمراء المصرلية ، فقد جاء عقابهم عدلا لا ريب فيه . أما إذا أهلك ربك القرى بمن فيها من الفلاحين ، والمدن بسكانها من مساتير الناس والسوقة والعوام ، فلا نعرف إلا أن أهل مصر على مدى تاريخهم لا يستحقون ظلماً لا من الخالق ولا من المخلوق.

يكتب الجبرتى مذكراته عن سنة ١٢١٣ وهو عارف بالحوادث التى سوف تترادف ؛ ويكاد اعتقادى يرقى إلى مرتبة اليقين بأن الشيخ عبد الرحمن لم يفكر فى كتابة تاريخه بالصورة التى انتقلت إلينا فى جزئيه الثالث والرابع إلا بعد إدراكه أهمية الحوادث التى تمر بالبلاد ، خصوصاً نكتة [واقعة] الفرنساوية ؛ لأن تفكيره فى المبتدأ كان متجهاً إلى تأليف كتاب للتراجم ، على غرار الجزء الأول من « عجائب الآثار » .

فى عاشوراء عام ١٢١٣ ، وردت إلى القاهرة المكاتيب بأن عمارة إنجليزية من نحو ثلاثين مركباً وقفت بعرض البحر أمام الإسكندرية ؛ وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، « الرئيس المشار إليه بالإبرام والنقض فى الإسكندرية » وذلك بأنهم جاءوا لمدافعة الفرنساوية الذين يتهددون بر مصر ، وقد علم الإنجليز أن عمارة فرنساوية كبيرة خرجت من فرنسا برئاسة بونابارته ، ولا يعلمون مقصدها ، ويخشى الإنجليز أن يدهم الفرنسيون الديار المصرية ، « فلا تقدروا على دفعهم » ؛ ولا يطلب الإنجليز من المصريين إلا إمدادهم بالماء والزاد بثمنه ، مع وقوف مراكبهم فى البحر من بعيد ، محافظة على الثغر .

ولم يقبل محمد كريم وصحابه ، وأجابوهم بكلام خشن : « هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل » .

أما أمراء الغز بالقاهرة فلم يهتموا بشئ من ذلك ولم يكترثوا به ، اعتماداً على قوتهم وزعمهم « إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون فى مقاتلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيلهم » .

وكان للفرنسيس — برغم هذه الغطرسة — سبيل على بلاد السلطان ، بعد أسبوع من هذا الكلام . وداس الفرنسيون على المماليك وبلاد السلطان فى أسبوعين . دخلوا الإسكندرية من جزيرة العجمى ، فى جنح الليل . ودخلوا القاهرة بعد موقعة مع مراد بيك فى مديرية البحيرة لم تدم ربع ساعة ، وموقعة مع بقية المماليك فى بر إنبابة لم تستغرق أكثر من ثلاثة أرباع الساعة .

لم يدس الفرنسيون المماليك بخيلهم ، وإنما داست خيول المماليك أصحابها فى موقعة بر إنبابة . وكان مصير الأمراء المصرلية واضحاً محدداً : القتل برصاص

المربعات الفرنسية ، والغرق فى النيل ، والهرب ، وقد انتشرت جثث القتلى من الرجال والخيل فى ميدان المعركة ، وطفت عمائم الغرقى على سطح النيل فى ذلك الوقت من يولية .

ولن يهمنا أمر هؤلاء المماليك العتاة يداسون تحت أقدام خيلهم ، ويحصدهم رصاص الفرنسيس ، ويغيبهم النيل ، فقد دالت دولتهم منذ الغزو العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وإن رفعوا رءوسهم بعد حين ، كما سبق القول .

ربما كان لهم العذر أيام الدولة المملوكية الكبرى فى العسف والجور ، إذ استطاعوا أن يدفعوا عن مصر غارات الصليبية والتتار ، وأقاموا لمصر إمبراطورية عظيمة . امتدت من جبال طورس شمالا ، إلى بلاد اليمن والنوبة جنوباً ، ومن الفرات والخليج الفارسى شرقاً ، حتى بلاد لوبية غرباً .

أما بعد الغزو العثمانى ، فقد انقلبوا ، مع الباشا التركى وأجناد الوجاقات . منسراً من الطغام ، ومجموعة من البلطجية . يعيشون على سمعة بطولتهم العسكرية . وقد آذنت شمسهم بالغروب ، وسوف ينحل برمهم عندما يجئ مغامر أرنؤدى من صنفهم وجبلتهم وإن لم ينشأ مملوكاً ، بل كان تاجر دخان ، ليقضى على بقيتهم بواسطة أجناده الأرنؤد .

إنما نؤكد هنا ظاهرة فذة فى تاريخ مصر ، لم تعرفها منذ ألفى عام إلا نادراً ، ألا وهى خروج الشعب المصرى إلى الحرب . فقد مرت القرون ولم نسمع أن المصريين اشتركوا فى قتال بالداخل أو بالخارج إلا قليلا ؛ ولعل آخر ما سمعنا من حروبهم كانت فى عهد الأسرات حتى الأسرة العشرين . وفى آخر عهد الأسرات الفرعونية ، كان الجيش المصرى مؤلفاً من الليبيين والإغريق والنوبيين ؛ وسوف نسمع على مدى التاريخ بغزوات وحروب مصرية ، تقوم على أذرع وأسلحة جيش مصرى مؤلف من . . المقدونيين واليونانيين والليبيين وفرسان العرب والبدو والأكراد والمغاربة والفرغانيين والأتراك والبلقانيين والتتار والقبجاك والجركس والقوزاق . . . بل وبعض الجرمان الذى أرسلوا إلى مصر مماليك صغاراً اختطفوا من سواحل البلطيق !

يجب أن نعى ذلك كل الوعى ، وأن لا ننخدع بمواقع صلاح الدين وأسرته ،

ولا بغزوات بيبرس والناصر محمد وقايتباى ، وكلها قامت على كواهل الأجناد الأجنبية . فذلك الوعى له أهمية فى فهم ما سوف يحدث بمصر بعد « نكتة الفرنساوية » . وهذا الحدث سيكون نذيراً بيقظة الشعب المصرى ، وإعلاناً بأن هذا الشعب سوف يستغرق مائة عام حتى يرى أول الغيث فى « هوجة عرابى» ومائة وخمسين عاماً حتى ينهمر الغيث أثناء حركة الجيش المصرى الصميم ، حركة البعث الكبرى « فى الساعات الأولى من صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ » .

هذا الحدث الكبير ، كان تطوع أهل القاهرة للذود عن حياضها ، ومحاولة الوقوف فى وجه الغزاة .

لم يخرج المصريون لمحاربة الإسكندر ، ولا لمقاتلة أوكتافيانوس أغسطس قيصر ، ولا لصد عمرو بن العاص ، ولا لصد جنود هولاجو ، ولا لمحاربة الصليبيين ، ولا الفاطميين ولا العثمانيين . ولكنهم أمام كل غزو بكوا ضياع الحرية وأحسوا — وهم الشعب المتحضر العريق — بزوال سؤددهم ، وانحطاط دولتهم . وكان شعورهم بالمأساة قوياً جداً كلما اقتحم عليهم الغزاة عقر دارهم ، وقوضوا عرشهم [حتى حين يكون الجالس على هذا العرش أجنبياً عنهم] لينزل بوطنهم إلى مرتبة الولاية يحكمها إمبراطور فى روما ، وخليفة فى شبه جزيرة العرب ، وخاقان فى الأستانة .

وسنرى منذ هذا المحرم سنة ١٢١٣ هجرية — أو فى آخر القرن الثامن عشر الميلادى — أن شيئاً جديداً قد حدث ، عندما قام شعب القاهرة يدفع عداته ،

ولم يكن هذا الحدث فريداً ، بل جاء بعد مقدمات وعلامات لابد من الإشارة إليها واحدة واحدة : فى سنة ١١٩١ '[١٧٧٧ م] كان يوسف بيك الكبير ، من أمراء محمد بيك أبو الدهب ، رجلا سهل الاحتداد والتخليط فى الأمور ، ولا يستقر بالمجلس ، بل يقوم ويقعد ويصرخ . ولما تولى إمارة الحج ازداد عتواً وعسفاً وانحرافاً ، وبخاصة مع طائفة الفقهاء والمعممين . وقد وجد فى حادثة الشيخ صادومة فرصة للنيل من المشايخ . وكان الشيخ صادومة من سمنود ، وله باع طويل فى الروحانيات ، وتحريك الجمادات والسيمات ، ويكلم الجن وينافهم ويظهرهم للعيان ، كان الشيخ أحمد صادومة ، بلغة عصرنا ، دجالا

كبيراً ، وقد كشف يوسف بيك ذات يوم عن حجاب خبأته إحدى محظياته بمكان من جسمها ، وقررت أن الشيخ كتبه لها ليحببها إلى سيدها . فقبض يوسف بيك على الشيخ ، وأمر بقتله وإلقائه فى البحر ، ثم احتاطوا على داره ، وأخرجوا أشياء كثيرة ، منها تمثال من قطيفة على هيئة عضو الإنسان . واحتفظ يوسف بك بهذا التمثال القطيفة ، ليظهره لمن يجلسون معه ، ويتعجبون ويتضاحكون وهو يقول : « انظروا أفاعيل المشايخ » .

ثم اتفق أن الشيخ حسن الجداوى المالكى طلق امرأة فى غيبة بعلها : وزوّجها من الشيخ عبد الباقى ، .وحضر زوجها الأول من الفيوم ، وذهب إلى ذلك الأمير يشكو له الشيخ عبد الباقى ؛ فقبض على هذا الأخير فى منية عفيف ، وأهانه ، ووضع الحديد فى رقبته ورجليه ، وحبسه فى حاصل أرباب الجرائم ؛ فركب الشيخ على الصعيدى العدوى ، والشيخ الجداوى ، وجماعة كثيرة من المعممين ، وذهبوا إليه ، وخاطبه الشيخ الصعيدى وقال له : « ما هذه الأفعال وهذا التجارى؟ » فقال له : « أفعالكم يا مشايخ أقبح ! من يقول إن المرأة تطلق من زوجها إذا غاب عنها ، وعندها ما تنفقه وما تصرفه ، ووكيله يعطيها ما تطلبه ؟ » فقالوا له : « هذا قول فى مذهب المالكية معمول به ، ونحن أعلم بالأحكام الشرعية » . فقال : « لو رأيت الشيخ الذى فسخ النكاح . . » فقاطعه الشيخ الجداوى : «أنا الذى فسخت النكاح على قاعدة مذهبى» . فقام الأمير على أقدامه وصرخ قائلا : « والله أكسر رأسك » . فصرخ عليه الشيخ الصعيدى وسبه وقال له : « لعنك الله ، ولعن اليسرجى الذى جاء بك ، ومن باعك ومن اشتراك ، ومن جعلك أميراً » . وتوسط الحاضرون من الأمراء يسكنون حدته وحدتهم ، وأحضروا الشيخ عبد الباقى من الحبس ، وخرجوا به وهم يسبون الأمير وهو يسمعهم .

وحدث ما يشبه ذلك عندما قبض هذا الأمير على الشيخ عبد الرحمن العريشى ، وحبسه عند الخازندار ؛ فركب الشيخ السادات إليه ، وكلمه فى أمره ، وطلبه من محبسه ؛ فلما علم الشيخ عبد الرحمن بحضور شيخ السادات ، رمى عمامته وفراجته ، وتطور وصرخ ، وخرج يعدو مسرعاً وهو يقول : « يخرب بيتك يا يوسف بيك » ، ونزل إلى الحوش صارخاً بأعلى صوته ، واحتد يوسف بك وقام على أقدامه يصرخ

على خدمه ويقول « امسكوه ! اقتلوه ! » ونحو ذلك ، وشيخ السادات يهدئه قائلاً : « اجلس يا مبارك » ثم أخذ الشيخ عبد الرحمن إلى داره وتلافوا القضية .

وفى حادثة أخرى أرسل يقبض على شيخ من رواق المغاربة . فاجتمع المجاورون وطردوا المعينين للقبض وشتموهم . وأخبروا الشيخ الدردير . فكتب هذا إلى يوسف بيك بأن لا يتعرض لأهل العلم ، ومعاندة الحكم الشرعى ، وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر . فنهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم . فقام الشيخ الدردير وإخوانه وأبطلوا الدروس والآذان والصلوات بالأزهر . وأقفلوا أبواب الجامع . وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات يدعون على الأمراء . وأغلق أهل الأسواق الحوانيت ، وعندما حاول إبراهيم بك الكبير تهدئة الحال وأرسل أغا بيت المال ، اجتمعت على الرسول طائفة من المغاربة ، ومعهم بعض العوام ، وبأيديهم العصى والمساوق ، وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار ، فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح هو ومماليكه ، فقتل ثلاثة من المجاورين ، وانجرح عدد منهم ومن العامة . وانتهت الفتنة بإعطاء كل ذى حق حقه ، واشترط المجاورون عدم مرور الأغا والوالى والمحتسب من حارة الأزهر .

وفى سنة ١٢٠٠ [١٧٨٥م] ثارت جماعة من أهل الحسينية بسبب ما حصل من هجوم حسين بك شفت على دار شيخ دراويش البيومى ، أحمد سالم الجرار ، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول ، والتفت عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت ومساوق ، وذهبوا إلى الشيخ الدردير ، فونّسهم وساعدهم وقال لهم « أنا معكم » ؛ فخرجو من نواحى الجامع ، وقفّلوا أبوابه ، وصعد منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول ، وانتشروا بالأسواق فى حالة منكرة ، وأغلقوا الحوانيت ، وقال لهم الشيخ الدردير : « فى غد نجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا . ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم » . فلما كان بعد المغرب ، حضر سليم أغا مستحفظان . ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفى ، كتخدا إبراهيم بك ، وجلسوا فى الغورية ، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه ، وخافوا من تضاعف الحال وقالوا للشيخ : « اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتى بها

من محل ما تكون » . واتفقوا على ذلك وقرءوا الفاتحة وانصرفوا .

وركب الشيخ فى صبحها إلى إبراهيم بك فأرسل إلى حسين بك وأحضره بالمجلس وكلمه فى ذلك ، فقال : « كلنا نهابون — أنت تنهب ، ومراد بك ينهب ، وأنا أنهب كذلك » ، وانفض المجلس وبردت القضية .

وفى سنة ١٢٠٩ ، جاء الأهالى للشيخ الشرقاوى يشكون من محمد بك الألفى ، وذكروا له أن أتباعه ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، فاغتاظ الشيخ ، وذهب إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وأقفلوا الأبواب ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والحوانيت . وفى ثانى يوم ركبوا ، واجتمع عليهم خلق كثير من العامة ، وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات ، ومنه إلى بيت إبراهيم بك ، وأخذوا يصيحون : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » .

* * *

هذه أمثلة من الحركات الشعبية التى كانت تحدث فى ذلك الزمان بزعامة الشيخ الدردير وغيره من المعممين . ولنا أن نتساءل : كيف صبر الشعب المصرى طوال هذه الأجيال والقرون وهو يعانى الضيم والجور ؟

المهم أن غزواً أجنبياً حدث فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ، ومن جيش أمة لا تدين بالإسلام .

أما فى الإسكندرية فقد تجمع أهل الثغر وانضم إليهم العربان وكاشف البحيرة ، فلم يستطيعوا مدافعة الفرنسيس ، ولم يثبتوا لحربهم ، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان . ورجع أهل الثغر إلى التترس فى البيوت والحيطان ، ودخل العدو البلد لخلو الأبراج من آلات الحرب ، ولكثرة العدو وغلبته . فطلب أهل الثغر الأمان ، ورفع عنهم القتال .

وفى مصر حاولوا الدفاع بإرسال رسول إلى إسلامبول على طريق البر ، « ليأتيهم بالترياق من العراق » ، كما يقول الجبرتى متندراً . وانهزم مراد بك ومن معه أمام طلائع الفرنسيس بقيادة الجنرال ديزيه ، قرب الرحمانية . واشتد انزعاج الناس

بمصر ، وبدأ إبراهيم بك فى عمل متاريس من بولاق إلى شبرا . وتولى إبراهيم بك الدفاع عن بولاق . بينما قام المشايخ والأزهر على قراءة البخارى وغيره من الدعوات . وكذلك أرباب الطرق والأشاير . وأطفال المكاتب ، وكانوا يذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء . وحضر مراد بك إلى بر إنبابة ، وعمل متاريس هناك ممتده إلى بشتيل ، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراؤه وجماعة من خشداشيته ، وحصنوا النيل بالمراكب الكبار والغلايين ؛ فصار البر الشرقى والغربى ومجرى النيل مملوئين بالمدافع والعساكر والمتاريس والخيالة والمشاة . ومع ذلك فالأمراء لم يطمئنوا ؛ بل نقلوا أمتعتهم إلى الحواصل والبيوت الصغار غير المعروفة . وأرسلوا البعض منها إلى الأرياف . فلما رأى أهل البلد منهم ذلك ، داخلهم الفزع . واستعد الأغنياء وأولو المقدرة للهرب .

ثم نادوا بالنفير العام ، وخرج الناس للمتاريس ، وقد أغلقوا متاجرهم ، وخرج الجميع لبر بولاق . فكانوا ينصبون الخيام بنقود جمعوها من كل طائفة ، أو يجلسون فى مسجد أو مكان خرب . وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم ، فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه .

وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات . وهم يضجون بالذكر ، وصعد عمر مكرم إلى القلعة . فأنزل منها بيرقاً كبيراً أسمته العامة « البيرق النبوى » . فسار به إلى بولاق ، وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى والمساوق . يهللون ويكبرون . وجلس مشايخ العلماء بزاوية على بيك ببولاق يبتهلون إلى الله بالنصر .

وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر ، ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها . وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية وأولاد على والهنادى وغيرهم .

هذه إذن حركة وطنية عارمة بالقاهرة وضواحيها ، تحاول أن تؤدى ما عليها نحو الوطن ، وأن لا تفوت الفرصة التى ضاعت على أهل الإسكندرية . فهى

من ناحية الشعب المصرى يقظة وتساند فى الدفاع عن الحمى .

ولكن الشعوب لا تدافع بهذه الطريقة ، ولا على هذا النمط من «الهرجلة» . ولا شك أن فوضى حكم العثمانيين والمماليك ظهرت بأجلى صورها فى تلك اللحظات الحاسمة . لم يجهز الشعب لقتال ولم يعدّ له . فالحال لم يتغير عما كان عليه فى أية حقبة سابقة من التاريخ المصرى ، الإسلامى أو المسيحى أو الوثنى ، منذ فتوحات الرعامسة : أجناد أجانب مهمتهم القتال ، وشعب مسالم يتابع صناعات « السلام » .

وسنرى أن هذه الجموع الحاشدة لم تعمل شيئاً أكثر من الصياح والدعاء والتكبير ، والتلويح بالنبابيت والمساوق . بل إن الحركة لم تعد القاهرة وأرباضها ، وقد انقطعت الطرق ، وتعدى الناس بعضهم على بعض . وأغار العرب على الأطراف والنواحى . وأخذ الأمراء المصرلية يتحفظون على التجار الإفرنج ، ويحبسون بعضهم بالقلعة . وكذلك جرى التفتيش على بيوت نصارى الشوام والأروام والكنائس والأديرة ، وهددت العامة بقتل النصارى واليهود .

فهى لم تكن حركة وطنية بالمعنى الحديث ، إنما كانت « هوجة » فى شعب القاهرة المسلم ، لم تدرك من غزو الفرنسيس إلا معنى واحداً ، وهو « عودة الحرب الصليبية » ، فهؤلاء نصارى يغيرون على بلاد الإسلام .

استمع إلى الجبرتى : « وضج العامة بالبر الشرقى يصيحون : يا رب ويالطيف ، ويا رجال الله ! ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان العقلاء يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك قائلين لهم إن الرسول وأصحابه والمجاهدين ، إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والنباح .

وبعد أن حلت الهزيمة بمراد بك فى البر الغربى [موقعة إنبابة] حوّل الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقى وضربوه ، فركب إبراهيم بك والباشا والأمراء والعسكر والرعايا ، وتركوا جميع الأثقال والخيام ، وسار الكبار إلى العادلية شمالا ، أما الرعايا فهاجوا وماجوا ، وعادوا إلى المدينة يضجون بالعويل والنحيب .

ثم خرجت القاهرة بعد ذلك بما يشبه الإجماع ، يهاجر أهلها شرقاً وشمالا وجنوباً . وما إن توسطوا الفلاة ، حتى تلقاهم العربان والفلاحون وأخذوا متاعهم

وأحمالهم ولباسهم ، فلم يتركوا لهم ما يستر عورة ، أو يسد جوعاً ؛ وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن ، « وكانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة » .

هذه الحركة الشعبية المشهورة — وسوف تتلوها حركتان أشد خطورة لمقاومة المحتل الفرنسى — فيها دلالة على يقظة الروح القومى ، ولكن فى حدود ديانة الأغلبية ، ومما لا يتعدى أحياء القاهرة وبعض مناطق بالصعيد . وسوف ينتظر الشعب المصرى أكثر من قرن حتى يثوب إلى الشعور بمصريته .

فهؤلاء هم المصريون يطلب إليهم الفرنسيس أن يقيموا من بينهم حكاماً فيكون جوابهم : « إن سوقة مصر لا يخافون إلا من جنس الأتراك ، ولا يحكمهم سواهم» . فاضطر الفرنسيس على كره أن يسندوا « أغات مستحفظان» وولاية الشرطة وأمانة الاحتساب إلى جنس المماليك ، بل قلدوا برطلمين الرومى النصرانى — « فرط الرمان » بلغة العامة — « كتخدا مستحفظان » ، وهو من أسافل نصارى الأروام القاطنين بمصر ، وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير .

ومهما كان من ضآلة هذه الحركات ، فإن مجرد إضافتها إلى ثورة الشعب على ظلم المماليك ، بقيادة الشيخ الدردير ، يجعل لها معنى عميقاً . فقد كانت بدء صحو هذا الشعب المسكين منذ ثورته الدينية على جنود بيزنطة أيام الصراع بين مسيحية الأقباط (أى الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح) ومسيحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الاعتقاد بازدواج طبيعة المسيح) ، وذلك فى القرن الخامس الميلادى ، ثم بين سكان الحوف الشرقى من الأقباط وبين أحد الولاة المسلمين فى عهد المأمون .

ولن تقوم للشعب المصرى قائمة بعد فتن الاحتلال الفرنسى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر عندما يتحرك الضباط المصريون ويثورون على رؤساء الجند من الجراكسة ، وتبلغ ثورتهم من العنف ما يحمل القوات الأجنبية على التدخل لتسند الخديو المتخاذل الواهن .

وكما قضى الاحتلال البيزنطى على ثورة المصريين فى القرن الخامس ، والاحتلال العباسى على ثورة الأقباط فى القرن الثامن ، والاحتلال الفرنسى على ثورة القاهريين

فى القرن الثامن عشر ، فإن حركة عرابى سوف تترنح تحت ضربات البريطانيين ، يساندهم الجراكسة والأتراك والأسرة الأرنؤدية ، وتخبو نار الوطنية المتأججة تحت أقدام الاحتلال البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر .

سوف يرتفع صوت مصر بلسان مصطفى كامل ومحمد فريد فى العشر سنين الأولى من القرن العشرين ،وسوف تجىء جنازة صاحب «اللواء» مظاهرة من أروع المظاهرات الشعبية . ثم تعود مصر إلى غفوة لن يطول أمرها هذه المرة .

سوف يشرق فجر القومية المصرية فى سنة ١٩١٩ . وحركة الشعب المصرى فى مارس من ذلك العام وما تلاه . جديرة بعناية المؤرخين ، لأنها تميزت بكل صفات القومية الكاملة . لا أثر فيها للدين ولا للملة ، ولا زيغ فيها نحو خلافة الباب العالى ، أو نحو المحتل . ومع أنها كانت حركة تحرير من الربقة الأجنبية ، فقد حرصت على مقومات الحضارة الغربية ولم تنبذها . فالكل مصريون قبل كل شىء ، يقاومون الغاصب ، ويطلبون لبلادهم الاستقلال السياسى والتحرر الاقتصادى والفكرى. أى أنهم يهاجمون الرجعية فى كل صورها .

وثورة سنة ١٩١٩ لن تتوقف بعد هذا ، ونارها لن تخبو ، وإن تآمر عليها ، بالدس والخديعة ، الأغنياء والملك وبطانته ، يظاهرون الإنجليز عياناً بياناً فى بعض الأحيان . ومن خلف الستار فى أغلب الأوقات ، وما كان أيسر اللعبة على المحتل وعلى صاحب العرش : لعبة فرق تسد . فالملك ينحرف عن الحركة الشعبية — وكان كارهاً لها فى السر والعلن — مستنداً إلى قوة المحتل . ثم هو يشاكس الغاصب فى سبيل أغراضه الخاصة ، مستنداً إلى فريق من المارقين ، جمعتهم جامعة الجشع وروح الإقطاع والرجعية والتزلف للألبانى ابن الألبانى الجالس على العرش . فئة ملعونة من محترفى السياسة وجامعى المال والألقاب ، لا يراعون للوطن حرمة ولا حقاً .

لو لم تقم ثورة الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، لحق للمؤرخ أن يحرر شهادة الوفاة لثورة سنة ١٩١٩ . ولاستطاع أن يحدد بالدقة ظروف موتها . وكان ذلك بعد تأليف وزارة الوفد الأخيرة ، وقد قامت على أكتاف الشعب فى انتخابات حرة نسبياً . قامت ضد الملك المستهتر . وعلى كره منه ، فما كان

أسرع تلك الوزارة إلى خطب ود الملك . ونوال مرضاته .

كلا ، لم تمت ثورة سنة ١٩١٩ . ولقد شعرنا بالحياة تدب فى أوصال القومية المصرية فى الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن . وأحسسنا بنارها تضطرم فى قلوب الشباب ، طلبة وعمالا ، فى كل وقت .

لذلك أحببت أن أسمى حركة الجيش المصرى سنة ١٩٥٢ « ثورة البعث الكبرى » لأننى عشت ثورة سنة ١٩١٩ ، وأنا من شبابها ، وراقبت فى وعى كيف جارت عليها العوادى ، وهى ترفع رأسها بين الفينة والفينة . لم أكد أستعد لتشييعها إلى قبرها . بعد استسلام حكومة الوفد وبرلمان الوفد للملك العابث . ثم بعد حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ — أو ما أسميه حركة انتحار الشعب المغلوب على أمره ، وقد فقد كل أمله فى ممثليه -- حتى صحوت يوم ٢٣ يولية ١٩٥٢ على صوت البشير بنهاية الإقطاع والأرنؤد والجراكسة وعلى رأسهم «شبل اسماعيل» . وسليل « محمد على باشا الكبير » .

أذكر ذلك اليوم كأنه بالأمس ، أذكر حالتى التاعسة فى الأسبوعين اللذين تقدما حركة الجيش . كنت أصحو مبكراً لأجلس إلى نافذتى المطلة على البحر ، أراقب شراع السفن البيضاء تظهر فى البعد . كأنها أجنحة النوارس . أجلس وحيداً ساهماً واجماً ، أبكى وطنى ، وكأننى فقدت كل أعزائى فى هذا العالم . ثم يدق التليفون ليزف إلى البشرى ، فأشعر كأننى عدت من بلاد الغربة النائية . لألتقى بأهلى فى نشوة الفرح ، وأقدامى تطأ أرض الوطن الدافئ الحانى . وخرجت إلى الناس فوجدت شعورهم يلبس شعورى . وأحسست فى تلك اللحظات كأننا نعود جميعاً من ظلام القبور .

من كان يظن أن الشعب المصرى . الذى بدأ حركاته القومية بالبابيت والمساوق وقراءة البخارى ، يولى أمر تحريره فى النهاية أبناؤه الأصالى من حملة السلاح . رجال المدافع والدبابات والطيارات والطرادات ؟ ولكنه منطق التاريخ . الذى لا يحسب أعمار الأمم بالأيام ولا بالأشهر . فقد كان هذا الشعب المصرى . الذى أغفى إغفاءة أهل الكهف ، بحاجة إلى قرن ونصف قرن من الزمان ، ليصحو صحوة الأسد المعاق . ما هو قرن ونصف قرن فى عمر أمة تحمل ألوية الحضارة منذ ستين قرناً ؟

الباشا والمصرلية

لم يكن محمد على باشا إلا صورة كاملة من عهده ، خرج من دولة المؤامرات والنهب والتقتيل والرشوة برتبة «سرششمة» – لفتنانت كولونيل – فى جنود العثمانيين الذين جاءوا ليخلصوا مصر من حكم الفرنسيس . وما أسرع ما فهم هذا الثعلب نوع الوسط الذى يعمل فيه ، وما كان أشبهه بوسط الدولة العلية وإن كان أعمق فساداً وأكثر اختلاطاً ، فيه نفاية كل الأجناس والنحل . من المماليك أو ما يعرفون بالأمراء المصرلية ، ومن الأرنؤد والدلاة والتكرور والمغاربة ، وفيه من أشتات الوجاقات العثمانية الينكجرية [الانكشارية] والإصباحية والجاويشية والعزب والجملان ، وكلها ذئاب عاوية جائعة إلى الأسلاب ، عطشى بالدماء ، اجتمعت فى أرض الله المباركة ، أرض الخير العميم ، والشعب المسالم السليم النية ، الحانى على زراعته وفنونه وصناعاته ، بلاد الدين الحنيف يقوم عليه رجال فضلاء من شيخة الجامع الأزهر ، جلهم من أهل التقى والورع ، متجردون عن الدنيا . متفقهون مؤمنون .

والقصة التالية صورة صادقة من ذلك العهد الحالك الأغبر ، تفسر نفسها بنفسها ، وتوضح أحداث مصر الداخلية فى أواخر القرن الثامن عشر توضيحاً لا لبس فيه ، بل هى المقدمة لما تم على عهد « المصلح الأكبر » ، رأس الأسرة العلوية ، من مذبحة المماليك ونفى السيد عمر مكرم والافتئات على حقوق الشعب المصرى الذى لم يحسبوا له حساباً حتى انتصف القرن العشرون .

حدثت وقائعها بين الإسكندرية ورشيد والرحمانية وشلقان وزفيتة ومنية السيرج والقرين والقاهرة . بطلها رجل من أصل جزائرى اسمه على باشا الطرابلسى ، بسبب توليته ولاية طرابلس . وكانت صفته أبيض اللون عظيم اللحية والشوارب ، قليل الكلام بالعربى ، يحب اللهو والخلاعة .

منقولة بنصها عن ذلك الكتاب العظيم : « عجائب الآثار » ، للشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، الوصافة الصادق والوطنى الكبير ، الذى عرك الحياة المصرية بكل تفاصيلها ، وترك لنا أروع صورة لمصر وأصدق ، فيما بين نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر .

فى موسم من مواسم الحج ، والقرن الثامن عشر فى عشراته الأخيرة ، روع الحجاج بخبر رجل فاسق يصطحب معه غلامين جميلين . وقد رأى الحجاج الطرابلسيون هذا الرجل ، وعرفوا بأمر الغلامين فذهبوا من توهم لأمير الحج الشامى . وعرفوه عن الغلامين – وكانا من أولاد الأعيان فى طرابلس – وعن الرجل الفاسق – وكان والياً من قبل إسلامبول على طرابلس – فأرسل أمير الحج جماعة من أتباعه فى حصة مهملة ، وكبسوا على الباشا ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين ، أو على حد قول الحريرى فى إحدى مقاماته : وجدوه « مسافناً لتلميذ ، على جدى حنيذ ، وكأس نبيذ » . وتبعهم الطرابلسية ، وأخذوا يسبونه ويلعنونه وينتفون لحيته ، وقد

هموا بقتله ، وجرحوه جرحاً بالغاً ، وأخذوا منه الغلامين ليردوهما إلى أهلهما فى طرابلس الغرب .

وذهب الرجل الفاسق — واسمه على باشا الطرابلسى — إلى مصر ، وأقام معززاً مكرماً عند مراد بك الأمير المصرلى ، حيث بقى ما يزيد عن ست سنوات . وحارب الفرنسيس مع الأمراء المصرلية فى موقعة إنبابة ، وهرب معهم إلى قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل الشرقى . وسار إلى الشام ومنها إلى إستامبول ، وهناك طلب ولاية مصر . . . وفاز بولاية مصر .

وتبدأ قصتنا قبل ولايته بقليل ، عندما هرب محمد باشا خسرو والى مصر إلى جزيرة بدران ، بعد أن نهب العساكر الأرنؤد بيته فى الأزبكية ، وأسقطوا بنبة على الباذاهنج ، ثم أحرقوا البيت . وانتقل الأرنؤد إلى بيت المحروقى ، وبيت حريم خسرو باشا ، وبيت المعلم جرجس ، فنهبوها ، كل ذلك بقيادة طاهر باشا ، يساعده محمد على سرششمه ، ذلك الضابط المغامر الذى ترك تجارة الدخان فى قولة وانضم إلى الجنود العثمانية الذين جاءوا إلى مصر لمحاربة الفرنسيس ، وتخليص ولاية مصر من حكمهم ، لتعود غنيمة سائغة للعثمانيين .

دامت ولاية محمد باشا خسرو سنة وثلاثة أشهر ، وكان سيئ التدبير ، سفاكاً للدماء ، يتكرم على من لا يستحق ، ويبخل على من يستحق . فأنقذ الله منه عباده ، وسلط عليه جنده وعساكره حتى خرج مرغوماً مقهوراً ، ووصل إلى قليوب حيث عشاه شيخ العرب الشواربى ، ومنها سار إلى دجوة . . .

ونستأذن القارئ فى أن ننسى أمر هذا الخسرو فى دجوة ، سواء بقى فيها إلى آخر الزمان ، أو غادرها إلى حيث « ألقت رحلها أم قشعم » . ولنعد إلى مصر حيث تولى طاهر باشا قائمقامية البلد ، انتظاراً لفرمان من إسلامبول بتوليته . واعتماداً على عساكره الأرنؤد قبض على أغا الإنكشارية وباش اختيارهم ، وعلى أغا العزب ، وكل من استطاع أن يضع عليه يده من كبار رجال الوجاقات . وامتد جوره إلى سر تجار مصر ، السيد المحروقى ، فقبض عليه أيضاً .

وفى ذلك الوقت قبضوا على المعلم ملطى ، وكان قاضياً أيام الفرنسيس ، فرموا

رقبته على باب زويلة ، وكذا قطعوا رأس المعلم حنا الصبحانى ، من تجار الشوام ، عند باب الخرق .

وشمخ الأرنؤد بأنوفهم على الإنكشارية ، وكان هؤلاء يعتبرون أنفسهم فخذ السلطنة ، والأرنؤد خدمهم . فضاق خناق الإنكشارية ، وركبوا من قلعتهم بجامع الظاهر نحو المائتين وخمسين نفراً ، وذهبوا إلى طاهر باشا يطالبونه بجماكيهم تحرشاً وكيداً ، فعنفهم ونتر فيهم ، فبادره أحدهم بضربة يطجان أطارت رأسه من الشباك إلى الحوش ، وسحبت طوائفهم الأسلحة ، ودب الحريق والنهب ووقع فى الناس كرشات .

وكان طاهر باشا معروفاً بالهوس والانسلاب ، والميل للمجاذيب والمسلوبين والدراويش. فلما رأى الأوباش منه ذلك ، تزيا منهم كل بما سولت نفسه وشيطانه ، ولبس طرطوراً طويلا ومرقعة ودلقاً ، وعلق له جلاجل وبهرجان ، وعصا مصبوغة وفيها شخاشيخ وشراريب ، وطبلة يدق عليها ويزعق ويتكلم بكلمات مستهجنة ، موهماً بأنه من أرباب الأحوال .

انتقل الصراع بعد مقتل طاهر باشا الأرنؤدى بين أحمد باشا والى القاهرة وإنكشاريته ، وبين محمد على سرششمه وأرنؤده . وكان محمد على يمالئ الأمراء المصرلية حتى عدّى كثير منهم ، ومعهم العربان ، من الجبل إلى المدينة ، وساروا إلى باب النصر وباب الفتوح وأقاموا هناك . وبذلك انحل برم أحمد باشا وتفرق عنه غالب الإنكشارية . وجاءه الأمر من إبراهيم بك بتسليم قتلة طاهر باشا ، وبأن يخرج خارج البلد ومعه مهلة إلى حادى عشر ساعة من النهار ، ولا يقيم إلى الليل . فامتثل وخرج فى حالة شنيعة ، وكانت ولايته يوماً وليلة لا غير .

وبذلك صفا الجو لإبراهيم بك . ومر الوالى ينادى بالأمان « حسب ما رسم إبراهيم بك ، وأفندينا محمد على » وكثر مرور الغز والكشاف المصاروة ، وترددوا إلى المدينة وعلى أكتافهم البنادق والقرابين ، وخلفهم المماليك والعربان ، وهم يسندون سلطة إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على سرششمه .

وتخلصوا من الإنكشارية بالتعرية والطرد والقتل ، وقد نادى الوالى على الأتراك

والإنكشارية والبشناق والسجماق بالخروج من مصر ، فجلا منهم عن البلاد نحو ألفين وخمسمائة .

وما كاد إبراهيم بك يتولى قائمقامية مصر ، حتى وصل الخبر من الأستانة بتولية بطل قصتنا على باشا الطرابلسى على مصر ، وتأكد الخبر بوصول المذكور إلى الإسكندرية . وأرسل الباشا الجديد خطاب تأنيب للأمراء المصرلية على ما حدث من طرد الباشا خسرو وقتل طاهر باشا .

لم يكن الأمراء المصرلية ليقفوا مكتوفى اليد أمام هذا الوالى . وهم ما صدقوا أن تخلصوا من الفرنسيس . فليس لديهم أية رغبة فى عودة الحكم العثمانى إلا فى أبسط صورة .

أسرع عثمان بك البرديسى إلى جر شكل الوالى الجديد على باشا الطرابلسى عند بلدة البرج شمالى رشيد . وأرسل إليه الباشا رسولا يواجهه البرديسى بقوله :

ما المراد ؟ إن كان حضرة الباشا والياً على مصر . فليأت على الشرط والقانون القديم ، ونقيم معه على الرحب والسعة ، وإن كان خلاف ذلك فأخبرونا ، ولكم مهلة ثلاثة أيام .

وبعد ساعتين من انقضاء الإنذار ضرب عليهم البرديسى مائة وخمسين قنطاراً من البارود . وأرسل خطاباً إلى إبراهيم بك يقول فيه « . . . وأنكم ترسلون لنا أعظم ما يكون عندكم من البنب والمدافع والبارود » . فشهلوا المطلوب وأرسلوه فى ثانى يوم ، مع صحبة حسين بك الافرنجى .

وحاول الأحمق على باشا الطرابلسى أن يقطع طريق الإسكندرية على البرديسى . ، فكسر السد الذى بناحية أبى قير ، وهو السد الحاجز على البحر المالح ، وكان من قديم الزمان من السدود السلطانية العظام المتينة ، تتفقده الدول على مر الأيام بالمرمة والعمارة ، فلما اختلت الأحوال وأهمل غالب الأمور وأسباب العمارات ، انشرم منه شرم فتسربت المياه المالحة على الأراضى والقرى ما بين رشيد والإسكندرية . ولما جاء الإنجليز والعثمانية لإخراج الفرنسيس ، شرموه أيضاً من الناحية البحرية لأجل قطع الطريق على الفرنسيس ، فبلغت المياه المالحة إلى قرب دمنهور ، واختلطت بخليج الأشرفية . وشرقت الأراضى ، وخربت القرى

وتلف الزرع وانقطعت الطرق حول الإسكندرية من البحر . وامتنع وصول الماء إلى أهل الإسكندرية . ولما استقر العثمانية أصلحوا هذا السد ، ولم يكد يفرح الناس بهذا الإصلاح ، حتى جاء على باشا وفتحه ، ليمنع وصول البرديسى ورجاله إلى الإسكندرية .

فنهب البرديسى رشيد ، وشحن برج مغيزل — أمام رشيد على الضفة الشرقية للنيل — بالذخيرة والجبخانة .

ونقص النيل فى أيام النسىء ، وحلت المجاعة ، واجتمع مشايخ مصر وتشاوروا فى الخروج إلى صلاة الاستسقاء ، وذهبوا إلى إبراهيم بك فقال لهم : ما أحب ذلك إلى ! فقالوا له : ولكن كيف نحقق شروط الاستسقاء . ومن جملتها رفع المظالم ورد الحقوق والتوبة والإقلاع عن الذنوب وغير ذلك ؟ فأجابهم : هذا أمر لا أقدر عليه وحدى ، ولا أحكم فيه إلا عن نفسى . فقالوا له : إذاً نهاجر من مصر . فأجابهم : ورجلى على رجلكم . . .

واضطرت المجاعة البرديسى إلى إخلاء رشيد والبرج وبرج مغيزل والعودة إلى مصر . وخرجت الفقراء بمقاطفهم لملاقاتهم . وعيطوا فى وجوههم ، فوعدهم البرديسى بخير ، وأرسل محمد على سرششمه وخازنداره . ففتحوا الحواصل فى بولاق ومصر العتيقة . ووزعوا الغلال بالبطاقات : ويبة غلة لكل شخص من الفقراء ، فحصل للناس اطمئنان . وما هى إلا أيام حتى أنزلوا بالشعب فردة ، وانقلب الوضع المشروع . وانعكس الحال إلى أمر شنيع ، وتسلط العسكر والمماليك على خطف ما يصادفونه من الغلة والتبن والسمن ، وسرّب الناس بهائمهم من عدم العلف . . .

وفى الإسكندرية كان على باشا الطرابلسى قد اطمأن إلى حاله بعد سفر البرديسى . فرتب طائفة من عسكره على طريقة الإفرنج ، فكان يخرج منهم فى كل يوم إلى جهة المنشية فيصطفون ويعملون « مارش وأردبوش » ثم يعودون . وفى مرة أثناء عبورهم بمساكن الإفرنج ووكالة القنصل ، أخرج الإفرنج رءوسهم من الطيقان نساء ورجالا يتفرجون عليهم كما جرت العادة ، ويبدو أن بعض الإفرنج أفصح عن سخريته بنظام الجندية المنحرف عن طبيعتهم ، فضرب عليهم

العسكر بالبنادق من أسفل ، وضرب الإفرنج عليهم من الطيقان ، وهجم الجند عليهم فى منازلهم ، فخرج القناصل الستة ومن تبعهم ، ونزلوا إلى البحر ، وطلعوا غليون الريالة ، وكتبوا كتاباً بصورة الواقعة ، وأرسلوه إلى إسلامبول وإلى بلادهم .

وأرسل على باشا الطرابلسى خورشيد باشا والى الإسكندرية إلى القناصل ، فأخذ بخواطرهم وضمن لهم ما أخذ منهم .

وراح على باشا يجمع أهل الإسكندرية علماءها وأعيانها ، وطلب منهم كتابة « عرض محضر » على غير صورة الحال — محاولة منه لتبرئة نفسه فى إسلامبول — فامتنعوا عن الكتابة بالزور والبهتان . وكان المتصدر للرد الشيخ محمد المسيرى المالكى ، فقته الباشا ووبخه .

* * *

خرج على باشا الطرابلسى من الإسكندرية لتسلم زمام الأمور بمصر ، وشرعوا فى عمل المركب التى تسمى « بالعقبة » لخصوص ركوب الباشا . ووصل إلى ناحية شلقان .

وإذا بشتك بك المعروف بالألفى الصغير ورجاله يبلغون تلك الناحية ، وينصبون خيامهم قبال عرضى الباشا ، بل يداخل خيامه بخيام على باشا . فإذا احتج رجال الباشا قال الألفى : هذه منزلتنا ومحطتنا من قديم الزمان . فلم يسع الباشا وأتباعه إلا قلع خيامهم والتأخر .

وأخذ رجال الألفى الصغير جمالا ليحملوا عليها البرسيم من بعض الغيطان ، وحضر أمير أخور الباشا بجماله لأخذ البرسيم من نفس الموضع ، ونهروا رجال الألفى وطردوهم . فأمر الألفى واحداً من كشافه بالركوب رمحاً إلى الغيط . وصل هذا الكاشف وأحضر أمير أخور وقطع رأسه قبالة صيوان الباشا الطرابلسى ، ورجع إلى الألفى بالجمال . . . وبرأس أمير أخور !

نادى الباشا على رضوان ، كتخدا إبراهيم بك ، وقال له : أهذا جزائى بعد أن صالحت عليكم الدولة ؟ وما زلت تضحك على ذقنى وأنا أصدق تمويهاتك حتى جئت إلى هنا لتفعلوا برجالى هذه الفعال وترذلونى وتأخذوا حملتى وجمالى ؟

ولاطفه رضوان كتخدا واعتذر إليه قائلا : « هؤلاء صغار العقول . ولا يتدبرون فى الأمور ، وحضرة أفندى شأنه العفو والمسامحة » .

وأرسل فى طلب جمال الباشا من الألفى . وردها إلى وطاق الباشا . ثم حضر إليه عثمان بك يوسف الخازندار ، وأحمد أغا شويكار ، وأخذا بخاطره .

وإذا بالبرديسى يخرج هو الآخر إلى جهة شلقان ، وينصب خيامه على موازاة خيام الألفى الصغير . وينصب باقى الأمراء خيامهم فى اتجاه الجبل . أما الأرنؤدية فاصطفوا فى مواجهة النيل .

ولكن ماذا جاء بهؤلاء الأرنؤدية ؟ إن مجيئهم صورة من صور الغدر المتأصل فى نفوس كل هؤلاء الناس ، من المصرلية إلى العثمانية والأرنؤد والدلاة وغيرهم من الأنجاس ، فقد كان الباشا الطرابلسى قد كتب إلى محمد على سرششمه وأرنؤده ، وإلى قبائل العربان ، مكاتبات يستميلهم ويستعديهم على الأمراء المصرلية . ونقل الأرنؤد خبر هذه المكاتيب إلى المصرلية ، فاتفقوا على مخادعة على باشا الطرابلسى ، وإفهامه بأن الأرنؤد ناصروه . فإذا خرج الأمراء المصاروة بحجة ملاقاته والسلام عليه ، يقفون فى مواجهته ، بينما الأرنؤدية من خلفه ، فيأخذونه مواسطة . وتواعدوا على هذا اللقاء فى شلقان . وهونوا على الباشا أمر المصرلية ، وأنهم فى قلة ، وأن المنضمين إليهم على خلاف معهم ، وأن هؤلاء فى الباطن مع الأرنؤدية ومع الباشا الطرابلسى . وهكذا دبروا له تدابير ومناصحات تروج على الأباليس .

ولما وصل إلى الرحمانية أرسل له الأرنؤد مكاتبة سرًّا ، بأن يعدى إلى البر الشرقى ، فاعتقد نصحهم وعدّى ، ورتب عسكره فى شلقان طوابير ، وجعل كل بنباشا فى طابور ، وعملوا متاريس ونصبوا المدافع وأقفوا المراكب بما فيها من العساكر والمدافع بالبحر على موازاة العرضى .

وفى تلك الأثناء تسلل حسين بك الإفرنجى ومن معه بالعساكر فى الغلايين والمراكب ، واستعلوا على مراكب الباشا وأحاطوا بها ، وضربوا عليهم بالبنادق والمدافع ، وساقوهم إلى جهة مصر ، وأخذوهم أسرى ، وعلى رأسهم كبيرهم مصطفى باشا .

ولما تأخر الباشا واستقر بأراضى زفيتة ، أحاط به المصريون والعربان وتحلقوا حوله، ووقفوا لعرضيه بالرصد . فكل من خرج من الدائرة خطفوه ، ومن الحياة أعدموه .

وأرسل إليه الألفى رسولا يقول له : « حضرة ولدكم الألفى يسلم عليكم ، ويسأل عن هذه العساكر المصحوبين بركابكم ، وما الموجب لكثرتها . وهذه هيئة النابذين لا المسالمين ، والعادة القديمة أن الولاة لا يأتون إلا بأتباعهم وخدمهم ، وقد ذكروا لكم ذلك وأنتم بسكندرية ؟ »

فقال : « نعم ، وإنما هذه العساكر متوجهة إلى الحجاز تقوية لشريف باشا على الخوارج . وعندما نستقر بالقلعة ، نعطيهم جماكيهم ونشهلهم ونرسلهم . »

فقال على الكاشف (رسول الألفى) : « يا حضرة أفندى ، لا تفكروا بالقلعة ، فإنهم أعدوا لكم قصر العينى تقيمون فيه ، لأن القلعة خربها الفرنسيس وغيروا أوضاعها ، فلا تصلح لسكناكم . أما العساكر فلا يدخلون معكم ، بل ينفصلون عنكم ليذهبوا إلى بركة الحاج ناحية المطرية ، ويمكثوا هناك حتى تتشهل لهم احتياجاتهم ، فالبلد فى قحط وغلاء ، والعساكر العثمانية منحرفو الطباع ، لا يستقيم حالهم مع الأرنؤدية ، ويقع منهم ما يوجب التعب لنا ولكم . »

فقال على باشا الطرابلسى : « إذا كان الأمر كذلك فإنى أرحل عائداً إلى الإسكندرية » . فأجابه على كاشف : « هذا لا يكون ، وإن فعلتم حصل لكم الضرر » .

قال الباشا : « إن للعسكر عندى ٤٨٠ كيساً ! أحضروها من حسابى معكم ندفعها لهم فينصرفوا إلى بركة الحاج كما قلتم » .

ورجع على كاشف إلى الأمراء ، فرفضوا قائلين : « إما أن يحضر الباشا عندنا فى جماعته وخدمه وحدهم ، وينزل بمخيمنا ضيفاً مكرماً ، وإما الحرب بيننا وبينه » .

وأصبح الصباح ، فركب المصرلية بعساكرهم فى طوابير ، وزحفوا على عرضى الباشا من كل جهة ، فأمر عساكره بالمحاربة ... فلم يتحركوا وقالوا له : « ليس معك فرمان بالحرب ، ولقد رأيت كيف أخذ إخواننا البحرية عن آخرهم ،

ولم تعطنا جامكية ولانفقة ، فلاطاقة لنا بحرب المصريين » .

فاضطر الباشا مرغماً إلى الركوب فى خاصته ، والذهاب إلى المصاروة ، تاركاً خيامه وأثقاله ، فأضافوه فى خيام البرديسى . وحضر كتخدا الجاويشية وكاتب حوالة الوالى وباقى أرباب الديوان ، وذهب بعض خدم الباشا وفراشيه إلى قصر العينى ليفرشوه ويرتبوه وينظموه .

أما عساكر الباشا فقد أمرهم الأمراء بالرحيل تحت حراسة حسين بك الوشاش وصالح بك الألفى ، ليوصلوهم إلى بلبيس شرقية ومنها إلى الصالحية ، وكانت عدتهم ألفين وخمسمائة .

وانتقل على باشا الطرابلسى والأمراء المصرلية إلى منية السيرج ، وطارت الإشاعة بأن الباشا سوف يركب بموكبه إلى قصر العينى على طريق بولاق بعد يومين .

وجمع المحتسب خيول الطواحين لأجل الركبة ، وخرج كثير من الناس إلى جهة بولاق لأجل الفرجة ، وانتظروا فلم يحصل . وقيل إنهم أخروا الباشا .

ثم وصلت التنابيه لاختيارية الوجاقات بالحضور والركوب مع الباشا ، ولكنه لم يصل ، وتواترت الأخبار بأنهم أركبوا على باشا وسفروه إلى جهة بلبيس والصالحية .

وإليك جلية الخبر :

احتفى المصرلية بالباشا ، وأرسلوا له رضوان كاشف ، كتخدا عثمان بك البرديسى ، ومعه هدية ، وألف نصفية ذهب ، وأبلغه السلام ولاطفه . فقال الباشا مسروراً : « أنا منذ قلدونى ولاية مصر قلت للدولة إن أول حوائجى العفو والرضا عن الأمراء المصرلية ، لأن لهم فى عنقى جميلا منذ ما حضرت إليهم هارباً من طرابلس فآوونى وأكرمونى » .

أجابه رضوان كاشف : « إن الأمراء يراعون لك ذلك ، ولا ينسون عشرتهم معك ، وخصوصاً صداقتك لسيدهم مراد بك ، وهذا برغم ما وقع منك من مكاتبة الأرنؤد والعربان وغيرهم » .

قال الباشا : « هذا شىء مضى وراح ، ونحن أولاد اليوم » .

* * *

مكث على باشا فى عرضى البرديسى بمنية السيرج ، لا يرى من الأمراء الكبار

سوى عثمان بك الخازندار وأحمد أغا شويكار وأرباب الخدم .

وذات ليلة فزع حرس البرديسى لفارس يخرج من العرضى فى جنح الليل ، ويولى هارباً ، فجروا خلفه ولم يلحقوه .

واتجهوا إلى الباشا يسألونه عن ذلك فقال : « لعله حرامى أراد أن يسرق شيئاً وخرج هارباً » . ومنذ هذا الحادث ، أجلسوا حول الباشا عدة من المماليك المسلحين ، فسأل عنهم فقيل له : « إنهم جلوس بقصد المحافظة عليكم من السراق » .

ولم يمض وقت طويل على هذا الحادث الليلى ، حتى قبضوا على هجان بناحية البساتين عند المعادى ، فى طريقه إلى قبلى ، ووجدوا معه مكاتبات من الباشا إلى عثمان بك حسن بقنا ، يطلبه للحضور ، ليكون معيناً له على إبراهيم بك والبرديسى والألفى ، ويعده بإمارة مصر ونحو ذلك !

فجاءوا فى اليوم التالى إلى الباشا جماعة وسلموا عليه ، واستأذنوه فى الجلوس فأذن لهم ، فجلسوا وهم سكوت ينظرون إلى بعضهم ، فقال على باشا : « خيراً » .

وتكلم أخيراً رضوان بك قائلا : « ألم نصطلح مع حضرة أفندينا وصفا خاطره معنا ؟ »

قال : « نعم »

قال رضوان بك : « هل وقع من حضرتكم لأحد مكاتبة قبل ذلك ؟ »

قال : « لا . »

قال رضوان بك : « لعلكم أرسلتم مكاتبة إلى قبلى ؟ »

قال : « لم يكن ذلك أبداً » .

فأخرج له مكتوباً وناوله إياه ؛ فلما رآه قال : « نعم ، هذا مما كنا كتبناه بسكندرية . »

قال رضوان بك : « يا سبحان الله يا حضرة أفندينا ! لقد وجدناه أمس مع الهجان المسافر إلى قبلى عن طريق البساتين » .

فسكت الباشا الطرابلسى ولم يحر جواباً . . .

فقاموا على أقدامهم وقال رضوان بك : « بيرون أفندم ! »

فقال : « إلى أين ؟ »

فقال رضوان بك : « إلى غزة ، فإنه لا أمان لنا معك بعد ذلك » .

ولم يمهلوه لكلام يقوله ، ولا عذر يبديه ، حتى ولا لمجيء ركوبته ، بل قدموا له فرساً لبعض المماليك . فلما رأى الأمراء المستعدين للذهاب معه وقوفاً فى انتظاره ، رجاهم أن يكونوا متباعدين عنه فى الحط والترحال ، فأجابوه إلى ذلك ؛ وسار معه محمد بك المنفوخ ، وسليمان بك صهر إبراهيم بك .

أما أتباع الباشا فركبوا أكاديش الطواحين . وكان الطحانون ينتظرون متى ينقضى الموكب — وهم يظنون أن خيولهم استعيرت منهم لموكب الباشا بالقاهرة — ويأخذون خيولهم . فلما تحقق لهم سفر أعوان الباشا بأكاديشهم بعيداً عن مصر ، طارت عقولهم وذهبوا إلى صيوان البرديسى يشكون إليه عطل مطاحن البلد ؛ فقال لهم : « دونكم خيلكم ، اذهبوا فخذوها ! » فجروا خلف أعوان الباشا ، ومسك كل طحان فرسه ، وأنزل عنها راكبها ، وأخذوها ورجعوا مسرورين بخيولهم .

فركب الأعوان بدلها جمالا ؛ وحجز البرديسى طبلخانة الباشا ، وطقمه ، ومهاترته ، وغالب متاعه ، وذهب بها إلى حال سبيله ؛ وقد ركب أمامه حسين بك الافرنجى بعسكره المختصين بطبلهم ، مثل طبل الفرنسيس ، وعلى رأسهم برانيط من نحاس أصفر ، مثل برانيط الفرنسيس ، وهم نصارى وتكرور وأروام . وركب خلف البرديسى طبلخانة الباشا ونوبته ومهاترته يطبلون ويزمرون . ودخلوا على هذا الحال إلى القاهرة .

أما الألفى الصغير ، فركب فى أمرائه وكشافه ليعاقب العربان الذين والسوا مع الباشا ، وهم عرب بلى بالجزيرة . فطرقهم على حين غفلة ، وقتل منهم أناساً ، ونهب مواشيهم ونجعهم ؛ وضرب أيضاً زفيتة وأجهور وعشرين بلداً أخرى ، وأخذ زراعتها ومتاعها .

هذا والقاهرة تنتظر الباشا على الطرابلسى ، المولى على البلد من قبل إسلامبول . وقصر العينى معد لاستقباله ، والباشا على لا يصل ، ولا يسمع عنه خبر . . .

إلا هذه المكاتبات التى جاءت من الأمراء الذين ذهبوا بصحبة الباشا مشرقين . فهم يخبرون بموت الباشا بالقرين ! واستيقظت القاهرة على حس المدافع الكثيره

تضرب بعد العشاء حتى نصف الليل !

يقول الأمراء المصرلية فى مكاتيبهم : « إن الباشا أراد أن يكبسنا بمن معه ليلا ، وقد عرفنا بأمر ذلك من سائس يعرف بالتركى ، حضر إلينا وأخبرنا بذلك ، فتحذرنا من الباشا ورجاله . فلما كبسونا كنا لهم مستعدين ، ووقعت بيننا محاربة قتل فيها عدة منا ، منهم خازندار محمد بك المنفوخ ، وانجرح محمد بك نفسه جرحاً بليغاً . أما الباشا فأصيب من غير قصد ، والليل ليس له صاحب ، فقضى نحبه ، وكان ذلك مقدوراً ، وفى الكتاب مسطوراً . وأنكم ترسلون لنا أماناً بالحضور إلى مصر . . . وإلا ذهبنا إلى الصعيد » .

وهذا كذب مصفى ! فإن الباشا لم يعد يملك حلا ولا عقداً . . ولا كبساً . لم يكن يصحبه من رجاله غير خمسة وأربعين ، وجميعهم محصورون بين عساكر المغاربة من أمام ، والأمراء المصاروة من خلف . فلما وصلوا إلى القرين نزلوا هناك ، ورتبوا مع المغاربة ترتيباً ، مقتضاه أن يعمل المغاربة مع الخدم مشاجرة ، تتجسم وتعظم ، حتى يتضارب الجميع بالسلاح . . .

وتم تنفيذ التدبير فى جنح الليل — والليل ليس له صاحب كما قال هؤلاء السفاحون ! — وقامت الأجناد المصرية من خلف الباشا يضربون ، بينما المغاربة يتصاربون مع الخدم من قدام ، فصار الباشا ، ورجاله الخمسة والأربعون ، محصورين فى الوسط ، والضرب نازل ، وقد التحموا عليهم بالقتال . ففر من أتباعه أربعة عشر نفساً إلى الوادى ، وثلاثة عشر رموا بأنفسهم — من حلاوة الروح — فى ساقية قريبة .

أما الباشا فضربه أحد المماليك بقرابينته ، وقتل معه باقى الثمانية عشر نفساً .

سقط على باشا الطرابلسى وبه رمق ، ورأى أميراً مصرليًّا فقال له : « فى عرضك يا فلان ! إن معى بداخل هذا الخرج كفناً ، أستحلفك أن تكفنى به ، وأن تدفنى ، ولا تتركنى مرميًّا ! » . وأعطى الأمير المصرلى لبعض العرب دنانير والكفن . وقال له : « اذهب إلى مكان الموقعة ، وخذ الباشا وكفنه وادفنه فى تربة . » . فقال العربى : « أنا لا أعرفه » ، أجابه الأمير : « ستعرفه فإن له لحية عظيمة من دون من قتل حوله . » ، ففعل الأعرابى .

هذا ما كان من أمر مصرع الباشا الطرابلسى ، وفى مقتلته صورة من جبروت الأمراء المصرلية .

ولم يكن على باشا خير من قتلته ، فقد رد كيده إلى نحره ، وكان ذلك من وبال فعله ، وسوء سريرته . ومما أثر عنه أن قال وهو بالإسكندرية : « إن بلغت مرادى من الأمراء المصاروة وظفرت بهم ، أبحت لكم القاهرة والرعية ثلاثة أيام » . وكان طول حياته فاسقاً ظالماً ، صادر الناس فى أموالهم وبضائعهم ، ورذّل أهل العلم وأهانهم ، فقد كان يسمى الشيخ محمد المسيرى بالمزور ، لأنه رفض أن يوقع على عريضته ، التى حاول أن يدلس فيها على الدولة ويزور خبر مقتلة الإفرنج . وكان إذا دخل الشيخة عليه ، ظل جالساً ، بل واتكأ ومد رجليه فى وجوههم .

وقبل مجيئه إلى مصر ، كان مملوكاً لمحمد باشا حاكم الجزائر ، وأرسله سيده برسالة إلى حسين قبطان باشا بالآستانة ، فقلده قبطان باشا ولاية طرابلس الغرب . وقد استولى على طرابلس ، وأباحها لعسكره ، ففعلوا بها أشنع وأقبح من التمرلنكية ، نهباً وهتكاً للنساء وسبياً للحريم ، وفرد على أهل البلد الفرد ، فثار الناس عليه ، ونزل إلى المركب بما جمعه من الأموال والذخائر ، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان ، وهرب إلى الإسكندرية ثم إلى مصر . والتجأ إلى مراد بك فأكرمه وأنزله منزلا حسناً عنده بالجيزة . ثم حج بعد ذلك، ورآه الحجاج الطرابلسية بالحجاز ، وصحبته الغلامان الجميلان. فذهبوا إلى أمير الحج الشامى — لسبب بسيط هو أن الطرابلسى كان فى حماية أمير الحج المصرى — وعرفوه عنه ، وعن الغلامين وما يفعل بهما . فأرسل معهم جماعة من أتباعه فى حصة مهملة ، وكبسوا عليه ، فوجدوه ومعه أحد الغلامين . فسبه الطرابلسية ولعنوه ، ونتفوا لحيته العظيمة وشواربه الشقراء ، وضربوه بالسلاح ، فجرحوه جرحاً بالغاً ، وأهانوه وأخذوا منه الغلامين .

وعاد إلى مصر وأقام فى منزلته عند مراد بك زيادة عن ست سنوات . ولما حضر الفرنسيس ، قاتل مع الأمراء ، وتغرب معهم فى قبلى وغير قبلى ، ثم انفصل عنهم وذهب خلف الجبل وسار إلى الشام ، ومنها إلى إسلامبول ، حيث طلب ولاية مصر ونالها .

وقد أراد أن يدبر أمراً للمصاروة ، ويصطاد العقاب بالغراب ، فلم تنفعه التدابير ، ولم تسعفه المقادير ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع بيده مارن أنفه .

ولم يعلم أنها القاهرة ، كم قهرت جبابرة .

زبانية عتاة

وردت فى فصل سابق كلمة عابرة تستأهل منى الرد على نفسى وأنا أقول: «ولا يعنينا أمر أولئك الأمراء الجراكسة وأجنادهم» . أحقاً أن أمر الأمراء الجراكسة لا يعنينى ؟ وهل لا يعنينى أيضاً أمر المماليك البحرية قبلهم ؟

فلنحاول أن نكون صادقين مع أنفسنا ، ونسأل هذا السؤال : متى شعرت، وأنا أطالع التاريخ المصرى، بأنى أعيش بين عشيرتى وبنى وطنى من أهل القرون الغابرة ؟ حدث هذا وأنا أطالع التاريخ المملوكى، ثم ما تلاه بطبيعة الحال . فمهما كان فهمى وإحساسى بحضارة أجدادى الفراعنة ، وجهاد أسلافى المسيحيين ومهما كان إدراكى لمعنى دخول مصر فى حوزة الإسلام، فإننى لم أحس إحساساً عميقاً بحوادث تاريخى بقدر ما أشعرنى به التاريخ المملوكى. ولا أعرف ماذا يكون إحساس مواطنىّ من أهل الصعيد أو الوجه البحرى ، ولا إحساس مواطنىّ القبط ، وإنما أنا معبر عن نفسى كقاهرى مسلم ، من أسرة قاهرية حتى القرن السابع عشر على الأقل، ولدت فى أحياء القاهرة التى نسميها المعزية نسبة إلى من أشار ببنائها ،ولم يبق من آثار منشئيها سوى القليل . فالقاهرة القديمة ، التى نشأت فى حاراتها ، هى القاهرة المملوكية، والطابع الغالب على آثارها هو الطابع المملوكى . ثمة بقايا طولونية وفاطمية وأيوبية وعثمانية، ولكن جو القاهرة الذى غمرنى فى طفولتى ، أحسست به وأنا أطالع تاريخ المماليك ، والحياة التى تجيش بها صفحات الشيخ تقى الدين وأبى المحاسن والسيوطى وابن إياس هى حياتى. لأول مرة شعرت حقاً بأنى أعيش بين عشيرتى وبنى وطنى من أهل القرون الغابرة .

وأعود إلى مذكراتى لإعداد هذا الكتاب فأطالع : « أما الغز فلم آسف على سقوطهم ، لأنه غير كاف فى الحكم على هذه الفئة أن نذكر محاسن الممتازين من سلاطينها وأمرائها ، من أمثال سيف الدين البندقدارى ، والناصر محمد ، وبرقوق ، وقايتباى . ولن أنخدع بآثارهم الجميلة ، ولا بإصلاحاتهم ،

ولا بانتصاراتهم ؛ لأن هذه الطغمة كانت فى مجموعها داعرة سفاحة نهابة ، ولأن مجموع سلاطينها ، على الرغم مما حققوه للديار المصرية من سؤدد ، وما أنشئوه من جوامع ومدارس وخوانق ، لا يمكن أن يفلتوا من لعنة الأجيال على أولئك المستنزفين لدماء الشعب وماله ، المذلين له ، الحريصين على مماليكهم الجلبان والخاصكية والخشداشية والقرانصة ، يقطعونهم الإقطاعات ويفرقون عليهم المغل والرزق والجماكى ، وكأنهم ورثوا مصر بوثيقة شرعية » .

ويروقنى حديث الرحالة « ڤولنيه » ، ذلك الرجل ابن الإنسكلوبيديين والقرن الثامن عشر ، وهو يعلق على ما سمعه من امتداح الجاليات الأجنبية فى مصر لعلى بيك الكبير ، شيخ البلد المملوكى ، الذى استقل بحكم مصر عن الباب العالى فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ، وكان البروفة الأولى لمحمد على باشا ، قال :

« ولا أستطيع السكوت على ملاحظة سمعتها بالقاهرة ، على لسان التجار الأوربيين ، الذين عرفوا حكم على بيك حتى نهايته ، وهم يثنون على حسن إدارته ، وحرصه على العدالة ، وحدبه على الإفرنج ؛ فقد كانوا يتعجبون من أن الشعب المصرى لا يبدى أسفاً على زوال حكمه ، ويتخذون من موقف هذا الشعب ذريعة للحكم عليه بنكران الجميل ، وعدم الثبات على مبدأ .

« ولكن من يتعمق البحث ، يتضح له أن ليس فى الأمر غرابة كما يبدو . فنى مصر كما فى كل البلاد ، ينهض حكم الشعب على مقدار ما يحصل عليه من غذاء وكساء ، وعما إذا كان حاكمه ييسر له أموره ، فيتعلق به ويؤازره ، أو لا ييسرها فيكرهه وينحى عليه باللائمة . وهذا سبيل فى الحكم لا يمكن الطعن فيه بالتحيز أو قصر النظر ؛ فمن العبث أن يتحدث الحكام إلى الشعب بألفاظ عزة الوطن ومجده ، وبأن تشجيع التجارة والفنون والصناعات يقتضى هذا أو ذاك من التضحيات ؛ لأن لقمة العيش يجب أن تسبق كل شىء ، وعندما لا يجد الناس الخبز ، فإن من حقهم أن لا يعترفوا بجميل ، ولا أن يظهروا الإعجاب . ماذا يهم المصريين أن يتغلب على بيك على ثورة الصعيد ، وعلى بلاد الحرمين ، وعلى سورية ، إذا لم تعد عليهم تلك الفتوحات بالإسعاد؟ بل على العكس ، زادت من شقائهم ! لأن تكاليف تلك الحملات أثقلت من أعبائهم . إن التجريدة على

الأراضى المقدسة وحدها تكلفت، ستة وعشرين مليوناً من الفرنكات ؛ وخروج الغلال مع أجناد الحملة ، بالإضافة إلى احتكار التجار حركة الغلال ، سببت مجاعة طاحنة ، دامت طوال عامى ١٧٧٠ و ١٧٧١ . فهل أخطأ القاهريون والفلاحون ، الذين يموتون من الجوع ، إذا ما استنكروا التجارة مع الهند، عندما لم تعد هذه التجارة بفائدة إلا على فئة المحظوظين؟ ألم يكن من حق الشعب أن ينعى ويكره الترف الذى يسمح لعلى بيك بدفع خمسة وعشرين ومائتى ألف درهم فى مقبض خنجر ، ، فيسبح الجواهرجية بحمده ، ويشيدون بكرمه ؟ أما يحق للشعب أن يسمى هذا سفهاً ، إذ يعتبره المتزلفون حسنة من حسنات على بيك ، والشعب هو الذى دفع ثمن هذا البذخ والجود ؟ وهل من الفضائل أن ينثر امرؤ ذهباً لم يتكلف مشقة فى جمعه ؟ أمن العدالة فى شىء أن يعطى ويمنح محسوبيه ... على حساب الشعب ؟ فليس بمنكر أن معظم أعمال على بيك صدرت عن شهوة المطامع الشخصية والغرور ، لا عن مبادئ العدالة والإنسانية ؛ فلم تكن مصر إلا ضيعة له ، ولم يكن أهلها سوى قطيع يتصرف فيه تصرف المالك للأرض وما عليها » .

ثم إننى لا أعرف وصفاً للمماليك أصدق مما وصفهم به ثانى سلاطينهم عز الدين إيبك التركمانى ، فى كتاب إلى سلطان سلاجقة الروم ، يحذره من الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، زعيم المماليك الجمدارية الصالحية ، الذين فروا من وجه إيبك ، ولجأوا إلى سلطان السلاجقة ، قال :

« . . . المماليك البحرية قوم مناحيس أطراف (أى لا يبقون على صحبة إنسان) ، لا يقفون عند الأيمان ، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم ؛ وإن استأمنتهم خانوا ، وإن استحلفتهم كذبوا ، وإن رفقت بهم غدروا . فتحرز منهم على نفسك ، فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك » .

فاستدعاهم السلطان السلجوقى وسألهم : « يا أمراء ، مالكم ولأستاذكم ؟ » فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : « يا مولانا ، من أستاذنا ؟ » قال : « الملك المعز ، صاحب مصر » . فقال الباشقردى : « يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا ، فقد أخطأ ؛ إنما هو خشداشنا ،

ونحن وليناه علينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سناً وقدراً ،وأفرس وأحق بالمملكة ؛ فقتل بعضنا ، وحبس بعضنا ، وأغرق بعضنا ، فهربنا منه ، وتشتتنا فى البلاد ، فالتجأنا إليك » .

ومع كل هذا ، ومهما استنكر الإنسان تاريخ المماليك الدموى ، فإنه لا يتمالك أن يحن إلى لحظات باهرة تدين لهم بها مصر فى تاريخها الطويل ؛ فإن دولة كدولة الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى ، أو الناصر محمد بن قلاوون أو الأشرف قايتباى ، لا يمكن إلا أن تثير فى نفوسنا الإعجاب ، وغير قليل من الزهو ، بأولئك الأجناد المبرزين ، حققوا لمصر إمبراطورية شبيهة بإمبراطورية أمنحعت الثالث . وكان السلطان المملوكى فرعوناً بكل ما تحوى هذه الكلمة من معنى السؤدد والسلطان . وكانت أمور الدولة المملوكية مرتبة منظمة ، وتقاليدها راسخة . وهذا ديوان رسائلها شاهد على كثير من هذه النظم . والشعب المصرى يستفئ ظلال هذا النظام فى زراعاته وتجارته وصناعاته وفنونه . وللجد وقت وللعبث واللهو أوقات ، سواء فى الأعياد القومية الكبرى ، كجبر الخليج ، أو فى الأعياد الدينية ، وأهمها طلعة الحج وعودته ، ومولد النبى .

وكانت متنزهات القاهرة واسعة منتشرة ، تنعكس فيها أفراح الناس على صفحات الماء الذى يملأ فى الفيضان منخفضات الأزبكية وبركة الفيل وبركة الناصرية وبركة الرطلى والخليج الحاكمى الناصرى ، وتسير سفن اللهو والنزهة ، تميد بالمطربين والآلاتية والمغانى . وتتألق بأنوار الفوانيس تزين بها صوارى المراكب ، أو تعلق على أبواب القواطين ، وتتدلى من الطيقان ..

لا تتمالك النفس الشاعرة أن تحس بما كان لهذا العصر من أبهة وفخامة وبهاء ، بملابس السلطان وأسلحته ، وركبته المزركشة ، والقبة تحمل على رأسه والطير ، والأمراء حوله يلعبون بالغاشية ، وأمامه الركبدارية ، يسبقهم الخليفة ، ويسير خلف السلطان الركبدارية ، والقضاة الأربعة ، وأتابك العسكر ، فنائب الغيبة وأمير أخور والدوادار والوزراء ومقدمو الألوف فأمراء المائة فأمراء الطبلخانات ، فأمراء العشروات ، وسائر المماليك ، فى أرديتهم الفضفاضة البراقة ، وعلى رأسهم الكلوتات والقواويق ، يمتطون أصائل الخيل .

وما أكثر المناسبات التى كانت تُتيحُ لأهل القاهرة رؤية المواكب الملونة الوضاءة اللامعة : فى طلعة الحج وعودته ، وفى خروج السلطان وجيشه فى التجريدات ، وقد علق الجاليش بالعرضى فى الريدانية ، وعند بركة الحبش ، وفى عودة السلطان من سرحاته للصيد والقنص ، أو فى ذهابه إلى ملاعبه ببر الجيزة وإنبابة .

وحياة القاهرة الصاخبة بالنهار ، المضيئة بالليل ، حول حلقات الذكر ، أو جماعات المستمعين للشاعر ، المتحلقين حول المحبظين والمغزلكين ، يشاهدون التشخيص ، أو أمام الشاشة البيضاء فى الظلام يتابعون أشخاص خيال الظل ، أو حول البهلوانات يرقصون على الحبل ، أو ملاعبى القردة والحواة والمشعوذين .

حتّى لحظات الاضطراب ، لم تكن تخلو من رومانتيكية إذا استوحيناها على البعد ، عندما ترمح فرسان المماليك من هنا وهناك فى كبكبة وصليل وصهيل ، وعندما تدق الكوسات حربيًّا من القلعة ، ويجتمع الأمراء المخامرون على السلطان فى ميدان الرميلة أو بسوق الخيل ، ويتأهب السلطان بالقلعة للمقاومة ، ومعه مماليك الطباق قرانصة وجلباناً . وتركب المكاحل على أسوار قلعة الجبل ، فتواجهها مكاحل المتآمرين ، ركبت على سطح مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل ، وتتبادل إطلاق القنابر . وعندما ينقض فريق منتصر على منازل الفريق المغلوب ، فينهبها ويسبى نساءها ويسطو على عبيدها وسراريها ، أو عندما يقبضون على المماليك الهاربين ، وقد تنكروا فى لباس العرب ؛ زنوط قرع ، واختبأوا فى مساقى الترب .

ويأوى أهل القاهرة إلى بيوتهم وأرباعهم ، ويقفلون أبواب دروبهم وحاراتهم ، بعد أن يخلوا متاجرهم ، وينقلوا متاعهم إلى الحواصل والمخابئ ، منتظرين مرور العاصفة بسلام .

أقول إن استيحاء هذه اللحظات الحرجة على البعد ، قد يحرك بعض الحنين إلى هذا اللون من الحياة الرومانتيكية يقصى عنها الركود والملال والسأم .

لا شك أن القاهرة كانت شديدة القذارة ، مرتفعة العثير ، وأن كلابها السائمة كانت كثيرة ، والأوخام والطواعين كانت متقاربة الوقوع . وكانت روائح القاهرة العفنة بحاجة إلى حرق الكثير من البخور ، والتطيب بالأعطار . والإفكيف

يمكن تصور تلك الرءوس المقطوعة تعلق بالأسبلة والأسوار والأبواب ، وتلك الرمم الموسطة أو المكلبة أو المصلوبة أو المشنوقة تترك أياماً فى عرض الطرقات أمام الرائح والغادى ، ويقول عنها المؤرخ فى برود عجيب : « وبقيت رمته بلا رأس ثلاثة أيام ، وقد جافت وولغت فيها الكلاب » ؟ كيف يمكن تصور هذا فى جو القاهرة الحار سبعة أشهر فى العام ، دون التيقن بأن أنوف أجدادنا زكمتها روائح القمامة والعفونة والجيف فى كل مكان ؟

نحن مع ذلك أقرب إلى التجاوز عن السيئات ، لنذكر حسنات منشئى الخوانق والمدارس والجوامع والبيمارستانات ، الآمرين بنسخ الختم المذهبة — أرأيت مصحف السلطان شعبان ؟ الموقفين الخيرات على معاهد الدرس ودور العبادة ، ومساقى الحيوان ومستشفياته ، القوامين على صناعات جميلة متقنة ، سواء فى البرد والطرز ، أو على النحاس المكفت بالفضه ، أو الفضة المكفتة بالذهب ، والأبنوس المطعم بالعاج ، وخشب الورد المطعم بالأبنوس ، أو صناعة الخراطين للمشربيات والمنابر ، والزجاجين للمشاكى والميناء والفسيفساء .

أولئك السلاطين يحكمون إمبراطورية امتدت حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالا ، وحتى بر اليمن وحضرموت والنوبة جنوباً ، وحتى آخر بلاد برقة غرباً ، وعلى امتداد شاطئ البحر الأبيض من برقة غرباً حتى خليج الإسكندرونة ، إلى الشمال الغربى .

تلك الدولة المنيعة ، التى وطد دعائمها وأوسع فى رقعتها وصد عنها الصليبيين والتتار ، خليط عجيب من الناس ، نشأوا فى دهاس آسيا الوسطى ، وحول بحر قزوين ، وفى بلاد القوقاز ، ووادى نهر الفولجا والدون ، وضفاف بحر البلطيق ، وبيعوا أطفالا فى أسواق النخاسة ، وانتهوا إلى خانات الشرق الأدنى ، وخان مسرور بالقاهرة ، لا ليكونوا خداماً وعبيداً ، بل ليربوا تربية قويمة جداً : تبدأ بالقراءة والكتابة وبعض الحساب ، وحفظ القرآن والتثقف بآداب الشريعة ، وملازمة الفروض ، فإذا قاربوا سن البلوغ أخذوا فى تعلم فن الحرب : من اللعب بالنشاب وركوب الخيل ، إلى الضرب بالسيف والطبر والنمجاة ، والصيد والكر والفر . لينتظموا فى سلك جيش عظيم ، يسمح للأفذاذ منهم ببلوغ أرقى مراتب الدولة ،

حتّى عرش السلطنة المصرية .

دولة دامت أربعة قرون عزيزة الجانب . يخطب ودها الديلم والفرس والتتار والسلاجقة والروم والبنادقة والأمالفيون والجنوفيون وسائر الفرنجة ، تحيا فى حدود نظم ومراسيم ثابتة ، إلا فيما يختص بولاية السلطنة ، فلم تنجح دولة المماليك الأولى ولا الثانية فى أن تضع نظامًا ثابتاً لوراثة السلطنة . ولا يغرنك أن يتسلطن أبناء قلاوون وأحفاده ، أو محاولة بيبرس تولية أولاده ، فإن أغلب أولئك السلاطين أبناء السلاطين كانوا أطفالا وأحداثاً وغلماناً : يرى فيهم الأتابكيون وسيلة ميسرة للحكم ، وسلماً يقفزون منه إلى دست السلطنة .

لقد بدأنا رحلتنا عبر التاريخ المصرى بمأساة انهيار السلطنة المملوكية تحت ضربات العثمانيين ، وتابعناهم بعض الطريق فى أول عهد الاحتلال العثمانى ، ويجدر بنا أن نتابع الآن هذه الطغمة الرائعة حتّى نهايتها .

* * *

لم تكن المصائب لتأتى فرادى ، فإن ضربة سليم القاضية إنما جاءت فى أعقاب نازلة اقتصادية عنيفة أصابت مصر فى أواخر القرن الخامس عشر ، واستمرت حتّى العصور الحديثة ، وربما حتّى افتتاح قناة السويس .

فمصر ، التى تتوسط ثلاث قارات ، كانت معبرًا من أعظم معابر التجارة العالمية ، وطريقاً من أهم طرق مبادلة المنافع والسلع ، وكانت دولة المماليك تتحكم فى أسواق الشرق والغرب ، يخطب الغرب ودها ما دامت أوروبا فى حاجة إلى الطيب والأعطار والأفاويه والحرير والكتان والجلود والغضار الصينى والأخشاب والمعادن .

ولكن تجارة الشرق عن طريق البحر الأحمر بدأت تتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، بعد أن اقتحم البرتغالى فاسكو دا جاما بحر الظلمات إلى البحر الشرقى الكبير ، مستديراً حول الطرف الجنوبى للقارة المظلمة ، بالغاً ماليندى على الشاطئ الشرقى لأفريقيا ، ثم عابرًا المحيط الهندى شرقاً إلى قليقوط فى بر الهند .

آذن هذا الكشف بصعود نجم البرتغاليين فى الشرق ، ونجم مصر المتألق فى كبد السماء انحدر إلى الأفول .

وكان ثراء مصر جديراً بأن يجعلها تتلقى الضربة البرتغالية برأس مرفوع ؛

ولو استطاع المماليك الجراكسة أن يخففوا من بذخهم ، وأن يمدوا أرجلهم على قدر ألحفتهم الجديدة ، لتمكنوا من الاستعداد لتلقى الضربة تصيبهم من الشمال على يد الخنكار سليم بن بايزيد آل عثمان .

أما عن المصريين فإننى لا أعرف أن قد ارتفع لهم سعر أو انخفض بزوال دولة المماليك . ذل بذل تداولوه على أيدى الهكسوس والأشوريين والفرس والمقدونيين والرومان والعرب والأكراد والفرغانيين والغز ، وسيواصلون تحمل نير العثمانيين ، فالمماليك من جديد ، فالفرنسيين ، فالأرنؤد ، فالمرابين الأوربيين ، فشركة قناة السويس ، فالإنجليز فالباشوات المصريين .

لن يجد المصريون فى حكم الولاة العثمانيين سوى الإمعان فى نهبهم وسلب أقواتهم وكرامتهم ، حتى ليحرم عليهم صنع رغيف الحنطة التى تعبوا فى إعداد الأرض لها ، وبذرها وريها وجمعها وحصدها ، فالأوامر أن تسلم الغلال رأساً إلى الكشاف والملتزمين .

سوف يهرب الفلاحون من قراهم — للمرة كم ! لا أدرى — أمام جباة الضرائب ومقارعهم وفلقاتهم وسياطهم ، فيضم الكشاف ضرائبهم إلى ضرائب القرية المجاورة .. إن لم يكن أهلها هم أيضاً هاجروا .

ماذا يعنى المصريين أن يعود المماليك إلى سابق عزهم ، وأن يصبحوا من ذوى الحول والطول ، بعد أن يعجب بهم سليمان القانونى فى معسكره أمام رودس ، وينعى على والده سليم أن أراد يوماً قطع دابرهم ؟

سيعود المماليك إلى ما يقرب من سطوتهم القديمة ، وستتحول وجاقات العثمانيين إلى وجاقات مختلطة منهم ومن المماليك ، وسيولى مشيخة البلد ، وإمارة الحج ، مماليك يبططون الباشا إلى صورة فوق الحائط ، أو يسمحون له بأن يندس بينهم لصاً من لصوص منسرهم .

ولن يجدى المصريين استقلال على بيك الكبير عن إسطنبول ، ولا تغلب مملوكه محمد بك أبو الدهب عليه . ولقد طالعنا فى أول هذا الفصل ما قاله ڤولنيه تعليقاً على عهد هذا السلطان المملوكى الصغير .

وأحب أن أنقل لك من تراجم الجبرتى ترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد من المصريين ، وأقابلها بترجمة واحدة ، حيثما اتفق ، لواحد من أمراء المماليك ؛ وستجد أن جميع تراجم الجبرتى ، باستثناء طفيف ، تتخذ صورة شبه واحدة للمصريين ، هى الصورة التى نقدمها للشيخ الحفناوى ، وصورة واحدة للمماليك هى ما نراه فى ترجمة إيواظ بيك :

« ومات الشيخ الإمام ، العلامة الهمام ، أوحد أهل زمانه فى العلم والعمل ، ومن أدرك ما لم يدركه الأول ، المشهود له بالكمال والتحقيق ، والمجمع على تقدمه فى كل فريق ، شمس الملة والدين ، محمد بن سالم الحفناوى الشافعى الخلوتى ، وينتهى نسبه من ناحية أم أبيه إلى الإمام الحسين . ولد على رأس المائة ببلدة حفنا بالقصر ، قرية من أعمال بلبيس . . . (ويسرد الجبرتى هنا قائمة مطالعاته ومذاكراته ودراساته ، من حفظ القرآن إلى حفظ المتون) . . . واجتهد ولازم دروسهم حتى تمهر وأقرأ ودرس وأفاد فى حياته أشياخه ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فأقرأ الكتب الدقيقة ، كالأشمونى وجمع الجوامع والمنهج ومختصر أسعد ، وغير ذلك من كتب الفقه والمنطق والحديث والكلام . وأشياخه الذين أخذ عنهم وتخرج عليهم : أحمد الخليفى ، الشيخ محمد الديربى ، عبد الرؤوف البشبيشى ، أحمد الملوى ، أحمد الشجاعى ، عبده الديوى ، محمد الصغير ، البديرى ، الدمياطى . . . وكان إذ ذاك فى شدة من ضيق العيش والنفقة ، فاشترى دواة وأقلاماً وأوراقاً ، واشتغل بنسخ الكتب ، فشق عليه ذلك خوفاً من انقطاعه عن العلم . . . وذهب الشيخ إلى البيت ، وكسر الأقلام والدواة . . . واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه ، وعانى النظم والنثر ، وتخرج عليه غالب أهل عصره وطبقته ومن دونهم . . . ولم يعان التأليف لاشتغاله بالإلقاء والإقراء . . . فمن تآليفه المشهورة : حاشية على شرح الشنشورى فى الفرائض ، وشرح الهمزية لابن حجر إلخ . . . وكان كريم الطبع جداً ، وليس للدنيا عنده قدر ولا قيمة ، جميل السجايا ، مهيب الشكل ، عظيم اللحية أبيضها ، كأن على وجهه قنديلا من النور ، وكان كريم العين على إحداهما نقطة ، وأكثر الناس لا يعلمون ذلك بجلالته ومهابته ، وكان فى الحلم على جانب عظيم ؛ جاءه تلميذ له ينشد موالا من تأليفه :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالزيت حار
والعيش الابيض تحبه ؟ قلت والكشكار
قالوا تحب المطبــق ؟ قلت بالقنطار
قالوا اش تقول فى الخضارى ؟ قلت عقلى طار

فضحك الشيخ الحفناوى وقال ممازحاً : أنا لا أحبه بالزيت الحار وإنما :

قالوا تحب المدمس ؟ قلت بالمســلى والبيض مشوى تحبه ؟ قلت والمقلى

* * *

فى مقابل هذه الإنسانية السمحاء ، اسمع تراجم المماليك أو العثمانيين :

« ومات الأمير الكبير المقدام إيواظ بيك والد الأمير إسمعيل بيك ، وأصل اسمه عوض ، فحرفت باعوجاج التركية إلى إيواظ ، فإن اللغة التركية ليس فيها الضاد . وهو چركسى الجنس ، قاسمى تابع مراد بيك الدفتردار القاسمى ، ومراد بيك ابن رضوان بيك أبى الشوارب . . . ثم وقع الاتفاق على إخراج تجريدة ، وأميرها إيواظ بك ، وصحبته ألف نفر من الوجاقات . . . وخرج بموكب عظيم وتوجه إلى قبلى . . . واتفقوا على إمداده بخمسة من الأمراء الصناجق وهم أيوب بيك ، واسمعيل بيك الدفتردار ، وإبراهيم بيك أبو شنب (وما أعرفش مين بيك بارم ديله ، والأمير الملقب بـ « صنجق ستّه » لأنه حصل على الثراء من زوجته ، وسليمان بيك قيطاس ، وأحمد بيك ياقوت زاده وأغوات الإصباحية) . . . فورد الخبر أن إيواظ بيك تحارب مع العربان وهزمهم . . وفى شوال نزلت جماعة من العربان بكرداسة ، فكبسهم ذو الفقار كاشف الجيزة ، وقتل منهم أربعة وأربعين رجلا وطلع برءوسهم إلى الديوان . . . فتبعهم عبد الرحمن بيك ومن معه من الكشاف فأثخنوهم قتلا ونهباً ، وأخذوا منهم ألفاً وسبعمائة جمل بأحمالها . . . وحضر إيواظ بيك إلى مصر ، ودخل فى موكب عظيم ، والرءوس محمولة معه ، وطلعوا إلى القلعة ، وخلع عليه الباشا ، وعلى أستاداره الخلع السنية . . .

« وقتل إيواظ بيك فى تلك السنة فى الفتنة ، وذلك أنه لما اشتدت الفتنة بين

العرب والينكجرية . . . وبعد أمور وحروب ، وقعت أمور ، يطول شرحها ، مشهورة ، من قتل ونهب وخراب أماكن . . . ووقعت حروب عظيمة بين الفريقين عدة أيام . . . وصار قانصوه بيك يرسل بيورلديات وتنابيه . . . فعندما وصل إليه البيورلدى ، قام وقعد واحتد ، واشتد بينهم الجلاد والقتال ، واجتمع الأمراء والصناجق والأغوات، عند قائمقام قانصوه بيك ، ورتبوا أمورهم ، وذهبت طائفة لمحاربة منزل أيوب بيك ، إلى أن ملكوه بعد دقائق ونهبوه . . . وانتهبت بيوت الخارجين ، وبيت محمد بيك الكبير ، وأحمد جوربجى القنبيلى . . . فوصل الخبر إلى إيواظ بيك ورمح خلفهم . وكان محمد بيك أجلس جماعة سجمانية بأعلى السواقى ، لمنع من يطرد خلفهم عند الانهزام ، فرموا عليهم رصاصاً ، فأصيب إيواظ بيك ، وسقط عن جواده ، وحصل بعد ذلك ما حصل من الحروب ، ونصرة القاسمية والعزب ، وهروب المذكورين ، وعزل الباشا ، ودفن إيواظ بيك بتربة أبى الشوارب . . . »

وتأمل قصة المذبحة الأولى للمماليك ، وقد نسبت إلى الباشا العثمانى حمزة :

« وقيل إنها من على بيك الذى بالنوسات (وهو على بيك الكبير ، بروفة محمد على باشا) . . . فى ثانى شهر شوال من سنة ١١٧٩ ﻫ (١٧٦٥ م) ركب الأمراء إلى قره ميدان ليهنئوا الباشا بالعيد ، وكان معتاد الرسوم القديمة أن كبار الأمراء يركبون بعد الفجر من يوم العيد ، وكذلك أرباب العكاكيز ، ينطلقون إلى القلعة ؛ ويمشون أمام الباشا من باب السراية إلى جامع الناصر ، فيصلون صلاة العيد ، ويرجعون كذلك ، ثم يقبلون أتكه ويهنئونه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضاً على رسمهم واصطلاحهم ، وينزل الباشا فى ثانى يوم إلى الكشك بقره ميدان ، وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور ، واستعد فراشو الباشا بالتطلى والقهوة والشربات والقماقم والمباخر ، ورتبوا جميع الاحتياطات واللوازم من الليل ، واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون ، وجلس الباشا بذلك الكشك ، وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ، ثم يأتى الدفتردار وأمير الحج والأمراء الصناجق والاختيارية وكتخدا الينكجرية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والأودهباشية واليمقات والجربجية فيهنئون الباشا ويعيدون عليه ، على قدر مراتبهم بالقانون والترتيب ، ثم ينصرفون . فلما حضروا فى ذلك اليوم ، وهنأ الأمراء الصناجق

الباشا . وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون النزول . وقف لهم جماعة وسحبوا السلاح عليهم ، وضربوا عليهم ببنادق ، فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بسيف فى وجهه ، وحسين بيك كشكش أصيب برصاصة نفذت من شقه ، وسحب الآخرون سلاحهم وسيوفهم . واحتاط بهم مماليكهم . ونط أكثرهم من حائط البستان من الجهة الأخرى ، وركبوا خيولهم ، وهم لا يصدقون بالنجاة ، وأركبوا عثمان بيك حصانه . وهو يقول : باب العزب ، باب العزب ، وقد قطع السيف وجهه وحنكه ، وذهبوا إلى باب العزب ، وأنزلوه . فمكث هنيهة ومات ، فشالوه إلى بيته وغسلوه وكفنوه . وانجرح أيضاً إسمعيل بيك أبو مدفع ، ومحمود بيك ، وقاسم أغا ، ولكن لم يمت منهم إلا عثمان بيك . »

* * *

افتح التراجم عند أية صفحة : العلم والدراسة والمتون والصلاح والفتاوى والإقراء تلازم المصريين ؛ والحرب والضرب والغدر والقتل والنهب والعودة بالرءوس المقطوعة والجلود المحشوة بوْ ، تجدها دائماً فى تراجم المماليك والعثمانيين .

ولا تحسبن أن الفريقين يعيشان فى عزلة تامة بعضهما عن البعض ، فهذا الشيخ الحفناوى ، الذى يحب المدمس بالمسلى ، والبيض المشوى والمقلى ، يتداخل بين المتحاربين ، ويحاول منع تجريدة سارى عسكرها حسين بيك كشكش ، تسير إلى الصعيد لمحاربة على بيك الكبير : « يتكلم الحفناوى فى المجلس ، ويفحمهم بالكلام . ويمانع فى ذلك ويقول : أخربتم الأقاليم والبلاد ، فى أى شىء هذا الحال . وكل ساعة خصام ونزاع وتجاريد . على بيك هذا رجل أخوكم وخشداشكم ، أى شىء يحصل إذا أتى وقعد فى بيته واصطلحتم مع بعضكم ، وأرحتم أنفسكم والناس . وأرسل الشيخ مكتوباً لعلى بيك وبخه فيه وزجره ، ونصحه ووعظه . . . ولم يلبث الشيخ بعد هذا المجلس إلا أياماً ، ومرض ورمى بالدم ، فيقال إنهم أشغلوه وسموه ، ليتمكنوا من أغراضهم . »

* * *

« وذهب حسين بيك كشكش ومماليكه إلى طندتا وكرنكوا بها ، وبعد قتال عنيف ، يؤمن محمد بيك أبو الدهب الجماعة ، ثم يقتل منهم حسين بيك كشكش وخليل بيك السكران . ثم حسن بيك شبكة ، ويستأمن خليل بيك ومن معه فى

ضريح السيد البدوى، ثم ينفون إلى الإسكندرية ، وهناك يخنق خليل بيك ، ومن معه . . . وتعود تجريدة محمد بيك أبو الدهب إلى مصر ، وتدخل من باب النصر ، وأمامها رءوس القتلى محمولة فى صوان من فضة ، وعدتها ستة : حسين بيك كشكش ، وخليل بيك السكران ، وحسن بيك شبكة ، وحمزة بيك ، وإسمعيل بيك أبو مدفع ، وسليمان أغا الوالى . والخدم ، حاملو الصوانى ، يقولون : صلوا على النبى ! »

تلك هى الصورة الحقة لتاريخ مصر فى عهد المماليك والعثمانيين : المصريون أهل العلم والمعرفة والحضارة والصناعات والحرف والزراعة والتجارة ؛ والأجانب قطاع طرق سلابون نهابون . المصريون يعنون بالبناء والخلق والإبداع ، بالفن والصناعة والفكر والعلم ؛ وغزاتهم الأجانب عنايتهم جمع الأموال ، وضرب السكة فيما فيه فائدة الولاة والأمراء ، والفتن حول السلطة والنفوذ ، والاستيلاء على الأرض .

ما أبدعها صورة للمقابلة بين المصرى وحكامه الأجانب : ترجمة الشيخ الحفناوى فى مقابل ترجمة إيواظ بيك !

* * *

ولقد ظننتنى بلغت أسفل سفليين إبان الحكم العثمانى والسطو المملوكى وأنا أطالع الجبرتى ؛ سئمت نفسى وعافت أخبار القاسمية والفقارية ، وعلى بيك القازدوغلى ، ومحمد بيك بارم ديله ، وإبراهيم بيك سنجق ستة .

وحسبت أن بونابرت وجنود الجمهورية الأولى قضوا نهائيًّا على أولئك الطغام ، فإذا الطغام غول كالهيدرا ، ما إن تقطع رأسها إلا وينبت مكانها رأسان .

فما إن عادت أجناد العثمانية ، يظاهرهم البريطانيون جيشاً وأسطولا ، حتى بليت مصر بألوان جديدة من الطغام والظلمة . ولعلك تذكر أن من بين فرق الجيش العثمانى ، الذى حرر مصر من الفرنسيين ، شرذمة من الأرنؤد يقودها ضابط برتبة سرششمه (أى بنباشى) ، اسمه محمد على ، جاءت من الروملى لتؤكد لشعب مصر أن ما ذاقوه من هول وإذلال وتقتيل لم يكن شيئاً مذكوراً ، وأن الوجاقات السبعة الكرام كانت البرد والسلام بالقياس إلى وجاق الأرنؤد هذا .

وسيعود الباشوات بفرماناتهم وبيولردياتهم ، وسيحمل أحدهم للمصريين هدية تهدى ، وبشرى بالحكم الصالح : طغمة الدلاة ذوى الطراطير السوداء . جماعة من الأبالسة سابت من جهنم ، شرذمة جمعت ، فأوعت ، من حثالات المتاولة والأكراد ، ومن مناسر القتلة وقطاع الطرق ، ومن كل عات فاسق لفظته مجتمعات الشرق الأدنى ، التى لم تكن هى ذاتها نماذج باهرة للفضائل !

وإنى أعتذر هنا إذ أختم على ذلة الشعب المصرى بأنكى وأفظع الوصمات . فأمر هؤلاء الدلاة لن يقف عند السطو والنهب والسبى والفسق العلنى ، بل سنسمع أن أولئك البلطجية كانوا « يلوطون فى الرجال الاختيارية » ! . . . ولعلك تعرف معنى الرجل الاختيار ؟ فهو شيخ جاوز الخمسين أو قارب الستين ، اختلط البياض بسواد لحيته ، وطلعت على جبينه زبيبة الصلاة سمراء من غير سوء !

وتتصادم هذه الحثالات البشرية وتتطاحن ، ويقتلون مقدميهم ورؤساءهم ، بل يستديرون على الباشا الذى جلبهم فيعدمونه الحياة ، قبل أن يرسلهم جام غضب على أعدائه . . . ومحكوميه .

فى هذا المعترك الجهنمى ، وذلك الهول والبغى ، يعيش رجل واحد ، تطق عيناه بشرار القسوة ، وتتدحرج مقلتاه كأنهما عيون الزط والنور . لاشك فى ذكائه وقدرته على تركيز جهوده نحو هدفه الواحد ؛ فهو يضع كل ما وهبته الطبيعة من قوة وحيلة ، وكل ما أفاءت عليه البيئة والمنبت ، فى خدمة غرضه الأوحد : ولاية مصر ، ثم الاستقلال بها عن الآستانة ، كما فعل على بيك الكبير .

مع أنه ، كما يقول الجبرتى ، من الأراذل الأصاغر فى دولته ، ممن لا تنتظر لهم ولاية ، حتى من الولايات التى يعين لها حامل طوخ أو طوخين ، بله ولاية مصر التى لا يتقلدها سوى باشا من ذوى الثلاثة أطواخ . هذا الرجل هو تاجر الدخان الألبانى ، الجندى المغامر ، بطل التاريخ المصرى الحديث ، محمد على سرششمه ، على سن ورمح .

الوحيد الذى لم يفقد رشده فى هذا الخضم العفن ، فهو البارد حساً ، يثير الجنود على الباشا آناً ، وعلى المماليك آناً آخر ، ويسعى بين المماليك بالوقيعة ، متلمساً كل وسائل الإغراء والتهديد .

ولعل أكبر درس تعلمه فى المدرسة الوحيدة التى طرق أبوابها–مدرسة شيحة، رب الملاعب– هو طريقة اجتذاب المعممين المصريين ، وعلى رأسهم ذلك الرجل الطيب أكثر من اللازم ، كبير النفس نبيل المحتد ، السيد عمر مكرم ، نقيب الأشراف بالديار المصرية .

ومهما استغلق الأمر على أغبياء الباب العالى ، فلا أقل من إدراكهم أن صنفاً واحداً من الرجال يمكنهم أن يركنوا إلى رأيه بمصر – لأنه من جنس لا يصلح لرئاسة الجند ولا للولاية – ألا وهو صنف المعممين ؛ فمهما كان طلاب هؤلاء من الدنيا فإنهم ، بعد ، رجال صلاح ودين ؛ ومحمد على يعرف رجال دولته العلية جيداً ، يعرف تهالكهم على المال ، وجريهم وراء الرشوة ، وقبولها مع الغطرسة . ولكنه يعلم أيضاً أن فيهم شيئاً من الميل نحو الشيخة المصريين. سيجىء وقت يستطيع فيه شراء رجال دولته بذهب المعز ، كما سوف يعرف كيف يشهر على دولته فى اللحظة المناسبة سيف المعز . أما فى الآونة الحاضرة فلا مال عنده يهديه ، وهو أحوج ما يكون إلى أن يجيئه المعممون بولاية مصر على طبق ؛ فجاءوا بها إليه فى مكبة فاخرة ، حملها إليه الرجل الطيب القلب ، الكريم ابن الكرام ، السيد عمر أفندى . وقبل أن تبرد الهدية فى صحنها الفاخر ، كان الغادر قد بلغ غرضه ، فكافأ نقيب الأشراف . . . بالنفى !

ومحمد على يصالح المماليك ليؤلبهم على الألفى الكبير ، ويستعمل على هذا عثمان البرديسى . ذلك « الممخرق الغشوم » . وكان محمد على والألفى – على حد قول محمد على نفسه – يلعبان على الحبل كبهلوانين . استطاع البهلوان الألبانى أن يشيط طبخة البهلوان المملوكى بالدس والوقيعة ، مستغلا فى ذلك حسد البرديسى ، وغيرة الأمراء من « عظمة الألفى وتعاظمه » .

وكان الألفى قاب قوسين أو أدنى من تملك مصر ، مستقلا عن إستنبول ، بمعونة الإنكليز . فيرسل محمد على تجريدة عظيمة لمحاربة الألفى ، فيها جميع عساكر الدلاة – هواة الرجال الاختيارية ! – وجميع الأرنؤد ، برئاسة حسن باشا طاهر ، وبها أتراك ومغاربة وغير ذلك ؛ فيكسرهم الألفى شر كسرة . ولو حرص أن يطارد المغلوبين لأخرجهم جميعاً من القاهرة على وجوههم . ولكن

مدينة دمنهور امتنعت على الألفى ، وكان قصده أن يجعل منها معقلا يقيم فيه حتى تأتيه النجدة الإنكليزية الموعودة . كما أن بعض إخوانه وخشداشيه خذلوه ، فاضطر أن يرحل عن البحيرة بجيوشه ، ومن معه من العربان ، حتى وصل إلى الأخصاص . فنادى محمد على باشا على العساكر بالخروج ، فخرجوا أفواجاً بالليل والنهار ، حتى بلغوا ساحل بولاق ، وعدوا إلى بر إنبابة ، وجيشوا بظاهرها .

فلما وصل الألفى إلى كفر حكيم ، وانتشرت جيوشه بالبر الغربى ، فيما بين إنبابة والجيزة ، ركب محمد على وعساكره ، ووقفوا على ظهور خيولهم ، واصطفت الرجالة ببنادقهم وأسلحتهم . ومرّ الألفى حيالهم فى هيئة عظيمة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على وعرب الهنادى والشرق ، فى كبكبة مروعة .

رأى محمد على ذلك فتعجب وأخذ يقول عن الألفى : « هذا طهماز الزمان والا إيش يكون ! » . ثم يأمر الدلاة والخيالة بالتقدم ، ويرغبهم بالمال الكثير ، فلا يتقدمون . واستمر الألفى سائراً فى جيوشه حتى بلغ إلى قرب قناطر شبرامنت ، فنزل على ربوة هناك ، وزاد به الهاجس والقهر .

ماذا حدث ؟ لماذا لم يهجم الألفى على تلك الأجناد المرتزقة فيقتحمها إلى القاهرة ؟ أيريدنا الجبرتى أن نفهم بأن عين الذئب الغادر أصابت طهماز الزمان ؟

الواقع أن الألفى لم يكن متمتعاً بصحة كاملة ، وأنه فى ذلك اليوم اتجه ببصره الزائغ نحو الضفة الأخرى من النيل ، وهو يرى القاهرة أمامه بمآذنها العديدة ، من قناطر شبرامنت ، وأخذ يقول :

« يا مصر ! انظرى إلى أولادك حولك مشتتين متباعدين مشردين . لقد استوطنك أجلاف الترك واليهود ، وأراذل الأرنؤد ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك «وبرجالك الاختيارية؟» ويطمسون على بهجتك ونورك . . . »

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، حتى تحركَ به خلط دموى — وقيل أصيب الكوليرا ، وهذا غير معقول — فتقايأ دماً ، وعرف أن قد دنت نهايته ، فقال :

« قضى الأمر ! وخلصت مصر لمحمد على . وما ثم من ينازعه ويغالبه ، وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » .

ثم جمع مماليكه وأوصاهم بالألفة ، وحذرهم من التخاذل ، ومن مخادعة عدوهم . ثم أوصى إذا مات أن يحملوه إلى وادى البهنسا ، ليدفن بجوار قبور الشهداء .

وهذه الفكرة الإسلامية العميقة تدهشنى من أولئك المماليك السفاحين ، الذين ولدوا فى أرض غير إسلامية : أن يذكر الألفى العرب الأولين ، وقبور من استشهد منهم فى قتال جيش عمرو بن العاص ضد دوق الفيوم فى وادى البهنسا !

ولكن المؤرخين قد اتفقوا على أن المماليك كانوا يجمعون المتناقضات فى خلقهم . فهم أهل صلاح وتمسك بالفرائض والسنة ، فيما يشبه سلوك المجرمين المحترفين فى الصعيد ، الذين يصلون العشاء . ثم يجوسون فى الظلام لتقليع زراعة ، أو إزهاق روح ، مقابل مبلغ من المال . وقيل بأن أحدهم أخذته الشهامة فقال لامرأة فقيرة تطالبه بأخذ ثار : « طيب روحى يا وليه ، حاجتلو لك لوجه الله ! »

ولما عرف محمد على بموت الألفى قال : « طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حساباً » . وألبس المبشر فروة سمور . وأجزل له العطاء ، وأمره أن يركب بالحلقة ، ويشق القاهرة ليراه أهل البلد ، ويسمعوه معلناً لنهاية الألفى .

طابت له مصر حقًّا . ولأولاده ، وأعقابه من بعده ، ولم يعد هو . أو هم ، يحسبون لأحد حساباً ، إلا للفرنسيين أيام سعيد وإسماعيل ، وللإنجليز منذ عام ١٨٨٢ حتى جاءتهم ساعة الحساب على أيدى أولاد الفلاحين والصعايدة ، ذات فجر من شهر يولية سنة ١٩٥٢ .

طابت له مصر ، وانقض على المماليك مرتين ؛ كانت الأولى بروفة صغيرة للثانية ، عندما دخلوا القاهرة بحجة الاشتراك فى موكب جبر الخليج ، فما انحشر موكبهم فى شارع النحاسين ، حتى انطلق الرصاص يدوى من النوافذ والأسطحة والقيعان ، وهرب من استطاع منهم الهرب إلى البرقوقية ، وهناك دخل وراءهم أجناد محمد على ومسكوهم وقتلوهم .

أما فى المرة الثانية ، وهى الأخيرة ، فقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون

لمحاربة الوهابيين . ثم عرف كيف يتصيدهم واحداً واحداً فى منحدر باب القلعة ، يمطرهم أرنؤده بالرصاص ، ويأخذونهم بالقتل من كل جانب ، فلا هم قادرون على التقدم ، وقد أقفل باب القلعة ، ولا هم يستطيعون التأخر وقد اختلط حابلهم بنابلهم فى الممر الضيق .

وفى نفس اليوم كانت أوامره قد صدرت إلى مشاعليته بقتل كل من يجدونه من المماليك فى أنحاء البلاد ، حتى تمكن من القضاء على نيف وألف مملوك ، وبينهم أكثر أمرائهم .

ويقال بأن عدد من ذبح بالقلعة كان نحو ثمانين وأربعمائة أمير مملوكى وأتباعهم ، وفى رواية أنهم كانوا أكثر من ذلك ، ماتوا عن آخرهم إلا أمين بك الذى تسلق السور وهرب إلى الشام .

وكانت تلك نهايتهم كقوة محاربة وكحزب سياسى ، وبذلك حقق محمد على ما لم يحققه سليم العثمانى فى مطالع القرن السادس عشر ، ولا بونابارت الكورسيكى فى سلخ القرن الثامن عشر .

« طابت لى مصر وما عدت أحسب لغيره حساباً »

وله أن يصبح سوط عذاب وأس الرزايا ، بليت به مصر ، وستر زأ بأسرته كابراً عن كابر ، طوال القرن التاسع عشر ، وإلى عامين بعد انتصاف القرن العشرين .

قال الكونت دى سان فريول ، من كبار الزائرين الفرنسيين لمصر ، فى خطاب خاص إلى أهله بفرنسا ، يصور حالة البلاد فيما بين عامى١٨٤١ و ١٨٤٢ [وتاريخ الخطاب ٤ يولية سنة ١٨٤٢] :

« ذرعت مصر طولا وعرضاً ، وأحسبنى مستطيعاً التوكيد بأن الشمس لا تطلع على شقاء أو تعاسة أشد مما يوجد بهذه الجنة الأرضية . . . ولقد هبط تعداد البلاد بمقدار الخمس ، بفضل نظام فى الحكم لحمته استغلال الفرد ، وسداه السطو المنظم » .

وإذا أردت أن تعرف تفاصيل استغلال الفرد ، وبعض هذا السطو المنظم ، فاقرأ الجزء الرابع من تاريخ الجبرتى ، أو طالع ما كتبه الدبلوماسى البريطانى

باتون ، وقد خبر ذلك العهد عن رؤية ومشاهدة .

مات الألفي فباض محمد على وصفر ، واستدار لبقية المماليك ، يقضي عليهم بطريقة وحشية لا يمكن تبريرها ، من أية ناحية إنسانية .

* * *

ولقد حانت اللحظة التي نتابع فيها نهاية المماليك بعد المذبحة ؛ لأن من حق سلاطين مصر علينا : من حق شجرة الدر وبيبرس وقلاوون وأبنائه . وبرقوق وقايتباى والغورى وطومان باى ، أن يعرف الجيل الحاضر خاتمة مماليك الصالح أيوب ، ومن جاء بعدهم : الذين حكموا مصر اسماً وفعلا حتى الغزو العثماني ، وفعلا حتى موت الألفي ومذبحة القلعة ، أى من عام ١٢٥٠ م حتى عام ١٨١١ م .

والجبرتي ، الذى ننقل عنه الصور النهائية للمأساة ، كان كارهاً لهؤلاء المماليك القتلة الفاسقين . بيد أنه لا يتمالك من إبداء الأسف على ما آل إليه حالهم . فهو فى ذلك ، وفى غيره ، إنسان بكل ما فى هذه الكلمة من معنى أخلاق رفيع قال :

« وفى منتصف رمضان سنة ١٢٣٢ [١٨١٦م] وصلوا برمة إبراهيم بيك الكبير — زميل مراد بيك — من دنقلة . وذلك أنه لما وصل خبر موته ، استأذنت زوجه ، أم ولده ، الباشا فى إرسال امرأة تدعى نفيسة لإحضار رمته . فأذن بذلك ، وأعطى المتسفرة ، فيما بلغنا ، عشرة أكياس ، وكتب لها مكاتبات لكشاف الوجه القبلى بالمساعدة . وسافرت ، وحضرت به فى تابوت ، وقد جف جلده على عظمه ، لنحافته ، وذلك بعد موته بنحو ستة شهور . وعملوا له مشهداً ، وأمامه كفارة ، ودفنوه بالقرافة الصغرى عند ابنه مرزوق بيك » .

ولقد سبق ذلك أن حضر نحو العشرة أشخاص من الأمراء المصرلية البواقى ، فى حالة رثة وضعف وضيم واحتياج ، وكانوا أرسلوا إلى محمد على باشا يطلبون الأمان . كما حضر بعدهم طائفة من بواقيهم من دنقلة إلى بر الجيزة ، وهم نحو الخمسة وعشرين شخصاً ، وملابسهم قماص بيض لا غير ، فأقاموا فى خيمة ينتظرون الإذن .

ويعود الجبرتي إلى تلخيص ما جرى على المماليك من العوادى ، وذلك فى نهاية ترجمته للأكبر إبراهيم بيك عين أعيان أمراء الألوف المصريين :

« عاثوا فساداً إلى أن تحرك عليهم حسن باشا الجزايرلى عام ١٢٠٠ ، وساعدته الرعبه ، وخرجوا من المدينة إلى الصعيد ، وانتهكت حرمتهم . ثم رجعوا فى سنة ١٢٠٦ إلى إمارتهم ودولتهم ؛ وعادوا إلى حالتهم الأولى وأزيد منها فى التعدى ؛ فأوجب ذلك ركوب الفرنساوية عليهم ؛ ولم يزل الحال يتزايد . والأهوال يتلو بعضها بعضاً ، حتى انقلبت أوضاع الديار المصرية . وزالت حرمتها بالكلية . وأدى الحال بالمترجم [إبراهيم بيك] إلى الخروج والتشتيت والتشريد ، هو ومن بقى من عشيرته ، إلى بلاد السودان ، يزرعون الدخن ، ويتقوتون منه ، وملابسهم القمصان التى يلبسها الجلابة فى بلادهم ، إلى أن وردت الأخبار بموته فى شهر ربيع الأول من سنة ١٢٣١ .

« وفى أواخر ربيع الثانى من العام نفسه ، حضر شخص يسمى سليم كاشف من الأجناد المصرية ، مرسلا من عند بقاياهم من الأمراء وأتباعهم ، الذين رماهم الزمان بكلكله ، وأقصاهم وأبعدهم عن أوطانهم ، واستوطنهم دنقلة من بلاد السودان . يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدخن . وبينهم وبين أقصى الصعيد مسافة طويلة ، نحو من أربعين يوماً ؛ وقد طال عليهم الأمد ؛ ومات أكثرهم ومعظم رؤسائهم . . . وبقى ممن لم يمت منهم إبراهيم بيك الكبير ، وعبد الرحمن بيك ، تابع عثمان بيك المرادى إلخ . . . وبواقى صغار الأمراء والمماليك . وقد كبر سن إبراهيم بيك وعجزت قواه ووهن جسمه . فلما طالت عليه الغربة ، أرسلوا هذا المرسل بمكاتبة إلى الباشا (محمد على) يستعطفونه . ويسألون فضله . ويرجون مراحمه ، بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم ، ويأذن لهم بالانتقال من دنقلة إلى أية جهة من أراضى مصر يقيمون بها . ويتعيشون فيها بأقل العيش . تحت أمانه ، ويدفعون ما يجب عليهم من الخراج الذى يقرره عليهم ؛ ولا يتعدون مراسمه وأوامره .

« فلما حضر وقابل الباشا . تكلم معه ، وسأله عن حالهم وشأنهم . ومن مات ومن لم يمت منهم ، وهو يخبره .

« ثم أمره بالانصراف إلى محله الذى نزل فيه ، إلى أن يرد عليه الجواب ، وأنعم عليه بخمسة أكياس . فأقام أياماً حتى كتب له جواب رسالته ، مضمونها

أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم بشروط شرطها عليهم ، إن خالفوا شرطاً واحداً ، كان أمانهم منقوضاً ، وعهدهم منكوثاً ، ويحل بهم ما حل بمن تقدم منهم » .

ويذكر الجبرتى سبعة من الشروط التى سمع بها ، ثم يقول :

« فسبحان المعز المذل ، مقلب الأحوال ومغير الشئون ! فمن العبر أنه لما حضر المصريون [يقصد المماليك المصرلية] ، ودخلوا مصر بعد مقتل طاهر باشا ، وتآمروا وتحكموا ، فكانت عساكر الأتراك فى خدمتهم ، ومن أرذل طوائفهم ، وكانت علائفهم [علائف الأتراك] تصرف عليهم من أيدى كتابهم [كتاب المماليك] وأتباعهم . وإبراهيم بيك هو الأمير الكبير ، وراتب محمد على باشا هذا من الخبز واللحم والأرز والسمن الذى عينه له إبراهيم بيك من كيلاره ، نعوذ بالله من سوء المنقلب ! »

وفى مراسيم استقبال الباشا محمد على لقنصل إنجلترا ، يصف پاتون ، مساعد القنصل ، منظر استقبال الباشا للمفوضين الأجانب وصفاً دقيقاً ، ثم يلتفت إلى جانب من البهو الكبير ، فيرى آخر المماليك واقفاً مع خدم الديوان ، وقد أحنت الشيخوخة ظهره ، ولبس عمامة كبيرة ، وقفطاناً أحمر ، أثراً من آثار العز الدارس . ويستحضر پاتون فى ذهنه أطياف مراد بيك وإبراهيم بيك والصراع بينهما وبين بونابرت وكليبر .

ونستحضر نحن أطياف الظاهر بيبرس وقطز وفارس الدين أقطاى وقلاوون والناصر محمد وقايتباى ، أولئك الذين دوخوا فرسان الصليبيين ، والخانات التتار ، وخطبت ودهم جمهوريات البنادقة والأمالفيين والجنوفيين وأمبراطرة بيزنطة .

الهوان بعد السلطان ، والذلة بعد العز ! فهل يليق أن أضيف إليها صورة المماليك وقد استحالت إلى كرنفال كنا نراه فى طفولتنا أمام زفة المطاهر والعروس ؟ وهى صورة « ملك الزمان » يركب أكديشا ، ويلبس قاووقاً ، كما صورتها فى فصل « ملك الزمان » من كتاب « سندباد عصرى » . أى أن ملابس التشريفة المملوكية كانت قد انتهت إلى مخازن الأكسسوار بشارع محمد على والداودية .

ولا أنفك أفكر بصورة فى متحف « اللوفر » للمصور دافيد ، تمثل القائد البيزنطى بليزاريوس ، حامى ملك يوستنيانوس ، فى صورة شيخ كفيف يستجدى

المارق ، ووقف بين ساقيه حفيده الصغير ، يمد ذراعيه بخوذة القائد ، ويتلقى الإحسان من يد عابرة سبيل . ويظهر أن لا أساس فى التاريخ لهذه النهاية المحزنة لقائد من أحسن قواد بيزنطة ، حماها من جيوش كسرى أنو شروان ، وانتصر على الفاندال فى أفريقيا ، وخلص روما ونابولى ورافينا وسردينيا من الغوط الشرقيين ، وحمى القسطنطينية من الهون . ولكن شناعة الشانئين ، وغيرة الإمبراطور يوستنيانوس ، بتحريض الإمبراطورة تيودورا ، أودت به .

وحتى لو صدقت حكاية استجداء بليزاريوس ، فلم تكن سوى مأساة رجل واحد ، وهذه مأساة مجموعة بشرية كبيرة ، بدأت من لاشىء ، وفدت على مصر من أسواق النخاسة بالشرق الأدنى ، ومن وراء سيحون وجيحون ، وجبال كردستان والقوقاز وأودية الڤولجا بأرض قوبان ، ومن الأناضول والبلقان وضفاف البحر الأسود وبحر أزوف وبحر قزوين ، وقيل من شواطئ البلطيق أيضاً ، وبدءوا خطاهم إلى المجد من خان مسرور إلى دكة المماليك ، سوق الرقيق الأبيض الكبير بالقاهرة ، وحكموا أكبر إمبراطورية مصرية عرفها التاريخ بعد إمبراطورية أمينمحعت الثالث ، إمبراطورية واسعة الأرجاء ذات موقع جغرافى فى الدرجة الأولى من الأهمية الحضارية والاقتصادية والسياسية ، رأسها ودعامتها بلد واسع الثراء ، لا بأرضه ونيله وشمسه وزراعته وصناعاته وتجاراته فحسب ، بل بشعب من أعرق الشعوب حضارة ، وأميزها شخصية ، وأقدرها على الحياة .

ولدى

« أماه ويا أمهات الناس ! من لى بمن يعيد إلى ولدى !
سافر مع العسكر إلى بلاد العثمانلى ، انتزعوه من بين أحضانى ،
حملوه السلاح قسراً ليحارب عدواً بعيداً ، فى بلاد نائية .
غادرنا وهو يبكى ؛ فارق زوجته الشابة تحمل طفلها ، وهو يبكى ؛
حمل قرابينته على كتفه ، ومشى فى الصفوف مع رفقائه ؛
تبعناه يوم رحيل الأورطة ، ورأيناه يخفف السير فى منعرج الطريق ،
يزودنا بنظراته الخاطفة ، آخر نظراته ، وهو يودعنا إلى الأبد ،
ثم اختفى !
ماذا دهاه ؟ ماذا جرى له ؟
لم أسمع بخبره حتى عاد رفقاؤه ، ولم يعد معهم :
« أين ولدى ؟ »
« ولدك يا غلبانة ، سقط صريعاً بأيدى العدو ،
« هناك بعيداً فى البلاد النائية . »

* * *

أماه ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟
مات ولدى ولم أكن بجانبه ،
لا أنا ولا زوجته الشابة ،
مات ولم يحن عليه مخلوق يرخى جفونه !
يا أمهات الناس ! من يعيد إلى ولدى ،
ولدى !

* * *

وأنا من يدلنى على أصل هذه الأنشودة الحزينة التى كان يرددها الشعب المصرى تحت حكم عباس الأول ، بعد عودة الجيش المصرى من محاربة المسكوف

على ضفاف نهر الطونة ؟ فأنا أترجمها عن لغة أجنبية ، بلغة فصحى ، لم تكن لغة الأغنية الشجية .

ثم هل حان الوقت لنصحح التاريخ ؟ وهل ما زلنا نخجل من الإشارة إلى ما كان يحدث إلى عهد قريب منا ، عندما كان الأهالى يشقون الجيوب ، ويولولون على أبنائهم وقد « راحوا الجهادية » ؟ أليس الأولى من الخجل ، أن نعرف الحقيقة ، والعلة التى جعلت الشعب المصرى يبكى أبناءه المجندين ؟ سوف تفهم وترثى معى أشد الرثاء للشعب المصرى .

فالناس كانوا على حق فى عويلهم على أولادهم «فى الجهادية » ؛ استمع إلى هذه الصفحة من تاريخ مصر ، كتبها أديب من أصل سويسرى اسمه شارل ديديه ، أقام بمصر أيام عباس الأول وسعيد ، وترك لنا كتاباً عنوانه « ليالى القاهرة » ، جاء فى الصفحة الثامنة بعد الثلاثمائة من طبعة باريس عام ١٨٦٠ ، ما يلى :

« حان الوقت لأحدثكم بأمر الجهادية فى مصر ، وكيف نظمها محمد على وحفيده عباس ، الذى لم يحتفظ من أعمال جده إلا بأشدها نكراً وسوءاً . وما تزال شئون الجهادية تجرى على هذه الوتيرة إلى اليوم ، تحت حكم « المصلح العظيم » سعيد .

يجند الناس بمقتضى نظام جائر تثور له النفوس . فالتجنيد هنا عملية سطو ضارية ، تقوم بها عصابة من الباشى بوزوق اختيروا لهذه المهمة على أساس استعدادهم لها ، وخلو قلوبهم من أى أثر لمشاعر الإنسان .

تنزل هذه العصابة بالقرية المسالمة نزول الجوارح والضوارى على الحيوانات الأليفة ، فتضرب عليها حصاراً وثيقاً لا ينجو منه إنسان . . . وتعيش على حساب أهل القرية حسب ما يحلو لها ؛ وتقرر على القرية العدد المطلوب للجهادية من شبابها الأقوياء ، وشيخ البلد هو الموكل بتحرير قوائم المجندين .

فأول ما يفعله هذا الشيخ ، هو إبعاد أسماء أولاده ، وأولاد أقربائه ، من القوائم ؛ فأولاد أحبائه ومحسوبيه ، حتى لا يتبقى فى القائمة سوى أسماء الغلابة من عباد الله .

ونظارة الجهادية لا تعنى بنوع المجندين ، إنما يهمها العدد المحدد من الأنفار ... وإذا اكتشفت تلاعب شيخ من مشايخ البلاد ، أو اتضح لها تغاليه فى الإعفاء ، فإن الجهادية تفصل فى الأمر ... بفصل رأس الشيخ عن جسده ، ليذهب فى المشايخ مثلا .

لن يحشد إذن أبناء الأعيان فى سلك الجهادية ، والبركة فى شيخ البلد ، وممالأته لهم ، هذا إن لم تكن فى حكيم الجهادية نفسه . الذى تخصص فى باب من فنون الطب غير معروف فى الكليات الطبية . ولهذا الباب علاقة مباشرة بثروة أهل من يجرى الكشف عليهم من المرشحين للجندية ، ويظهر أثر هذا التخصص الطبى فى نتائج الكشف ؛ فجميع أولاد الأعيان تفريهم العلل ، وتقعدهم عن العسكرية شتى العاهات . أما أولاد الإيه ، فكلهم ، بقدرة قادر ، يتمتعون بالصحة والعافية ، لا تعرف العاهات طريقها إلى أكواخهم .

وهى ظاهرة عجيبة ، لعلها من أسرار علم الإحصاء . والأعجب أنها تتكرر عاماً بعد عام .

لا شك أنها تكلف الأهلين مالاً له صورة ... وأنها مصدر ثراء للحكماء الذين يضعون علمهم فى خدمة الأصفر الرنان . ويؤسفنى أن أقرر بأن أغلب أولئك الأطباء من الإفرنج ، وما أقل من يمكن أن يترك منهم بين المصريين شيئاً من حسن الأحدوثة وطيب الذكر .

جيش مصر فى عهد محمد على وأبنائه وأحفاده ، لا يجند إلا من بين أولاد الفلاحين المعدمين . فما إن ينتهى شيخ البلد من حشد حشوده ، حتى يسلمها للباشى بوزوق ، وهؤلاء يسوقون المجندين إلى « مصر المحروسة » ، موثقى الأيدى مقيدى الأرجل ، فى حراسة قوية ، وكأنهم من عتاة المجرمين .

كنت أرى جماعاتهم تمر بى كل يوم ، وأنا جالس إلى قهوة تحت دارى بحى الأزبكية ، فى رتل طويل يسوقه الباشى بوزوق إلى القشلاقات سوق السائمة ؛ منظرهم يفتت الأكباد ، فقد انتزعوا عنوة من بين أهلهم ، ومن بين أحضان الحرية ؛ يسيرون مثنى مثنى ، مربوطين برقابهم إلى حبل من مسد ، يمتد على طول الرتل . فتية ترتسم على وجوههم وفى أجسامهم العجاف آثار التعب والجوع ،

لا تكاد تستر عورتهم أسمال قذرة كانت فيما مضى هدوماً زرقاء .

وسرب من النساء يتبع قطيع الآدميين : أمهات وأخوات وزوجات يتبعن أعزاءهن من القرية حتى العاصمة ، يتحملن ما يتحمل رجالهم من عناء السفر ، ويحاولن ما استطعن أن يخففن عنهم وطأة الجوع والعطش بجرار من الماء ، وقليل من خبز الأذرة والبلح .

أما رعاة هذا القطيع البشرى ، فكانوا من فرسان الأرناؤط ، يحفون بالصف وسيوفهم تضرب بطون أفراسهم ، والطبنجات تتخم مناطقهم ، والكرباج مغاول إلى أرساغهم .

وفى القشلاق يتسلمهم « جاويشية العلام » ، وهم أضل سبيلا وأسوأ منقلباً .

ومن لغو القول أن أذكر بأن هؤلاء المجندين لا يبلغون شيئاً فى أورطهم ، لأن الرتب العسكرية من حق المحظوظين ، دون قاعدة أو قانون : والغلمان من أبناء الذوات ، وأخدان عباس باشا ، وأصحاب مزاجه ، ومحاسيب سعيد باشا ، يلعبون بالرتب العسكرية لعب الأولاد بالأكر .

طبيعى أن يكره المصريون عموماً ، والفلاحون بخاصة ، الجهادية اسماً ورسماً ، حتى يهرب من يستطيع الهرب منهم إلى البادية وكهوف الجبال ، ليجنب نفسه الذل والهوان . مع أن الفلاح المصرى من أرفق الناس بأهله وقريته ، ومن ألصق أهل الأرض تعلقاً بالأرض التى أنبتته . . .

وكيف يمكن أن تحب النساء والأولاد والآباء العجزة هذه الجهادية ، ستنزع من بينهم القائم على أودهم ، ليغادر ضفاف النيل الحانى . . . ويذهب إلى الحرب أمام قلاع نهر الطونة ؟ »

هذه أقوال شاهد عيان ، أثبتها ونشرها بين الناس . فهل كان صعباً على أساتذتنا فى المدارس أن يذكروا لنا هذه الحقائق ، كلما أبدينا تعجلنا ونحن نسمع « ضرب الصوت الحيانى » يزف المجند يوم يستدعى ؟ ربما ! فمن كان يجسر على ذكر الحكام بغير الخير ، وكانوا أولياء النعم وخدم « البادشاه » الأعظم ، ظل الله على ضفاف القرن الذهبى فى الأستانة العلية !

* * *

وقبل خمسين عاماً من كتاب شارل ديدييه . قال اليوزباشي تورمان ، ذلك الشاب الألزاسي الذي كلف من قبل ساري عسكر بونابرته بإقامة التحصينات على طول الساحل المصري الشمالي ، وعاش فترة في منطقة براري الحامول وبلطيم والبرلس ودسوق وفوه [صفحة ١٣٣ من كتابه « بونابرت في مصر » طبع باريس عام ١٩٠٢] :

« لن تدرك مهما بلغ بك الخيال مدى فقر الفلاح وبؤسه ، فهو لا يكاد يجد ثمن جلباب أزرق يلبسه طوال العام ، يعيش مع أهله ومواشيه وكلابه ، في مساكن هي مباءة الحشرات : يتقشف في مأكله إلى درجة أن الغذاء اليومي لواحد من أبناء بلادنا على ضفاف الراين قد يكفي عائلة الفلاح المصري لبضعة أيام . ولست في هذا متغالياً ، فالبؤس هنا بلغ قرارته .

ومع كل هذا ، فإن المصريين أهل مرح وإشراق . يأسرك لطفهم . وإذا تعمقت الملاحظة أدركت رقة شعورهم ، وتوقد ذهنهم الذي يفوق ما نلاحظه في فلاحينا . أما السمعة اللاصقة بهم في أوربا عن ضراوتهم ، فإنها أثر من آثار غضباتهم السريعة . فطويتهم سليمة ، وطباعهم كلها دماثة ؛ حتى الحيوانات التي تؤالفهم تبدو كأنها اكتسبت طبيعتهم ، فالثور يجر المحراث هادئاً مطيعاً ، والطلائق لا تعرف الشراسة ، والثعابين تتسلل تحت حصير الفلاح ، وتعيش معه دون أن تؤذيه . وكلابه قليل منها ما يصاب بالسعار . . . إن الجو المحيط بهؤلاء الناس يفيض بنفحات الحضارة . . . »

فإذا عدنا إلى صاحبنا شارل ديدييه ، في منتصف القرن التاسع عشر ، وجدناه يردد بعد اليوزباشي تورمان بخمسين عاماً : « ولا يوجد في أرض الله الواسعة شعب أسلس طبعاً من أبناء الفراعنة هؤلاء . فالمصري يحتفظ بدماثة طبعه تحت ثيابه العسكرية ، وتظهر حضارته المتأصلة إذا ما قورن بالعسكري العثماني ، ذلك الجلف الجافي ، الذي يفاجئك هو وضباطه بفظاظتهم ، على حين أن المصري يحتفظ ، مجنداً ، بهدوء سريرته . وكرم طباعه ، وسماحة سجاياه » .

ووصف ديدييه للجندي العثماني يذكرني بما قاله ابن إياس أيام الغزو العثماني . يصور الجنود العثمانية بالقاهرة :

« وأما عسكر السلطان سليم فكانوا ، جميعاً ، عيونهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون الأكل وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ؛ وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة ، وقلة دين ؛ يتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان ، كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة ، إلا قليلا منهم . ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة . وليس لهم نظام يعرف ، لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم وهم همج كالبهائم . »

* * *

أماه ، ويا أمهات الناس ، من يعيد إلى ولدى ؟

ولدى !

مصر والحضارة الغربية

درج الناس على القول بأن مصر فتحت أبوابها للحضارة الغربية بعد غزو الفرنسيس لها فى أواخر القرن الثامن عشر ، وبعد تقلد محمد على باشويتها فى أوائل القرن الماضى . وهذا صحيح فى ظاهره ، من ناحية أن بعض المصريين تنبهوا إلى أشكال حضارة غربية غريبة عليهم ، رأوها أثناء إقامة رجال الحملة الفرنسوية بالقاهرة . ولو أن هذه الأشكال ، فى بعضها ، لم تكن إلا نموذجاً سيئاً لتلك الحضارة ؛ فلسنا بحاجة إلى تصور سلوك الجنود الفرنسيين وضباطهم فى شوارع العاصمة ، فهم لم يراعوا حرمة البلد المغلوب ولا احترموا تقاليده . وربما كانت معاقرة الخمر علناً ، ومعاشرة النسوة الخليعات ، والسير بهن فى الطرقات ، والجلوس معهن فى الحانات ، أول ما ظهر لأهل القاهرة من سلوك حملة لواء الحضارة الأوربية . وكانت فتاة مصرية من بيت كريم أول ضحايا التبرج والتفرنج ، مما حمل والدها على قتلها بعد أن خرج المعتدون . وسلوك جند الجمهورية الأولى كان تكذيباً صارخاً لادعاء بونابرت الإسلام ، أو على الأقل تبجحه فى بلاغاته بأنه جاء لحماية المسلمين من ظلم المماليك . ولقد سئل نابليون فى منفاه بجزيرة سانت هيلانة عن حكاية لبسه العمامة والفراجة ، وادعائه الإسلام ، فقال لمحدثه الكونت ده لاسكازيس : «كانت شعوذة ما بعدها شعوذة ، ولكن من الضرب الرفيع » . وصور فكتور شوفان، فى بحث صغير نشره بدورية محلية فى بلجيكا عام ١٩٠٢ ، سخرية المصريين بادعاءات بونابرت وكرههم للفرنسيين . وكذب الأساطير التى أذاعها كتاب الغرب المطنطنون بالملحمة النابليونية ، وأشار إلى بعض قصائد عربية ؛ ألفها متشاعرون سخفاء فى مدح بونابرت ، ومنها قصيدة لأحد الشوام ، المسمى نقولا الترك ، قدموها لسارى عسكر فى مقابل دراهم معدودة . وندد بفلاكة كاتب ألمانى ادعى أن كلمة Lions ليست غريبة على العرب ، فهم يصورون بونابرت فى صورة بطل خرافى يطير فى السماء ، ثم يهجم على أعدائه هجمات الأسود . واسمه عندهم « أبو ليون » أى «أبو السباع » ! ؟

ويظهر أن المحتل الفرنسي لم يأل جهداً في أن يعلن عن تقدمه العلمي بكل الوسائل ، ومنها حكاية البالون الذي حاولوا أن يطيروه من ميدان الأزبكية. فإذا به لا يريم . وكانت « كسفة » للفرنسيين ما بعدها كسفة ، كما يظن الجبرتي . وفي حكاية أخرى ، جمع بونابرته شيوخ الديوان . ليشاهدوا تجارب المجمع العلمي ، ومنها بعض التجارب « الجلفانية » . يسلط فيها تيار كهربائي على أعصاب حيوانات شبه ميتة — وهي تجربة العصب والعضلة ، التي يجريها طلبة الفسيولوجيا بكليات الطب والعلوم — وإذا بعضلاتها تتقلص وتنفرج . وقد احتفظ الشيوخ ، ذوو العمامات الكبيرة واللحى الطويلة . بوقارهم طوال التجارب . وسأل أحدهم برتوليه ، الذي قام بتجربة « إعادة الحياة إلى الأموات » ، إن كان في استطاعته أن يراه الناس في القاهرة ومراكش في وقت واحد ؛ فلم يحر برتوليه جواباً بل هز كتفيه ، وإذا بالشيخ يقول له : « أرأيت إلى قصور سحرك عن بلوغ المقاصد ؟ »

كل ذلك لم يحل بين المصريين وبين ملاحظة ظواهر أخرى لحضارة الغرب . ومن قبيل هذا إعجاب الشيخ عبد الرحمن الجبرتي بنظم الفرنسيين في حياتهم ، وطريقة فرض ضرائبهم ، وأسلوبهم في المحاكمات وفي حركاتهم العسكرية . وتنبه الشيخ عبد الرحمن إلى عنايتهم بدراسة الطبيعة المصرية . وشاهد بعينيه وسائلهم لتدوينها وتسجيلها ، وحفظ نماذج من نباتها وحيوانها وتربتها وصخورها ، وكتب في ذلك صفحة لا تخلو من سذاجة ، يصف زيارته لدار المعهد العلمي . واطلاعه على كتبهم وصورهم ومجموعاتهم الحيوانية المحفوظة في قرطميزات من زجاج .

ثم هو يلاحظ اتجاههم نحو استخدام الظواهر الطبيعية . على أساس من العلم بها ، فيما يوفر على الإنسان مشقة . ويختصر جهداً . ومن أدق ملاحظاته في رأيي - على بساطتها تلك التي أبداها بعد أن راقب الجنود الفرنساوية — وهم يزيلون متاريس الثائرين المصريين . يستخدمون عربات يد صغيرة ذات عجلة واحدة في نقل الدبش والأتربة بدل نقلها بالغلق . فكأن الشيخ عبد الرحمن فهم القيمة العملية للعلم ، واستخدامه للسيطرة على قوى الطبيعة .

كل تلك الملاحظات البسيطة في ظاهرها ، العميقة في دلالتها . سوف يلاحظها شيخ آخر بعد موت الجبرتي بسنوات قليلة . وفي عاصمة فرنسا . ولكنها

تتسع هناك لتشمل أهم معالم الحضارة الغربية . ظواهرها وبواطنها . وكان هذا الشيخ الآخر تلميذاً أثيراً عند الشيخ حسن العطار . صديق الجبرتى الحميم . والشيخ حسن هذا هو الذى شجع تلميذه على السفر إلى فرنسا إماماً لأول بعثة علمية أوفدها محمد على إلى أوربا . فلما عاد من بعثته عرض كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » على أستاذه حسن العطار الذى قدم له وحثه على نشره .

وبعد خروج الفرنسيين . أخذ بعض المماليك فى تقليد النظام العسكرى الفرنسى . أو ما يسميه الجبرتى « مارش وأردبوش » . وعرف أحدهم منذ ذلك الحين باسم حسين بيك الافرنجى . لتماديه فى هذا التقليد . وحدث أن سارت بعض طوابير الجند على طريقة « مارش وأردبوش » فى استعراض بالإسكندرية . وإذا الجند يلحظون على ثغور الأجانب المطلين عليهم من الطيقان علائم الابتسام . فيحسبونها — وقد تكون — سخرية بهم . ويضربون عليهم بالبندق . ويرد عليهم الأجانب بإطلاق النار من النوافذ .

وكما أن السلطان العثمانى محمود — وهو الذى أطلق محمد على اسمه على الترعة القديمةالتى أعاد حفرها فيما بين النيل والإسكندرية . وما زالت تعرف بترعة المحمودية — حاول إدخال نظام أوربا فى الجيش العثمانى . وثار عليه الإنكشارية . فإن محمد على طبق هذا « النظام الجديد » فى مصر . وتذمر منه الجند المدرب على الطريقة القديمة .

ومحمد على كان يكره حتى تلك اللحظة أن يرى المصريين ضمن جنوده . وقد جهز تجريدة لفتح السودان طمعاً فى استجلاب العبيد من جنوبه للاتجار بهم . وإنشاء جيش منهم . أقل كلفةمن جيوش العثمانية . وعندما ثار حماس المصريين وطلبوا الخروج لمحاربة الإنكليز . . ولكنى أفضل هنا أن نترك الجبرتى يتكلم :

« ولما جاء الخبر بانهزام الإنكليز من رشيد . جاء أيضاً أنهم رجعوا إلى الإسكندرية . واستعدوا استعداداً هائلا . « فأرسلوا لنا النجدة حالا » . فقرأ عمر مكرم الجواب على الناس وحثهم على التأهب والخروج للجهاد وكانوا قبل ذلك قد شرعوا فى حفر الخندق حول القاهرة . ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات . وكذلك أهل بولاق والنصارى فى ديوان المكس .

والأروام والشوام . وشرعوا فى بناء حائط مستدير أسفل قلعة السبتية — فامتثلوا ولبسوا الأسلحة . وجمع إليه طائفة من المغاربة وأتراك خان الخليلى وكثيراً من العدوية [أى عرب بنى عدى] والأسيوطية وأولاد البلد . وركب فى صبحها إلى كتخدابيك ، واستأذنه فى الذهاب ، فلم يرض وقال : « حتى يأتى أفندينا الباشا ويرى رأيه فى ذلك » . ولما وصل محمد على — وكان فى ملوى — خرج عمر مكرم والمحروق والمشايخ ، ودار بينهم الكلام فى أمر الإنكليز ومحاربتهم ، فقال محمد على : « ليس على رعية البلد خروج ، وإنما عليهم المساعدة بالمال . . . لعلائف العسكر »!

وسيضطر محمد على اضطراراً إلى استخدام المصريين — ولن يأسف على ذلك عندما يتحدث إليه ابنه القائد العام بحسن بلائهم ، وقوة احتمالهم ونظامهم — سيضطر إلى استخدامهم عندما يهب لمعاونة أسياده وأولياء نعمته فى إسطمبول ، ثم لمحاربتهم . وقد اطمأن إلى أن « النظام الجديد » لا قيمة كبيرة فيه للأنفار بغير ضباطهم . وما دام هؤلاء الضباط من الجراكسة والأرنؤد وبعض الفرنجة . فلا خوف عليه وعلى آله وصحبه . ولا هم يحزنون .

كان « النظام الجديد » خيراً وبركة على محمد على . وعلى مرتزقته من الضباط غير المصريين . كما كان الباعث الأكبر له على « النهوض بمصر » ، عندما أفهمه مستشاروه الأجانب أن تأليف قوة مصرية محاربة يقتضى إنشاء مدارس الحرب والهندسة والأركان والطب والبيطرة والفنون والصناعات . ومصانع الأسلحة والذخيرة ، ودار الصناعة والترسانة . ومصانع النسيج والطرابيش . والمطبعة لطبع الكتب وغيرها مما تحتاج إليه كل تلك المنشآت .

تلك كانت الخطوات العملية لإدخال الحضارة الأوربية إلى مصر . وكان أهم مظهر لما تغيير فى اللباس ، فخلع محمد على العمامة ولبس الطربوش هو وابنه إبراهيم وأركان حربه . وضباطه الغرباء ، وعساكره المصريون . والعجيب أن الطربوش الذى كان رمزاً لمجاراة روح العصر والتجديد فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، انتهى أمره إلى أن يصبح ، فى أواخر عهد أسرة محمد على . عنواناً على الرجعية والتمسك بالتقاليد . وما كانوا يدعونه « القومية » !

وظل ابن البلد نفراً فى الجيش لا يرقى إلا إلى الرتب الصغيرة ، ومستخدماً

لا يرتفع فى الدواوين إلى أعظم من باشكاتب . وظلت الدولة إقطاعاً لمحمد على ولأولاده من بعده ، ولأقاربهم وأنسبائهم وألضاشيتهم وقواديهم ورجال أعمالهم من الأرنؤد والجراكسة والعثمانية ومن إليهم ، ومن شر ما كان يلقى به علينا الشرق الأدنى من أشكال وألوان .

بدأ عهد الإصلاحات فى حكم محمد على . وهى إصلاحات هامة ليس من ينكرها ، انتظم بها الأمن . وانحل برم البدو العابثين ، وتلاشت سطوة المماليك وشقت الترع وأنشئت القناطر . ونظم الرى والصرف . على أيدى جهابذة المهندسين والعلماء الأجانب . واستئلفت زراعات جديدة . وأصلحت الأراضى البور ، واختطت الشوارع . وقامت بالقاهرة مصلحة للتنظيم باسم « ديوان القذارة » ، ودبت الحياة فى الإسكندرية بفضل تجديد مينائها وإنشاء ترسانتها . ولم يكن المقصود بهذه الإصلاحات أى خير يصيب الشعب المصرى . فالمصرى لا يملك شيئاً فى بلاده . حتى ولا حفنة الأذرة التى يصنع منها بتاوه .

ويرد عليك الرجال العمليون قائلين : المهم أن أعمال الإصلاح أجريت . وميناء الإسكندرية فتح للتجارة ، واستتب الأمن ، فجاء الأجانب برءوس أموالهم (؟) — أو بعقولهم وعلمهم — يعملون فى خدمة الاقتصاد المصرى . وتمكن بريد الهند من اختزال طريق رأس الرجاء الصالح . بالعبور براً من الإسكندرية إلى السويس ، ثم مواصلة السفر بالمراكب إلى الشرق .

مثلما يتحدث إليك المدعو إيفلين بيرنج . وشهرته لورد كرومر . فى كتابه « مصر الحديثة » ، بنعمة الإمبراطورية البريطانية على مصر . وفرضها الحضارة الغربية عليها — دون أن يكون مؤمناً بأن مصر متقبلة لتلك الحضارة — لا لشىء إلا لإشاعة الأمن وتنظيم الاستغلال . فلنصدق هذا الكذاب حتى باب الدار ، أو حتى يطرد من الديار ، ولنؤمن على إصلاحاته ، ولنسلم له بالنجاح فى خلق نوع من الدولة العصرية .

إنما تأمل عدالة التاريخ عندما ينزاح الستار . وإذا هذا المتحصر المصلح . ينقلب إلى مجرد وال أجنبى أو باشا من العثمانيين . لقد كشفت مأساة دنشواى عن روح ذلك المستعمر العاتى . إيفلين بيرنج . فهذا المتشدق بالنثر والشعر من الآداب اليونانية

واللاتينية والإنجليزية ، الذى يتمثل بأقوال توكيديد ويوفينال ودرايدن ، المدعى تزعم حركة التحضر والتقدم العمرانى فى مصر ، سرعان ما ينقلب إلى مجرد سفاح سوقى ، وباشا عثمانى ، وقائد برابرة فى بلد محتل . أية عدالة تاريخية أبرع وأصدق من أن يختم هذا النصاب حياته « المتحضرة المحضرة » بمقتلة رخيصة ، وظلم رهيب ، أمام قرويين أبرياء ، وقرويات ساذجات ، لم يفعلوا أكثر من الاحتجاج على ضباط بريطانيين يصيدون حمامهم الأليف ، ويصيبونهم برصاصهم الأهوج فى عقر دارهم .

كلا يا سيدى ! لن تجد ، لا فى نهضة محمد على ، ولا فى إصلاحات المدعو كزومر ، ما يمثل شيئاً آخر غير « الحضارة المادية » . ومصيبة مصر أن طرقتها حضارة الغرب على هذا الوجه الأغبر ، جاءتها بخيرها فى الصور المادية لهذا الخير ، وحملت إليها شرورها فى الصور الروحية للشر . مصر لم تتطور عقلياً ولا فكرياً فى محاذاة تلك الانقلابات العمرانية التى حققتها حضارة أوربا بمصر منذ عهد محمد على . وما فتئت الصور المادية للحضارة الغربية هى المتغلبة ، تسبق ، بمراحل طويلة ، الحالة العقلية والشعورية لبلاد وادى النيل .

وما أسهل استعارة العنصر المادى فى حضارة أجنبية والاقتباس منها . وأرجو أن نكون تنبهنا إلى هذه الحقيقة الخطيرة ، وهى أن إدراك عنصر واحد من حضارة غريبة عنا ، يجب أن يستدرج عناصرها الأخرى ، إذا أريد لتلك الحضارة الأجنبية أن تؤتى ثمارها الثقافية . ولكنا ألبسنا الحضارة الغربية كما يلبس قميص المجانين : أقحمت علينا من عل فى شكلها المادى ، وفى جبروت أهلها ، وشهوة أطماعهم البشعة .

وبذلك اختلطت علينا سبل الإصلاح الروحى ، وتاهت منا المقومات الحقيقية للنهضة ، كنا إذا آمنا بحضارة الغرب الفكرية والفنية والعلمية ، كمجموع متكامل لا ينفصل عن حضارته المادية ، قام الرجعيون فى وجوهنا ، يتهموننا بممالأة الغاصبين والمستعمرين . فلا نحن مستطيعون أن نخطو خطوات التطور الطبيعى للانتفاع الكامل بتلك الحضارة ، ولا الرجعيون قادرون على الاستغناء عن أدواتها وأجهزتها

المادية . وليتنا وقفنا من حضارة أوربا عند علومها وتكنولوجيتها ! ولكن ما كان أسرعنا إلى استعارة مظاهرها البراقة الأخرى . وتطوراتها الدنيوية . دون أن نتطور روحيًا فيما يقابل تلك المظاهر . أخذنا بعض العلم وعرفنا بعض تطبيقاته . ونحرص على الاستزادة منه ومنها . ولكنا أيضاً نتفرنج فى اللباس والأثاث والزينة . وفى حفلاتنا ومجتمعاتنا ، نرقص فى الكباريه . ونعيش فى شبق الأغانى والأفلام الجنسية والأدب المكشوف . وكأن هذه المظاهر الغربية أصبحت لازمة لنا . لزوم الثلاجة والسيارة والطيارة والراديو تليفزيون . فإذا طالبنا بالاستزادة من فنون الغرب الرفيعة . وفكره وفلسفته . اتهمنا بالتفرنج . والتقليد الأعمى . والاعتداء على الأصالة والقومية . أما القواد . منظم حفلات ملكات الجمال ، وصاحب الماخور المسمى « صندوق الليل » . وملحن الكباريه على إيقاع السامبا والووجى - بوجى ، أما المنتج السينمائى الناقل لأحط ما يرمينا به الغرب من أوزار . فليس هم المعتدين على الأصالة والقومية !

إن حديثى فى هذا الكتاب لا شأن له بالحاضر . ولغيرى أن يراقب حاضره ، ليقدر إن كنا ما زلنا سادرين فى غفلتنا . أو أن العناصر العاقلة الواعية بدأت تقودنا من ظلام الفلاكة . إلى نور الفن الجميل والفكر العالى . لغيرى أن يفحص ويشخص علامات النقاهة من ذلك المرض الانفصامى العجيب . الذى عانيناه طويلا نتيجة تقبل أدوات الحضارة المادية . وأسوأ مظاهرها الاجتماعية . دون أساسها الفكرى والفنى والروحى .

مصر التى أتحدث عنها حتى الماضى القريب . ما فتئت فى أواخر عصرها الوسيط ، تحاول أن تعود إلى نفسها بعد إغفاءة أهل الرقيم بضواحى إفسوس . رأيتها تحبو ما بين عصرها الوسيط وعصر الإحياء . وكان عهدى بها أن اتخذت الحضارة الحديثة لباساً وزخرفاً مزيفاً وطلاوة . من تلك الطلاوات التى حرص أمراء أسرة محمد على أن يلطخوا بها جسم مصر . لتتم لهم صورة مزوقة . تحشرهم فى زمرة الأمراء والملوك المتحضرين . حتى ليتبجح إسماعيل . غير المفترى عليه ، بقالته المشهورة إن بلاده لم تعد من أفريقيا ، بل هى قطعة من أوربا .

حركة الإحياء الأوربية . فى القرن الخامس عشر . لم تنبعث من أمثال

هذه الفنجرة والفشخره ، إنما جاءت على أثر يقظات فى الفكر والمشاعر . وتخلص من ربقة الغيبيات ، والتزمت فى العقائد ، وتنبه إلى آثار الحضارات الكلاسيكية ، من عمارة ونحت وحفر ، وعلم وأدب وفلسفة . وعندما لم تعثر على بعض الآثار الفكرية فى أصولها القديمة ، التجأت إلى علماء العرب وفلاسفتهم ، ممن تغذوا بتلك الحضارة ، وترجموا لها ، ودرسوها وعلقوا عليها ، لم يصدها عن ذلك تعصب صليبى ، ولا ذكريات فتوح الأندلس ، وصقلية ، وغزو جنوبى إيطاليا وفرنسا .

وتحولت تلك الحركة فى بعض البلاد الأوربية من انصياع أعمى للجالس على كرسى بطرس الرسول ، إلى شعوب تستقل فكراً وعقيدة عن روما . بل كانت تحرراً للفكر الإنسانى فى صميم البلاد الكاثوليكية ؛ وانطلق الناس هنا وهناك يناقشون الظواهر الطبيعية ، ويفحصونها ويفسرونها ، دون التزام لما جاء فى كتبهم المقدسة ، أو حتى فى كتب أرسطاطاليس . بل على أساس من الملاحظة المباشرة ، يساعدها الإدراك والتدوين ، والمقارنة والمقابلة ، والقدرة على الانتقال من التفاصيل إلى العموميات . هكذا خرج الأوربيون من عصورهم الوسطى .

أين مصر من كل هذا فى ماضيها القريب ؟ متى بدأ المصريون يشعرون بواجبهم الروحى فى هذا التطور ، ويحسون بأن البقاء على القديم فكرياً هو الركود والموت ؟ وأن عليهم واجب اللحاق بركب الحضارة ، إذا أرادوا أن لا يداسوا كالدواجن ، ويذلوا كالأنعام ؟ ومثل هذا الشعور لا يتأتى إلا عن طريق واحد ، هو طريق التعليم الصادق ، وأقول الصادق لأن التعليم قد يكون هو أيضاً مجرد دهان وقشرة على سطح الفكر ، ودغدغة خسيسة للمشاعر .

ولو أن بعثات محمد على اتجهت إلى الإحياء ، أى لو أنها كانت بعثات فكرية علمية ، لجاءت بخير كثير ، وبأسرع مما آتت . ولكن محمد على لم يوفد « الأفندية » إلا ليتعلموا حرفاً ومهناً تتصل بشئون الحرب . ومع هذا فإن تلك البعثات تركت فى أغلبهم أثراً عميقاً ، وساعدتهم على التحرر ، ووضعت أقدامهم على أولى درجات السلم الحضارى . ولو كان « الأفندية » مصريين ، لاستطاعوا ينقلأنوا إلى مصر بعض لقاح الثقافة . ولكنهم ، فى أغلبهم ، عادوا إلى بيئاتهم

الأرستقراطية التركية ، وعاشوا حياتهم بمعزل عن الشعب

لقد استعرضت تاريخ البعثات التى أوفدها محمد على وخلفاؤه الأقربون ، وفيها بعثات صناع ، وضباط برية وبحرية ، وهندسة عسكرية ، وطب وبيطرة وصيدلة وكيمياء صناعية ، والقليل منها اتجه لدراسة الرياضة والفلك والجغرافيا ، وواحد من كل تلك البعثات كان من حظ مصر أن يوفد لا ليتعلم شيئاً ، بل لمجرد أن يؤم « الأفندية » فى الصلاة ، فيتعلم الشيخ الفرنسية ويحذقها ، ويقوم على رأس حركة الترجمة فى القرن التاسع عشر . من هنا يبدأ تطور الفكر المصرى حقاً فالشيخ رفاعة رافع الطهطاوى هو ظاهرته الكبرى ، الجدير حقاً بلقب « باعث النهضة المصرية »

هذا المجاور المتحفظ ، المصر على الإسجاع ، إلا حينما يكتب فيما لا يحتمل التلكؤ الذى تقتضيه القيود اللفظية ومحسنات البديع ، وحينما كانت الأفكار فى نظره أهم من الاحتفال باللفظ ، هذا المجاور ، لم تمنعه بيئته المحافظة الأولى من أن يوسع أفقه ، ويلاحظ الناس والوقائع فى أوربا ، ويطالع ويترجم ما يختار من مطالعاته ، ليفيد به أهل وطنه ، يعلق على الحوادث ، ويفصح عن آماله فى مستقبل بلاده ، بنوع من التورية والاختباء خلف ما يسرد من مواعظ ، ويستشهد به من شعر . إنه ليترجم كتاب مونتسيكو عن تدهور الحضارة الرومانية ، ولا أشك فى أنه قرأ كتاب مونتسيكو الأشهر وهو « روح الشرائع » ، ولكنه لم يجسر على ترجمته ، خشية أن تكشف الترجمة عما يجول بخاطره من كره للاستبداد ومقت للاستعباد . ثم هو يترجم حياة بطرس الأكبر « باعث النهضة الروسية فى اتجاه الغرب » .

عاد رفاعة إلى وطنه ، سنة ١٨٣١ ، زاخر النفس بمعانى حياة جديدة ، متحفزاً لإصلاح المجتمع المصرى ، بتعليم الشعب وتنبيه الأذهان . عاد ليدرس وينشئ المدارس ويصنع من تلاميذه رواداً للجيل الصاعد . راح يستعرض كتب الثقافة الغربية ، ويترجم ، ويتخرج على يديه المترجمون ، يتولون معه ، وبإشرافه ، ومن بعده ، نقل تلك الكنوز المكشوفة . مضى يكتب ويخطب وينشر المجلدات والصحف ، يبسط العلوم ويعالج شئون التربية والسياسة والاقتصاد ، يحاول هدم

الآراء الفاسدة . ويبذر بذور التقدم . يبصر أمته بروعة ماضيها ؛ وخصب حاضرها ، ورجاء مستقبلها . لا يكل فى ذلك نشاطه ، ولا تثنيه عنه الحدود والقيود ، ولا نفى عباس باشا له إلى السودان ؛ إنه رائد عملاق ، لولاه ، ولولا الفريق الذى رباه . لظلت مصر متخلفة عن حضارة الغرب نصف قرن آخر على الأقل .

رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس ، كانت أول اتصال روحى بالغرب أخصبت به عقول أهل مصر . « وذلك عندما تفتحت عينا رفاعة على بلاد الإفرنج . وشعر الفتى الصعيدى بمكانه من الدنيا والتاريخ . وأدرك روعة الدور الذى ينتظره فى بلاده بعد أوبته » .

بعثات عسكرية أو هندسية أو علمية أو طبية . أعضاؤها من المتمصرين أو من المصريين . لاشك فى أن تلك البعثات قد وهبت مصر رفاعة رافع الطهطاوى . كما وهبتها على مبارك ، ومحمود الفلكى . ونخبة من « الحكماء والجرايحية والكحالين » .

وللباحث فى تطور المجتمع المصرى أن يدرس أثر أولئك الرواد العظماء . وأن يتعمق الدراسة وهو يترجم لهم ، بدل أن يضيع وقته وجهده فى تحليل حياة محمد على وسعيد وإسماعيل ، مدحاً أو قدحاً . لأن القليل الذى عرفته مصر . فتحولت عن غفلتها . جاء بتفكير أولئك الفلاحين الذين أوفدوا إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر . ونتيجة تأثرهم العميق بما شاهدوه وخبروه من آثار الحضارة الأوربية .

وما أطول الطريق برغم هذا . وما أبعد الشقة! فقد أصابنا الاحتلال البريطانى بنكسة عقلية وخلقية . عندما أوقف تلك البعثات . ثم حولها إلى قلة — كقطرات الماء — توفد إلى كليات ثانوية من أمثال كلية بروورود . التى اشتهرت فى تاريخنا الثقافى بثورة أعضاء بعثة عليها. وكان محجوراً على المصريين أن يوفدوا على حساب الدولة إلا إلى إنجلترا ، ومحجوراً عليهم أن يحصلوا فيها من الدرجات الجامعية ما قد يضعهم على قدر من المساواة العلمية بأترابهم البريطانيين ، الذين يجيئون إلى مصر غلماناً ، ليعينوا لها رؤساء وحكاماً .

وجاءت ثورة ١٩١٩ تصحح ذلك ، وعادت البعثات ترد موارد العلم والثقافة والفن حيثما وجدت فى بلاد الغرب .. وأنشئت جامعتنا الكبرى ، حصناً للحرية

الفكرية ومنارة للعرفان . فإذا الرجعية تتربص بها ، وتتجمع تحت راية « منشئ الجامعة » ، الملك المستبد ، وتعمل على تطفيش الشباب « روحيًّا » ، وإبعاده عن معين الحضارة الحقة ، بحجة « المحافظة على تراثنا وقوميتنا » . واشتهر وزير المعارف إذ ذاك باسم وزير « التقاليد » ، فى وقت اندفعت فيه البلاد اندفاعاً فى طريق التطور المادى ، فلم تعرف إلا قليلا من معنى الحضارة : فهى انطلاق الفكر وصدق الشعور ، على أساس من الخلق القويم والثقافة . فالحضارة الأصيلة لا تنبت إلا فى حقل النفوس المهذبة الأبية ، ولا تنبثق إلا من صميم الروح المطلق .

كان الشباب يتخرج موزعاً بين تقاليد ورواسب وغيبيات راسخة ، وبين علم وفن وحضارة لازمة لرقيه ماديًّا وروحيًّا . فهو مقيد موثق الأقدام ، يخطو فى حياته خطوات متثاقلة ، لأن سلاسل الرجعية توقر أقدامه ، وقد ترخى له القيود إلى مدى ، لتجذبه كلما أحست فى حركاته من ضعف ، وفى مقاومته من اضمحلال .

لقد عرفت كل هذا فى تربيتى وتعليمى ، وراقبت كل هذا فى تربية طلبتى بالجامعة وتعليمهم . قد ينجح الشاب فى كسر قيوده وفك عقاله ، ولكن ثمن هذا الفكاك والانطلاق ، يكون فى الغالب على حساب الأخلاق . لأن الشاب لم يحصن الحصانة الكافية بشىء أهم من الأوامر والنواهى ، وأهم من العلم والمعرفة ، ألا وهو الثقافة ، بكل ما تحوى هذه الكلمة من تفكير صادق ، وإحساس سليم بشتى ما تنشئه العقول الجبارة ، والمشاعر المرهفة شرقاً وغرباً .

ما هى الحضارة إذن إن لم تكن فى هذا التفكير الصادق والإحساس السليم ؟ يندفع الإنسان بقوتهما فى رحاب الحياة الحرة ، لا تتفاعل فى نفسه رواسب الخزعبلات ، مع رحيق العلم والتحصيل ، والتمكن من المعارف النافعة .

II

الخيط الأبيض والخيط الأسود

ألف عام

صراع القومية المصرية

ثلاث ملكات

أم خليل

بنت الزمار

الصعيدية

القيراط الخامس والعشرون

ألف عام

دخلت مصر فى حوزة الإسلام عام ٦٤٠ م ولم تخرج عنه منذ ذلك التاريخ . وليس أمر الفتح العربى مجرد ديانة اعتنقها المصريون رويداً ، أو حتى مجرد لغة حلّت شيئاً فشيئاً محل اللغة الرسمية للبلاد ، وهى اليونانية، ثم انتهت بالتغلب على اللغة القومية القديمة . ولكن ما حدث نتيجة للفتح العربى هو أن مصر أصبحت، منذ ذلك التاريخ ، ركناً هامّاً من أركان العالم الإسلامى ، وارتبطت مصائرها بمصائر الإسلام ، وأصبحت لغتها القومية هى لغة العالم الإسلامى السائدة ، وهى اللغة العربية . فمصراليوم ، بحكم لغتها ، قطاع من العالم العربى ، وبحكم ديانتها الرسمية ، شطر من العالم الإسلامى الذى يشمل شعوباً وأمماً احتفظت بلغاتها الأصلية ، مثل إيران وتركيا والباكستان وإندونيسيا . مصر اعتنقت الإسلام ديناً ، واتخذت الضاد لغة، ولعبت دوراً خطيراً فى التاريخ الإسلامى كله ، دوراً سياسيّاً بحكم ثرائها ونظامها ومركزها الجغرافىّ ، ودوراً ثقافيّاً بفضل جامعتها الإسلامية العتيدة .

وهذا التحول الكامل فى حياة مصر فصلها فصلا تامّاً عن تاريخها السابق على الفتح الإسلامى . ولكن من الخطأ أن نحمل الإسلام واللغة العربية تبعة انفصال مصر عن تاريخها الفرعونى ،لأنها فى الواقع كانت نبذت تاريخها القديم عندما تحولت من الوثنية إلى المسيحية فى القرون الأولى بعد الميلاد . ومن الخطأ أن نحمل المسلمين المصريين تبعة تخريب المعابد الفرعونية ، لأن المسئول الأول عن هذا التخريب هم المصريون المسيحيون . فما إن أصدر الإمبراطور تيودوسيوس عام ٣٩٥ م أمره بإيقاف العبادات الوثنية فى أنحاء الإمبراطورية ، حتى راح المسيحيون المصريون يهدمون أو يخربون تلك المعابد ، أو يحيلونها إلى كنائس وبيع . وإذا كان المسيحيون المصريون احتفظوا بلغتهم القديمة، فإنهم يتحملون تبعة ضياع مفتاح الكتابة المصرية الهيروغليفية والديموطيقية ، حتى استغلق أمر النقوش المصرية على العالم

خمسة عشر قرناً . إلى أن كشف شامبوليون رموزها فى أوائل القرن التاسع عشر فلم يكن ثمة ما يدعو المسيحيين المصريين إلى الاحتفاظ بأسرار الكتابات القديمة . وقد يسرت لهم الأحرف اليونانية كتابة لغتهم ، التى عرفت منذ ذلك الوقت باسم اللغة القبطية . وليس معنى ذلك أن الأقباط نبذوا كل شىء من تاريخهم السابق على المسيحية — وهو أمر لا يقبل عقلا — فلا شك أنهم احتفظوا بتراث عامى وطنى مختلط بالسحر . ولعل الحرص على دقة التلفظ بالتعاويذ السحرية . هو الذى شجعهم على كتابة اللغة المصرية بأحرف يونانية . لما من حروف العلة والحركة ما لا يوجد فى الكتابات القديمة ، مما يحفظ لهذه التعاويذ صحة النطق بها ، فمن شروط فعل السحر دقة التلفظ بكلماته وتراكيبه وجمله ، وقد يكون من المهم المحافظة على تنغيم التعاويذ .

ومع ذلك فإن الشعب المصرى المسيحى كان يمثل فى غالبيته الكبرى شعب مصر القديم . الذى احتفظ بخصائصه ، فضائله وعيوبه ، على طول الاحتلال المقدونى والرومانى والبيزنطى . ولكن لغته تأثرت دون شك باللغة اليونانية السائدة فى الهيئات الرسمية . فاستألفت ألفاظاً ومصطلحات يونانية كثيرة ؛ كما تأثرت طقوسه وألحانه الكنسية . وطرزه المعمارية وزخرفه . بالفن البيزنطى . بعد أن تحول الأمبراطرة الرومانيون إلى الديانة المسيحية .

وحين اعتنق المصريون فى غالبيتهم الإسلام، لم يحتفظوا لا بلغتهم القبطية . ولا حتى بجنسهم . تمام الاحتفاظ ، فيما عدا القلة التى تمسكت بالمسيحيه . وجاهدت فى الإبقاء على لغتها حية حتى قرون متأخرة . ولكن هذه اللغة انتهت . بعد القرن السادس عشر أو السابع عشر ، إلى أن تكون لغة الطقوس الكنسية فحسب . بل آلت إلى أن تكتب بحروف عربية . ويتعلمها . من يحرص على تعلمها . فى كتب مؤلفة بالعربية .

أما المصريون المسلمون فقد اختلطوا بالعرب وبغير العرب . من المسلمين الذين توافدوا على مصر فى مختلف العصور . واستقروا فيها .

ومع أن الباحثين فى علم الأجناس يرون أن الجنس المصرى لم يتأثر فى غالبيته بذلك الاختلاط . وبرغم ما يقوله وهو على صواب — المؤرخ إرمان من « أن

الشعب الذى سكن مصر القديمة يعيش حتى الآن فى السكان الحاليين لهذه البلاد » ، فإن الحقيقة الواقعة ، وما نراه من إحساس المصريين بعروبتهم ، تدل على انفصام كامل بين مصر الإسلامية وما سبقها . فالمصرى المسلم ينظر إلى الإسلام كأساس لحضارته ؛ ويعتبر العصور السابقة على الإسلام كأنها تاريخ شعب آخر انتهى أمره . والمصرى غير المسلم يعتبر اللغة العربية وما تحمله من ثقافة كأساس لحضارته . وإذا أردنا تقسيماً أدق ، فإننا نرى المصريين عن بكرة أبيهم أحد اثنين : إما مسلم يحس إحساساً شديداً بالجامعة الإسلامية ، بحكم اقتصار دراسته وفهمه على التاريخ الإسلامى ، والدور الذى أداه الإسلام للحضارة ، وإما مسلم — أو مسيحى — يشعر بجامعة اللغة والتراث الحضارى ، وهى التى تجمع شمله بالشعوب التى تتكلم اللغة العربية .

والنتيجة العملية لكل هذا ، هى أن سكان مصر ، من المسلمين ، يبدأون تاريخهم الحضارى بالفتح الإسلامى ، ومن غير المسلمين ، يبدأون تاريخهم الحضارى بكرازة مرقس الرسول ، ثم يشاركون مواطنيهم المسلمين فى ثقافتهم العربية .

ولكن مصر لم تبق ، ولا يمكن أن تبقى ، بمعزل عن العالم الذى تطور منذ القرون الوسطى ، وأنشأ فى أوربا حضارة نبتت أصولها من حضارة اليونان والرومان والتوراة والإنجيل ، وأخصبتها عناية العرب ببعض معالم الفكر اليونانى . فإذا أضفنا إلى هذا أن حضارة اليونان تعترف لمصر القديمة ببعض الفضل ، وأن الحضارة العربية تأثرت فى بعض نواحيها الفنية بالفن البيزنطى ، فإن السلسلة الحضارية التى تجمع بين مصر القديمة ، ومصر المسيحية ، ومصر الإسلامية ، والحضارة الأوربية الحديثة ، سوف تضيق حلقاتها .

وما إن تتيقظ مصر ، وتفتح عيونها على حضارة أوربا ، حتى تكتشف أمراً عجيباً ، هى التى نسيت تاريخها القديم : ستكتشف أن لتاريخها الذى نسيته ، حساباً أكبر حساب ، عند أصحاب هذه الحضارة الحديثة . ستكتشف أن هؤلاء يعتبرون الحضارة الفرعونية أقدم يقظة للفكر والضمير والإحساس الإنسانى ، عرفها التاريخ . فلم يعد مقبولا أن يظل المصريون على جهلهم بحضارة أجدادهم المنسيين منهم وحدهم . ويتنبه المصريون إلى هذه الحقيقة ، وبخاصة فى عهد

التحرر . وعقب حركة سنة ١٩١٩ ، وكان هذا منشأ المدرسة التي نادت بالفرعونية في عشرينات هذا القرن . ولم تكن تلك المدرسة لتتنكر للعروبة . فما عرفنا من أقطابها إلا كتاباً في صدارة كتاب العربية . ومفكرين من أعرف الناس بتاريخهم الإسلامي . إنما كانت حركة تحاول أن تمحى عن المصريين سبة وعاراً ، سبة جهلهم بتاريخهم . وعار ازدرائهم بأمجد حقبة من أحقاب هذا التاريخ . فإذا كنا قد صححنا . إلى حد ما . موقفنا من الحضارة المصرية القديمة . فإننا ما زلنا . مع شديد الأسف . نتنكر أو نتجاهل حقبة هامة من حقبات التاريخ المصري . وهي الحقبة المسيحية . ونكتفي منها بكلمة أو كلمتين عن اضطهادات دقلديانوس . ثم نقفز فجأة إلى مقدمات الفتح الإسلامي .

وتاريخ مصر –في طريقة كتابته– ما زال شذرياً مقطعاً . لا نرى في فصوله أكثر من التتابع التاريخي . فهي فصول لا تكاد تجمعها صلة ، أشبه بمجموعة قصص لأكثر من مؤلف . وحقيقة التاريخ المصري هي في أنه قصة واحدة طويلة . تدور حوادثها حول أشخاص عديدين . من جنسيات ولغات وعقائد مختلفة . ولكن بطلها واحد ، هو الشعب المصري .

والعلة في هذا التقطيع هي : أولا طول التاريخ المصري – وليس يعرف تاريخ غيره بهذا الامتداد والاتساع – ثم اختلاف وسائل دراسته . تبعاً لكل حقبة : دراسة النصوص القديمة ، والمعابد والمقابر الباقية . والحفر والتنقيب على ما يوجد منها تحت الأرض ؛ يقضي فيها الأثريون والمؤرخون طول حياتهم بحثاً وكشفاً ونقلا وتسجيلا وفك رموز وترجمة نصوص . وتطبيق ذلك على ما جاء في تواريخ اليونان والرومان ، وأقوال رحالتهم وجغرافييهم عن مصر الفرعونية . ودراسة اللغة الإغريقية واللاتينية والقبطية ، والتمرس بقراءة البرديات والشقفات والأوستراكا . والتبحر في التاريخ اليوناني والروماني والبيزنطي . لغة وحضارة وديانة . لمن يعنى بتاريخ مصر الهلينستية ، أو مصر الرومانية الوثنية ، أو مصر المسيحية . وفي العهد الإسلامي ، يضطلع المؤرخ اضطلاعاً كاملا بالحضارة الإسلامية عامة . ويعمل في مطالعة النصوص على شواهد القبور وفي البرديات والشقفات وما إليها . بالإضافة إلى دراسة كل من أرخوا لمصر والإسلام دراسة مستفيضة .

وينشأ عن هذا الاختلاف الكبير في الوسائل ، انفصال بين مؤرخي مصر ، انفصال علمي مدرسي ، يجعل من الصعب على المطلع العام أن يلم بتاريخ بلاده إلماماً موحداً . ومن يكلف نفسه مشقة قراءة هذا التاريخ مسلسلا ، ينسى في آخره أوله ، ويصده عن تاريخ الفراعنة بعد الشقة ، وانقطاع الصلة الحضارية ، وصعوبة فهم الديانة ، وقلة النصوص الأدبية ، وشعور قارئها بأن ترجمتها مهزوزة ؛ ويصده عن تاريخ البطالسة والرومان أنه تاريخ أسرة مقدونية وحضارة هلينستية ، أو أمبراطرة رومانيين ، وحضارة لاتينية ، لا يكاد المؤرخون فيها يذكرون شيئاً عن الشعب المصري ، ويصده عن تاريخ مصر المسيحية ، جهله بحضارة بيزنطة ، وصعوبة متابعة المناقشات الدينية التي نشبت في العالم المسيحي ، وكان الكرسي الرسولي الإسكندري في القرون الأولى للمسيحية طرفاً هاماً ، ومناوئاً خطيراً ، لما تتقدم به كل من روما وبيزنطة وأنطاكية . هذا إلى أن القارئ العام لا يجد بين يديه تاريخاً للحقبة المسيحية يبسط له أمور العقيدة ؛ لأن المؤرخ المسلم يتحرج من الدخول في بعض التفاصيل ، كما يتحرج المؤرخ القبطي من التبسط فيها ، إذا كان يكتب لمواطنيه جميعاً ، وغالبيتهم من المسلمين . وبذلك ظلت الحقبة المسيحية تعيش في شبه ظلام تاريخي .

ولا أحسبنا نفهم الفتح العربي ، إلا إذا عرفنا مقدمات الحوادث التي تحولت فيها مصر من الوثنية إلى المسيحية ، وأهملت طريقة كتابة لغتها القديمة بالحروف الديموطيقية ، والظروف التي عاشت فيها مصر المسيحية ، يحكمها إمبراطور مسيحي في بيزنطة ، ويضطهد أهلها اضطهاداً أنكى وأشد من اضطهاد الأمبراطرة الوثنيين . عندئذ يمكن أن نفهم كيف انتقلت مصر من المسيحية إلى الإسلام ، وكيف أهملت لغتها القديمة ، لتتخذ من لسان العرب لغتها الوحيدة .

كما لا أظن أننا نبني قوميتنا بناء سليماً مؤسساً ، إلا أن ندرس تلك التحولات الروحية ؛ فإن مجرد سرد بعض الوقائع ، فيما يشبه التعمية ، قد قصم ظهر تاريخنا من وسطه . يتعين علينا أن نطالع خلال حوادث الألف عام ، التي انقضت بين غزو الإسكندر والفتح الإسلامي ، حياة مصر الروحية ، وحياة الشعب المصري خلف ستار البطالسة ، والأمبراطرة الرومانيين والبيزنطيين ؛ لأننا بدون فهم تلك

الحياة ، لن نعرف من تاريخنا شيئاً غير تاريخ مصر الإسلامية ، فهو التاريخ الحى فى نفوسنا إلى اليوم .

ويحسن أن نعرف أولا أن الملكية المصرية القديمة كان قد تغير وجهها منذ أمد طويل، قبل أن يقضى الفرس القضاء النهائى على استقلال مصر. فلم يعد الفرعون فى أغلب الأسر المتأخرة مصريا . ونلاحظ أن شعبين أو ثلاثة من الشعوب الأجنبية بدءوا التغلغل فى الحياة المصرية . أولها شعب لوبيا . وقد كان كبير الكهنة فى طيبة يحمل اسماً لوبياً وهو « مصحرتا » . والغالب أن التوغل اللوبى كان أبرز فى الطبقة العسكرية . وكانت الأسرة الثانية بعد العشرين ، عندما ارتقى شيشونق عرش مصر فى بوباسطيس ، لوبية خالصة . وجاء بعدهم الإثيوبيون ، ولم يكونوا سوداً بل كانوا من أصل لوبى ، ويحملون أسماء لوبية . وكان ملوك الأسرتين الرابعة بعد العشرين، والسادسة والعشرين ، — وهذه الأخيرة هى الأسرة الصاوية - من أصل لوبى أيضاً . والغالب أن ملوك الأسرتين التاسعة والعشرين ، والثلاثين ، كانوا غير خلصاء الدم المصرى . والدم الأجنبى قبل أن يجرى فى عروق الفراعنة ، كان قد جرى فى أوعية العسكريين المعروفين بالمشواشة ، ووقعت على عاتق هذا الجيش الأجنبى مهمة الدفاع عن الاستقلال المصرى .

وجاءت الجنود المرتزقة الإغريق بعد ذلك ، ومرتزقة آسيا الصغرى ، ليحلوا محل المشاواشة . ولم يتناول هذا المزج سوى الطبقات الحاكمة والعسكرية ، وبقى المصريون ، كما نرجو أن يبقوا على صفحات الزمن ، خلصاً ، يحتفظون بصماتهم الأصيلة ، ويواصلون عملهم الحضارى فى الزراعة والصناعة والعمارة والفنون ، مثل أجدادهم .

ومراكز الحكم ، فى الأسر الفرعونية الأخيره ، تحولت من الجنوب إلى الشمال ، وتبعتها المراكز الدينية وإذا كانت طيبة ، وثالوثها « آمون - موت خونصو » ، قد احتفظت بمقامها إبان حكم الأسرة التانيسية والبوباسطية . فقد بدأت تنزوى رويداً ، وتفقد أهميتها حيال معابد منف وصا وأتريب وبوطو ومنديس وسمنود ، وحيال آلهة هذه المعابد من أمثال إمحوتب بن فتاح ، ونيط إلهة السماء ، وسطيط الهرة ، وهاتور البقرة . ولا يبقى من البانتيون القديم سوى إله العالم

السفلى ، أوزيريس ، وأخته وزوجته إيزيس ، وابنهما هوروس . وظل المصريون ينقشون النصوص المقدسة على نواويسهم وتوابيتهم ، ويرسمون صور الحياة العامة والحياة المنزلية على جدران مقابرهم ، ويجمعون نصوص كتاب الأموات فى نحو مائتى فصل .

وظاهر أن العبادة المصرية القديمة كانت فى طريقها إلى الانحلال والتدهور ، حتى أمست مجرد طقوس ومتون قديمة ، غلب عليها السحر ؛ كما أن عبادة الحيوانات أخذت تنتشر ، ولم تعد تلك الحيوانات ، كما فى الماضى ، رموزاً للآلهة ، بل أخذت تعبد لذاتها .

وكانت مصر قد فتحت أبوابها للتجار الأجانب ، فدخلت السفن الفينيقية إلى مصر عن طريق فروع الدلتا ، وعليها التجار الآسيويون ؛ وجاءها تجار الإغريق وميليتيا . وعندما استقر حال البلاد ، واستتب الأمر لبساماتيك ، من ملوك آخر الأسرات الفرعونية ، كان هؤلاء التجار قد ألفوا جاليات تجارية وصناعية هامة . ولم تعد صا ونوقراطيس . وحدهما ، مراكز الجاليات اليونانية بل إن منف ، ومدن الدلتا الكبرى ، احتوت على أحياء إغريقية كاملة . وبذلك توطدت العلاقات بين بلاد اليونان ومصر ، وتبادلا السلع التى ينتجانها ، أو يستوردانها من فينقيا وبابل وبلاد العرب السعيدة وإثيوبيا ، كالزيت والنبيذ والغلال والذهب والنحاس والبخور والأعطار والطيب والأفاويه والعاج واللازورد والأخشاب .

وكان رواج التبادل التجارى مصدر ثراء لخزينة فرعون ، مما يسرّ له إنشاء المعابد الكبرى فى صا ومنف وواحة آمون . وأخذ الإغريق ينقلون إلى بلادهم حكايات عن وادى النيل ، وأوصافاً تختلط فيها الحقائق بالأساطير والخرافات ، مما آثار فضول محبى المعرفة من أهل المدن اليونانية ، فوفدوا على مصر ، ليحققوا بأنفسهم ما سمعوه على ألسنة النواتية والتجار الثرثارين .

أى أنه كان لتلك الوشائج الاقتصادية الفضل فى أن يزور مصر رجال كبار ، من أمثال المشرع الأثينى صولون ، والفلاسفة والعلماء من أمثال يودكسيس الكنيدوسى وفيثاغورس وطاليس ، بل وأفلاطون العظيم بذاته . وقضى هؤلاء بمنف أعواماً يدرسون ويتعلمون ؛ وذلك قبل أن يفد على مصر ذلك المخبر الصحفى الأول فى التاريخ ، المولود فى هاليكارناس ، ليدبّج مقالاته المثيرة عن مصر ، ويجمعها

فى الكتاب الثانى - من تاريخه المشهور - بعنوان « أوتربا » - كان لهذه المقالات أكبر حظ من الذيوع فى العالم القديم والحديث على السواء - ضمن ما ذاع مما يعرف باسم « تواريخ هيرودوتس » . وتقول العالم الحديث - لأن العالم لم يكن يعرف عن مصر - حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر - غير ما ورد فى كتابات هيرودتس وديودورس واسطرابون و بوليبيوس و يوسيفوس وجرجس سنسيلوس ، إلى حد أن يقول برستيد عام ١٩٣٣ - فى الفصل الأول من كتابه عن الفكر المصرى المسمى : « فجر الضمير » - بأن الكشف عن آلاف الأعوام من تاريخ الشرق ، أمره قريب منا - فالترجمة الإنجليزية لكتاب رولان المسمى « التاريخ القديم » مع أن مؤلفه لم يكن تحت يده إلا أكثر قليلا من كتاب هيرودوتس والتوراة كمصادر لتاريخ الشرق القديم - كانت ما تزال تعرض منها نسخ فى واجهات المكتبات بالبلاد الأمريكية ، ويذكر برستيد جيداً أن كتاب رولان هذا كان ذائعاً أيام حداثته .

والواقع أن الحضارة والصناعة والعقائد المصرية العتيقة - تركت أثرها فى حياة الإغريق الأوائل - وغير الإغريق - من شعوب العالم القديم : هذا إلى أن عبادة إيزيس - بالذات - انتشرت فى العالم الهلينستى والرومانى .

وعندما جاء الإسكندر إلى مصر - اعتبر نفسه وريثاً لحضارتين : الفرعونية واليونانية . وأخذ عنه بطليموس بن لاجوس سياسته فى معاملة المصريين معاملة شعب عريق صديق . وحرص البطالسة بعده على هذه السياسة - بل حاولوا أن يوائموا بين عقائدهم السطحية - وبين ديانة المصريين المليئة بالأسرار . ولكنهم أخفقوا أمام احتفاظ المصريين بديانتهم - وكرههم أن يتدخل الغرباء فى طقوسهم ، وأن ينفذوا إلى دخائل إيمانهم .

وليس معنى هذا أن البطالسة تنكروا لحضارتهم - فلم يكن بطليموس سوتر ولا أولاده وأحفاده - فى غنى عن وطنهم الأصلى - ولكن مبادئ الإسكندر فى المواءمة بين الشرق والغرب [أى بين حضارات الشرق الأدنى والحضارة اليونانية] هى التى أقام عليها البطالسة والسلوقيون الحضارة المعروفة بالهلينستية .

وأنشأ سوتر لأهل وطنه مدينة بطليموسة [بطوليمايس] فى الطيبائيدة - فأضاف بذلك مدينة جديدة إلى مدن الجاليات اليونانية بمصر .

ولا نعرف مصدر الهداية فى إنشاء عبادة مزدوجة ، اتخذت أهمية خاصة فى العالم الغريقوروماني . وهى عبادة سيرابيس [أوزير – أبيس] ، أي العجل أبيس الذى مات وارتفع إلى مرتبة الآلهة ، فأصبح أوزيريس . أو هذا الإله البزرميط ، يتقمص عند اليونانيين شكلا إغريقيًّا محضاً ، يشبه كبير آلهتهم زفس ؛ أو إله العالم السفلى آذيس . ويجتمع سيرابيس مع إيزيس والابن هوروس [وهو هاربوكراتس اليونان] فى الثالوث الذى كان يعبد بهيكل الإسكندرية الأكبر ، أى السرابيوم مقام سرابيس . والغالب أن يكون بطليموس الأول هو الهادى إلى تلك العبادة .

وليس معنى حرص المصريين على تقاليدهم وطقوسهم . أن لم يأخذوا عن اليونان شيئاً البتة . فقد نقل المصري عن اليونانيين طريقة رى الأراضى بواسطة الساقية والطنبور ، كما تخلى عن مئزره المصرى القديم ليلبس الجلابية اليونانية .

وسينقل إلى المصريين بعض الفن اليونانى ، ويظهر أثره المهجن فى مقابر كوم الشقافة . والصور الجنائزية الملونة على ألواح الخشب . التى عرفت فى الفيوم ومصر الوسطى . وستتأثر مصر الرومانية بالفن البيزنطى . وهو نفسه فن هلينستى ، امتزج فيه الفن اليونانى والرومانى والفارسى ؛ ومن بعض ذلك المزيج سوف يخرج الفن الإسلامى فى مطالعه .

والحياة الهلينستية كانت تتشابه حول الحوض الشرقى لبحر الروم . وعواصمها كانت الإسكندرية وأنطاكية وأثينا ، ثم برجامة فيما بعد . واحتفظت الفلسفة فى أثينا بمكانها المفضل . بينما نزعت الإسكندرية إلى البحوث العلمية واللغوية والأدبية فى مدرستها الكبرى [الموزيون] . ومكتبة القصر الملكى المشهورة . والمكتبة الفرعية الملحقة بالسرابيوم . معبد الإله سيرابيس .

وظهرت بالإسكندرية أسماء إقليدس وأرشميدس . عندما وفدا على مدرستها ليتصلا بالعلامة إراطوسطين ؛ وكان هبارخوس يمثل مدرسة الفلك فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وهيرون يختص بالميكانيكا إبان القرن الأول ، واشتهر فى الطب هيروفيلوس الخلقدونى . وإرازسطراطس اليولى ؛ وفى تاريخ أدب اللغة كليماخوس . أما التحقيق العلمي للنصوص الأدبية . وبخاصة أشعار هوميروس . فقد أفلق فيه زينودوطس الإفسوسى ، وأرسطوفانس البيزنطى ، وأرستارخوس .

لم يكن للمصريين أدنى علاقة بما يجرى فى مدرسة الإسكندرية من درا
وبحوث ، فهم يواصلون بناء معابدهم الكبرى فى إدفو وكوم امبو ودندرة . أما
الإسكندرية ، وكانوا يؤلفون جالية كبيرة وغنية . فكانوا يمالئون الغالب ، ويتم
الحكام مثلما فعل أحفادهم ، يهود شمالى أفريقيا فى القرن التاسع عشر
احتلال الفرنسيين للجزائر . ويبلغون فى تصنعهم الحضارة الإغريقية حد :
غالبيتهم اللغة العبرية ، حتى ليضطر فقهاؤهم إلى ترجمة التوراة إلى اليونا
وهى الترجمة المشهورة باسم السبعينية ، إشارة إلى الاثنين وسبعين عالماً الذين اش
أو أشرفوا على تلك الترجمة .

فلنتصور الحالة على وجهها الصحيح : حكام أجانب وجاليات أجنب
تحيا حياتها الهلينستية ، وتنظر إلى الأهالى نظرة تشبه إلى حد كبير نظرة الجا
الأجنبية إلى المصريين فيما بين القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . نظرة
تعال واستهتار ، لا يحدهما إلا مجرد الاحترام الظاهرى لعقائدهم وطقوسهم . ولم
أولئك الأجانب يعنون لا باللغة الوطنية . ولا بالتاريخ الفرعونى ، مع أن الك
المصرى مانيتون وضع تاريخاً للأسرات باللغة اليونانية . ولو كان هذا التاريخ مت
لعثرنا على بعض نسخه ، أما أن يختفى تماماً فى حريق مكتبة الإسكندرية .
دليل على عدم انتشار الكتاب . وإنما ألفه الكاهن السمنودى بتكليف رسمى
بطليموس الثانى ، ووضعه هذا فى المكتبة الكبرى سجلا ومرجعاً لا غير ! ولولا
المؤرخ يوسيفوس اضطر اضطراراً إلى الرجوع إلى هذا الكتاب ليرد على أبيون ا
وسم اليهود بكل نقيصة . ولولا بعض المؤرخين المسيحيين . فيما بعد . لضاع
اسم ذلك المؤرخ المصرى القديم .

وكان أهل البلاد المحتقرون المهانون لا ينفكون يضرعون إلى آلهتهم ليخلصوهم
كل أولئك الغرباء ، وتتحرك ألسنة آلهتهم بالنبوءات ، تبشرهم بالتخلص وت
من النير اليونانى . وتنشب ثورة مصرية فى الدلتا ، وتنتقل إلى الصعيد ، فى ا
الثانى قبل الميلاد . ويتحكم الأمير هارماخيس فى الصعيد كملك مستقل ، ويتح
الثوار فى معبد إدفو ، وتستمر هذه الثورة حتى يقضى عليها بطليموس العاش
ويدمر العاصمة القديمة طيبة . ويحدثنا المؤرخ بوليبيوس عن زعماء تلك الثو

ويسميهم الأمراء الملكيين ، والغالب أن جلهم كانوا من كبار الكهنة .

وفى هذا القرن الثانى قبل الميلاد ، يبدأ نجم روما فى الصعود . بعد ختام حربها الثانية مع قرطاجة [٢١٧ ق.م. ، الحرب البونية الثانية] وينتهى التوسع الرومانى فى الشرق حتما إلى الاصطدام بالمقدونيين . مما يدفع ملك مقدونيا إلى التحالف مع عدو روما الأكبر . هانيبال .

وينتزع الملك السلوقى أنطيوخوس الكبير سوريا من مصر . وتسلخ مدن آسيا الصغرى من حكم البطالسة . ولا يبقى لهؤلاء خارج مصر من أملاك سوى جزيرة قبرص . وبعض بلاد لوبيا .

وبدأت روما فى القرن الأول قبل الميلاد تتحتمر فى ثنايا التاريخ المصرى . بعد أن ضمت مقدونيا إلى ملكها ، ثم أخضعت اليونان . ومحت قرطاجة من على وجه البسيطة ، وتسلمت أرض برقة ، تنفيذاً لوصية أبله من ملوك البطالسة [عام ٩٧ قبل الميلاد] .

وما إن سقط مثريداتس الرابع ، ملك البونطس [حول البحر الأسود] . تحت ضربات القواد سيلا [٨٧ — ٨٥ ق. م.] ولوكوللوس [٧٧ — ٦٧ ق. م.] وبومبيوس الكبير [٦٦ — ٦٢ ق. م.] حتى تم إخضاع منطقة الشرق الأدنى لروما . وأصبحت مصر محاطة بالولايات الرومانية من كل جانب . وكان الحزب الشعبى فى السيناتو الرومانى يطمع فى تملك مصر ، وجاء فى قانون الإصلاح الزراعى . الذى اقترحه رولوس على المجلس . وهو يفرض إعادة تقسيم الأراضى بين الفلاحين الرومانيين . أن تكون الأراضى المصرية ضمن ما يعاد توزيعه من أراضى الممتلكات الرومانية فيما وراء البحر ! مع أن مصر كانت فى ذلك الوقت دولة مستقلة يحكمها اللاجيديون . وإنما فعل رولوس هذ استناداً إلى وصية نسبت زوراً إلى أحد أمراء البطالسة . ولم يتأخر ضم مصر فعلا إلا لأن حزب الأرستقراطيين — الأوبتيماتس — بزعامة القنصل سيسيرون . قاوم قانون رولوس مقاومة عنيفة ، حالت دون الموافقة عليه .

والأمير اللاجيدى ، الذى زيفت الوصية باسمه ، كان شاباً اسمه اسكندر يعيش فى روما ، وهو ابن بطليموس اسكندر الأول . فلما مات اسكندر هذا ، تولت العرش ابنته ، باسم الملكة برنيقة الثالثة ، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، فأوفد الدكتاتور الرومانى سيلا الشاب إسكندر ، ليتزوج أخته ، ويحكم إلى جانبها باسم اسكندر الثانى. وما عتم هذا الغر أن قتل برنيقة ، ففتك به الإسكندريون وسط الملعب عام ٨٠ قبل الميلاد . وخلا العرش اللاجيدى ، وذاعت وصية الأحمق إسكندر الثانى بوضع مصر فى حمى الشعب الرومانى . فاضطر الإسكندريون إلى تولية ابن غير شرعى للبطالسة وزوجوه أخته كليوباترة السادسة ، ولقب بطليموس فيلوباتر فيلادلفوس ، ولكن الشعب لقبه بالزمار (أوليتس أى عازف الناى) ، وفى هذه الأثناء ابتلعت روما جزيرة قبرص ، وقاومت الاعتراف بالزمار عشرين عاماً . وما إن اعترفت به حتى ثار عليه الإسكندريون ، ففر هارباً إلى روما ، وتولت ابنته برنيقة عرش مصر . ويعود الزمار إلى عرشه مؤيداً من القائد بومبيوس الكبير ، فيأمر بقتل ابنته ، ويملك حتى موته ، عام ٥١ ق.م.

ثم يبدأ العهد المشئوم ، فى صورة المشاحنات والصراع بين كليوباترة السابعة ، ابنة بطليموس الزمار ، وبين شقيقها الغلام . وهذه هى كليوباترة التى اشتهرت فى التاريخ بمغامراتها السياسية والغرامية ، مع ابن بومبيوس الكبير ، ويوليوس قيصر ، ومارك أنطونيوس ، ومن يدرى من غير هؤلاء !

وتنهى مغامرات بنت الزمار بانتحارها ، وانتقال مصر إلى ملك شخصى لأغسطس أكتافيانوس قيصر ؛ وهذا هو التحول الكبير فى تاريخ مصر ، تنزل فيه من دولة مستقلة تحكمها أسرة أجنبية ، إلى ولاية تابعة لإمبراطورية فيما وراء البحر ، عاصمتها روما ، ثم القسطنطينية . وستظل ولاية تحت حكم العرب ، حتى تستقل بها الأسرة الطولونية فالإخشيدية فالفاطمية فالأيوبية فالمماليك البحرية فالبرجية . وستعود ولاية مرة ثانية بعد غزو سليم بن عثمان فى أوائل القرن السادس عشر ، وتظل تابعة ولو اسمياً لتركيا ، حتى أوائل القرن العشرين .

ولقد تحسنت الأحوال بمصر فى القرن الأول من الاحتلال الرومانى . وفيما عدا

سيطرة المراقب المالى الرومانى – الإيدوس لوجوس – على المعابد المصرية ، وأوقافها الشاسعة ، لم تتدخل إمبراطورية روما فى ديانة المصريين ولا فى طقوسهم ؛ وواصل المصريون إقامة معابدهم وتجديدها فى دندرة وفيليه .

ولو سئل أمبراطرة الرومان عن قيمة مصر لهم لأجابوا توًّا : الغلال والجزية . فلم يشترك المصريون فى الجحافل الرومان ، ولا كانت لهم كلمة بين حكام الإمبراطورية ، بل لقد منعوا من أن يكونوا مواطنين رومانيين ، على خلاف المعمول به فى الولايات الرومانية ، وبالأولى لم ينتخب منهم أعضاء بمجلس الشيوخ « السناتو » ؛ ولم ينبغ من المصريين تحت الحكم الرومانى علماء وأهل ثقافة ، مثلما حدث فى ولايات آسيا الصغرى واليونان . ومع أن الرومان كانوا يتعجبون من الديانة المصرية العتيقة ، ويعتقدون بأن الكهان المصريين مستودع أسرار خفية ، فإن نظرتهم إلى طقوس الشعب المصرى ، وإغراقه فى عبادة الحيوانات ، كانت مليئة بالاحتقار . وإذ دعى أغسطس قيصر ذات مرة للاشتراك فى الاحتفاء بالعجل أبيس ، أجاب الداعين بنصف أنفه : « درجت على عبادة الآلهة ، لا الثيران ! » . وكان الرومان يقاومون السحرة والمشعوذين المصريين الذين كان يدّعون تمثيل الديانة المصرية فى الخارج ، كما اعتبروا عبادة سيرابيس وإيزيس من المؤثرات الضارة فى المجتمع الرومانى . ولم تدم مقاومتهم طويلا ، فقد أنشئ أول معبد رسمى فى روما لسيرابيس وإيزيس فى عهد دومطيانوس قيصر (٨١ – ٩٦م) ، وأقيم فى حكمه معبد إسنا [لاطوبوليس أى مدينة الإله لاطس ، وهو سمك اللفش] . وجاء إلى مصر يوفينال ، الشاعر الساخر الهجاء ، ضابطاً فى جيش الاحتلال ، بمعسكر أسوان ؛ فعرف بأمر خناقة بين أهل دندرة وكوم امبو على عبادة التمساح ، وراح يتندر ، فى إحدى قصائده ، بالمصريين وعبادتهم للبهائم .

وفى حكم أدريانوس قيصر [١١٧ – ١٣٨ م] قامت ثورة مصرية من تلك الثورات التى لم تخرج عن نطاق محدود ، والتى كانت الجيوش الرومانية تقمعها فوراً . وزار أدريانوس مصر مرتين ، اصطحب فى إحداهما زوجته سابينا ، وذهبا مع صحبهم فى رحلة سياحية إلى الصعيد ؛ وشاهدوا تمثالى « ممنون » ، وسمعوا صوت

الصفير الذى كان ينبعث من أحد التمثالين عند مطلع الشمس ، وسجلت الشاعرة بلبلة ، إحدى سيدات الحاشية ، ذكرى الزيارة فى قصيدة نقشتها على ساق التمثال . قالت فيها :

« ولقد استمعت ، أنا بلبلة ، الجرس الحلو الذى يخرج من فامينوت أو ممنون ، تحت هذه الصخرة ؛ وحياه أدريانوس ثلاث مرات . وأنشدت بلبلة هذه الأشعار تذكاراً للصوت الذى أيد حب الآلهة لأدريانوس . »

وكانت زيارة أدريانوس لطيبة عام ١٣٠ ميلادية ، وقد عنى عناية خاصة بمدرسة الإسكندرية . وعين لها أساتذة غير مقيمين ، ولا قائمين بتدريس ، إنما أراد أن يشرف الجامعة بهم ، أو يشرفهم بالانتساب إليها .

وكتب أدريانوس لقريبه سرفيانوس يصف زيارته لمصر :

« لقد تقصيت أحوال مصر ، يا عزيزى سرفيانوس ، مصر التى كنت تشيد بها ؛ فإذا هى بلاد طائشة ، قلب ، لا تكف عن المشاغبة . ووجدت فيها عباد سيرابيس نصارى . وأولئك الذين يدعون الولاية المسيحية فى لباس الأساقفة ، يعبدون هم أيضاً سيرابيس . فليس فى مصر حاخام ولا قس ولا كاهن ولا عراف ولا عياف لا يعبد سيرابيس . وفى ظنى أن كاهننا الكبير ، لو جاء إلى مصر ، لعبد سرابيس أو المسيح . والشعب هنا فى الإسكندرية شعب يحتدم ثورة ، سليط اللسان ، شديد الغرور . المدينة تفيض ثراء ، وتعمل وتنتج حتى لا تجد فيها عاطلا . أهلها أرباب حرف وصنائع ، وما أكثر نساج الكتان فيها . ولن ترى حتى الأعمى ، ولا المقعد ، خالى شغل . وللجميع ، من مسيحيين ويهود وغيرهم ، رب واحد . والمدينة جديرة حقًّا بأن تكون عاصمة مصر . ولو أنى كنت أرجو أن تلزم شيئاً من النظام . لم أرفض لها طلباً ، وأعدت إليها حقوقها القديمة ، بل وأكثر ، حتى يكونوا راضين عن حاضرهم . وما إن أدرت ظهرى حتى سلقوا ابنى فيروس بألسنة حداد ، وأترك لك أن تتصور ما قالوه عن أنطنوس ! »

وهذا الإمبراطور ، العلامة الساخر ، جاء إلى مصر ومعه خليله الأمرد أنطنوس ، فاخترمه النيل ، وقيل بأن الغلام مات منتحراً . فأقام له الإمبراطور

معبداً باسمه . في مكان قرية الشيخ عبادة حالا ، بمدينة كانت تعرف باسم أدريانوبوليس أو أنطنوبوليس .

وممن سحر بمصر . من كتاب الرومان . بروكوبيوس ، ويوحنا الليدى ، وأنسطاس . وأوناب . وكانوا يقولون بأن الأهرام ليست سوى شنشنة كلفت أموالا باهظة . وجهوداً مضنية ، وكانو يحتقرون « هذا الجنس المصرى الذى لا يخرج من بين صفوفه أديب . وعلماؤه اللاهوتيون لا قدرة لهم على التفكير العميق » .

وفى عهد مرقس أوريليوس قيصر . الفيلسوف الرواقى المشهور (١٦١ – ١٨٠م) تنشب ثورة مصرية فى برارى الدلتا وبحيراتها ، تزعمها الكاهن إيزيدورس . وقام بها على رأس الفلاحين بمنطقة شرقى الإسكندرية ، تعرف باسم « بوكوليا » ، أى مرعى البقر . وكسر الجند الرومانى وبلغ أبواب الإسكندرية . فأنفذ إليهم الإمبراطور جحافله الرومانية التى تحتل سورية . بقيادة حاكمها . فقضى على الثورة بالحيلة والوقيعة بين الثوار .

وعندما أصدر الإمبراطور كاراكلا مرسوم عام ٢١٢ م . الذى أوسع فيه مدى التمتع بالرعوية الرومانية . طبق على سكان مصر . . . فيما عدا المصريين !

هذا كان حال مصر طوال السنوات التى انقضت منذ غزو الإسكندر : ذلة وهوان وثورات . لا أمل فيها للتخلص من حكم الرومان ، وتدهور العقائد الدينية . بالرغم من مواصلة إنشاء المعابد . ومظاهر الطقوس الألفية البراقة .

وتجىء النصرانية إلى مصر ، لا لتغير من حال أهلها . ولا لتجعلهم أقدر على القتال . بل لتكون ذريعة جديدة للإمعان فى إذلالهم . وإنزال الهوان بهم فوق كل هوان .

ولو أنك استجمعت كل الظروف والمحن التى مرت بالمصريين . منذ قضى الفرس على استقلالها . حتى آخر العهد الرومانى والبيزنطى . لما توقعت سوى نتيجة واحدة هى القضاء على القومية المصرية . إن لم يكن محو المصريين من على وجه الأرض . وما عليك إلا أن تتأمل ماحدث فى بلاد الغال وإيبريا وداقيا (رومانيا) حيث تحولت تلك البلاد الكبيرة إلى مقاطعات لاتينية ، وكانت لغة الرومان هى

الأصل فى تكوين اللغات الفرنسية والأسبانية ولغة رومانيا الحديثة ، وما زال أهل تلك البلاد يعتزون بأصلهم اللاتينى .

ومع ذلك ، لم تستطع كل تلك الأرزاء والإحن أن تقضى على القومية المصرية . وكلما زادت محنتهم ، كلما ازدادوا استمساكاً بقوميتهم . وسوف يقدم لنا تاريخ المسيحية فى مصر أروع صور مقاومة المصريين للغرباء ، وهى حقبة رهيبة رائعة فى وقت واحد ، سنعود إليها فى الفصل التالى . وإنما هذه صورة رسالة حفظها لنا تاريخ المسيحية فى مصر ، كتبها البابا أثناسيوس ، بطريرك الكنيسة القبطية ، يصف واقعة من الأحداث الكثيرة التى جرت فى عهد ولايته ، كما حدثت من قبل ومن بعد . قال يصف محاصرة آلاف من الجنود البيزنطيين ، لكنيسة العذراء بالإسكندرية وقت الغروب :

« أما أنا فجلست على الكرسى الخاص بى ، وأوعزت إلى الشماس أن يتلو المزمور السادس والثلاثين بعد المائة ، وكان المصلون يرددون قائلين « هو الرحيم إلى أبد الآبدين » . وحان وقت الانصراف ، وكان الظلام قد بدأ يهوى على خارج الكنيسة ، وشرع العسكر يطرقون أبوابها طرقاً عنيفاً . . . ثم فتحوا الأبواب عنوة ، واقتحم الجيش الرومانى الكنيسة ، ورجاله يزعقون كمن فتحوا مدينة حصينة ، وكانت سيوفهم تلمع فى ضوء أسرجة الكنيسة ، واندفعوا كالسيل الجارف متجهين إلى حيث أجلس ، فوقفت وأمرت الناس أن ينجوا بأنفسهم : ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . ولكن بعضهم حاول اعتراض الجند فى طريقهم إلىّ ، فذبحهم الجنود ذبحاً ، وداسوهم بأقدامهم ، وتعقبوا الفارين منهم . وألح القساوسة علىّ كى أنجو بنفسى فأبيت قائلا : « ليست نفسى بأعز علىّ من نفوس الآخرين » ، وكنت موقناً بأن ثباتى فى مكانى ، أمام الساعين إلى حتفى ، سيجعل الجنود ينصرفون إلى شخصى ، ويتركون الآخرين ، فعولت أن أبقى حتى ينجو الشعب . . . ولما انصرف أكثر الناس ، جاء الرهبان ، مع من تخلفوا من القساوسة ، وحملونى خارجاً » .

فهل كان أولئك الجند الروم من الوثنيين ؟ كلا بل هم جنود الإمبراطور

البيزنطى المسيحى ، فى العام السادس والخمسين بعد الثلاثمائة من الميلاد ! والذى لا يعرفه إلا قلة من المصريين — وما أقل المصريين معرفة بتاريخهم ! — هو أن أجدادهم القبط تعذبوا واضطهدوا على يد حكام بيزنطة المسيحيين ، أشد بكثير مما عرفوا من مهانة وتقتيل واستشهاد أيام الأمبراطرة الوثنيين ساويرس ودقيوس ودقلديانوس ، لا لسبب إلا لأنهم حرصوا على عقيدتهم المسيحية ، التى أقرها أعظم المجامع الكنسية ، وأولاها بالاحترام ، وهو المجمع المسكونى الأول ، المنعقد بمدينة نيقيا ، فى آسيا الصغرى عام ٣٢٥ م .

ذهب أثناسيوس إلى هذا المجمع شماساً وسكرتيراً للبطريرك ألكساندروس الأول ، ولم تحل رتبته الكنسية الصغيرة ولا شبابه ، دون الاشتراك فى مناقشات المجمع ومدارساته . وبعد ما ارتقى إلى كرسى مرقس الرسول ، حاز هذا البطريرك الاسكندرى العظيم فى حياته المفعمة بالجهاد والنفى والتشريد ، لقب « قاضى المسيحية فى العالم » ، وقال غريغوريوس النازيانزى عنه : « رأس كنيسة الإسكندرية هو رأس كنائس العالم » .

ولكن الآراء تشعبت بعد مجمع نيقيا ، واختلفت فى طبيعة المسيح ، بسبب المذهب الذى نادى به القس آريوس المولود عام ٢٧٠ م بشمال أفريقيا . وهو المذهب الذى قسم العالم المسيحى قسمة خطيرة ، وأثار أعاصير هوجاء بين عواصم المسيحية حينذاك : الإسكندرية وروما والقسطنطينية وأنطاكية وإفيسوس . وتشابكت المؤامرات واستحكمت حلقاتها حول إمبراطور القسطنطينية وإمبراطورتها ، لمناصرة آريوس على أثناسيوس .

ومصدر الخلاف قول آريوس بأن « الابن يختلف عن الآب فى الجوهر ، وأن الآب أقدم من الابن ، لأن الابن مخلوق » ، وفى هذا مناقضة خطيرة لقانون العقيدة المسيحية الذى نادى به المجمع النيقاوى ونصه :

« نؤمن بإله واحد ، الله الآب ، ضابط الكل ، خالق السموات والأرض ، ما يرى وما لا يرى . ونؤمن برب واحد ، يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور ، إله حق ، من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للأب فى الجوهر ، والذى به كان كل شىء نزل من السماء .

وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء . اتخذ شكله الإنسى من أجل البشر وخلاص البشر . فتألم وصلب فى عهد بيلاطس البنطى ، ودفن ، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث ، كما جاء فى الكتب ، وصعد إلى السماء » .

ويصعب على كاتب مسلم أن يخوض فى تفاصيل هذه المناقشة التى اتخذت أشكالا وأوضاعاً خطيرة بعد أثناسيوس ، مدارها طبيعة المسيح . فالمسيحيون لا يختلفون فى أمر ألوهية المسيح ، وإنما الخلاف على إله عرفه الناس فى صورة بشر . فهل هذا الإنسان المخلوق ، المولود من أنثى ، هو الإله ، أو أن عنصره اللاهوتى ، وأصله كلمة الله تجسدت ، وهى تمر فى جسد العذراء ، لم يتحد بعنصره الناسوتى ؟ وبمعنى آخر : هناك المسيح ، وهو الرب ، ويسوع وهو ابن الإنسان ، ولدته مريم العذراء .

والعالم المسيحى اليوم ينقسم إلى غالبية كبرى تؤمن بعدم اختلاط الطبيعتين : اللاهوتية والناسوتية ، وتؤمن بأن الآلام والصلب والدفن نزلت بالطبيعة الناسوتية وحدها ، دون الطبيعة اللاهوتية ، التى لا تخضع لما يخضع له الجسم الحائل الزائل . وهذه هى العقيدة المعروفة بعقيدة الطبيعتين فى المسيح ، مذهب الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية [الملكية] ، ومذهب الكاثوليكية البابوية ، وهى التى أقرها مجمع خلقدونيا ضد البطريرك القبطى ديوسقوروس عام ٤٥١ م . ومع أن الكاثوليك يقولون بأن المسيح أقنوم لاهوتى بحت ، فإن ذلك لا ينفى اعتقادهم بأنه اثنان ، بعد قولهم بأن له كيانين وذاتين وطبيعتين .

أما الأقباط ، وكنيسة الحبشة ، وبعض الكنائس بالشرق الأدنى ، فتقول بالطبيعة الواحدة ، حسب ما قرر مجمع نيقيا . وعبر ساويرس الأنطاكى عنها بقوله : « إذا قلنا بطبيعة واحدة للمسيح ، من طبيعتى اللاهوت والناسوت ، نقول أيضاً إن ذلك يكون بغير امتزاج ولا اختلاط ولا فساد ، بل مع بقائهما على ما كانتا عليه . فطبيعة البشر من طبيعتى الروح والبدن ، وطبيعة الروح من طبيعة الهيولى ، أما البدن فهو صورة الجسد ؛ فلا تنقلب الروح بدناً ، ولا الهيولى جسداً ، ولا يحدث العكس » .

والكاثوليك مع إيمانهم بالطبيعتين ، يعتقدون بأن العذراء هى أم الرب

[ثيوتوكوس] ، فيرد عليهم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قائلين : « إن اعتقادكم بأن العذراء أم الإله تسليم بطبيعة واحدة للمسيح : فهل ولدت مريم إلهاً أم إنساناً ؟ إن قلتم إلهاً ضللتم ، لأن الإله لا يولد ؛ وإن قلتم إنساناً كانت العذراء أم إنسان لا أم إله ، وذلك تنكرونه ؛ وإن قلتم ولدت إلهاً وإنساناً ، كانت أم إله وأم إنسان ، فلها ابنان ، أحدهما إله ،والآخر إنسان ، وهذا قول ينقضه العقل ويزيفه ؛ فإذاً لا يصح إلا أن الإله والإنسان صارا واحداً ، ولذلك ولدت مريم واحداً ، لاهو إله بالإطلاق ، ولا هو إنسان بالإطلاق ، ولا هو إله وإنسان فى وقت واحد ، بل هو إله متأنس ، وهذا هو الحق » .

ويقول البطريرك الإسكندرى الكبير كيرلس الأول ، فى كتاب إلى القيصر ثيودوسيوس :

« إننا لا نعرى الناسوت من اللاهوت ، ولا نعرى كلمة الرب من الناسوت ، بعد ذلك الاتحاد الغامض ، الذى لا يمكن تفسيره . بل نعترف أن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتمعا إلى واحد مؤلف من كليهما ، لا بهدم الطبيعتين ، ولا باختلاطهما ، بل باتحاد شريف فى الغاية ، تم بوجه عجيب » .

لعلنا جاوزنا الحد ، كمسلمين نؤمن بأن عيسى عليه السلام خلقه الله الذى « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ، إذ ذكرنا كل هذه التفاصيل . ولكن أمر ذلك ضرورى لفهم ما قام بين المصريين وحكامهم الروم ، بعد أن سادت الشعبين ديانة واحدة ، من جفوة وكره وعداء ، هى التى نشرحها فى هذا الفصل ، وفى الفصل الذى يليه ، لندرك موقف المصريين من أعظم حادث فى تاريخ مصر ، وهو الفتح الإسلامى ، الذى غير لغتها ، وسلكها فى التوحيد ، وربط أقدارها بأقدار العالم العربى .

وقد لا نرى كمسلمين أن هذه الخلافات تعدو أن تكون اختلافات فى تفسير شىء واحد ، يتفق المسيحيون عليه ، وهو ألوهية المسيح . ولقد اقترح بعض من حاولوا التوفيق بين المذهبين المتعارضين إضافة حرف واحد إلى كلمة Homo-ousion [ومعناها المساوى فى الجوهر] التى نحتها أثناسيوس فى مجمع نيقيا ، فتكون الصفة

هى Homoi-ousion [ومعناها المشابه فى الجوهر] . فيرد أنصار الطبيعة الواحدة قائلين : الفرق بين الصيغتين حرف واحد هو « يوتا » ، ولكن ما أعظم الفرق بين اللفظين فى المعنى !

فنى سبيل هذه « اليوتا » وقف أثناسيوس ضد الإمبراطور البيزنطى ، وضد بابا روما ، بل ضد العالم المسيحى فى أغلبه ، وحقت عليه الكلمة المأثورة : « كل العالم ضد أثناسيوس ، وأثناسيوس ضد العالم » .

ولم تكن فى الحق مجرد « يوتا » ، أو مجرد خلاف فى العقيدة ، بل كانت روح مقاومة وطنية أذكت أوارها المسيحية ، وهى نفس الروح التى أملت على المصريين ترجمة الأناجيل إلى اللغة القبطية ، وحافظت على لغة الآباء والأجداد ، وهى اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية ، مدى ألف عام بعد غزو الإسكندر ، وألف عام بعد الفتح الإسلامى . هى هى التى قاومت الفكر الهلينستى ، ومدرسة الإسكندرية القديمة ، وأقامت لمعارضتها مدرسة الكاتشيسس [الديدسقلية] . روح المقاومة الوطنية هى التى حرمت على مصر ورود منابع الحضارة الإغريقية ، علماً وفلسفة وأدباً . فإذا كان ثمن هذا فادحاً ، فإن معناه القوى لا يمكن أن يغيب عنا، وهو شدة مقاومة المصرى لغزاته ، مقاومة روحية .

وتتخذ المقاومة صورة جديدة ، فى الحركة الدينية التى تعد من مآثر الكنيسة المصرية على العالم المسيحى : ألا وهى حركة الرهبنة والتبتل والانفراد للتعبد . ولم يكن الانفراد والتعبد جديداً على المصريين ، فقد عرفوه فى عهد الأسرات ، ونقله عنهم « الثرابيوتاى »، الذين روى عنهم فيلون الإسكندرى أنهم كانوا رهطاً من بنى إسرائيل هجروا متاع الدنيا ، وخرجوا رجالاونساء إلى أرباض الإسكندرية فى منطقة مريوط ، يتأملون الإلهيات ، ويقيمون الصلوات ، ويسبحون بالمزامير والترانيم .

ويقال بأن أول دير مسيحى تأسس عام ١٥١ م ، حين أزمع فرونتينوس هجر العامر إلى الغامر ، زاهداً فى الدنيا ؛ فضم إليه جماعة من المجتوين أمثاله ، وسار بهم إلى وادى النطرون ، هناك قضوا بقية حياتهم فى النسك والتعبد ، آوين إلى بعض الكهوف الصحراوية .

ولكن مؤسسى الرهبنة فى مصر ، على التحقيق ، هما القديسان بولا [أو بولس] ،

المولود فى طيبة عام ٢٢٨ ، وأنطونيوس ؛ وقد بدأت بالتوحد والانفراد . والمعروف عن حياة مار أنطونيوس أنه ولد بمدينة كوما من أعمال بنى سويف عام ٢٥١ ، وأنه نشأ فى قريته محبًّا للعزلة ، وخرج عام ٢٨٥ إلى الصحراء الشرقية ، حيث وجد حصناً مهجوراً يعرف بحصن « بسبار » أو « بسبير » ، عاش فيه عشرين سنة ، اجتمع حوله عدد من التلاميذ ، وانتهى بأن غادرهم متوغلا فى جوف الصحراء ، مصعداً فى سلسلة جبال العرب ، حتى وجد مكاناً لا يسهل الوصول إليه . وكان أنبا أنطونيوس يعود إلى تلاميذه فى بسبار ، ويسافر إلى الإسكندرية ليواسى المضطهدين فى سجونهم وهم رهن المحاكمة ، ويشد أزرهم قبيل استشهادهم الرهيب ، وليحيي البطريرك أثناسيوس فى عوداته من المنفى . وعاش أنطونيوس حتى العام الخامس بعد المائة وتنيح سنة ٣٥٦ م .

وتطورت الرهبنة فى عهد أمونيوس ومكاريوس إلى ما يعرف برهبنة الشركة ، أى عندما يشترك الرهبان فى المعيشة ، ويتعاونون فى القيام بالأعمال المنزلية واليدوية ، كلما فرغوا من صلواتهم وعباداتهم .

وجاء من بعدهم أنبا شنودة وأنبا باخوم ، فنظما جمعيات الرهبنة ، وسنا لها القوانين ، ووضعا لها القواعد .

والرهبنة فى مصر تعرف فى ثلاثة أوضاع : رهبنة النساك ، وهم سكان الأديرة ، ورهبنة الزهاد ، وهم يتوحدون فى الخلوات والصوامع الصحراوية والجبلية ، ورهبنة المتبتلين الذين يجتمعون فى المدن اثنين أو ثلاثة ولا يتزوجون .

وأنبا مكاريوس ، أو أبو مقار الكبير ، ولد بالصعيد ، وقيل بشنشور منوفية سنة ٣٠١ ؛ وهو منشئ دير البراموس ، ودير أبى مقار ، بوادى النطرون .

أما أبو الشركة فهو أنبا باخوم ، منظم حياة الجماعة بالأديرة تبعاً لقانون واحد ، وتحت رئيس واحد . وقد بدأ حياته جندياً وثنياً فى الجيش الرومانى ، وحارب فى الحبشة ، ثم ترك الجندية وذهب إلى أسقف دندرة الأب سرابامون ، وتعمد على يديه ، ثم خرج إلى البرية ، وتتلمذ على أحد شيوخها ، الأنبا بلامون ، الذى أنذره بأن « حياة السواح أشد قسوة مما يتصورها » . ولما اجتاز التجربة ، ألبسه إسكيم الرهبنة .

اشتهر أمر هذه الأديرة فى العالم المسيحى . ووفد على مصر كثير من الأجانب ، كتبوا عما رأوه فى البرية . ومنهم روفينوس والقديس هيرونيموس [سان جيروم مترجم الإنجيل إلى اللاتينية] ، وكاسيانوس . والقديس أرسانيوس ، وأنبا باسليوس الكبير . منشئ الرهبنة فى اليونان ، وهيلاريون . مؤسس الرهبنة فى فلسطين . وتحول هؤلاء دعاة للرهبنة المصرية فى الشرق والغرب . وأرخ لها بلاسيوس فى أوائل القرن الخامس . ومن بين زوار الزهاد والعباد والنساك سيدات من أشراف الدولة الرومانية الشرقية والغربية ، من أمثال السيدة باولا ، والسيدة ملانيا ، التى جاءت إلى مصر بصحبة سان جيروم (هيرونيموس) .

وكانت جماعة الرهبان تظاهر البطاركة المصريين فى دفاعهم عن العقيدة المصرية ، سواء فى الإسكندرية أو فى شتى المجامع الكنسية المشهورة .

ولم تقف مقاومة المصريين عند حدود التمسك بالعقيدة ، بل اتخذت مظهراً إيجابياً فى ثورات محلية، لم تكن تجدى نفعاً حيال السيطرة الرومانية الجبارة . وأهم تلك الثورات ، ثورة « الإخوان الثلاثة » : قامت فى أوائل حكم القيصر موريس [سنة ٥٨٢] عندما تحرك الإخوة أبو سخيرون وميناو يعقوب . ببلدة « أيكيله » [زاوية صقر مركز أبى حمص بحيرة] . يحتجون على اعتقال حاكم سمنود لاثنين من عظماء القبط ، وتبعهم الأهلون ، فتهيأ حاكم الإسكندرية لقمعها . بعد أن امتد لهيب الثورة إلى غالب أقاليم الوجه البحرى . وبلغ الثائرون أبواب الإسكندرية ، وتمكنوا من منع الحنطة عنها . كما استطاع إسحاق . ابن الأخ الأكبر . من الاستيلاء على مراكب الغلال المخصصة للقسطنطينية .

وانتهى أمر تلك الثورة بوقوف حاكم الإسكندرية أمام الثائرين يهدد بإعدام القبطيين المعتقلين . وثلاثة آخرين من كبار الأقباط ، فاضطر الثوار إلى الانفضاض عن الإخوة الثلاثة . وهرب هؤلاء إلى صان ، ثم قبض عليهم وشهروا فى الإسكندرية ، ووضعوا فى السجن حيث جزت رقابهم .

ومن الثورات المحلية ثورات صان وخربتا وبسطة وسمنود وإخميم وغيرها ، أخفقت كلها وأغرقت فى دماء المذابح الوحشية وتلاها طرد المصريين من الوظائف العامة . هذا كان حال مصر فى القرن السادس .

ويدخل القرن السابع الميلادى ، ويتولى الكرازة المرقسية البطريرك الثامن والثلاثون ، المسمى بنيامين الأول سنة ٦٢٠ ، فى حكم الإمبراطور هرقل . ويوفد إلى مصر وال بيزنطى من نوع جديد ، عينه هرقل حاكماً مدنياً ، وبطريركاً ملكياً ، فى الوقت نفسه ، وهو قوروش [المقوقس] . ولم ير الإمبراطور أن يتحدى شعور المصريين فى أول الأمر ؛ فقد استشار بطريرك القسطنطينية ، وبطريرك أنطاكية فى أمر توحيد المذاهب المسيحية على مبدأ جديد ، وهو أن المسيح واحد ، وفعله واحد ، ومشيئته واحدة ، دون إشارة إلى وحدة الطبيعة أو ازدواجها . ولم تخف على المصريين حيلة المستعمر ، ورفض البطريرك المصرى الاعتراف بممثل الإمبراطور ، بطريركاً ملكياً ؛ فاضطهد وهرب إلى برية الإسقيط [برية شيهات] ، بوادى النطرون ، حيث لم يجد سوى قلة من الرهبان ، بعد أن عاث الفرس فساداً وتقتيلا ، إبان العشر السنوات التى سلخوا فيها مصر عن الحكم الرومانى ، وتركوا برية المتوحدين والشركاء قاعاً صفصفا . فذهب بنيامين إلى الصعيد حيث ظل مختبئاً عشر سنوات ، بعد أن أوصى أساقفته بالاختفاء . فأطاعه البعض وبقى الأكثرون ، وضلل عدد كبير منهم . وأقام هرقل أساقفة خلقدونيين ملكيين فى طول البلاد وعرضها ، واضطهد المصريين اضطهاداً ذريعاً .

وهجم عمرو بن العاص على مصر ، وكان يجمع إلى القيادة العسكرية الباهرة ، حكمة السياسى وسماحته ، متأثراً فى ذلك رئيسه ، الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، وما إن تم لعمرو فتح مصر ، حتى قرب إليه الأقباط ؛ وكتب إلى البطريرك بنيامين (أبى الميامين) يؤمنه ، ويدعوه إليه ؛ فلبى الرجل الدعوة ، واستقبله عمرو استقبالا حسناً . ومن المأثور عن ابن العاص قوله فى جيشه : « حدثنى عمر ، أمير المؤمنين ، أنه سمع رسول الله يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بأهلها خيراً ، فإن لكم فيها صهراً وذمة ، فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم » .

وسمع الرهبان فى مخابئهم الصحراوية ، وصوامعهم الجبلية ، بأمر قوم جاءوا من الشرق ، ليقضوا على الروم المارقين . فاحتشدت حشودهم ، ووفدت على القائد عمرو ، فى جماعات كثيرة ، تحييه ، وتستبشر بقدومه ، وهو معجب

بتلك الوجوه السمراء . والشعور الشعثاء . والمسوح المهلهلة . لا تكاد تغطى أجساداً أوهنها الزهد . وضمرتها العبادة ويطيب لى أن أتصور ابن العاص ناظراً إلى جيش الحفاة أولئك . وهو العربى المتقشف بطبيعته ، قائد أمير المؤمنين المتواضع ، الذى كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربه على كتفه ، مع هيبة قد رزقها ، وكانت رحله مشدودة بالليف : أتصور ابن العاص متأملا هذه الإنسانية الخشنة ، فإذا به يقارنها بما رأى من بذخ الروم الفاصح . فيكره الإسكندرية وحياتها . التى تنم عن الترف والسرف .

إلا أن السياسة السمحاء التى سار عليها عمرو . لم تدم طويلا بعد مقتل أعظم الخلفاء . واستبدال عمرو بغيره من الولاة . وجاءت ولاية عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠ . وكان أبوه مشغولا بقتال أبى العباس ، فاشتد على الأقباط فقاوموه ، وثار سكان البشمور فى برارى شمالى الدلتا وبحيراتها ، وقاموا على عمال الخراج فقتلوهم . وكبسهم عسكر عبد الملك . فقاوموه وانتصروا عليه ، بقيادة مينا بن بقيرة . وجاء مروان إلى مصر فاراً من وجه أبى العباس ، وجرد عليهم الجند وقهرهم ، فتحصنوا فى براريهم وسياحاتهم ، فلم يستطع مطاردتهم ، واكتفى بحصارهم ، فكان البشموريون يخرجون إليهم ليلا ، ويديرون فيهم القتل حتى اضطروهم إلى الرحيل ؛ وذهب مروان إلى الصعيد يشفى غليله . حتى انتهى أمره بانتصار منشئ الدولة العباسية .

وظاهر الأقباط هذه الدولة الإسلامية الجديدة . فأمنهم أبو العباس عن نية حسنة . وانتجاعاً للعدالة . ولكن بعد مصر عن عاصمة الخلافة . وقصر مدة الولاة فى مناصبهم ، ساعدا على التراخى فى تنفيذ السياسة العادلة . فعادت الحالة إلى ما كانت عليه فى الدولة الأموية .

وآخر الثورات المصرية انفجرت فى عهد المأمون ، واستفحلت ، مما اضطر معها المأمون إلى معالجتها بنفسه . فجاء إلى مصر ، وكبح جماحها . وظفر بالثائرين ظفراً كاملا . وعقب تلك الثورة الأخيرة ، بدأ عدد الأقباط يتناقص . إذ أسلم منهم حوالى ربعهم . وما إن ينسلخ القرن التاسع الميلادى ، حتى تدين الغالبية من سكان مصر بالإسلام ، وتكون اللغة العربية قد زحزحت اللغة اليونانية

عن دواوين الحكم ، وبدأت تحتل مكان اللغة القبطية فى المعاملات بين الناس . فإذا جاء القرن الحادى عشر ، ظهرت كتب قواعد النحو القبطى مكتوبة بالعربية ، وظهرت قواميس قبطية عربية ، ألفها أقباط ، أخذت أسماؤهم تنتحل الطابع العربى . عندما زار الأب فانسليب الصعيد عام ١٦٧٢ — ١٦٧٣ ، بلغ أسيوط ، وتعرف بمطران المدينة أنبا يؤنس ، ويقول فانسليب إن « المطران عرفه بقبطى اسمه المعلم أثناسيوس ، كان الرجل الوحيد فى مصر العليا العارف بلغة بلاده ، أى بالقبطية . ولكننى لم أستفد منه كثيراً ، فالرجل بلغ من العمر ثمانين عاماً وكان أصم . وعلى أية حال ، فقد رأيت الرجل الذى ينحدر إلى القبر ، فتدفن معه اللغة القبطية ، نهائيًّا . » وهذه مبالغة رحالة ، لأن القبطية ظلت لغة طقوس الكنيسة ، وقال الأثرى كوبيل فى القرن الماضى ، إن القس دافيد ستَرونج قابل بعض العجائز ، فذكروا له أنهم سمعوا فى شبابهم بعض الصعايدة يتخاطبون باللغة القبطية .

ويشهد كاتب هذه السطور أنه عرف أسرة يتحدث أعضاؤها فيما بينهم بالقبطية ، نتيجة محاولة محدودة جدًّا لإحياء تلك اللغة . ولكن أمثال هذه المحاولة كان لها أثرها فى عناية مواطنينا وإخواننا الأقباط بالمحافظة على اللغة التى يتكلمها المصريون منذ فجر تاريخهم .

* * *

هذه خلاصة التاريخ المصرى منذ نهاية الأسرات حتى مجىء المأمون إلى مصر ، أى فى نحو ثلاثة عشر قرناً ، لم يفت فى عضد المصريين اضطهاد ولا ظلم ولا جبروت .

ولا يسع المؤرخ المنصف إلا أن يتابع تصوير المصريين ، وقد تحولت غالبيتهم العظمى إلى الإسلام ، كشعب حريص على شخصيته ، متمسك بعقيدته . وإذا كان المصريون الأقباط قد نسوا تاريخهم الفرعونى ، وفقدوا أسرار الكتابة المصرية القديمة ، وخربوا المعابد والمدافن ، أو حولوها إلى كنائس وصوامع ، وإذا كان المصريون المسلمون قد نسوا تاريخهم الوثنى والمسيحى ، ولم يحافظوا على لغتهم العتيقة ، كما حافظ غيرهم من المسلمين على لغاتهم ، فإن تاريخ مصر

الإسلامية الذى يمتد إلى أربعة عشر قرناً ، مؤيد بذاته لحظ المصريين الدائم من الحضارة . فما كان أسرعهم إلى أن يجعلوا من مصر واسطة عقد العروبة ، وأن يحولوا الأزهر ـ وقد بدأ مدرسة للشيعة ، مركزاً عالميًّا للدراسات الإسلامية ؛ وما زال الجامع الأزهر حصن اللغة الحصين ، وحصن السنة ، الحافظ الأعظم لتراث الإسلام .

وليس أروع عندى من كلمة ذلك الباشا العثمانى فى آخر القرن الثامن عشر ، ومصر فى حضيض من المهانة والذل والفقر والعذاب ، وكان يستقبل مشايخ الأزهر ، فيناقشهم ويباحثهم فى الرياضيات فيحجمون ، لأنهم لا يعرفون هذه العلوم ، فيتعجب الباشا ويقول مستنكراً :

« المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم ! »

صراع القومية المصرية

كانت مصر دائماً – وما فتئت – موضع عجب الرحالة وإعجابهم . ونتقبل نحن المصريين هذا الإعجاب قضية مسلمة ، كأنه واجب على الناس جميعاً أن يعجبوا بمصر القديمة والحديثة ومصر الغد ، ولا نتساءل عن بواعث هذا الإعجاب . ولو تساءلنا حقاً لعنينا أول ما عنينا بمعرفة ما قاله عنا هيرودوتس فى كتابه الثانى المعنون « أوتربى » . فقد كان ابن هاليركارناس من أول الرحالين العظماء الذين زاروا مصر ودوّنوا أثر زيارتهم فى الكتب ، وكانت زيارته إبان الحكم الفارسى .

وواضح أن مصدر عجب الرحالة هو اختلاف طبائع المصريين عما عهده الناس فى العالم القديم ، وأن هيرودوتس أعجب أيضاً بالحكمة المودعة فى قلوب أهل مصر ، وبتقاليدها العتيقة ، وبمظاهر حضاراتها ، واطمئنانها إلى أنها أقدم شعوب العالم ؛ فقد كان الكهنة يقولون لزائريهم من اليونان ما أنتم أيها الإغريق سوى أطفال بالنسبة لنا .

والرومان ، وإن تندروا بعبادة المصريين للحيوانات ، أشادوا كغيرهم بنظام المصريين فى ريهم وصرفهم ، وفى وسائلهم لاتقاء غوائل الفيضان العالى أو المنخفض . كل هذه ، وما أضافته الحضارات التالية التى قامت فى وادى النيل ، تفسر ولا شك عناية الرواد بمصر منذ القدم . فالسائح اليوم ، كما كان فى القرن الماضى ، وكما كان أيام فولنيه وسافارى ، ومن قبلهما نوردن وسونينى وبوكوك ونيبور ، يتأمل فى إعجاب ما خلفته الحضارات المصرية من آثار .

وقصة اكتشاف التاريخ المصرى القديم فى ذاتها قصة بالغة الروعة ، حرصنا أن نلم بها فى بعض فصول هذا الكتاب . ولكننا ، أهل البلاد أو زائريها ، ننسى دائماً ، فى إعجابنا ، المسئول الأول عما نتأثر به . فالأهرام والبرابى والتقويم ونصوص الأهرام والكنائس والبيع والمدارس والمساجد والأضرحة المملوكية ، كل هذه الآثار توحى إلينا بأسماء الملوك والخلفاء والسلاطين ، وننسى منشئها الفعلى ، وهو الشعب المصرى ، ذلك الشعب الذى يقف خلف كل هذه الروائع ثابتاً للرزايا والمحن .

وننساه لأنه غير مسمى ، فلا هو بطليموس ولا رمسيس ولا هو الناصر محمد ابن قلاوون . ننساه وهو الماثل أمام عيوننا اليوم ، كما كان منذ الألف وثلاثة الآلاف وستة الآلاف من السنين . فالفلاح المصرى اليوم ، هو نفسه فلاح آلاف السنين ، لا فى نوع التفكير ، ولا فى لغتهولا فى عقيدته ، ولا فى لباسه — وإن كان المظنون أن لبس الفلاح اليوم هو « الكلاميدة » اليونانية من أيام البطالسة — ولكن فيما له علاقة بالأرض والرى والزراعة ، يخرج إلى الحقل ويعود إلى مأواه البدائى ، يتزوج ويخلف الأولاد أيادى عاملة ، وينام هو وهم والبهائم والدواجن فيما يكاد يكون مكاناً واحداً ، ينظر إلى العمدة وشيخ البلد نظرته إلى صاحب السلطان ،. هذه هى وحدة المصرى عبر تاريخه . وحدة الحياة على ضفاف النيل .

وأهم منها وحدة الشقاء الناشئ عن الاستغلال : استغلال رجل المدينة صاحب الأرض ، وكاهن المعبد ، وممثل السلطة . وقصة الشقاء هذه لا تتغير بتغير الأشخاص : جناب اللورد فى قصر الدوبارة ، وأفندينا فى القصر العالى ، ومولانا ظل الله على الأرض فى المابين ، والملك الإله فى القصر الكبير « فر — عاو » . قاع الصورة واحد لا يتغير . مظلم عابس نياخ بكلكله . وحياة الفلاح ترسف فى سلاسل محكمة الحلقات ، لا فكاك له منها : المال للحكومة ، والسخرة للدولة ، وكل شىء لصاحب الأرض : أى للمملوك المالك ، والباشا ، ورجل الدين ، والاستراتيجوس الرومانى نائباً عن قيصر ، والبطليموس ، وكل من حكم به عليه الزمان من قديم الزمان .

وساكن المدن فى عهود الذلة ، وتحت حكم الأجانب ، خضع لظروف ربما كانت أقسى من ظروف الفلاح ، بسبب آلامه الروحية : كان اليونانى يحتقر المصرى ، وكان اليهودى — الممالىء لليونانى يحتقر المصرى ، وجاء الرومان ينظرون إليهم جميعاً من علٍ . ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب على أمره ، ولا كان الولاة العرب ، فيما عدا عمرو بن العاص ، وقلة ممن حذوا حذوه فى المائة عام الأولى من حكم الولاة العرب . فالنقمة الطويلة ممسكة بخناق الشعب المصرى على يد حكامه الأكراد والترك والشراكسة والصقالبة والفرغانيين والمغاربة . وجاء حكم العثمانيين

ضغثاً على إبالة ، وفى أعقابهم الدلاة والأرنؤد . وعاد الفرنسيون إلى مصر — بعد اعتداءاتهم الأولى أيام الصليبيين أمورى ، وجان دى بريين ، ولويس التاسع — ثلاث مرات : الأولى بقيادة بونابارت . والأخيرة إلى جانب العصابات الصهيونية ، والثانية بفضل أسرة محمد على ، عندما دعاهم الباشا رأس الأسرة ليقيموا مشروعات استغلاله الأنانى ، وليستنبطوا له شتى احتكاراته فى الزراعة والصناعة ، وحتى فى شئون الكيف .

وأتعس ما بليت به مصر فى القرن التاسع عشر هو جيش المغامرين من الشرق والغرب ، نزلوا ببر مصر وليس لهم شرعة إلا الكسب . وما أقرب أن يتحول الكسب نهباً عندما ينزل الأفاق بقوم سذج سليمى الطوية . جاءت طغمة الغرباء يعماون تجاراً وأصحاب صناعات واحتكارات ومرابين ولصوصاً وقوادين . وبدأ أغلبهم ذليلاً لينتهى سيداً مطاعاً ، بفضل الباشا والخديو ، وبفضل زخرف الحضارة الذى طالب به الباشا والخديو ، لمجرد الزهو والاستمتاع . وتحول بعض أولئك المغامرين إلى وسطاء فوزراء ، وانتهت مأساة السفه بالديون الثقال واحتلال البريطانيين . وكان المغامرون عون المحتل فى الدواوين وفى الأعمال الحرة .

لم يكن المصرى يملك شيئاً من أرضه ، ولا من غير أرضه . كلها إقطاعات للفرعون وأسرته ، وللمعبد وسدنته ، ثم لبطليموس فالإمبراطور فى رومة وفى بيزنطة ، ثم للخلفاء فى شبه جزيرة العرب جنوباً وشمالا ، ولمن جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب ، أبناء طولون والإخشيد والفاطميين والأيوبيين والمماليك والباشوات وأسيادهم فى الأستانة ، ثم لأسرة محمد على والمقربين منها ، فللدائنين والمرابين ، وأخيراً للباشوات والبكوات المصريين أنفسهم ، وهؤلاء لم يكونوا أرحم من الغرباء ، ولا أضعف أثرة من سابقيهم أو لاحقيهم أصحاب الشركات الكبرى ، زراعية أو صناعية .

تطالعك على مدى الأجيال نظرة الحاكم إلى مصر نأى عنها أم قرب . فابن عفان يعزل عمرو بن العاص ، ثم يعرض بسياسته المعتدلة فى فرض الضرائب قائلاً : « لقد درت اللقحة بعدك يا عمرو » ، فيجيبه أعدل من ولى مصر : « ولكنها أضرت بوليدها » . ويقول الإمبراطور الرومانى طيباريوس لعامله فى مصر :

« لقد أوفدتك لتجز صوف الشاة لا لتسلخها » . ويقول البك الألفى لجليسه : « الإنسان الذى يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها ، يلزمه أن يرفق بها فى العلف ، حتى تدر وتسمن وتنتج له النعاج ؛ بخلاف ما إذا أجاعها وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها ، حتى إذا ذبحها لا يجد بها لحماً ولا دهناً . » ، فيجيبه المملوك جليسه : « هذا ما اعتدناه وربينا عليه . »

تلك نظرة حكام مصر جميعاً منذ فجر التاريخ حتى القرن العشرين ، سواء أجاعوها وأجحفوها ، أو ترفقوا بها فى العلف حتى تسمن . فمصر هى البقرة الحلوب ، واللقحة التى تدر ، والشاة التى يجز صوفها فى أرفق وسائل الحكم .

معجزة هذا الشعب المصرى إذن ليست فى الحضارة التى وهبها للعالم فحسب ، إنما فى أن يظل الشعب حياً متمكن الشخصية ، لا يفنى فى غزاته ومستغليه . شعب زارع بناء صناع اليدين ، صانع حضارة ، سواء حكمه محب للعلم ، ذواقة للفن ، أو عيهور مغامر . شعب يفرض الحضارة على حكامه فرضاً .

وإلا فإننى أطلب تفسيراً لهذه الظاهرة الثابتة فى التاريخ المصرى : بناء المصاطب والأهرام والبرابى ، وإقامة التماثيل والمدافن ، وإنشاء الكنائس والأديرة ، فالمدارس والجوامع والقصور والأضرحة ، وحفر الترع وإقامة الخزانات ، ووصل البحرين سواء عن طريق النيل ، أو مباشرة بين القلزم والفرما . ثم من كان يصنع الأثواب الشرب ، والدبيقى والتنيسى ، والقباطى الإخميمية ؟ ومن قام بزينة المساجد ومنابرها ، والكنائس وهياكلها ؟ ومن رسم الصور الشعبية على الخشب ، ووضعها فى توابيت الفيوم والبهنسا ؟ ومن قام على مدرسة الكهنوت فى هليوبوليس . ومن فتح مدرسة اللاهوت المسيحى « الديدسقلية » فى مواجهة مدرسة الإسكندرية الوثنية ؟ ومن أنشأ الجامعة الأزهرية ؟ أكان الفرعون والقائد الفاطمى والسلطان المملوكى ودلسبس ومحمد علي وغيرهم ممن حفظ التاريخ أسماءهم مقرونة بتلك الأعمال العمرانية ؟ أو أنه ذلك المجهول المفترى عليه : الشعب المصرى ؟

طالع الصورة الحية التى رسمها وكيل القنصل البريطانى أيام محمد على ، وهو يصف حال الفلاحين المصريين عندما أصاب الطاعون ماشيتهم : لقد رآهم يربطون الحمار مع الجمل لجر المحراث ، وشهدهم يتكاتفون جماعات ليجروا محاريثهم فى

سبيل خصاصة من العيش ، كي لا يموتوا جوعاً . كل هذا الجهد الجبار لمجرد حفنة من الأذرة ، وقليل من المش وخشاش الأرض ، وهدمة زرقاء !

يتأخر الفيضان وينخفض منسوبه ، فينزل القحط بالبلاد ، ويحل الوباء بأهلها ، ويهلك الطاعون مواشيهم ؛ ويرتكب حكام مصر كل موبقة دون رادع ، لسبب ولغير سبب ؛ ومع هذا يعود الشعب إلى حقله ، أو إلى مقعده أمام النول وآلة الخراطة وفرن الزجاج ومعمل التفريخ ؛ يعود إلى مطرقته يكفت النحاس بالفضة ، وإلى كتبه ينسخها ، ومصاحفه يوشيها ويجلدها ، وقد نسي ما حل به . يسأنف نشاطه الحضاري ، لأن جبلة الحياة فيه تتصل بصميم تربته السمراء وشمسه ونيله ، ولأن أحلام نفسه الوادعة لا تتعدى الرقعة السوداء يحيلها زمرداً . والخضرة اليانعة يجنيها نضاراً . جبلة الحياة فى هذا الشعب هى الحضارة نفسها . فهو ، فى شعوب الأرض طرًّا ، مثال رجل الاستقرار والسلام. ومع ذلك لم يمنح السلام والاستقرار فى تاريخه إلا قليلاً .

عندما خمدت نار الفتنة فى مصر وهدأت الأحوال ، شرع المأمون فى تسكين جأش الناس فصار يطوف بالبلاد يتفقد أحوال الرعية ؛ ومر بضيعة تسمى طاء النمل فلم يدخلها لحقارتها ؛ وجاءته عجوز اسمها ماريا ، هى صاحبة القرية ، وأخذت تصيح عليه ، فوقف لها وسألها عما تريد ، فقالت : « يا أمير المؤمنين ، نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى ، فأتوسل إليك أن تشرفنى بحلولك فى ضيعتى ، كى لا تشمت بى الأعداء » . فأجابها المأمون إلى طلبها ؛ وقدمت له ولابنيه المعتصم والعباس ومن معهم من فاخر الطعام شيئاً كثيراً . فلما أصبح الصباح وقد اعتزم الرحيل ، حضرت إليه ومعها عشر وصيفات فى يد كل واحدة طبق . فقال المأمون لمن معه : « جاءتكم القبطية بهدية ريفية » ، وإذا فى كل طبق كيس من ذهب . فأمرها بإعادة الهدية ، فقالت له : « لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا يا أمير المؤمنين » . فلم يسعه إلا إجابة طلبها ، ثم سألها : « من أين لك كل هذا ؟ » فأجابت : « يا أمير المؤمنين ! هذا . . . » — وأشارت إلى الذهب ، ثم انحنت فتناولت حفنة من الطين رفعتها فى وجه المأمون لتقول : « من هذا . . . ثم من عدلك يا أمير المؤمنين » .

تلك كلمة الشعب المصرى لحكامه : « لا أطلب منك إلا أن تجرى فى أحكامك بين الناس بالعدل ، وأن ترعى شئونهم بالرفق : ثم افعل ما بدا لك بعد ذلك ، ما دمت تتركنى أعمل فى وادى الخصيب » .

فى هذه الجملة خلاصة تاريخ مصر كله : الحكم الصالح يقى المصريين شر الفيضان العالى والنيل المنخفض . وقديماً استطاع يوسف الصديق أن يحسن التدبير ، فيجتاز بمصر السنوات العجاف .

اعتنق الشعب المصرى المسيحية ، بعد أن فقد الإيمان بآلهته القديمة فتخلى عنها إذ شعر بأنها تخلت عنه منذ زمن طويل ، ورأى كيف يمالىء كهنته السلطان الأجنبى . واستشهد المصرى متمسكاً بعقيدته المسيحية ، عندما فرضت عليه روما عبادة إمبراطورها ، واستشهد أكثر ما استشهد عندما أراد الإمبراطور البيزنطى أن يفرض عليه مذهباً مسيحيًّا بعينه ، يخالف مذهبه المصرى .

آمن بالإسلام فلم يحمه إسلامه من اضطهاد الولاة والحكام والسلاطين والباشوات ، ولم يكن حظه خيراً — إلا قليلاً — من حظ أخيه المصرى الذى بقى على مسيحيته .

ليتعبد وثنيًّا ، أو ليؤمن بعيسى ، أو لينطق بالشهادتين ، فلعنة حكامه قائمة دائمة ، لا تفارقه أبد الدهر . يحارب الوثنية نصرانيًّا ، ويعارض الأرثوذكسية الملكية قبطيًّا ، ويقاوم الصليبيين مسلماً ، ولن يغير كل هذا من شراهة حكامه المخادعين ، ولن يغير ما بنفوسهم من نهم الاستيلاء على أرضه ، وخيرات أرضه وصناعته . لأن بغيتهم كلهم من الحكم ، هى عرق جبينه ودمه ، ونتاج عقله وذراعيه .

والشعب المصرى المغلوب على أمره ، انتصر دائماً على ظلمته ، ولو بعد حين ؛ إذ لم يستطع حكامه أن يدلسوا عليه طويلاً ، بل هو الذى خدعهم فى نفسه ، وعانى ذلهم وظلمهم ، ليحتفظ لنفسه ، مدى ستة آلاف سنة ، بأعز ما يملك ، ألا وهى إنسانيته المتحضرة ، وشخصيته المتكاملة .

ولست ألقى هنا الكلام جزافاً ، فقد طالعت تاريخ بلادى كله ، مركزاً عنايتى فى أمر واحد : هو دراسة هذه الإنسانية ، وتحليل هذه الشخصية . لم تكن دراسة

ميسرة ، لأن أكثر من أرخ لمصر من أهلها ، ومن غير أهلها ، أعشى عيونهم التاج الأبيض والتاج الأحمر ، وأوراق الغار ، ولمعان السيوف ، وانفجار بارود المكاحل ، وشنك انتصارات السلاطين والملوك والقواد ، والاحتفالات الكبرى بافتتاح قناة أو بناء خزان .

فى تنقيبى عن الشخصية المصرية اكتشفت حقيقة أولية ، وهى ألا تعتمد على الثورات والاضطرابات وحدها كعلامة على يقظة القومية المصرية . وإنك لواجد أمثلة لهذه الثورات والاضطرابات على طول التاريخ المصرى : فى العهد القديم ، وبعد استتباب الأمر للبطالسة ، وإبان الحكم الرومانى والبيزنطى والعربى والعثمانى والفرنسى والأرنؤدى والبريطانى . بيد أن الثورات والاضطرابات لا تصور وحدها يقظة الوطنية المصرية . لأن المصريين أول من حذقوا ما يعرف بالمقاومة السلبية . وإذا كانت بعض حركاتهم القومية لم تعرف باسم « العصيان المدنى » ، فكثيراً ما كانت كذلك فى الحقيقة كما سيجىء شرح ذلك .

ومصر لم تفن فى غزاتها ، بل إن غزاتها هم الذين يفنون فى مصر ، إن لم يكن بالطريقة التى ابتلعت بها الصحراء جيش قمبيز — كما قيل — فبوسيلة أفعل سحراً وأقوى أثراً . الغزاة يفنون فى مصر بالحياة : يتناسلون ويحكمون أجيالاً لينتهوا مجازاً إلى ما انتهى إليه جيش قمبيز فى الأسطورة . هم أيضاً يذوبون ، لا فى رمال الصحراء ، ولكن فى بوتقة الشخصية المصرية . وقد يفلح الملوك والحكام الأجانب حيناً فى الاحتفاظ بسماتهم الأجنبية ولغتهم ، ولكن ذلك يعد من قبيل الاستثناء الذى يثبت القاعدة ؛ والفناء الذى نقصد ، هو فناء الشعوب الغازية فى الشعب المصرى ، وهضم التربة المصرية لكل تلك الأجناس الغريبة ، التى قاومت ما استطاعت المقاومة ، ثم انتهت إلى ما انتهى إليه سابقوها .

ولا معدى لمن يعالج تاريخ مصر أن يدرس العقائد الدينية عن كثب ، حتى يفهم الشخصية المصرية . فقد كانت العقائد « قطب الرحى » فى كل الحركات القومية ، إلا فى حركة سنة ١٩١٩ .

ودراسة العقائد الدينية غير ميسرة دائماً ، لأن المؤرخين اختلفوا فى كل مرة يتحول المصريون من ديانة إلى أخرى . فهذا أميلينو ، العالم فى القبطيات ، يقول ،

ويؤيده لويبولت ، بأن وثنية المصريين انهارت عاجلاً أمام المسيحية ؛ على حين يحاول عالم البرديات الشاب جان ماسپرو أن يبين طول الوثنية فى مصر ، مستنداً إلى بقاء بعض المعابد الوثنية هنا وهنالك ، حتى القرن السادس الميلادى . وشبيه بهذا ما يقال عن تحول المصريين من المسيحية إلى الإسلام . وفى رأيى أن التحول فى الحالين استغرق قروناً قبل أن يستتب الأمر للديانتين التاليتين للوثنية فى مصر .

لنستعرض الآن السرد التاريخى الذى ورد فى الفصل السابق ؛ ماذا فعل الشعب المصرى بعد ضياع استقلاله وزوال عهد أسراته ، أى منذ غزو الفرس والإسكندر ؟ وقبل ذلك يجب أن نذكر أن المصريين يتقبلون الغزاة ليخلصوهم من حكم غاشم . رضوا بالعرب لينقذوهم من حكم بيزنطة ، وفتحوا أذرعتهم للإسكندر ليزيح عنهم نير الفرس . والإسكندر جاء إلى مصر يحمل رسالة تحرير العالم ، على الأقل فى الظاهر ، دخل مصر كما دخلت جنود الثورة الفرنسية إيطاليا وألمانيا . ولو كان بونابرت مسلماً لرضى به المصريون مخلصاً لهم من جور المماليك . وكان بونابرت مدركاً لهذه الحقيقة ، معداً لها بعد مطالعة كتاب « فولنيه » ، ولذلك راح يدجل بالآيات ، ويلبس العمامة والفراجة ، ويدعى الإسلام ، ويقول للمصريين بأنه حارب البابا وهزم « كوالراية » — أى فرسان — مالطة ، جند المسيح . ولم يجز هذا الدجل على المصريين .

دخل الإسكندر يحمل رسالة توحيد العالم فى إمبراطورية هلينستية ، ويدعى الإيمان بديانة المصريين ، ويقدم القرابين لآلهتهم ، ويسافر إلى سيوة [واحة آمون] حيث استقبله كهنة المعبد الكبير ، وضحكوا على ذقنه بمسرحية دينية تركوا فيها الإسكندر يناجى كبير البانتيون المصرى وجهاً لوجه ، فيلقى إليه الصنم آمون [وهو صورة من زفس فى ذهن الإسكندر] برسالة إلهية يغيبها إسكندر فى صميم روحه ويكتب لأمه فى مقدونيا بأنه لن يبوح بالسر العظيم إلا لها بعد عودته إلى وطنه ولما لم يعد ، اختفى سر الحديث الإلهى إلى الأبد .

وكشف هذا السر ليس من الصعوبة كما يبدو ، أولاً لأن الصنم آمون لم يتكلم ، فإذا كان حديث قد جرى بين الحجارة والإسكندر ، فعن طريق كاهن يتكلم من بطنه «فنتريلوك» : حيّا المقدونى وبيّاه : كما يحيى أى فرعون . والفراعين كلها

منحدرة من صلب الآلهة فى عرف المصريين . وما دام الإسكندر قد أصبح فرعون مصر بحق الفتح ، فليس بعيداً أن يكون الكاهن المدلس قد خاطبه على أنه ابن آمون ، ولم يجد هذا المتكلم من بطنه باسم آمون صعوبة فى إقناع الشاب المغرور بأصله الإلهى . لأن الإسكندر كان يشك فعلاً فى بنوته لأبيه ؛ وكانت أمه أوليمبياس مصدر هذا الشك ، فهى التى نشأت غلامها على الاعتقاد بأنه ابن زفس كبير آلهة اليونانيين . ولم يكن عسيراً على الإسكندر ، ولا على أى إغريقى من القدماء . أن يصدق مثل تلك الخرافة ، لأن حياة زعيم الآلهة كانت سلسلة خيانات لزوجته الإلهة هيرا مع نساء البشر : يدخل عليهن فى شكل من الأشكال ، فهو ذكر بجع مرة ، وثور مرة أخرى ، ومطر من الدنانير مرة ثالثة . كان هذا الرب الفلاتى يتسلل إلى خدر معشوقاته من البشر ، أو يقابلهن فى الغاب وحول ماء الغدير ، متنكراً على طريقة الروايات البوليسية ؛ وقد بلغ به الخداع أن يتقمص شخصية الزوج فى بعض الأحيان . المهم أنه كان يلبس شكل عكروت ما . وغرور جوبتر — زفس — كان يدفعه إلى أن يعلن عن شخصيته ، فيما بعد ، تكريماً لمعشوقة رب الأرباب .

لم يكن كاهن سيوة المتكلم من بطنه باسم آمون يعنى أكثر من التحية التقليدية لفرعون مصر . . . المقدونى ، ولكن الإسكندر حمل التحية محمل الجد ، ورأى فيها توكيداً لما حدثته به الملكة أوليمبياس . إنه إذن الإبن البكر لجوبتر — آمون ، وسيعمل على مرضاة شعبه الأمين . فسياسته فى مصر ستكون سياسة المسالمة ، والحرص على معتقدات المصريين وعاداتهم .

وجاء أبناء لاجوس الأوائل بعده ينهجون نهجه ، ويتظاهرون بمجاراة طقوس المصريين واحترام تقاليدهم . ولكنهم ، فيما عدا ذلك ، يعيشون حياتهم الهلينية ، فى بلاد أنشئت خصيصاً لهم ولأبناء جلدتهم . وكانت عاصمتهم الإسكندرية مدينة هلينية فى كل شىء ، ليس بها من أثر للمصريين سوى طبقة عاملة من سكان « راكودة » محلة الصيادين التى أنشأ الإسكندر مدينته إلى جوارها .

ولكن فعلة كهنة آمون النكراء فى واحة سيوة ، وهى صورة من فعالهم فى معابدهم الكبرى ، كانت لها آثار بعيدة فى نفوس المصريين . ولقد درج الكهنة على

تملق البطالسة ، وإدخالهم فى البانتيون المصرى ، وتصويرهم على جدران المعابد فى بزة الفرعون يتلقى بركة الآلهة ، وربما كان بطليموس يتوج وفقاً للطقوس المصرية ، وهو لا يرى بأساً من ذلك . فديانة الهلينيين كانت ديانة بحبوحة لا ترفض أن ينضم إلى مجمع آلتها من يشاء من الآلهة الأغراب ، هذا إلى أنهم تعرفوا على آلهة المصريين وأطلقوا عليها أسماء آلهتهم : فآمون هو زفس ، وهاتور هى أفروديت ، وإيزيس هى ديميتر ، وسبك ، الإله التمساح ، من يكون غير خرونوس ؟ والههم هفيستوس ألا يكون فتاح أو رع ؟ وقد يكون هرمس هو توت ، أو أنه أنوبيس . ما كان أشبه البطالسة بأمير نافار البروتستانتى عندما انقلب كاثوليكياً غداة دخول باريس ليتوج ملكاً على فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، باسم هنرى الرابع . ومن مأثور قول هنرى دى نافار حين ذاك : « إن باريس لجديرة بقداس كاثوليكى » .

وسياسة البطالسة فى مصر كانت حذوك النعل بالنعل وسياسة الماريشال ليوتى ، بطل الاستعمار الفرنسى فى مراكش : احترام العقائد والطقوس والعادات لدى المغاربة عرباً وبربراً ، والاحتفاظ لهم بمحلاتهم ومدنهم وديارهم ، مع إنشاء مدن حديثة يحيا فيها المستعمرون حياتهم الفرنسية فكرياً واقتصادياً على حساب أهل البلاد . والحقيقة أن المستعمرين الأوربيين فى العصر الحديث لم يأتوا بجديد فى وسائلهم لاستعمار آسية وأفريقية ، إنهم فى كل ما قاموا به من « استعمار حضارى » حذوا حذو أساتذتهم المقدونيين والرومان .

وساعدت الإسكندرية ونوكراتيس فى الدلتا ، وبطليموسة [بطولمايس] فى الصعيد ، وغيرها ، على إقامة خلايا يونانية تحيا حياتها الهلينية كاملة ، على حين تسير الحياة المصرية الصميمة سيرها التقليدى ، وتستكمل المعابد أبنيتها ، بل ويقام غيرها ، وعلى النمط القديم .

واستمرت الحال حتى بعد الاحتلال الرومانى ، فجاء الأمبراطرة إلى مصر يمالئون أهلها ، ويشاركونهم فى حفل تنصيب العجل أبيس ، وهم يتضاحكون إذا خلوا بعضهم إلى بعض . وما تزال بعض آثار هذا التندر فى بعض كتاباتهم وقصائد شعرائهم [الهجاء الساخر رقم ١٥ ليوفينال] وإذا كان الهلينيون قد شعروا بعظمة

الحضارة المصرية فكرموها ، فإن الرومان رجال عمليون لم يقدروا هذه الحضارة حق قدرها ، بل ولم يرعوا لمصر حرمة ، بعد ما استتب لهم الأمر فى وادى النيل .

فالهيلينيون والرومان كانوا يعيشون حياتهم على هامش الحياة المصرية ، والأصدق أن نقول بأن المصريين هم الذين كانوا يعيشون على هامش الحياة الرسمية اليونانية أو الرومانية ؛ يعملون من أجل أسيادهم فى مصر وفى روما ؛ وقد انحدروا إلى قعر القفة ، وفوقهم اليهود ، فالهيلينيون وفوق هؤلاء وأولئك السادة الرومان . ثار المصريون غير مرة ولكن لم يحدث أن اتصلت أسباب الثورة وامتد لهيبها ؛ كانت اضطرابات محلية سرعان ما تسحقها القوة القاهرة .

ظاهر إذن أن المصريين استكانوا ورضوا بالذلة والخضوع . بل راح بعضهم يرطن باليونانية واللاتينية ليحيا حياة المحتل ويماحكه، ويعيش على مرضاته . ولكن المتعمق فى دراسة الحياة المصرية القديمة يدرك تواً كيف تمسك أغلب المصريين بقوميتهم ، وكيف كانت الضعة تمزق نفوسهم ، لأنهم انحدروا بعد الغزو الرومانى إلى مرتبة الولاية . ويلاحظ المؤرخ قوة الشعور بالقومية عند المصريين فى تاريخهم الطويل عندما لا يجدون عزاء عن الاحتلال الأجنبى فى أسرة مالكة ترعى على الأقل استقلالهم كدولة كبيرة . تملكهم هذا الإحساس بعد احتلال الهكسوس ، وبعد الغزو الرومانى والفتح الإسلامى والاعتداء العثمانى . وتتجلى صورة هذا الشعور فيما كتبه ابن إياس بعد موقعتى مرج دابق والريدانية ، راثياً لحال بلاده ؛ إذ يقارنها بما كانت عليه أيام سلاطين المماليك ، مع أنهم كانوا أجانب عن مصر . كذا كان البطالسة . فشعور المصرى بأن له بطليموسه وإخشيده ، وخليفته الفاطمى ، أو سلطانه الأيوبى أو المملوكى ، يعزيه بعض العزاء ، لبقاء استقلاله مؤيداً . بالرغم من هذه الأسر الحاكمة الأجنبية . ولا أحسب نظرة المصريين تنطوى على فلسفة سياسية خاصة ، إنما هو شعور بالفارق بين أسرة حاكمة — أجنبية أو من أهل البلاد ، تملك مصر وتعنى بأمورها ، كضيعتها الخاصة ولا شك ، فى تنظيم الرى والصرف ، والاستعداد للفيضان العالى ، وتوقى الفيضان المنخفض ؛ وتشجيع التجارة والصناعة والبناء والإنتاج الفنى والفكرى — وبين حاكم موظف يوفد من حاضرة بعيدة فى روما أو بيزنطة أو دمشق أو بغداد أو إستامبول ، وكل همه إرضاء الملك

البعيد ، إمبراطوراً أو خليفة أو سلطاناً ، بل جل عنايته أن يجمع لنفسه ثروة خاصة من بلاد غنية لا يتاح له الحكم فيها لأكثر من عام أو عامين . ونتيجة ذلك ، فى الغالب ، الفوضى وقصر النظر والرشوة والسرقة والجور والاستغلال فى أقبح صوره .

فالباحث عن القومية المصرية ، السارية كالنار فى الهشيم ، وعن شخصية المصريين وحفاظهم بكيانهم ، يتعين عليه أن يدرس عهود الحكام والولاة الموفدين من حواضر الإمبراطوريات الأجنبية ، أكثر من عنايته بعهود الأسر المالكة الأجنبية التى تستقل بشئون مصر .

لذلك نعنى فى هذا الفصل بمصر تحت حكم روما وبيزنطة ، وقد امتد نحو سبعة قرون ، منذ تغلب أكتافيانوس قيصر على كليوباترة حتى الفتح العربى . كانت مصر طوال هذه القرون ولاية قطعت أوصالها فى إصلاحات يوستنيانوس ، فأمست مجموعة من الدوقيات ، لكل دوقية منها حاكمها وقائدها ، ورئيس ماليتها ، وجيش احتلالها . وهذا التقطيع فى ذاته يفسر هزيمة الروم فى مصر أمام جيش عمرو بن العاص ، أى هزيمة نحو ثلاثين ألف رومانى ، أمام مجموعة من فرسان العرب ، أقل من نصف هذا العدد على أقصى تقدير .

والعهد الرومانى فى مصر يشبه فى أوله من ناحية معاملة الأهالى القرن اللاجيدى : محاولة استرضاء المصريين بالتظاهر باحترام دياناتهم وطقوسهم ، وتشجيع إنشاء المعابد الجديدة وإتمام قديمها ؛ ولو أن تركيز السلطة فى روما قضى على المحتل بمراقبة رؤساء الكهنة ، وفرض التزامات إدارية ومالية عليهم . بل انتهى الأمر إلى أن يشرف موظف رومانى كبير على كل الشئون الدينية فى مصر .

وتميد أرجاء الإمبراطورية بهجوم البرابرة على أطرافها ، من الغوط الشرقيين والغربيين ، والفاندال والآفار ، كما يتآكل بناؤها من الداخل تحت ضغط ظروف اقتصادية اجتماعية ، عرفت فى التاريخ باسم « تدهور الإمبراطورية الرومانية وانحلالها » .

وأجل حدث فى داخل هذه الإمبراطورية ــ وأمره مرتبط بمنطقة الشرق الأدنى على وجه الخصوص ــ هو ظهور المسيحية ، لا من حيث تهديدها بالقضاء على

ديانة الدولة الرومانية فحسب . ولكن لأن اعتناق بعض من رعايا الرومان لهذه الديانة قد صاحبته ، وربما كانت من حوافزه ، حركة تحرير كبيرة ، لشعوب الشرق الأوسط ، من ربقة الإمبراطورية الرومانية . ولم يكن هذا التحرير ممكناً ولا ميسوراً . وقد جردت تلك الشعوب من أسلحتها ، واحتفظت روما فيها بجحافلها .

ولن نخرج عن النطاق المصرى . ونحن نحال أثر المسيحية فى تحرير مصر من الرومان ..وفى اعتقادنا أنه ليست المسيحية هى التى أيقظت الوطنية المصرية — فالوطنية المصرية لم تدركها سنة ولا نوم فى أى وقت من تاريخها الطويل ، ويحدثك المطالعون لأوراق البردى فى آخر عهود الوثنية المصرية عن كلمة الوطن «Patrios» ترد فى بعض المخطوطات — بل إن اعتناق المصريين للمسيحية هو فى ذاته مظهر من مظاهر مقاومة الاحتلال الرومانى . ولم يبشر مار مرقس بكلمة الإنجيل عبثاً ، عندما جاء إلى الإسكندرية فى القرن الأول للميلاد . فلا يقارب القرن الثالث نهايته حتى تكون مصر قد تحولت عن ديانتها القديمة التى مارستها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، إلى ديانة يسوع الناصرى ، وآمنت بأنه كلمة الآب المتجسدة .

وظاهرة انتشار المسيحية تكاد تكون واحدة فى كل مكان من الإمبراطورية . اعتنقها الفقراء والمحرومون والعبيد . لاعتقادهم أنها تحررهم من مساوئ هذا العالم . وهى تعدهم بملكوت السماء ملكاً خاصاً لهم يعوضهم عن العسف والجور والحرمان تحت النير الرومانى . وكان الشعب المصرى من أشد الشعوب بؤساً بحكم الرومان . فقد لاقى من هذا الحكم شيئاً أنكى من الاستغلال : عرف الذلة مضاعفة . فالمصرى يجيء بعد الرومانى واليونانى واليهودى ، وكل أجنبى فى بلاده . وكان لكل هؤلاء الحق فى الرعوية الرومانية . إلا المصرى . فلم يكن له من حقوق غير حق الذل ؛ أما واجباته ، فتبدأ وتنتهى عند إنتاج الغذاء والكساء . وزخرف الحياة . للغالبين .

ومن السهل فهم نجاح الدعوة المسيحية لدى هذا الشعب المغلوب على أمره . لولا قيام صعوبة واحدة : كيف لم يحرص المصرى على ديانته العتيقة . وهى آخر صلة له بمجده الغابر ؟ إلا أن نظرة واحدة إلى ما جرى على هذه الديانة ، بعد

الغزو الفارسي والمقدوني ، وبعد قرن من الحكم اللاجيدى والرومانى ، كفيلة بأن تفسر لنا كيف جاز للمصرى ، المتمسك بتاريخه وحضارته ، أن يتحول عن ديانته : لقد روّع المصرى على مدى سنى الاحتلال الأجنبى بمظاهر الزيف والفساد فى ديانته . ولا أحسب المصرى تقبل ببساطة حكاية البطليموس أو القيصر يغتصب عرش فرعون فى الدنيا والآخرة . وكان الكهنة — حفاظ الملة ورعاتها — يمالئون ويداهنون المحتل ؛ فعلوا ذلك مع الفرس ومع الإسكندر ومع البطالسة ومع الإمبراطور الرومانى . ورأى المصريون صورة أولئك الملوك الأغراب تنقش على جدران المعابد وصروحها فى الملابس الفرعونية ، تحت بصر الآلهة الألفيين وسمعهم ، إذا جاز لنا هذا التعبير . كما رأوا المعابد تقام بأسماء جديدة ، وتضاف أرباب أجنبية إلى البانتيون المصرى . وتكرس معابد لبرنيقة وغيرها من زوجات البطالسة وشقيقاتهم ، ولأمهات الأمبراطرة وزوجاتهم ، بل للشاب الجميل أنطنوس خليل الإمبراطور أدريانوس . لقد مسخت الديانة الرسمية وداخلها الغش والتدليس ، وحرّفت أسماء الآلهة ، وأضيفت إليها أسماء يونانية ركبت تركيباً مزجياً ، تختلط فيه رطانة اليونان باللغة المصرية القديمة ، فانهارت حقيقتها فى نفوس المصريين ، وإن احتفظوا زماناً بكل طقوسها وهيلها وهيلمانها ؛ وانصرف المصريون بكليتهم إلى العالم الآخر ، وإلى عقائدهم الشعبية ؛ وأصبح لطقوس الثالوث الأوزيريسى القدح المعلى لديهم ، فهى الطقوس التى تصور لهم النشور بعد الموت ؛ ولعلهم رأوا فى قصة إيزيس روح بلادهم تحاول أن تجمع أشلاء قوميتهم من تحت أقدام الغاصبين . ظل المصريون يمارسون طقوسهم فى الحياة والموت ، وقد تحولت عقائدهم إلى مجرد رموز لا معنى لها ، وانحدرت إلى ضروب من السحر ، ومجموعة من التعاويذ والتمائم . ظلوا يحنطون موتاهم ويدرجونهم فى لفائف الكتان ، ويزودونهم بنصوص كتاب الموتى ، مؤمنين بالنشور والحياة الباقية . وقد أحب المصرى الإلهة إيزيس ، وكان يتمثلها وهى تحمل طفلها الإلهى هوروس ، وإذا بالعقيدة المسيحية تحدثه عن مريم العذراء ، وعن الطفل يسوع ، وعن الآب ، وعن الصلب والقيامة والروح القدس . فما أيسر النقلة من أوزيريس وإيزيس وهوروس ، إلى الآب والابن ومريم البتول . ولم يكن الروح القدس بجديد على المصريين ، وقد عاشوا

آلاف السنين يؤمنون بالروح « با » فى صورة طائر ، وبالقرين « كا » . وهو الصورة الروحانية التى تتقمص المومياء أو التمثال الجنائزى ، فيقوم الميت من مرقده . يحيا حياته فى « آمنتى » ، كما عاش على الأرض . وإذا كان الصليب القائم يرمز إلى آلام المسيح ، وإلى الحياة الأزلية ، فما أقرب هذا الرمز إلى الصليب ذى الحلقة ، « عنخ » ، رمز الحياة الأبدية .

ولا أحسب المصرى تابع منطقاً بعينه ، فما تحول الناس عن دياناتهم بدوافع منطقية . إنما أزعم أن الأسباب السالفة مجتمعة — وربما كان أهمها رغبته فى مناوأة حكامه الأجانب ، والتخلص من ربقة كهنته — جعلت المصرى يتحول إلى عبادة جديدة ، مكانها نفسه المتدينة ، بعيدة كل البعد عن مظاهر العنف ، لا تدرض عليه عبادة الإمبراطور ، سواء فى مظهره الرومانى ، كما يريد له الاستراتيجوس ، أو فى مظهره الفرعونى ، كما يريد له الكاهن المصرى .

ولا أحسب المصريين انقلبوا مسيحيين بين عشية وضحاها ، كما فعل ثلاثون ألفاً من المنبوذين الهنود فى أكتوبر ١٩٥٦ ، عندما تحولوا إلى الديانة البوذية . ولا شك أن الكهنة المصريين قاوموا ما وسعتهم المقاومة ، ولكنها مقاومة لم تكن تجدى لدى شعب فقد ثقته فى إخلاص كهنته وصدقهم ووطنيتهم . والغالب أن المقاومة تركزت حول بعض المعابد ، التى ظلت بمن يرتادها ويسكن حولها وينتفع بخيراتها شبه جزر من الديانة المصرية القديمة وسط بحر زاخر بالمسيحية .

فلنتصور مصر فى القرن الثانى للميلاد ، وفيها أنواع وأشكال من العبادات المصرية القديمة وقد اختلط حابلها بنابل العقائد الهلينية ، والديانة اليونانية دون اختلاط ، ثم الدين الرسمى للدولة الرومانية ، فالعقيدة الموسوية ، ثم هذا الدين المسيحى الجديد ، الذى نرى آثاره فى نهاية القرن الثانى إنجيلا للمصريين ، وكنيسة بالإسكندرية ، يرأسها أسقف مصرى هو ديمتريوس [١٨٩ — ٢٣١ م] . وما نلبث حتى نسمع بأمر مدرسة اللاهوت [الديدسقلية] قامت بالإسكندرية فى مواجهة جامعة البطالسة المشهورة ، وفى مواجهة المدارس الإسرائيلية التى عاشت بفضل الفيلسوف فيلون الإسكندرى ، وإلى جانب مدرسة الغنوسطيين أى العارفين . وكان بنطائينوس أول أستاذ نسمع باسمه شيخاً للديدسقلية ، وهو فيلسوف رواقى

تحول إلى المسيحية . وخلفه على إدارة المدرسة عظيم من عظماء الفكر المسيحى ، هو اكليمانضس ، الرجل الذى درس الشعر اليونانى ، وأحاط علماً بالفلسفة الإغريقية ، بقدر ما تفقه بالنصرانية ؛ وبذلك استطاع أن يحقق مواءمة جميلة بين الفكر اليونانى والعقيدة المسيحية .

وأقفل الإمبراطور سبتيميوس ساويرس المدرسة اللاهوتية عام ٢٠٢ م ، فى أول موجات الاضطهاد ، وعادت بمجرد أن خفت وطأته ؛ وسلم الأسقف ديمتريوس إدارتها إلى عظيم آخر من عظماء الفكر المسيحى : أوريجانوس الحكيم ، تلميذ إكليمانضس، والمتفوق على أستاذه . لقد انتهى أوريجانوس « إلى اللاهوت المسيحى خلال المعارف اليونانية كافة » . وحقق نصوص الكتاب المقدس فيما بقى لنا باسم مخطوط « الهكسابلا » ، أى ذى الستة الأعمدة ، كل عمود منها يفيض بالشرح والتعليق والتفسير . ثم غضب ديمتريوس على أوريجانوس ، وقد خالجه الشك فى انحرافه ، فقدمه لمحكمة المجمع المقدس ، التى أدانته بتهمة الهرطقة ؛ فاضطر أن يرحل إلى قيصرية فلسطين ، حيث افتتح مدرسة ، ومن هناك انتقل إلى صور حيث توفى سنة ٢٥١ م .

وعاشت مدرسة اللاهوت حتى أوائل القرن الرابع ، أى حتى عهد الاضطهادات الكبرى ، المعروف باسم عصر الشهداء .

ولم تكن المسيحية محصورة بين جدران الإسكندرية ، بل الثابت أنها تقدمت بخطا واسعة خارج العاصمة ، منذ بداية القرن الثالث ، وبخاصة فى الطيبائيدة [الصعيد الأعلى] ، وفى الفيوم والبهنسا [الصعيد الأوسط] ، حيث أنشئت الكنائس ، وأقيم على رأسها المطارنة يأتمرون بأمر كبيرهم بالإسكندرية ، أسوة بأهل المدن الخمس الغربية [وما زال البطريرك القبطى يحمل هذه الأسماء ضمن ألقابه الكنسية] .

وكلما أمعن أمبراطرة رومة فى الاضطهاد ، زاد المصريون التفافاً حول ديانتهم الجديدة . حدث هذا بعد اضطهادات ساويرس فى أول القرن الثالث ، وبعد اضطهادات دقيوس [سنة ٢٥٠ م] . وكان يخضع للاضطهادات من يخضع فيرتد ، ويستشهد من يستشهد . واختطف المصريون أسقفهم دنيس ــ وكان

يطلب اللحاق بالشهداء — ليخبئوه فى ليبيا . حيث يواصل جهاده وقيادته للكنيسة المصرية .

واستمرت المقاومة بعد اضطهادات دقلديانوس (ديوقليسيانوس) (٣٠٣ م) وڤاليريوس وماكسيمين دازا . وما أكثر من قضى من الشهداء والشهيدات ! وما أكثر من عذب أو أرسل إلى المعتقلات فى محاجر سينا والبحر الأحمر ! حتى صدر المرسوم الإمبراطورى فى ميلانو عام ٣١٣ م يعلن حرية العبادات فى الإمبراطورية الرومانية .

وها نحن أولاء نعرف أربعين على الأقل من المدن المصرية كان لكل منها أسقف . وكان بالإسكندرية وحدها مائة أسقف . وكثير من الكنائس ، وقدر عدد المسيحيين فى القرن الرابع بمليون من الأنفس .

وكان لانتشار المسيحية بين المصريين فى داخل البلاد أثر من أبعد الآثار فى تطور القومية المصرية . فالتبشير بالمسيحية بدأ فى المدن الكبرى ، وباللغة اليونانية . ولكن غالبية المصريين المتيمين خارج هذه المدن كانوا يجهلون تلك اللغة ، وإن اضطروا إليها فى معاملاتهم مع الحكومة . وأمام المحاكم . واقتضى انتشار المسيحية خارج المدن أن تجرى الطقوس وتلقى المواعظ بلغة البلاد ، بتلك اللغة المصرية التى يتخاطب بها المصريون منذ فجر التاريخ . كما فرض انتشار المسيحية وإقبال الناس على استيعاب نصوصها استعمال الحروف اليونانية لكتابة اللغة المصرية . وفى الحق لم تبدأ كتابة اللغة المصرية القديمة بالأحرف اليونانية بعد تحول المصريين إلى المسيحية . إلا أن هذا التحول كان من أفعل الأسباب فى استخدام المصريين للحروف اليونانية . فالكتابة الديموطيقية معقدة . وخالية من حروف الحركة . وقليل جداً من المصريين كانوا يعرفون الكتابة أو القراءة . أما اليونانية — وهى اللغة الرسمية منذ البطالسة . وتحت الحكم الرومانى كله ، وفى بداية الحكم العربى — فقد كانت مستعملة فى المكاتبات الرسمية وبعض المكاتبات الخاصة ، وكان من السهل على الأميين المصريين أن يجدوا كتبة عموميين يخطون اللغة اليونانية ، وأتصور أولئك الأميين كانوا يملون رسائلهم بلغتهم ، فيكتبها الكتاب العموميون بالأحرف اليونانية . مثلما تكتب التلغرافات العربية من الخارج بالحروف اللاتينية . وكذلك من يتلقون

تلك الرسائل ، كان أسهل عليهم أن يجدوا كتبة عموميين يطالعون لهم هذه الرسائل .

وقد شعر رجال الدين الجديد بالحاجة إلى نشر الكتب المقدسة والتعاليم الكنسية باللغة المصرية ، فكان من الأيسر أن تترجم إلى المصرية ، وتكتب بالحروف اليونانية ، وبذلك يسهل إيجاد قراء لها ، كما يطمئن رجال الدين إلى حسن التلفظ بأسماء الأنبياء والرسل والحواريين والبلاد التى كانت مسرحاً لحوادث الإنجيل .

وكان هذا منشأ اللغة القبطية ، وهى اللغة المصرية القديمة بعد أن عدت عليها عوادى أربعة آلاف سنة . وتطورت وتحورت بحكم اتصالات المصريين بالأجانب منذ الدولة الحديثة . وقد دخلتها ألفاظ يونانية عديدة ، من أسماء الآلات والأشياء . والاصطلاحات الرسمية ، وأخيراً كل ما أدخلته الكنيسة من مصطلحات ، بحكم أن التبشير بالمسيحية بدأ فى مصر باللغة اليونانية . ولما كانت هناك مخارج حروف مصرية لا يوجد مقابل لها فى الأحرف اليونانية ، أضاف المصريون إلى ألف باء الإغريق سبعة أحرف من الكتابة الديموطيقية .

ومقاومة المصريين للاحتلال الأجنبي لم تقف عند حد الانضواء فى هذا الدين الجديد ، دين المغلوبين والمحرومين . بل قد اتخذت المقاومة صورة من أعجب الصور ، واتجاهاً كان عظيم الأثر فى تاريخ المسيحية . اتخذت المقاومة شكلا عرف فى العصر الحديث باسم « العصيان المدنى » و « المقاومة السلبية » ، عندما بدأت حركة السياحة والرهبنة . هذه الحركة الروحية ، أول ما نسمع بها فى القرن الثالث . عندما خرج رجل صعيدى اسمه بولا أو بولس إلى الصحراء يتعبد وحيداً متوحداً . لم يكن التوحد ولا الانقطاع للعبادة بجديد على المصريين . فقد عرفت الديانة المصرية القديمة نظام الاعتكاف والنسك . والصحراء فى مصر ملاصقة للوادى الخصيب ، إليها يخرج المعنّى والهارب من العدالة أو من الظلم . وطالب الانفراد للتأمل والتهجد .

والحركات الثورية المصرية كانت تنشب وتعتصم بثلاث نواح : بلاد البشمور وهى البرارى فى شمال الدلتا وفوق مياه بحيراتها . وبين هيشها وحامولها ، والحوف الشرقى ، وهو جزء من مديرية الشرقية حالا . ثم الطيبائيدة أى الصعيد الأعلى .

وهذا الصعيد الأعلى كان «الهنترلاند» والمعقل لصميم المصرية فى كل زمان ؛ ومنه خرج أمراء الصعيد . وعلى رأسهم أحمس . يطردون أول أمة فتحت مصر ،

وهى الأمة المجهولة الأصل والنسب ، التى عرفها القدماء باسم الهكسوس . وترجموا هذا الاسم بملوك الرعاة .

ومن الصعيد خرج رواد الرهبنة الكبرى . من الصعيد خرج الراهب الأول أنبا بولا ، والراهب الأشهر القديس أنطونيوس . وفى الصعيد نشأ أنبا باخوم مؤسس الرهبنة الجماعية ، رهبنة الشركة [الكينوبيتية] . وأنبا شنودة . أصلب الرهبان عوداً وأشدهم نكيراً على الوثنية المصرية . وأول من يحمل أمام التاريخ تبعة هدم الآثار المصرية القديمة .

والتف حول حركة الرهبنة آلاف من المصريين . لم يكونوا كلهم من القديسين ، ولا حتى من الصلاح . فقد اندس فى حشود الرهبان الورعين غير قليل من الهاربين من وجه القانون . عادلا أو ظالماً ، لسبب أو لآخر ؛ وكلمة المروب من القانون بمعناها فى ذلك الزمان . تدل فى غالب الأمر على روح المقاومة السلبية فى الشعب المصرى ، عندما يطفح كيل الغاصب المحتل وأعوانه من جامعى الضرائب ورؤساء الجند القدمين . وقد سبقت الإشارة إلى البطريرك دنيس ، الذى حزب أمره على الاستشهاد مع رعاياه . ورفضت الرعية أن يضحى بنفسه ، فأجبرته على الاختباء فى الصحراء مع رهبانه ، ليقود حركة العصيان . وينهض رمزاً لحياة الكنيسة ، بالرغم من اضطهادات الأمبراطرة الرومانيين .

فى هذا العهد الأول للمسيحية تأسس الدير الأبيض قرب سوهاج . وتجمع الرهبان فى وادى النطرون بشقه الجنوبى حيث دير السريان ودير أنبا بشوى حالا . وشقه الشمالى فى برية شهات [الإسقيط] .

وذاع أمر هذه الحركة فى أرجاء المسيحية . فوفد على مصر المعجبون بهذا التجرد والقنوت . جاءوا على حس العجائب التى تتم على أيدى النساك . وقصص التهجد وتقتيل الجسد . وفدوا على مصر من سوريا والقسطنطينية وروما وبلاد الغال وإسبانيا ، ليروا بأعينهم ، ويتحدثوا بألسنتهم وفى رسائلهم ، عما يشهدون . وليتبركوا بأبطال « الرياضة الروحية » . وعادوا إلى بلادهم ممتلئين إعجاباً بما رأوا . ووضعوا أسس الرهبنة الأوربية والأسيوية ؛ بعد أن ترجموا إلى اللاتينية والسريانية دستور رهبنة الشركة الذى وضعه أنبا باخوم . وكان من كبار الرحالة الرومانيين

كاسيانوس وبلاديوس والعلامة هيرونيموس [القديس جيروم] والراهبة أوتيريا ، والسيدة النبيلة ميلانيا .

وكان بابا الكرازة المرقسية يعتبر هؤلاء الرهبان جيشه الروحى والمادى. فإذا سافر إلى المجامع العدة ، التى كانت تعقد غالباً فى آسيا الصغرى بأمر إمبراطور بيزنطة ، للتداول فى شأن فقه الديانة المسيحية وأركان عقيدتها ، حاط نفسه بجموع الرهبان الصاخبة ، يعاونهم نوع من « الصبوات » الدينيين يعرفون باسم « البارابولانى » ؛ ووظيفة أولئك الرهبان والصبوات تشبه ما عرفناه فى عصرنا باسم « المظاهرات » ، وجموع « الهتافة » . لم يكونوا يعنون ، ولا كانوا يفقهون شيئاً من المساجلات البيزنطية الطويلة ، التى كانت تجرى فى تلك المجامع حول طبيعة المسيح ؛ إلهية خالصة هى ، أم إنسانية إلهية ، أم إنسانية فحسب؟. إنما هم سافروا بطانة لبابا الإسكندرية ، مؤيدين لزعيم الوطنية المصرية ، « بلديّاتهم » كيرلس أو أثناسيوس ، أو من يكون ، لأن ما يقوله داخل المجمع هو الحق ، ولا يعرفون حقاً غير ما يقوله رئيسهم الروحى و « رمز أمانيهم » .

هؤلاء الرهبان والصبوات هم الذين أطلقهم كيرلس على يهود الإسكندرية ، تلك الجالية الثرية المرفهة ، الوثيقة الصلة بالموظفين الرومان ، تعرف الطريق إلى اجتذاب عطفهم بشتى وسائل الإغراء من إطعام الفم وملء الجيوب ، على حساب أهل البلاد . فلم تغرب شمس النهار حتى أجلاهم الرهبان و « الصبوات » المصريون عن أحيائهم الكبرى إلى أرباض المدينة .

وهم هم الذين حقدوا على هيباسيا الجميلة العاقلة ، ابنة الفيلسوف ثيون ، وأستاذة الرياضيات والفلك بجامعة الإسكندرية الوثنية . فتربصوا بها ذات يوم ، وهى خارجة من قاعات الدرس ، وانتزعوها من فوق عربتها ، وسحبوها إلى صحن الكنيسة حيث جردوها من ثيابها ورجموها ثم قطعوها إرباً إرباً وأحرقوها .

إن المسيحية ، التى وجدت فى أمثال أكليمنضس وأوريجانوس رجالا متفقهين بالفلسفة الهلينية ، لم تعش طويلا فى مصر ، بسبب قوة اندفاع القومية المصرية ضد كل دخيل ، وضد كل ما يمثله هذا الدخيل ، فلسفة أو غير فلسفة .

لم تهدأ حفيظة المصريين على المحتلين بعد أن اعتنق أمبراطرة روما وبيزنطة

ديانة الناصرى ، ولم يطفئ لظى كرههم للإمبراطور الجالس على ضفاف القرن الذهبي تحوله إلى المسيحية . فما كان أسرعهم إلى الاستئثار بمذهب مسيحى يخالف مذهب الإمبراطور البيزنطى . فإذا اتجهت القسطنطينية إلى الهرطقة الأريوسية ، قامت مصر تناهض الأريوسية ، وحينما نادت مسيحية الروم بازدواج طبيعة المسيح ، أعلنت الكنيسة المصرية ، وتمسكت إلى يومنا هذا ، بعقيدة الطبيعة الواحدة [المونوفيزية] . فلا عجب أن عانى أقباط مصر من اضطهاد أهل ملتهم البيزنطيين ، أشد بكثير مما لاقوه على أيدى الوثنيين .

وليس بيسير على كاتب هذه السطور ، وقد نشأ مسلماً فى بيئة إسلامية صحيحة ، أن يفهم فيشرح أسس الخلاف الذى نشب فى الكنيسة إبان القرن الخامس ؛ وقد حاول فى الفصل السابق أن يوضح بشىء من التفصيل هذا الخلاف . وغاية ما وسعه فهمه هو اختلاف اللاهوتيين فى تعريف تجسد كلمة الآب فى صورة يسوع . لأنه وقد ظهر بين الناس بشراً سوياً ، أليس فى هذا الدليل على أن طبيعته من طبيعة البشر ؟

ولكن المسيحيين آمنوا بالطبيعة الإلهية لابن مريم ، بحسبان أنه كلمة الآب . فجاء آريوس ، أحد رجال الدين بالإسكندرية ، وأنكر على المسيح أن يكون من طبيعة الآب الذى لا شريك له . وبذلك أكد نوعاً من الوحدانية ، ولو أنه لم ينكر ألوهية المسيح كلية . وجاء أعداء آريوس ، والكنيسة المصرية على رأسهم ، فشلحوه ، وأنكروا أى أثر للطبيعة البشرية فى المسيح ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح ، وهى الطبيعة الإلهية . وإذا كان المصريون لم ينكروا وجود طبيعتين للمسيح قبل تجسد الكلمة ، فإنهم يقولون بزوال أو انزواء الطبيعة البشرية كلها بعد التجسد . انزوت كما تنزوى نقطة الماء فى المحيط ، فهى موجودة وغير موجودة ؛ أما كنيسة بيزنطة فتؤمن بأن للمسيح طبيعتين ، بشرية وإلهية .

كان هذا هو أس الخلاف والمساجلات والمشاحنات فى المجامع ، بين الكنيسة المصرية [المونوفيزية ، وتسمى عند الكتاب الأجانب باليعقوبية] وبين كنيسة بيزنطة [وتعرف بالملكية] . ولا شك أن تمسك الفريق الأضعف ، المغلوب على أمره ، بعقيدة تخالف الفريق الغالب ، يحمل معنى مناوأة الضعيف للقوى ،

بل هى الظهير الروحى للمقاومة الوطنية . فالمصريون يعارضون بيزنطة ، ويكرهون المحتل ، كما أنهم يعتزون بشخصيتهم وشخصية كرازتهم المرقسية ، ولا يريدون لكنيسة الإسكندرية أن تتراجع إلى الصف الثانى خلف بيزنطة ، الأحدث منها مسيحية . فإذا كانت القسطنطينية هى عاصمة الإمبراطورية بلا منازع ، فإن الإسكندرية يجب أن تظل عاصمة المسيحية فى العالم .

ولكن روما حيث يجلس على كرسى الأسقفية خليفة بطرس الرسول ، تطالب هى أيضاً بزعامة المسكونة ، وتفضل فى أسوأ الاحتمالات أن تبقى الزعامة للإسكندرية ، على أن تفوز بها عاصمة الإمبراطورية الشرقية ، لمجرد أنها مقر الإمبراطور البيزنطى . ولقد استفاد بطاركة الإسكندرية من هذا التزاحم على الزعامة بين روما والقسطنطينية ؛ ولعله أطال عمر الزعامة المصرية لكنائس العالم المسيحى فى ذلك الوقت . كان البطريرك المصرى يدخل المجامع الإكليروسية ، وحوله رهبانه وصبواته ، يملون إرادتهم على إكليروس بيزنطة . ولقد بلغ من جبروت الأنبا كيرلس الأول ، فى مجمع إفسوس عام ٤٣١ م ، أن استطاع ، بحشد رهبانه وصبواته وهتافاتهم ، أن ينزع من المجمع قرار حرم نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية ، وكان بابا روما يلعب من وراء الستار لعبته البارعة لضعضعة كرسى القسطنطينية .

ولكن بمجرد أن توطد التحالف بين الإمبراطور البيزنطى وبابا روما ، شعر البطريرك ديوسقوروس ، خليفة كيرلس ، بالكرسى البطريركى يميد به ، وذهب إلى مجمع خلقدونيا عام ٤٥١ م ، ورعاياه يصدونه عن السفر ، ويحرضونه على عصيان أمر الإمبراطور بالتوجه إلى خلقدونيا . وهناك لم يستطع الرهبان و « الصبوات » شيئاً حيال القوة القاهرة . وحكم المجمع بحرم ديوسقوروس ، وإبعاده عن كرسى الكرازة المرقسية ، كما قرر بالإجماع « أن المسيح والآب من طبيعة واحدة فى ألوهيته ، وأن المسيح والبشر من طبيعة واحدة فى إنسانيته » . بهذا قضى مجمع خلقدونيا المشهور وانفصمت العرا نهائياً بين الكنائس الأوربية ، شرقية وغربية ، وبين الكنيسة المصرية .

يقول كرستوفر دوسون فى كتابه « أصول أوروبا » :

« إن الأزمة الدينية الكبرى فى القرن الخامس ترتد فى أصولها إلى قلب العالم

الهليني ذاته بمدينة الإسكندرية . لأن تقاليد الثقافة الشرقية العريقة عادت إلى الحياة فى صورة من صور المسيحية . لقد احتفظ الشعب المصرى تحت حكم البطالسة والرومان بديانته وحضارته . وبينما كانت الإسكندرية حاضرة التمدين الهيليني اللامعة ، اتصلت أسباب الحياة المصرية القديمة على ضفاف النيل دون تغيير . وبذلك جرى تيار الحضارتين جنباً إلى جنب ، دون أن تختلط مياههما ؛ لأن مصر الألفية احتفظت بطقوسها الدينية . ثم جاءت المسيحية وغيرت كل هذا ، فانهارت الحواجز الدينية التى تحيط بالشعب المصرى ، حتى وجد نفسه مختلطاً بشعوب الإمبراطورية الرومانية . ومع ذلك فإن قوة القومية المصرية لم تضعف ، والحضارة اليونانية البيزنطية لم تجد سبيلا إليها ، بل كان العكس هو الصحيح ؛ إذ تدهورت أهمية العنصر اليونانى دون توقف ، وتبوأت اللغة القبطية — أى اللغة المصرية مكتوبة بحروف يونانية — مكانتها بدل اليونانية . كما احتلت الكنيسة مكان الديانة الرسمية القديمة فى تمثيلها للقومية المصرية . وبينما قام على رأس الطبقات الحاكمة أسياد أجانب تبوءوا عرش الفرعون ، فإن التحول إلى المسيحية تبعه تزعم البطريرك المصرى للكنيسة المصرية . وكما كانت مصر فى أيام تضعضعها تلتى بمقاليد زعامتها لكبير كهنة آمون — رع فى طيبة ، فإن جميع قوى الوطنية المصرية التفت الآن حول البطريرك ، وهو « السيد الأقدس ، البابا والبطريرك لمدينة الإسكندرية ، وبلاد لوبيا ، والمدن الخمس الغربية ، وإثيوبيا ، وسائر أرض مصر ، أبو الآباء ، أسقف الأساقفة ، الحوارى الثالث عشر ، قاضى العالم » . وكان سلطانه على الكنيسة المصرية سلطاناً مطلقاً ، أقوى بكثير من سلطان البابا على الكنيسة الغربية . . . . ولم تكن تقف إزاءه سوى قوة واحدة : هى قوة الرهبان ؛ الزعماء الطبيعيين للشعب ، إلى درجة تتفوق على زعامة الأساقفة .

« والرهبنة المصرية نتاج أصيل للمسيحية المصرية ، خلاصة مصفاة لفضائل مبدعيها ورذائلهم ؛ فهى تجمع إلى جانب حكمة أنبا مقار أو أنبا باخوم وروحانيتهما ؛ تعصب الرهبان والصبوات الذين قتلوا هيباسيا ، وأثاروا الاضطرابات الدامية فى شوارع الإسكندرية . وكان هذا التعصب قوة تساند البطريرك ، الذى وجد فى الرهبان جيشاً عنيفاً جسوراً . فإذا ذهب البطريرك إلى مجمع مسكونى ،

اصطحب الرهبان والصبوات « البارابولانى » ، الذين كانوا يؤلفون حرساً يحميه ، ويرهب أعضاء المجمع بهتافاته واعتداءاته . وقد بلغ البطريرك المصرى من القوة والسؤدد ما جعله يطمع فى أن يكون الحاكم الدينى المطاع للإمبراطورية الرومانية . ووقف البطريرك أثناسيوس وحده ضد الإمبراطور قسطنطيوس الثانى وأساقفته كلهم ؛ ولم يك خلفاؤه مستعدين لقبول زعامة تلك البطريركية الحديثة العهد ، القائمة فى القسطنطينية ؛ وانتصرت الإسكندرية مرتين بزعامة بطاركها العظام : تاوفيلوس ، وكيرلس ، عندما أذلت كرسى القسطنطينية ؛ وكرسى أنطاكية ، وفى المرة الثالثة ، بعد الحكم على فلافيانوس فى إفسوس [سنة ٤٤٩] ، حاقت بها الهزيمة عندما اضطرت إلى قطع علاقاتها بروما والغرب ، وكانت روما والغرب يظاهرانها حتى ذلك الحين .

« وفى سنة ٤٥١ م بمدينة خلقدونيا ، تكاتفت قوى روما والقسطنطينية ، برياسة البابا لاون (ليون) والإمبراطور مركيانوس ، لسحق البطريركية المصرية الكبرى التى هيمنت على أقدار الكنيسة الشرقية طوال هذه المدة .

« ومجمع خلقدونيا ، من دون كل المجامع ، يبرز بأهميته الدرامية ، كما يتميز بنتائجه . وقد اجتمعت فى كنيسة آيايوفميا بخلقدونيا جميع القوى التى تتنازع العالم المسيحى : قوة الكنيسة المصرية فى ناحية ، وقوة الكنيسة الشرقية فى ناحية أخرى . وكان أصحاب الفريقين المتنازعين يحتلون جناحى الكنيسة ، كل إلى ناحية من صحنها ، وهم يتبادلون السباب . على حين جلس كبراء الإمبراطورية أمام الحاجز الذى يفصل الهيكل عن صحن الكنيسة ، وإلى جوارهم رسل البابا يتحكمون فى الجموع الحاشدة الصاخبة ، وهم جامدون ، يوجهون المناقشة فى إصرار نحو اتخاذ قرار نهائى يتفق مع إرادة البابا وإرادة الإمبراطور .

« وهذا القرار لم يتخذ إلا بعد أخذ ورد غاية فى العنف ، وبعد أن طالب الرسل البابويون بجوازات سفرهم ، استعداداً لعقد مجمع جديد فى الغرب . وسلم الإمبراطور لبلاغهم النهائى ، فوافقت الأغلبية على التعريف الغربى لطبيعة المسيح المزدوجة مجتمعة فى جسد واحد .

« وهذا الحل — الذى فرضته إرادة بابا من عظماء البابوات ، وإمبراطور قوى

الشكيمة — لم يكن ليضع نهاية لعناصر الخلف والشقاق بين شعوب الإمبراطورية ، فقد أكد الأساقفة المصريون أنهم لا يجرءون على العودة إلى بلادهم وهم يحملون خبر عزل البطريرك ، خشية أن يمزقهم قومهم شر ممزق . ولم يكن تخوفهم مجرد تخيلات ، فقد هاج الشعب الإسكندرى وماج فى وجه الحامية الإمبراطورية ، وأعمل فيها ذبحاً وتقتيلا ، ولكن الحكومة الإمبراطورية نجحت فى فرض بطريرك من المذهب الملكى على كرسى الإسكندرية .

« وما إن توفى الإمبراطور ماركيانوس القوى الشكيمة ، حتى هجمت جمهرة الشعب الاسكندرى على البطريرك الخلقدونى [الملكى] ، ومزقته شر ممزق فى صحن كنيسته ، وفى يوم الجمعة الحزينة .

« وهكذا ظلت اليعقوبية ، أى عقيدة الطبيعة الواحدة ، هى المذهب القومى ، وغدت قوة فى يد البطريرك المصرى » .

* * *

هذه هى قصة الشعب المصرى فى حقبة من أعقد أحقاب تاريخه . فالمقاومة المصرية لحكم بيزنطة يشتد عضدها ، والتهرب من دفع الضرائب يصبح القاعدة . وذلك بأن يهجر الناس أرضهم ويدخلوا الأديرة ، أو أن يحتموا بكبار الملاك القادرين على التخلص من الضرائب . أما الكنيسة فتتمتع بإعفاءات عدة .

وحاول الإمبراطور هرقل ، فى القرن السابع ، مصالحة الكنيسة المصرية ، ولم يكن له فى هذه المصالحة فضل ، إنما اضطر إلى المسالمة بعد أن غزا كسرى ولايات الإمبراطورية فى الشرق الأوسط ، فدخل بيت المقدس سنة ٦١٤ م ، ومصر سنة ٦١٦ م . وبموت كسرى . عادت مصر إلى حظيرة بيزنطة ، ورأى الإمبراطور من الحكمة استرضاء المصريين ، فابتدع مذهباً لا ينفى ازدواج طبيعة المسيح ، ولكنه يقول « بوحدة مشيئته » ، وأوفد إلى مصر البطريرك قوروش يبشر بالمذهب الجديد ، ويضم إلى سلطته الروحية السلطة الزمنية .

وهنا يقول ساويرس بن المقفع ، المؤرخ القبطى : « أوفد قوروش إلى مصر بطريركاً ، وحاكماً عاماً » .

وقبل أن تطأ أقدام المقوقس أرض مصر ، اجتمع البطريرك القبطى بنيامين ،

بالإكليروس والشعب ، ونظم أمور الكنيسة الوطنية ، وأوحى إلى الجميع « بالمقاومة حتى الموت فى سبيل العقيدة » . ثم نزح إلى الصحراء يحتمى بها هو وأساقفته .

وفشل المقوقس فى فرض مذهب « المشيئة الواحدة » على الكنيسة المصرية ، فاستعمل وسائل العنف والاضطهاد فى العشر السنوات الباقية للحكم البيزنطى فى مصر ، وكال له المصريون أقذع السباب : فهو ابن الشيطان ، والمسيخ الدجال ؛ وواصل بنيامين قيادة حركة المقاومة من منفاه الصحراوى .

وكانت تلك اللحظة مرصودة فى لوح التاريخ للفتح الإسلامى ، بقيادة عمرو ابن العاص . فليس عجيباً ولا مستنكراً ، كما يدعى بعض المؤرخين ، أن يساعد المصريون الفاتح العربى ، وقد جاء ينقذهم من ذلك الاحتلال اليونانى الرومانى الجاثم على صدورهم منذ سبعة قرون ؛ ولم يقدم المصريون المعونة لفرسان العرب فحسب . بل حارب بعضهم إلى جانبهم . وكان عمرو قائد رجال ، اجتمعت له صفات الجندى العظيم ، والسياسى المحنك . فأحسن استقبال البطريرك بنيامين ، وهو عائد من منفاه . ولدينا شهادة مصرى من عظماء الإكليروس القبطى فى ذلك الزمان . أو بعده بقليل ، وهو يوحنا النقيوسى ، قال :

« احترم عمرو أملاك الكنيسة ، ولم يقترف عملا يعاب عليه ، فحيا أهل البلاد عهد السلام الدينى ، وإعادة إنشاء الكنيسة الوطنية ، وأديرة النطرون ، ودير أنبا مقار . وجاء الرهبان أفواجاً يؤكدون إخلاصهم للقائد العربى . »

ملكات ثلاث

أم خليل – بنت الزمار – الصعيدية

كأن تاريخ مصر لا تنقصه الغرائب والأعاجيب! وليس العجب أن تحكم مصر نساء ، وقد حدث هذا فى أكثر من مكان خارج مصر ؛ ولكن العجب أن تمتاز ثلاث ملكات فى تاريخ مصر ، تشتهر إحداهن فى التاريخ العام ، وتشتهر الثانية فى تاريخ الفراعنة ، وتشتهر الثالثة فى تاريخ مصر الإسلامية : كليوباترة ، وحتشبسوت ، وشجرة الدر .

فلنبدأ مصعدين فى التاريخ بالجهة المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل . زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى مصرية بحياتها وسيرتها ، ولكنها أصلا مملوكة تركية – أو أرمنية – أهداها الخليفة المستعصم بالله ، آخر بنى العباس فى بغداد ، إلى الملك الصالح أيوب .

ثم نثنى بكليوباترة : مصرية المولد والسيرة ؛ ولكنها مقدونية الأصل من ناحية الأب على الأقل ، لأننا لا نعرف شيئاً عن أصل أمها الراقصة ، عشيقة بطليموس فيلوباتور – فيلوميتور ، المكنى بالزمار .

ونختم بالمصرية الصعيدية ، بنت تحوتمس الأول ، أو بنت الإله آمون ، الملكة حتشبسوت .

* * *

أم خليل

كانت أم خليل امرأة ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، حتى أنها كانت تدبر الملك فى حياة أستاذها الصالح أيوب . وكانت إلى جانب زوجها قبيل المعركة التى كسبها المماليك الصالحية من جيوش فرسان الصليب ؛ بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا .

ومن أعجب أدوارها أن يموت الملك الصالح أيوب على فراشه ، فى الوقت الذى تحركت فيه جنود الرى دى فرانس من دمياط إلى شرمساح ، عند مخرج الفرع التنيسى للنيل من فرع دمياط ، وكان هذا الفرع التنيسى يعرف باسم ترعة أشموم [وهو الآن البحر الصغير] . فكان النيل إلى يمين الصليبيين ، وأمامهم بحر أشموم هذا ، ويواجههم فى الضفة المقابلة مماليك الصالح الأشاوسة ، يسندون ظهورهم إلى المنصورة الواقعة على بعد سبعة كيلو مترات إلى الجنوب من مخرج بحر أشموم ، وإلى أسطولهم النيلى . فكان على سان لويس أن يعبر بحر أشموم ، تحت سمع الجيش المصرى وبصره — وهو ما لا يفكر به قائد — لولا أن خائناً اسمه سلامون كشف للصليبيين عن معبرة بالقدم [مخاضة] إلى الجنوب من موقع المصريين ، فتقدم الملك الصليبى إلى هناك ، وأمر رجاله بالعبور ، وعلى رأسهم فرسان الداوية [التامبلييه ، أى فرسان المعبد] .

وما إن بلغ روبير ، كونت أرتوا ، شقيق الملك ، الضفة الجنوبية لبحر أشموم ، حتى بادر بمفاجأة المعسكر المصرى فاخترقه ، ونفذ إلى المنصورة ، وتعداها حتى بلغ قصر الملك الصالح على الضفة الشرقية للنيل . وقتل فى المعركة أتابك العسكر فخر الدين ، وأشبع الصليبيون العسكر المصرى قتلا ، وشرعوا يهجمون على قصر السلطان الأيوبى . ولكن المماليك الصالحية ، وعدتهم عشرة آلاف مقاتل من خيرة المدربين على فنون الحرب ، جمعوا حشودهم قرب القصر ، وقادهم بيبرس البندقدارى فى الهجوم على فرسان الصليب ، فارتد هؤلاء إلى المنصورة ، ليجدوا أنفسهم محشورين فى حوارى البلدة ، يطاردهم فرسان البندقدارى من وراء ، ويضرب عليهم رماة السهم من الأسطح والطيقان ، فتذهب ريحهم ، ويموت قائدهم كونت أرتوا ، وثلاثمائة من رجاله . ولم ينج فى الموقعة من فرسان الداوية سوى خمسة ، وفنى الفرسان الصليبيون : حملة القوس . ويقدر من أبيد من الصليبيين فى ذلك اليوم بأكثر من خمسمائة وألف مقاتل . وتقهقرت فلول الجيش الصليبى إلى بحر أشموم من حيث بدءوا . وهناك التقوا بملكهم لويس ، وكان قد عبر البحر إلى الضفة الجنوبية ، وحارب لويس التاسع فى بسالة ، وحاول عسكره العودة إلى معسكرهم بالضفة الشمالية لبحر أشموم . فغرق منهم جم غفير ، وملأوا البحر بخيلهم ورجلهم

ما بين غريق وقتيل وجريح . وصمد لويس على رأس الكبرى ، فى حرب الساقة ، والرجال يتناقصون حوله ، حتى انتهى أمره بالتسليم مع من بقى من أمرائه وفرسانه .

حدث كل هذا والملك الصالح قد وافاه أجله منذ تقدم فرسان الصليب من دمياط . ولو علم المماليك بموته لانفرط عقدهم وتبلبل أمرهم . ولكن شجرة الدر أخفت خبر موته عن الجميع ، واستدعت الأمير فخر الدين أتابك العسكر — وهو الذى قاد المعركة وقتل فيها بعد ذلك بقليل — والطواشى جمال الدين محسن من خاصكية السلطان ، واتفقت معهما على إخفاء موت السلطان ، وقيامها بشئون الملك حتى يحضر طورانشاه ، ابن زوجها ، من قلعة كيفا ، على الضفة الغربية لنهر الدجلة ، قرب ديار بكر . فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر ممهورة بتوقيع الملك الصالح أيوب ، يزوره على ما يقال سهيل ، خادم السلطان المتوفى .

بهذا تتقدم إلينا شجرة الدر على صفحات التاريخ المصرى .

ولا يعرف لهذه المملوكة الفطنة أصل . قيل إنها تركية وقيل بل أرمنية ، تلقاها الصالح أيوب هدية من الخليفة العباسى ، ثم أحبها فتزوجها بسنة الله ورسوله . وكانت خير عون له فى أمور الدولة ، بدليل وجودها إلى جانبه أثناء الحملة التى قامت لدفع الصليبيين عن الديار المصرية ، ثم رباطة جأشها بعد موته ، وتحايلها فى إخفاء الحادث الجلل . فكان أكل السلطان المتوفى يدخل إليه فى « فراش مرضه » ، على أن به وعكة ، وتقوم هى مقامه فى استقبال رجال الدولة من خلف ستار . بهذا كسبت هى موقعة المنصورة ، أو موقعة أشموم ، وأبقت على كيان الدولة الأيوبية حتى عاد ابن زوجها طورانشاه من بلاد الرافدين ، فسلمته مقاليد الأمور ، وأشرف على شئون الحرب بنفسه ، ودبر خطة نقل قطع المراكب مفككة على ظهور الإبل إلى شاطئ النيل ، شمالى الأسطول الفرنسى الراسى بدمياط . وركبت قطع السفن هناك ، وكبس رجالها على الأسطول الصليبى ، فأسروا منه ثلاثين سفينة . وبذلك قطعت خطوط تموين لويس التاسع . فلا هو فى قوة يقتحم بها أعداءه ليبلغ القاهرة ، ولا هو ممون من قواعده . وأخذ فى التقهقر شمالا ، كما ذكرنا ، ومماليك الصالح تتعقبه ، وتدير التقتيل فى رجاله المنهزمين ، حتى بلغوا فارسكور . حيث أبيد جيش الصليب ما بين مقتول ومأسور ، وكان الملك على

رأس الأسرى . ولم ينقذه . وأمراءه . من القتل إلا عقل شجرة الدر وحسن تدبيرها . عندما قبلت افتداءهم بمال له صورة .

ولم يفلح طورانشاه ، برغم انتصاره . فى اجتذاب مماليك الصالح إليه . لأنه عاد من « كيفا » محفوفاً بمماليكه وخاصكيته . يحلهم محل مماليك أبيه فى مناصب الدولة ، ويضمر للمماليك الصالحية ما يضمر من الغدر ، ثم هو يضيق على شجرة الدر ويتوعدها لتقر له بمال أبيه ، وهى ترفض . حتى عيل صبرها وصبر مماليك زوجها ، فأرسلت إليهم من يقول : « اقتلوا طورانشاه . وعلى رضاكم » ؛ فتولى أمراؤهم قتل آخر الأيوبيين — فيما عدا خرافة أخيرة — بزعامة بيبرس ومعه الأمراء قلاون الصالحى وفارس الدين أقطاى الجمدار وعز الدين إيبك التركمانى وغيرهم .

وبمقتله يبدأ حكم المماليك البحرية . وكان أول سلاطينهم ... ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل (عام ١٢٥٠ م) .

ويقول هنا الأستاذ ستانلى لين — بول . صديق المصريين . ومؤرخ عصورهم الوسطى . ودارس الفن الإسلامى المصرى — وهو لا يتخلى عن نعرته الاستعمارية — « وتكاد تكون شجرة الدر الملكة الوحيدة التى تولت الحكم على بلاد المسلمين قبل إمبراطورة الهند الحالية » . . . أى الملكة فكتوريا !

والحق أن اختيار المماليك لزميلتهم المملوكة سلطاناً عليهم أمر يدعو إلى أشد العجب . لأن السلطان ، إن لم يكن قاضى القضاة . فهو الرئيس الأعلى للجيش . والمرأة لا تولى قيادة الجيش . ولست أصدق أن إخلاص المماليك الصالحية لأستاذهم الملك الصالح أيوب هو الذى دفعهم إلى الحرص على تولية زوجه . وأم ولده خليل . فإن من يعرف المماليك فى مستقبل حياتهم بمصر . ويدرس أحوالهم . لا يمكن أن يقبل قصة هذا الإخلاص ؛ إنما هى الحكاية القديمة التى عرفناها فى الحرس البريتورى بروما . وفى حرس الخليفة العباسى من الديلم ، وفى حرس السلطان العثمانى المعروفين بالإنكشارية ؛ وهى أيضاً حكاية الثورات العسكرية فى جمهوريات أميريكا اللاتينية . عندما يعتمد الحكام أولا وآخراً على الجند ، دون الشعب . وقديماً قيل « من يبذر الريح . يحصد العاصفة » . والاعتماد الكلى على الجند ينتهى

بهؤلاء إلى إدراك قوتهم ، فيوجهونها حسب رغباتهم وأهوائهم : ويولون ويعزلون .

لعل المملوك الوحيد الذى أخلص للسلطان المتوفى ولأسرته هو زوجه ، وأم ولده خليل . فقد حرصت على استدعاء ابن زوجها من قلعة كيفا ليتولى ملك أبيه . ولم يرضخ المماليك لهذا إلا محافظة على تماسك الدولة الأيوبية ، وخشيتهم من انفصاض سورية عنهم ، ورفض الخليفة العباسى الاعتراف بسلطتهم . ولما لم يحسن طورانشاه معاملتهم – ويمكنك أن تترجم ذلك بأنه لم يخضع لتحكمهم – قتلوه . وحافظوا بعد ذلك على خرافة امتداد الدولة الأيوبية ، أولا بتولية شجرة الدر ، ثم بتولية طفل أيوبى إلى جانب عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية بعد شجرة الدر . فالملك لهم فى كل الأحوال . ولقد أيدت الحوادث ذلك بتزويجهم شجرة الدر من زميل لهم ، وبإقامة طفل أيوبى لإرضاء سورية وإرضاء خليفة بغداد . وتأيد ذلك بحرص شجرة الدر إبان سلطتها القصيرة على الانتساب إلى الملك الصالح ، وتوكيدها هذه الحقيقة فى الأوراق الرسمية ، وهى توقع عليها بكلمة « والدة خليل » ، مع أن خليلا هذا مات طفلا وشبع موتاً . وسكّت النقود بألقابها الملكية ، هكذا : المستعصمية [أى مملوكة الخليفة المستعصم بالله قبل أن يهبها للصالح] الصالحية [أى مملوكة الصالح أيوب] ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور [أى ابنها الطفل المتوفى] خليل أمير المؤمنين [وخليل هنا تلاعب باللفظ فيما بين اسم علم واسم نكرة بمعنى صديق ، تبعاً لقراءة لين – بول] ؛ والغالب أن الكلمة هى أم المؤمنين ، لا أمير المؤمنين .

فكأن المماليك يحققون بتولية شجرة الدر غرضين : الاستيلاء على السيادة الفعلية ، والتمويه فى الخارج ، وعلى السوريين بخاصة ، بأن الحكم باق فى بيت أيوب .

تولت شجرة الدر السلطنة ، وأخذت تفرق الوظائف السنية والإقطاعات على أمراء المماليك الصالحية ، وأغدقت الرزق والأموال والخيول على صغار المماليك ، وأرضت هؤلاء وأولئك بكل ما يمكن .

وكان زملاؤها يقبلون لها الأرض من وراء حجاب ، وقد اتخذت من الأمير عز الدين إيبك ساعداً لها فى تدبير أمور المملكة ، ولكنه كان لا يتصرف فى الأمور إلا بعد مشورتها .

وكانت تكتب على المراسيم فى العلامة بخطها « والدة خليل » ، ويخطب يوم الجمعة باسمها على منابر مصر فيقول الخطباء : « واحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

ولم يكن كل هذا التحايل ليجدى نفعاً ؛ فالمسلمون خارج مصر — بل ونظن داخل مصر أيضاً — يكرهون أن تتولى أمورهم امرأة . فما أسرع ما خرج أهل سـ ريا عن طاعتها ، وبايعوا الناصر يوسف الأيوبى ، صاحب حلب .

وكان من أشد الناس استنكاراً فى خارج مصر هو أمير المؤمنين ، الخليفة العباسى المستنصر بالله أبو جعفر ، فأرسل إلى مصر من يقول للأمراء : « اعلموا ، إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمورهم امرأة ؟ » .

وهنا ينقلب ابن إياس الحنفى من النقيض إلى النقيض ، وينسى كل ما قاله ، وسيقوله ، مدحاً فى أم خليل ، فلا يكتفى بذكر إنكار الخليفة ذلك على المماليك غاية الإنكار ، وتهديده وأمره لهم بالرجوع عن ذلك ، بل هو يتغنى ببيتين سخيفين من الشعر :

النساء ناقصات عقل ودين ... ما رأينا لهن رأياً سنيا
ولأجل الكمال لم يجعـ ... ـل الله تعالى من النساء نبيا

ثم يعود بعد ذلك إلى القول بأن شجرة الدر « كانت تدبر أمور المملكة فى حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة » . ولنا أن نفهم من موقفه ما نفهم ، وفى رأيى أن « القافية حكمت » ، وعفا الله عن ابن إياس الحنفى ، فقد كان يحفظ قدراً من الشعر السمج الدارج ، يدسه على كتابه القيم ، وكان من حسن طالع الكتاب أن رصيد ابن إياس من هذا الشعر ، ومن غيره ، كان ضئيلا .

أمام تهديد الخليفة — وربما كانت إشارته إلى نقص الرجال أشد نكيراً على

المماليك من التهديد – اضطرت أم خليل إلى أن تخلع نفسها من السلطنة . لا برضاها من غير كره لها ، كما يقول المتمثل بالشعر السخيف . فإن القليل الذى نعرفه عن أم خليل ، يبعث على الظن بأن قبول خلع نفسها من السلطنة ، كان أصعب عليها من خلع زوجها ؛ ثم تزوجت بالتركمانى الذى تولى السلطنة .

وكان هذا – على قول ابن إياس – ابتداء دولة الأتراك بمصر – والأتراك هنا هم المماليك ، أما الأتراك بالمعنى الحديث فكان يسميهم العثمانية أوالروم – فما دامت تولية أم خليل لم تتأيد بمرسوم خليفتى ، فلا بقاء لها فى قائمة سلاطين مصر . هذا إلى أنه يمكن اعتبارها آخر الأيوبيين . كما أنك ستبحث عبثاً عن اسم حتشبسوت فى قوائم ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية وذلك لأسباب أخرى . وبرغم أن الزعامة الدينية فى آخر الألف الثانى قبل الميلاد قد أقرت فرعنة حتشبسوت ؛ بل أقرت أكثر من ذلك كما سيجىء .

ظلت شجرة الدر صاحبة الكلمة العليا على زوجها ، فهى التى تدبر أمور المال ، وتحكم على عقدة الكيس . ويدير عز الدين التركمانى أمور العسكر ليرد أطماع الأيوبيين عن مصر . وليهدئ من ثائرة العرب القاطنين على أطراف وادى النيل ، وقد اجتمعوا على المدعو حصن الدين بن ثعلب ، بزعم أنه من ذرية الإمام على . ويبدو من هذا أن الشيعة لم تفقد الأمل فى العودة إلى ملك مصر . بعد انتهاء دولة الأيوبيين . أو لعل ابن ثعلب هذا ممن ظلوا يطالبون على طوال تاريخ مصر الإسلامية بحق الفتح ؛ فقد تآمروا على الدولة الطولونية ، وها هم يثورون فى بدء دولة المماليك ، حتى تولى فارس الدين أقطاى وغيره من المماليك تأديبهم وإعادتهم إلى نجوعهم مشتتى الشمل . محاولى البرم ، إلى أمد طويل إن شاء الله .

وما من شك فى أن عز الدين إيبك كان يود لو استطاع التخلص من ربقة شجرة الدر . لولا أنها تأبى أن تقر على مال الصالح أيوب . ولقد هادنها زماناً . واحتمل جبروتها زماناً ، على أمل أن تكشف له عن مخبوء الكنوز الأيوبية . بل ذهب إلى حد الرضوخ لها بتطليق زوجه أم ولده المنصور . فلم يجده ذلك نفعاً ولا شفعاً . وما عتم أن وقع التشاحن والتباغض بين رجل فى شرخ شبابه ، وزوجة فى

خريف العمر أو فى شتائه . ثم حاول الزوج أن يرفه عن نفسه ، ويوسع نطاق سياسته ، فخطب ابنه بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصل ، وكان فى هذا هلاكه .

أقول فى خريف العمر أو شتائه ، تقديراً ؛ لأن مؤرخينا لم يتركوا لنا أثراً يدل على عمر أم خليل ولا على سيمائها . ومخيلتنا نحن المصريين تجعلنى أتصور شجرة الدر فى أواخر أيامها شبيهة بالجوارى الأتراك ، اللاتى كن يخرجن من قصور إسماعيل ليتزوجن بأعيان المصريين . وأغلب من رأيناهن تعدين سن الشباب بزمان طويل ، وكن يحتفظن بمسحة من الجمال ، وبكل ما فى طبائعهن من عنجهية . وأذكر فى صغرى « جارية بيضاء » ركبت ترام الخليج المصرى ، وأخطأت الاتجاه ، فأصدرت أوامرها إلى الكمسارى ليعكس الترام خط سيره !

وانقضى أمر السلطان المعظم عز الدين إيبك التركمانى مع الجهة الصالحية ، عصمة الدنيا والدين ، بأن انقض عليه خمسة من خدام ذات الستر الجميل ، فقتلوه داخل الحمام ، وقيل بل أعدموه خنقاً . وتقول رواية بأن ذات الحجاب الجليل أخذت تضربه بالقبقاب على رأسه حتى فارق الحياة . وقيل — وهو الأقرب إلى المعقول — إن القتلة لما انقضوا عليه أخذ يستغيث بأم خليل ، ويضرع إليها ، وإنها تأثرت بتضرعه ، وطلبت من غلمانها الأشداء أن يتركوه ، ولكنهم لم يستمعوا إليها خوفاً على حياتهم إذا ما بقى فى الرجل رمق . وأذيع فى صباح اليوم التالى أن السلطان إيبك انتقل إلى الرفيق الأعلى على جناح السرعة ، دون معونة من أحد ؛ فلم يصدق الناس هذا النبأ ، لأن الرجل لم يبد عليه يوماً أنه يتعجل الرحيل إلى . . . هناك !

ولا أحسب شجرة الدر كانت فى كامل عقلها عندما دبرت أمر هذه الجريمة ، ولعل لهذا علاقة بسنها المتأخر ، وما يحدث للنساء فى ذلك السن من اضطرابات نفسية وعقلية . أنظر إليها وقد قبض عليها ووضعت فى الترسيم ، تلازم الصمت المطبق ، وتدق جواهرها وحليها فى هون ، لا أدرى من تركه بأيدى تلك المجنونة ! كيف أتصور تلك العاقلة الحازمة ، التى دبرت أمور المملكة على الصورة التى عرفناها ، تقدم على قتل زوجها السلطان هذه القتلة القروية ، وتحسب أنها فى مأمن من اكتشاف أمرها ؟

فما إن يتولى السلطنة ابن إيبك من زوجته الأولى ، حتى يرسل مماليكه إلى القاعه يحققون فى مقتلة أبيه . ويقبضون على الفاعلين ، ويقررونهم ، ولم يكن ذلك بعسير فى زمان التوسيط والسلخ والسلح وما إلى ذلك من فنون التعذيب والقتل .

وتعتقل أم خليل فى البرج الأحمر بالقلعة ، ثم تقاد إلى « أم على » ضرتها التى طلقها إيبك بناء على أمر المستعصمية الصالحية ، فتأمر جواريها بضربها بالقباقيب حتى الممات . وكان ذلك فى يوم الجمعة الحادى عشر من ربيع الثانى عام ٦٤٨ هـ . وسحبوها من رجلها ورموها فوق السور إلى خندق القلعة وهى عريانة . ليس عليها غير اللباس فى وسطها . فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام تلغ فيها الكلاب . وقيل بأن بعض الحرافيش نزل إلى الخندق تحت جنح الليل ، وقطع دكة لباسها ، لأنها كانت من حرير أحمر ، وفيها كرة من لؤلؤ ونافجة مسك .

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، حملت فى قفة ، ودفنت فى تربتها المعروفة إلى اليوم عند مدخل قرافة الإمام ، قرب مقام السيدة نفيسة ، بقسم الخليفة بالقاهرة .

٭

بنت الزمار

كان مشكل شجرة الدر سياسيًّا عسكريًّا ، عندما اضطرت إلى إخفاء موت زوجها الملك الصالح ، إبان معركة كبيرة تعلقت بنتائجها أقدار الوطن المصرى . ولم يكن هذا المشكل بأقل أو أكثر من دفع هجوم حملة الصليب الغربيين على الديار المصرية ، فتحوا دمياط وبلغوا المنصورة فى طريقهم إلى القاهرة ؛ ويحدث هذا بعد كل ما صنع رأس الأسرة الأيوبية لتحرير الأراضى المقدسة من عصبة المتعصبين الأوربيين .

أما مشكل كليوباترة فى أول حياتها العامة فكان مشكل وراثة العرش اللاجيدى ، وسيكون لهذا المشكل حساب فى حديثنا عن الملكة حتشبسوت . ومع أن البطالسة ألهوا زوجاتهم ، وجلست نساء على عرش أبناء لاجوس ، فإن بطليموس الثالث عشر ، الملقب بعازف الناى [أوليتس] أو الزمار ، نص فى وصيته على أن يتولى الملك أكبر

أبنائه ، تشاركه فى الحكم وتتزوجه كبرى بناته . وكان سن الصبى لا يتعدى ثلاثة عشر عاماً ، والصبية تكبره بخمسة أعوام – وهى زيجات ، كما ترى ، من النوع العرفى ، لضرورات سياسية ! – ويعين مجلس أوصياء من مربى الأمراء الطواشى فوتينوس ومن قائد الجيوش أخيلاس ومن أستاذ البلاغة النحرير طيودوت الجنوسى . وهذا الأخير اشتهر فى التاريخ بنصيحة مشهورة تقدم بها عندما طلب القائد بومبيوس الكبير الالتجاء إلى صاحب عرش مصر ، بعد هزيمته الماحقة أمام يوليوس قيصر فى سهول فارساليا . قال أستاذ الأخلاق : « إذا آويناه أغضبنا يوليوس قيصر ، وإن صرفناه وارتفع نجمه يوماً ، حل بنا غضب روما . والرأى أن نأويه . . . ونقتله . فالموتى لا يعضون » والجملة فى الأصل اللاتينى تلاعب بلفظى الموت والعض وقد نحاول أن ننقل هذا التلاعب فى اللفظ فنقول : « فالصرعى لا يصرعون » ، أو « فمن عضهم الموت بنابه لا يعضون » .

تولى الغلام والبنية عرش مصر فى أحرج الظروف . فنجم روما قد بلغ السمت أو قارب ، فهى تهيمن على بلاد شواطئ بحر الروم كلها على وجه التقريب ، وأسماء عظمائها وقوادها ترن كالطبل فى العالم القديم : سيلا وماريوس وسبيون الأفريقى وكراسوس وبومبيوس الكبير ويوليوس قيصر .

والمستقبل مظلم أمام الفتاة كليوباترة . وتدهور الأسرة اللاجيدية أصبح بادياً للعيان ، بعد بطليموس الثالث . وروما تتدخل فى شئون دولة البطالسة الداخلية وسياستها الخارجية . فهذا أبو كليوباترة ، بطليموس الزمار ، عاد إلى عرشه بفضل مؤازرة جابنيوس ، حاكم سورية الرومانى ، وصديق بومبيوس الكبير . وكلما خلا عرش البطالسة ، ازدادت روما قرباً من غايتها وتحقيق أطماعها . فهذا بطليموس حمص [لاتيروس] يموت دون وريث ذكر . فتتولى العرش برنيقة الثالثة ، وكان الإسكندريون يحبونها ، ويفضلون أن تبقى دون زواج . ولكن القائد سيلا ، الدكتاتور فى روما ، كان يتولى حماية أمير غر من أمراء البيت اللاجيدى ، هو ابن بطليموس اسكندر الأول . فوجد الفرصة مؤاتية ليوفد هذا الغر عريساً لبرنيقة الثالثة . وسافر الفتى إلى الإسكندرية وتزوج ملكة مصر ، وشاركها الملك باسم إسكندر الثانى . . . ثم قتلها فى الأسبوع الثالث من الزواج لينفرد بالملك . فانقض الإسكندريون عليه

فى الملعب ، وقتلوه انتقاماً لملكتهم المحبوبة .

ويشاع فى روما بأن هذا الأحمق السفاح أوصى بمملكته لشعب روما . وكانت الإشاعة كافية ليبادر المصر ، ومن ورائه عدو روما متريداتس ، ملك البطس على ضفاف البحر الأسود ، ويولى عرش مصر ابناً غير شرعى لبطليموس حمص ، ويزوجون الغلام من أخته كليوباترة الثانية . وكان هذا الغلام هو الذى استحق كنية عازف الناى [أوليتس] أو ما أسميه تبسطاً ودعابة بطليموس الزمار . فقد كان الولد هاوياً للناى ، واعتبرها الإسكندريون هواية غير جديرة بملك . وتوج الزمار فى منف طبقاً للطقوس الفرعونية ، وكان ، كجميع أفراد أسرته ، يعنى بالتقليد المصرى فى التتويج ، دون إيمان بآلهة المصريين ، ودون حساب لهم . وقد عبد الزمار هذا ديونيسيوس إله الخمر ، حتى لقب بديونيسيوس الجديد . وإذا حق لى أن أتمادى فى السخرية ، فإنى أسمى والد كليوباترة ، موضوع هذا الحديث ، بطليموس الزمار المخمور .

وطبيعى أن تتوانى روما وتتردد طويلا قبل الاعتراف بالملك الزمار ، مع أنه بذل جهداً كبيراً لتحقيق هذا الاعتراف ، وأرسل ثمانية آلاف فارس من جيشه لمساعدة بومبيوس على فتح فلسطين . وسافر الزمار إلى روما ضيفاً على بومبيوس ، فإذا شعب الإسكندرية — المتوجس خيفة من عيون روما وهى تزغل نحو مصر — يعزل الزمار ، ويولى إحدى بناته ، باسم برنيقة الرابعة ، فيهرول الزمار إلى سورية ، يطلب من حاكمها جابنيوس ، صديق بومبيوس ، معاونته على استرداد عرشه ، ويعيده جابنيوس إلى العرش ، مقابل دفع الثمن ذهباً رناناً .

ويقتل الزمار ابنته برنيقة الرابعة ، ويتحكم فى رقاب الإسكندريين . وينهب ثرواتهم على يد مراب رومانى جاء يطالب الملك بديونه ، فأقامه جابياً لخزانته . يستولى على ما شاء من أموال المصريين . ومات الملك الزمار عام ٥١ ق.م ، مكروهاً محقراً من شعبه .

تلك هى الظروف العسيرة التى تولت فيها كليوباترة عرش مصر بالاشتراك مع أخيها الحدث ، تحت وصاية طغمة من الأوغاد ، لا سياسة لهم أكثر من سياسة زميلهم أستاذ البلاغة ، الذى يعنى بالجناس أكثر مما يعنى بمبادئ الأخلاق :

« فمن عضهم الموت بنابه لا يعضون » . أى أمل ابقاء مصر مستقلة فى هذه الظروف ، وروما تتغزل فى قمح مصر ، وتتلمظ بنبيذ مريوط ، وتحصى السلع الشرقية التى تدخل مصر عن طريق البحر الأحمر ؟

ولا يحفظ استقلال مصر بعض الوقت إلا الحرب الأهلية الضروس ، التى قامت بين أعظم قائدين رومانيين : بين بومبيوس قاهر الشرق ، الرجل الذى أضاف إلى أملاك روما ألفا وخمسمائة قرية ومدينة . واثنى عشر مليوناً من الأنفس ، وبين يوليوس قيصر ، فاتح الغرب : إسبانيا وغاليا وجرمانيا وبريطانيا .

فى عشرين عاماً من هنا ستتحكم روما فى أقدارها ، بعد أن يخلصها يوليوس قيصر من بومبيوس ، ويخلصها بروتوس وكاسيوس ، وأفراد العصبة الديموقراطية ؛ من يوليوس قيصر ، ويخلصها مارك أنطونيوس وأكتافيوس من قتلة يوليوس قيصر . ثم يقضى أكتافيوس على أنطونيوس . وتتحول روما الجمهورية إلى إمبراطورية يحكمها أكتافيوس باسم أغسطس أكتافيانوس قيصر .

ماذا كانت تستطيعه فتاة جميلة فى السابعة أو الثامنة عشرة ، متزوجة من غلام فى العاشرة أو الثالثة عشرة من عمره ، ويسيطر على ملكها ثلاثة أو أربعة من الأوصياء الأوغاد ، ماذا كانت تستطيعه فى ذلك الصراع العالمى ، مخاض أعظم إمبراطورية فى العالم القديم ؟

كل هذا يجب أن يكون معروفاً تماماً لنفهم كليوباترة . وندرك ما صنعته تلك المرأة الفذة فى سبيل المحافظة على عرشها ، أو كما نقول نفاقاً فى لغتنا الحديثة : الدفاع عن استقلال بلادها

* * *

أول ما تظهر كليوباترة على صفحات المؤرخ الفنان بلوتارك تبدو فى صورة طريفة . أبادر بأن أنقلها إليك من صفحاتها الأصلية فى ترجمة حياة يوليوس قيصر ؛ قال المؤرخ اليونانى الكبير :

« ويختلف المؤرخون فى أسباب حرب الإسكندرية ؛ فمن قائل إن غرام يوليوس قيصر بكليوباترة دفعه إلى تلك الحرب فأبت سمعته بالخزى ، كما تعرض شخصه للهلاك ؛ ومن قائل إنهم وزراء بطليموس وعلى رأسهم ، الطواشى

فوتينوس ، وهو الذى يحمل أعباء الحكم . بعد أن أمر بقتل بومبيوس وأقصى كليوباترة عن العرش ، وأخذ يدبر المؤامرات لقيصر ، مما دعا قيصر إلى السهر فى المآدب حرصاً على حياته . . . [ويظهر أن فوتينوس تمادى فى وقاحته يوماً ، فنصح قيصر بأن يفكر بمحاربة أعدائه خارج مصر ، قبل أن يعنى بتسوية الخلافات حول عرش البطالسة . . .] فأجاب قيصر بأنه لا يتلقى نصائح من المصريين ؛ وأرسل فى طلب كليوباترة [وكانت قد ذهبت إلى سوريا لتطلب معونة من يعيدها إلى عرشها ، ثم وصلت إلى حدود مصر الشرقية] ؛ فسافرت برفقة آبولودورس الصقلى على ظهر سفينة صغيرة وصلت بها تحت القصر الملكى بليل . ولكى تتمكن من الدخول إلى القصر دون أن يراها الحراس [خوفاً من ظفر عدوها فوتينوس بها] ، استخفت فى لفافة ملابس ، ربطها آبولودورس بسير من الجلد وبذلك استطاعت كليوباترة أن تصل إلى قيصر .

« وكان هذا هو الطعم الأول الذى غمزه قيصر . فقد أعجب بروح كليوباترة وظرفها ، وأجهزت عليه بلطفها ورقة حديثها ؛ فأصلحها على أخيها ، واشترط على الأخ أن يقبلها شريكة له فى العرش . وفى المأدبة التى أقيمت احتفاء بالمصالحة ، عرف حلاق قيصر بتدبير فوتينوس ، مشتركاً مع قائد الجيوش أخيلاس ، للقضاء على قيصر . فتحذر منهما تم تخلص من فوتينوس بقتله ، بينما هرب أخيلاس إلى مقر جيوشه . وأثارها حرباً عواناً على قيصر الذى لم يكن يحكم فى الإسكندرية إلا على جند قليل . وأول خطر أحاط بقيصر كان نقص المياه بسبب قطع المصريين لها عن الجريان فوق السور ، والخطر الثانى كان تهديد المصريين له بأسطولهم المرابط بالميناء الشرقى ، مما اضطره إلى إشعال النار فيه ، فاتصلت النار بالترسانة ، ومنها إلى القصر الملكى ، فاحترقت المكتبة الكبرى التى جمعها ملوك مصر . . . »

أعاد يوليوس قيصر كليوباترة إلى عرشها ؛ وكان الأوصياء أقصوها عنه ، فى ظروف غير معروفة تماماً ؛ فسافرت إلى سوريا تحشد جيشاً زحفت به إلى حدود مصر الشرقية . وكان بطليموس الصغير والأوصياء واقفين لها بالمرصاد عند رأس قاسيوس إلى الشرق من فيلوزيوم [الفرما] . وهناك وافاهم بومبيوس الكبير عقب اندحاره على يد يوليوس قيصر ، فى موقعة فرساليا ، ولائذاً بحمى بطليموس ،

معتمداً على ما كان له من فضل على أبيه الملك الزمار . ولكن أستاد البلاغة السفسطائى ، طيودوت ، أشار باستقبال بومبيوس ثم قتله ، معتمداً على أن من عضهم الموت بنابه لا يعضون » .

وصل قيصر إلى الإسكندرية ليلحق ببومبيوس ، على رأس جحفلين ، وأسرع أستاذ البلاغة لاستقباله ، وقدم له رأس عدوه بومبيوس ، عربوناً على إخلاص المملكة المصرية للمنتصر فى معركة فرساليا ، فأشاح يوليوس قيصر بوجهه وبكى ، ثم أقسم لينتقمن من قتلة بومبيوس . وبر بقسمه فقتلهم جميعاً ، ما عدا الأستاذ السفسطائى ، الذى تمكن من الهرب ، وجوّب فى الآفاق شريداً طريداً ، حتى قبض عليه مارك بروتوس فى آسيا ، وأعدمه بعد أن عذبه عذاباً شديداً .

يجتاز قيصر شوارع الإسكندرية فى خيلاء الظافر ، محفوفاً بحرسه الليتورى ، يأمر وينهى كأنه فى مدينة محتلة . يقضى بتسريح جيش بطليموس المرابط فى فيلوزيوم ، ويستدعى بطليموس الصغير . ولن يخضع الجيش فقد عصى قائده أخيلاس أوامر قيصر . أما فوتينوس رب الحيل ، فسيابى الطلب . ويسرع إلى حضرة قيصر ، بصحبة الملك الغلام . وتصل كليوباترة فى « بهجة » على الوجه الذى وصفه بلوتارك ، ويقضى قيصر لها بأن تعود إلى عرشها ، بجانب أخيها ، تنفيذاً لوصية أبيهما الزمار .

وتنشب ثورة المصريين حول قيصر ، وتحدث الوقائع المشهورة ، التى ينجو منها بحياته ، إلا أن ثمنها الفادح كان حريق المكتبة العظيمة ، التى تعد أكبر خسارة علمية حلت بمصر ، بل وبالعالم أجمع . وتلحق النجدة بقيصر على أيدى متريداتس أمير برجامة ، والملك أنتيباتر بن هيروديوس ، ملك اليهودية ؛ فيهزم البرجاميون جيش أخيلاس فى الدلتا ، ويدور قيصر حول بحيرة مريوط ، ليتصل بمتريداتس ، ويقضى على فلول بطليموس الصغير ، الذى يموت فى الموقعة أو يغرق فى النيل (عام ٤٧ ق.م.)

وهنا يتساءل بلوتارك عن أسباب حرب الإسكندرية هذه : أكانت غرام قيصر بكليوباترة ، أم مؤامرات مربى الأمراء الطواشى فوتينوس ، الذى طرد كليوباترة من العرش ؟

أما إن يوليوس قيصر أحب كليوباترة ، فهذا ليس موضوع شك . فقد تلبث طويلا إلى جانب الملكة الفتاة ، التى لم تبلغ بعد العشرين ربيعاً ، واصطحبها فى رحلة سياحية إلى الصعيد ، قضاها معها فيما يشبه شهر العسل . ولم تنكر كليوباترة علاقتها بالدكتاتور الرومانى ، فقد سمت الطفل الذى أنجبته منه قيصاريون [أى قويصر] .

أضاع قيصر وقته . والجيوش تحشد ضد روما على ضفاف البوسفور بقيادة الملك فرناس ، وفى إسبانيا وشمالى إفريقيا، حيث يحكم أصدقاء بومبيوس وأعوانه ، بينما شبه الجزيرة الإيطالية ملأى بالمتاعب والاضطرابات ، فما أحوج الوطن الرومانى إلى قيصر !

ويهب قيصر بعد عودته من رحلة العسل بمصر العليا ، فيسافر إلى البسفور ، وينقض على فرناس فى البلقان ، ويقضى عليه فى لمح البصر . ويرسل إلى روما أقصر بلاغ عسكرى ، وأبلغ رسالة يقول فيها : « جئت وعاينتُ وظفرت »

كانت كليوباترة كاعباً لا تقاوم ، رآها قيصر فى زهرة العمر تخرج رقيقة صغيرة . من لفافة ملابس ، فأعجب بتلك الغادة الساحرة ، وما أظنه إلا وقد افترّ ثغره عن ابتسامة ، وهو يرى أمامه ملكة مصر . ووريثة عرش البطالسة والفراعنة ، تخرج من بقجة !

كانت فى ربيع العمر أشد ما تكون نضارة ، رائعة السناء ، حلوة النغم ، ذكية الطبع ، مشرقة النفس ، متعلمة مثقفة ، ربما كانت الوحيدة من بيت لاجوس التى تحدثت إلى المصريين بلغتهم .

أحبها يوليوس قيصر وهو فى قمة مجده ، والمستقبل فى روما له . واستضافها فى قصره الريفى . عبر نهر التيبر بضواحى روما ، فى العام السادس والأربعين قبل الميلاد لتشهد الاحتفالات الكبرى بانتصاراته فى بلاد الغال ، وفى بنطس ، وفى إفريقيا ، وفى مصر . وكانت كليوباترة قذى فى عيون الرومان الجمهوريين ، كارهى الملوك . حتى أن سيسيرون لم يفتأ يكرر كلما جاء ذكرها « أكره الملكة » ، ونعتها بلينيوس الصغير نعتاً بذيئاً : « بملكة المو . . » . ولعل الرومان حملوها تبعة تحول أطماع قائدهم الكبير نحو القضاء على النظام الجمهورى ، بل لقد ذهبوا

إلى أن قيصر يطمح فى أن يقيم فى روما نظاماً ملكياً من قبيل ما كان يمارسه البطالسة والسلوقيون فى مصر والشرق الهلينستى . ثم ألا تكون كليوباترة هى التى أوحت إلى مارك أنطونيوس بتلك الحركة المسرحية فى أعياد منتصف فبراير . « اللوبركالات » . عندما قدم لقيصر تاجاً . فصاح الشعب مستنكرا . وطالب قيصر بأن يرفض هذا الرمز البغيض .

ولبثت كليوباترة فى روما سنتين ، أو بضواحيها ، ولم تعد إلا بعد مقتل يوليوس قيصر فى أعياد منتصف مارس ، « الإيدات » . عادت وقد شهدت انهيار آمالها فى أن تحكم العالم الرومانى إلى جانب قيصر .

ويقتسم نفوذ قيصر فى جمهورية روما ، إبان الأعوام الأخيرة من حياة الجمهورية ، اثنان . وهما اللذان طاردا قتلة قيصر ، ودحراهم فى وادى فليبس : الأول أكتافيوس . ابن بنت أخت يوليوس قيصر ، وقد ورث جده . وأصبح اسمه كايوس يوليوس قيصر أكتافيانوس ، والثانى مارك أنطونيوس . قائد الفرسان فى جحافل يوليوس قيصر . ويعود أكتافيانوس إلى روما يسوس أمور شبه الجزيرة ، ويوزع الأراضى على قدماء المحاربين ؛ ويذهب أنطونيوس إلى الشرق ينظم أحواله . ويبتز لخزانة روما - ولنفسه من المال ما تصل إليه أيدى أعوانه .

ولقد بلغ أنطونيوس عن بعض مواقف الملكة مصر بعد مقتل قيصر ، ما دعاه لأن يرسل فى طلبها لتبرئ نفسها مما اتهمت به . ونشك فى أن يكون هذا السبب صحيحاً ، وإنما هى حجة القائد المغرور ، زير النساء الذى لا خلاق له ، تذرع بها ليتصل بعشيقة أستاذه ورئيسه . يوليوس قيصر .

والملكة المصرية كانت ولا شك تعرف من أمر أنطونيوس الشىء الكثير ، وقد تريثت فى الاستجابة إليه ؛ دون غيرها ممن استدعاهم القائد الرومانى . من حكام آسيا ، ليمتحن إخلاصهم لروما ، ولشخصه . فلم يغضب أنطونيوس من تلكؤها ، وإنما زاد ذلك من ناره ، فأوفد إليها صديقاً يؤكد لها أن سيده لا يريد بها شراً . ولم تكن كليوباترة من السذاجة إلى حد أن تخشى على نفسها من شر ذلك الجندى . الذى زاحمت خمرياته ومغامراته النسائية . أعماله العسكرية .

ولعل بلوتارك هو الساذج عندما يقص علينا أن الصديق دليوس ، عندما زار الملكة وسحر بحديثها وجمالها ، أيقن أن أنطونيوس لا يمكن أن يجرح أو يضايق امرأة على هذه الخصال وبهذا القد والحسن . وها هو ذا الصديق القواد ينصح كليو باترة بأن تذهب إلى مركز قيادة أنطونيوس فى أبهى حلة ، مما يضاعف من سحرها ؛ ويؤكد لها أن أنطونيوس إنسان يفيض رقه وحناناً . . . وكأنه أراد أن يقول لها إن الرجل كله نظر !

ويقول بلوتارك بأن كليوباترة صدقت أقوال دليوس ، وقد خبرت بالتجربة كيف كان تأثيرها على يوليوس قيصر ، وعلى ابن بومبيوس الكبير من قبل ، مع أنهما لم يعرفاها إلا وهى فتاة غرة ؛ أما أنطونيوس فسيراها فى السن الذى يتفجر فيه جمال الأنثى ، ويبلغ عقلها كماله وقوته .

وقصة وصول كليوباترة إلى بلاد كليكيا ، وسفرها فى نهر الكدنوس على سفينة رائعة البهاء ، قصة مشهورة . وقد بهر الناس عندما رأوها فى فلكها المذهب ، ذى الشراع القرمزية والمجاديف الفضية ، تتحرك على إيقاع ألحان الشبابة والناى والقيثار ، يحف بها أطفال فى لباس كيوبيد إله الغرام ، ووصيفات فى لبسة المتفضل ، وكأنهن « النرياد والناياد » جنيات الماء ، يمشين فى ركاب فينوس ؛ وأعطار الملكة تتضوع على ضفاف الكدنوس ، والبخور يعبق وينطلق إلى اليمين وإلى اليسار من مجامر الذهب والفضة ، حتى ليحسبن الناس أن فينوس تخلق من جديد ، وتخرج من صدفتها درة يتيمة ، سويت من زبد البحر الناصع البياض . وبما أن أنطونيوس كان يروق له ، فى أعياد انتصاره ، أن يظهر فى صورة إله الخمر ديونسيوس ، فقد قال الناس : هذه فينوس همت للقاء ديونسيوس .

ويمكن تصور بقية الحكاية ، فلم يكن فى الأمر كما قلنا تحقيق سياسى ولا مساءلة عسكرية . إنما كان موعد غرام .

يدعوها أنطونيوس ، فترجوه أن يتفضل بقبول دعوتها أولا . وطار عقل القائد الرومانى وقد رأى فى حفلها ما رأى وسمع وشم وذاق وازدرد . فإذا وافته إلى مأدبته ، كان على رأس الساخرين بطهاته وسقاته ومنظمى سمره . وعندما لاحظت كليوباترة أن نكات ذلك العتل الرومانى تنضح بجلافة الجندى ، حذت حذو أسلوبه ،

وسابقته فى بذاءاته .

يقول بلوتارك . كما يقول ديون كاسيوس وغيرهما . إن جمال كليوباترة لم يكن فى ذاته فائقاً عزيز النظير . وإنما كانت لها جاذبية لا تقاوم ، فحسنها ، وحلو حديثها . ورقة طبعها ، كانت تسدد كلها سهاماً إلى أم الفؤاد ، كان جرسها كله عذوبة . ولسانها آلة موسيقية تلعب على أوتارها لعب صناع ؛ تنطق باللغات الأجنبية نطقاً سليماً ، لم يحوجها شعب من الشعوب التى تعاملها إلى ترجمان ، فكانت تتحدث بلسانهم إلى الإثيوبيين والبجاويين والعبرانيين والعرب والسوريان والميديين والفرس ، بينما البطالسة كانوا يعانون صعوبة فى تعلم لغة المصريين ، ونسى بعضهم لغته الأصلية ، كما نسى بلوتارك أن يقول لنا بأية لغة كان يتحدث هؤلاء إذا كانوا قد جهلوا لغتهم المقدونية . . . ولم يتعلموا لغة المصريين !

استحوذت كليوباترة على قلب أنطونيوس حتى أهمل أمر زوجته الأولى ، فولفيا ، وهى التى كانت تجاهد من أجله فى روما ضد أكتافيانوس ، وترك جيوش الفرس تتأهب للهجوم على سورية ؛ وسلم قياده لتلك المرأة تسحبه من أنفه حتى الإسكندرية ، حيث لم يعد للزمن عنده حساب ، وقد ضحى فى الفراغ والجدة والملذات أعز ما يملك الإنسان ، والسياسى بوجه خاص ، وهو الوقت .

لم تكن كليوباترة تتركه ليلا ولا نهاراً ؛ يأكلان ويلعبان سوياً ، يخرجان للصيد يداً بيد . وتحضر معه العرض العسكرى .

ومن الدعابات التى يحكيها بلوتارك ، دعابة عملية قامت بها كليوباترة على حساب حبيبها المأخوذ بسحرها . أراد أنطونيوس أن يظهر لها براعته فى صيد السمك ، فأوعز إلى بعض الغواصين أن يشبكوا السمك فى سنارته ، كلما ألقى بخيطه إلى الماء . ولم تخف الحيلة على الملكة ، ودبرت له أمراً . . . وإذا مارك أنطونيوس ، ثالث الثلاثة الكبار فى روما [التريومفير] يسحب سنارته فتصيد . . . . فسيخاً ! يضحك الجلف ، ويقهقه الصحاب وتقول الملكة : « خل عنك يا سيدى القائد . واترك لنا الخيط والسنار ، نحن الذين نحكم فى كانوب وجزيرة الفنار . أما أنت فليبق صيدك الملوك والمدائن والأقطار ! » . تقول له ذلك وهى تعلم أن أنطونيوس لم يعد أكثر من فرخ سمك تعلق فى شصها . أو عجل بحر وقع فى شراكها .

لم تكن روما لتقف من أمر رجلها الكبير موقفاً سلبياً ؛ فهى تسعى لانتشاله من بين أحضان الساحرة الشرقية . وكان موت زوجته فولفيا – التى قضت نحبها كمداً فيا يغلب – فرصة انتهزها أولاد الحلال لإصلاح ذات البين ، ووصل ما انقطع بين أكتافيانوس وأنطونيوس . فسعوا لتزويجه من أكتافيا أخت أكتافيانوس . ونجحوا فى إبعاد أنطونيوس عن كليوباترة زماناً طويلا ، ليعيش مع زوجته الرومانية الفاضلة ، ويعنى بشئون الدولة والحرب . ولقد سافر إلى الشرق يستأنف القتال ، واصطحب معه أكتافيا . ولكنه ، عند أول فرصة ، تخلص منها بحجة عدم تعريضها لمتاعب الحملة العسكرية . . . وطار إلى أنطاكية ، حيث وافته كليوباترة ، وكان فراقهما قد امتد إلى نحو ثلاث سنوات .

لا أحسب المدافعين عن كليوباترة – لأن للسيدة الشهيرة أنصاراً معاصرين لنا – بقادرين على نقض حكم التاريخ عليها . فهى إما امرأة تستخدم العلاقات الغرامية لتحقيق أطماعها السياسية ، وذلك يضع قدرها كامرأة ؛ أو أن غرامها بأنطونيوس أعماها عن مصالح الدولة ، فهى ملكة وضيعة .

ولابد أن تكون الحقيقة بين بين – ولم نكتشف هنا شيئاً جديداً فالمسألة كما ترى « فيها قولان » ! – كليوباترة أحبت أنطونيوس حبًّا جارفًا ، قد يكون شكسبير غير بعيد عن حقيقته فى أعظم رواياته الغرامية : « أنطونى وكليوباترة » ، ولكنه كان حب المرأة المدربة « القرارية » ، التى لا تنسى مصالحها فى غمار عواطفها . وقد رأت فى رجل روما الكبير وسيلتها الوحيدة لإنقاذ مملكتها من براثن روما ، بل لاستعادة مجد العرش المصرى . وانقاد الرجل لها ، وراح ينفذ أغراضها ، وقد نبذ العقل والحكمة والوطنية جانباً .

أما أن سياسة كليوباترة نجحت إلى حين ، فالوقائع تثبته . ولفهم ذلك يحسن أن نعرف شيئاً عن سياسة البيت اللاجيدى ، وهى السياسة التى رسمها بطليموس الأول لنفسه ولأحفاده :

يجب على الدولة المصرية أن تحكم البلاد المتاخمة لها حتى تؤمن حدودها . يجب أن تحكم فى برقة إلى الغرب ، وفى سورية – بمعناها القديم – أو على الأقل فى الجزء الجنوبى منها . يجب التحكم فى مجرى النيل الأعلى ، وفى مرافئ البحر

الأحمر ، رأس الخط الملاحى إلى الجنوب وإلى البحر الشرقى الكبير . يجب أن تقوم صلات من نوع ما ، فيها معنى السيطرة . بين الشاطئ المصرى والجزر الواقعة فى شرقى بحر الروم : كريت وقبرص ورودس وأرخبيل السكلاده ؛ وبين الشاطئ المصرى والشاطئ الفينيقى وشواطئ آسيا الصغرى ، لأن موانئ تلك الشواطئ هى رأس الطريق البرى عبر آسيا ، لوصول الأفاويه والطيب والغضار والحرير .

ومصر — فى سياسة بطليموس الأول — يجب أن تستعين برءوس الأموال وبالعقول الهلينية . ويستدعى ذلك ضرورة اجتذاب الإغريق إلى مصر . والمحافظة على هيبة الوطن المصرى فى بلاد اليونان .

ومعنى هذه السياسة ، فى أقلها ، الحيلولة دون قيام دولة عظمى موحدة تتاخم مصر .

ولكن الظروف الدولية تغيرت فى نهاية أسرة اللاجيديين ، وقامت دولة عظمى — روما — لا تتاخم مصر ، ولكنها تستولى على العالم القديم كله ، أو ما يكاد . فماذا تستطيع امرأة وحدها ، أمام هذه الدولة الزاحفة كأنها قوة من قوى الطبيعة ؟ وهل تصورت كليوباترة أن سيطرتها على أنطونيوس — أحد الثلاثة الكبار فى روما ، بل أحد الاثنين لأن ثالثهما لبيدوس أهمل أمره وانتهى بأن لزم بيته وضيعته — يمكن أن تحقق لها بعض ما حفظته فى أسرتها من مبادئ سياسية ؟ كان يجب أن تفهم أن مارك أنطونيوس ليس يوليوس قيصر ؛ وأن وارث قيصر الفعلى والسياسى ، هو أكتافيانوس ، الرزين الحريص ، الذى يعمل فى تؤدة ، ويعرف متى يقبع متحفزاً ، ومتى يثب وثباته التى تنقل روما من عهدها الجمهورى (فلم يعد أهلها صالحين للحياة الديموقراطية ، التى تتطلب أول ما تتطلب : الأمانة والنزاهة وإقامة شرعة العدل المطلق بين المحكومين) إلى عهدها الإمبراطورى . حيث تتركز السلطة فى يد رأس الدولة . وسيرفض أكتافيانوس لقب الملك والعاهل ويكتفى بلقب « Princeps civitatis » ، أى المواطن الأول فى الجمهورية . أما لقب « إمبراطور » فمعناه القائد الأعلى للجيوش ، وأهم منه لقب « أغسطس » ، أى المعظم . وسيعمل أغسطس قيصر على إقامة السلام الرومانى تحت قيادة روما . وسوف يعرف حكمه الطويل باسم العهد الأغسطى .

لم تكن كليوباترة لتستطيع الاستحواذ على فلسطين . لأن ملك اليهودية هيروديوس كان أسبق منها وأقدر على كسب صداقة روما . ولكن أنطونيوس مكنها من إمارة خلكيس ، فى شمالى سورية . ومن الشاطئ الفينيقى . فيما عدا صور وصيدا ؛ ومن أراضى « بطرا » . شرقى الأردن ، ومن بعض قبرص وكريت ؛ وبعض شاطئ كليكيا ، الغنية بأخشابها ، وبعض أجزاء من بلاد اليهودية . مثل منطقة أريحا ، وأشجار بلسمها المشهور ؛ وبعض أرمينيا وليبيا . وكل هذه الأراضى كانت ثمرة انتصارات قواد روما العظام : سيلا وكراسوس وبومبيوس الكبير .

ولو عرفت كليوباترة أن أنطونيوس ارتكب إدًّا فى حق الجمهورية الرومانية . عندما تصرف فى أملاكها هذا التصرف الأحمق . لوقفت بها أطماعها عند هذا الحد . ولكنها — المرأة — لم ترض بأن تشاركها فى أنطونيوس ضرة رومانية . هى أكتاڤيا ، أخت الرجل الأول فى روما : أكتاڤيانوس قيصر . ومن هنا كانت لعبتها الخطرة الحمقاء ، التى أضاعت بها كل ما كسبت ؛ بل كل ما ورثت عن أبيها . فالقطيعة بين أنطونيوس وزوجته أكتاڤيا نهاية العلاقات بين أكتاڤيانوس وبينه ، ولابد أن تنتهى بالحرب بين الاثنين . وروما ظفرت دائماً بأعدائها ، سواء كانوا من الأجانب أو من أبنائها . حتى لو كان الثائر عليها قائدها العظيم بومبيوس .

وقد حدثت القطيعة النهائية عندما أرسل أنطونيوس ورقة الطلاق للماترونة الرومانية ، فخرجت من منزل زوجها إلى منزل أخيها أكتاڤيانوس . وتلقت روما هذه الإهانة البالغة صفعة مدوية . جاءت على إثر عطايا أنطونيوس إلى عشيقته الملكة المصرية ، يقتطعها من أملاك روما . ولقد هالتها أخبار حفلة انتصار أنطونيوس . التى أعلن فيها تقسيم مستعمرات روما فى الشرق الأدنى بين عشيقته وأولادها :

فى ملعب الإسكندرية الكبير أمام كبار رجال الدولة والجيش والشعب ، وعلى مقربة من « السوما » ، قبر الإسكندر . أقيمت منصة كبيرة من الفضة ، وضع فى أعلاها عرشان من ذهب ، جلس عليهما كليوباترة وأنطونيوس ، وفى الدرجة التالية جلس قويصر (قيصاريون) بن يوليوس قيصر من كليوباترة ، وقد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً ؛ وتحته جلس ثلاثة أطفال كليوباترة من

مارك أنطونيوس : التوأمان اسكندر هليوس(شمس) وكليوباترة سلينة (قمر) ، وعمرهما ستة أعوام ؛ ثم آخر العنقود لأنطونيوس . الطفل بطليموس فيلادلفوس ؛ وعمره سنتان . أما اسكندر شمس فقد ألبس ملابس بلاد ميديا بآسيا الصغرى ؛ ووضع تاجها السامق فوق رأسه . ولبس الطفل بطليموس ملابس ملوك مقدونيا .

وقام أنطونيوس يخطب — وكان للرجل ملكة خطابية لا تنكر ، إلى جمال رجولته ، وارتفاع قامته — ويعلن إرادته بأن تلقب كليوباترة ، زوجة قيصر العظيم ، ملكة مصر وقبرص وسوريا ، بلقب «ملكة الملوك» (لا الملكات فحسب) . ثم يتجه إلى قويصر ويعلن بأنه الابن « الشرعى » ليوليوس قيصر وكليوباترة ، يشارك أمه الحكم ، ويلقب بملك الملوك . أما إسكندر شمس فيوليه ملكاً على أرمينيا وميديا وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهرى السند والفرات ، ومنها مملكة « الفارطيين » (مع ملاحظة أن هذه الأراضى لم تكن قد افتتحت !) . أما الطفل بطليموس فيلادلفوس فقد أقامه ملكاً على سورية ، وعلى كل البلاد الواقعة بين نهر الفرات ومضيق الدردنيل (أى آسيا الصغرى) . والطفلة كليوباترة قمر وليت عرش ليبيا !

* * *

ذهب الهادئ الرزين أكتافيانوس قيصر إلى هيكل « الفستا » ، حين عرف بأن أنطونيوس أودع وصيته بين أيدى الراهبات الفستالات سدنة المعبد ؛ طالب الكاهنات بها فأجبنه بأن ما ينويه ، من اعتداء صارخ على شرائع روما ، لن يسمحن به . فاقتحم المعبد ، وانتزع وصية أنطونيوس وذهب بها إلى مجلس الشيوخ ، لتتلى على الملأ . ومع أن شيوخ روما يكرهون هذا التشهير العلنى بدخائل الناس ، وما استودعوه من سر لا يفشى إلا بعد موتهم ، فإن الوصية تكشف عن مخاز تجعلهم ينسون كل شيء سوى أن ابناً كبيراً من أبناء روما ، يوصى بكل شيء لأولاد « الملكة الشرقية الداعرة » ، بل ويوصى ، إذا مات بعيداً عن مصر ، أن ينقل جثمانه ليدفن بالإسكندرية !

لم يبق إلا أن يقوم أكتافيانوس قيصر بأداء وظيفة من وظائفه الكهنوتية هى وظيفة « الفسيال » ، فيتجه حاملا رمحاً إلى معبد « بللونه » ، إلهة الحرب ، ويجرى

التقليد الرومانى العريق فى إعلان الحرب ، وهو رمى الرمح فوق عمود قائم أمام المعبد ، يرمز إلى حدود روما . وينضو الشيوخ عنهم « التوجا » ليلبسوا عدة القتال .

على من أعلنت روما الحرب ؟ على كليوباترة ، لا على أنطونيوس ، ولا على جيوشه ورجال أسطوله ، من أبناء روما . وفى ذلك نستبين كنه المدبر الماكر أكتافيانوس : إنه ، فيما يجيء من أحداث الحرب ، وفى مفاوضات التسليم أو السلام ، لن يرد على أنطونيوس ، وإنما على الملكة المصرية ؛ فأنطونيوس لم يعد له وجود شرعى على ظهر الأرض ! أما أتباعه ، فإنهم لم يعلنوا بأنهم أعداء الوطن ، ليترك لهم الباب مفتوحاً ، كى يتخلوا عن زعيمهم الخائن ، ويعودوا إلى رحاب الوطن الرومانى .

ويقع الصدام على شاطئ إبيروس من بلاد اليونان ، فى اليوم الثانى من شهر سبتمبر سنة ٣١ قبل الميلاد ، بين أسطول أنطونيوس وكليوباترة الذى تجمع فى خليج يعرف الآن باسم خليج بريفيزا ، وجيوش أنطونيوس المحشودة عند رأس أكتيوم ، وبين أسطول روما بقيادة منشئه البطل أجريبا ، وجيوش روما بقيادة أكتافيانوس ، على الضفة المواجهة لرأس أكتيوم .

وقد اتجه رأى مستشارى أنطونيوس إلى بدء المعركة فى البر ، ولكن العدد المتزايد من رجال جيشه ، الذين أخذوا يتخلون عنه ، حدا بأنطونيوس إلى تجنب الحرب على الأرض ، بل وفى البحر ، فقد فكر فى أن يهرب بأسطوله وأسطول كليوباترة ، ويترك جيشه البرى لقضائه . ولكن أجريبا ، الواقف له بالمرصاد ، يرغمه على القتال . وتنشب المعركة التاريخية الكبرى ، بين أسطولين متعادلين عدداً ؛ إلا أن أسطول روما كان مدرباً تدريباً خاصاً على سرعة الحركة والالتفاف ، وسفنه كانت أخف مناورة من سفن أنطونيوس .

وفى إبان المعركة — التى لم يشارك فيها أسطول كليوباترة الراسى بخليج بريفيزا — تهب ريح مؤاتية ، فتأمر الملكة المصرية سفنها بالإقلاع ، وتمر بمراكبها الستين وسط المتحاربين ، تلتمس النجاة ، وتتجه إلى شواطئ البلوبونيز . ومنها إلى الإسكندرية . وما إن يرى أنطونيوس عشيقته تهجره ، حتى يتبعها بسفينته ، ويتخلى عن رجاله فى البحر ، كما تخلى عن رجاله فى البر عند رأس أكتيوم .

ويستسلم جيش أنطونيوس لأكتافيانوس ، ويدمر أجريبا أسطول عدو روما .

ونتائج هذه الموقعة المشهورة كان يجب أن يتوقعها العابثون بأقدار الممالك . فقد انتهت بها ، أو بعدها بعام ـ دولة البطالسة . ودخلت مصر فى حوزة الرومان ، وتحولت للمرة الأولى أو الثانية فى تاريخها إلى إقليم أو مقاطعة ، يحكمها موظف رومانى من قبل الإمبراطور . وسوف تجرى عليها العوادى على هذه الوتيرة مرتين بعد ذلك : بعد الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، وبعد الغزو العثمانى فى القرن السادس عشر .

لم يطارد أكتافيانوس أعداءه المنهزمين ، بل تركهم يمرحون ، أو بالأولى يعمهون فى ضلالهم نحو العام . فقد وثق أن لا منجاة لهم بعد الآن . وأرسلوا الرسل يسترحمون الظافر ؛ فإذا هو يستجيب لكليوباترة وحدها ، ويحيى فى نفسها بعض الأمل . أما أنطونيوس فقد سبق القول بأنه لم يعد له وجود شرعى على ظهر الأرض . يحيى فى كليوباترة بعض الأمل ، أو أنه الأمل الكامل فى سحر أنوثتها ، جربته مع عظماء روما . . وكان دائماً مضمون المفعول ؟ ومن يكون هذا الأكتافيانوس ، وما زال فى شرخ الشباب ، إلى جانب الرجال المحنكين يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس ؟

وأخيراً ينقض أكتافيانوس . كالقضاء إذا حم على ميناء فيلوزيوم [الفرما] ، فلا يلقى مقاومة . ويزحف على الإسكندرية دون هوادة ؛ ويحاول أنطونيوس أن يقاوم بفرسانه ـ وهو ضابط الفرسان ! ـ وبالأسطول المصرى ، فيخونه فرسانه ؛ ويحيى البحارة المصريون أسطول أكتافيانوس برفع مجاديفهم . عندئذ تتكشف أمام عيون القائد الرومانى المغرور هوة الخيانة ، لا خيانته هو لروما ، بل خيانة عشيقته الملكية ! . . . ولكن عينى العاشق لا تريان ، وأذنيه لا تسمعان ، ومشاعره كلها تكذب ما يدركه العقل . وإذا بواقعة واحدة تحيى فى نفسه الأمل بأن كليوباترة مقيمة على عهده : فقد جاءه الخبر من لدنها بأنها فارقت الحياة ، فى داخل القبر الواسع ، أو المدفن اللاجيدى الفرعونى الكبير : الذى أعدته لنفسها ، وكدست فيه كنوزها !

وكانا قد تعاهدا على الموت سوياً ، فلم يبق أمامه إلا الموت على الطريقة الرومانية . وبينما يعانى سكرات الموت ، يبلغه أن خبر موت كليوباترة سبق أوانه ، فيطلب أن يحمل إليها ليموت إلى جانبها ، وكان له ما طلب .

كما كان لكليوباترة ما طلبت من أن تلتقى بأكتافيانوس ، وتم هذا اللقاء بعد مناورات ومداورات طويلة — ولا نقول مفاوضات — بين ذلك السياسى المراوغ الحذر ، وبين المرأة العبقرية ، التى هزت العالم الرومانى هزاً . كان أكتافيانوس يحرص على شيء واحد ، هو أن يقتادها إلى روما لتسير فى موكب انتصاره ، وقد أثرت عن كليوباترة كلمة ، كانت تعاود التلفظ بها فى إصرار عجيب : « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرنى على السير فى موكب انتصاره » . لقد شهدت فى شبابها موكب انتصار عشيقها يوليوس قيصر ، ورأت أختها وعدوتها أرسنوى تجر أسيرة فى ذلك الموكب ، فلن يجرى عليها ذلك أبداً أبداً !

تم اللقاء فى قصر الملكة ، فقد انتهت المناورات إلى أن رضيت بمغادرة قبرها الكبير ، والعودة إلى القصر ، حيث قام على حراستها إبيأفروديت ، ينفذ تعليمات أكتافيانوس بأن تعامل كملكة ، تحقق كل رغباتها ، فيما عدا ما يمكنها من الانتحار .

ماذا حدث فى هذا اللقاء بين مؤسس الإمبراطورية الرومانية والملكة التى دوخت الرجال بأنوثتها وسحرها وعقلها وجمالها ؟ ماذا كان الحوار بين الملكة الشرقية والإمبراطور الغربى ؟ من يدرى ؟ كل ما تركه لنا التاريخ — وقد لا يكون صادقاً — أنه هدأ من روعها وقال لها « سرى عنك ، ولا تخشى أية معاملة عنيفة » . فالتاريخ يتصور الرجل البارد الهادئ ، لا يعنى إلا بأمر واحد ، لا ثانى له ، وهو أن يقتاد كليوباترة حية إلى روما ، لتسير فى موكب انتصاره . لأن روما ، وعلى رأسها هذا الشاب الذى يحمل على كتفيه أقدار العالم القديم ، وفى رأسه عقل السياسى الحكيم ، تريد أن تشفى غليل حقدها على المرأة التى استأسرت بلب رجلها الأعظم يوليوس قيصر ، ونزلت بقدر قائد من كبار قوادها ، وقنصل من قناصلها ، وأحد « التريومفير » ، إلى وهدة الخيانة الوطنية .

وعندما تأكدت كليوباترة من أن مراوغات أكتاڤيانوس ، ولطفه معها ، لا تهدف إلا إلى إذلالها فى موكب النصر بروما ، قررت أن تموت ، ولجأت إلى حيلة بسيطة ، وهى أن يفهم الجميع بأنها راضية ، وأنها تعد نفسها للسفر مع أكتاڤيانوس وجعلت تختار الهدايا التى ستقدمها إلى ليڤيا زوجة أكتاڤيانوس ، وإلى أوكتاڤيا أخته ، مطلقة أنطونيوس . وذهبت لزيارة قبر حبيبها أنطونيوس لتودعه « قبل سفرها » . كل ذلك خدع حارسها إبيأفروديت ، مما سهل لها الحصول على السم الذى تنهى به حياتها .

وذات يوم نادت على حارسها هذا — وهو موقن باستسلامها — وأعطته رسالة عاجلة إلى أكتاڤيانوس ؛ وما إن أدار الرجل ظهره ، حتى أوصدت الباب عليها وعلى وصيفتى الشرف إراس وكارميون .

فتح أكتاڤيانوس رسالة كليوباترة ، وفهم من أول كلماتها ما حدث : إنها ترجوه أن يوسدها القبر إلى جانب مارك أنطونيوس !

وهرول الجميع إلى القصر ، ليروا الملكة كليوباترة ، بنت بطليموس الثالث عشر ، الملقب فيلوباطور — فيلوميتور ، التى شغلت حياتها العالم الرومانى ، وأقضت مضاجع عظمائه ، كليوباترة آخر سلسلة الملوك المستقلين الذين تولوا حكم مصر منذ مينا ، رأس الأسرة الفرعونية الأولى فى الدولة القديمة . كليوباترة الساحرة الجميلة الذكية ، معشوقة يوليوس قيصر ، وحبيبة مارك أنطونيوس : هرول الجميع ليروا كليوباترة ممددة على سريرها ، فى أبهى زينة ملكية ، فاقدة الحس والحركة ، وإلى جانب سريرها سقطت الفتاتان كارميون وإراس ، وثلاثتهن فارقن الحياة ، كما قرر الأطباء الذين استدعاهم أكتاڤيانوس توًّا . وقيل بأن ضابطاً رومانيًّا اقترب من الوصيفة كارميون ، وهى فى الرمق الأخير ، وقال لها : « ما هذا الصنيع ؟ » فأجابته الفتاة : « خير صنيع ، والأجدر بملكة انحدرت من صلب كل أولئك الملوك ! » . وقد التجأ الإمبراطور إلى الحواة المشهورين فى مصر القديمة باسم « بسللوس » ، ليمصوا السم من جرح بذراع كليوباترة ، وقيل بل فوق صدرها ؛ ولكن كليوباترة أفلتت من أيدى آسرها الرومانى ، و « لن يستطيع إنسان أبداً أن يجبرنى على السير فى موكب انتصاره » .

أما أن كليوباترة ماتت مسمومه ، فهذا ما لا ينقضه شك . ولست مستعداً لتصديق حكاية الصل [كوبرا = Naja haje] الذى أدخل عليها مختبئا فى سلة تين ، وأنها مدت يدها ودستها بين التين ، ليعضها ذلك الصل الأنيس ، الذى يقضى عطلته السنوية مكمكا بين حبات التين ! وكأنه على ميعاد مع ثلاث غانيات يعض أولهن . . . برفق . . . ، ثم يخرج متثاقلا لينفث سمه فى رفيقتيها . لكنها حكاية رومانتيكية تنفع المخرجين السينمائيين ، كما انتفع بها أكتافيانوس فى موكب انتصاره بروما ؛ فقد سحب خلفه تمثالا يصور ملكة مصر ، ممددة على سريرها يلتف حول ذراعها صل قاتل .

وكليوباترة تستحق منا كلمة رثاء ، كامرأة رائعة البهاء ، وملكة استردت كل حقوقها الملكية ، ووسعت رقعة ملكها ، عن طريق أنوثتها وألمعيتها وجمالها .

وكان المؤرخ طارن ، وهو على رأس الثقات فى تاريخ الحضارة الهلينستية ، يعتبرها أعظم خلفاء الإسكندر الأكبر ، وقال فيها قالته المشهورة : « كانت روما فى زمانها ، وهى التى لم تخش أمة ولا شعباً ، تهاب شخصين ، أحدهما هانيبال ، وكان الثانى . . . امرأة ! » .

أما مارك أنطونيوس فحسبه أن يذكر فى عداد . . . شهداء الغرام .

* * *

الصعيدية

أضاعت بنت الزمار عرش البطالسة واستقلال مصر ؛ وحفظت أم خليل الملك ، الذى ورثته عن آل أيوب ، لخشداشيها . كانت كليوباترة آخر ملوك البطالسة ، وكانت شجرة الدر أول سلاطين المماليك . أما ثالثة الملكات ، فلم تختم على خيبة أسرة ملكية ، ولم تفتح الطريق لأسرة ملكية ، وإنما قامت فى الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بشخصيتها الفارعة ، وسط صف من الملوك العظام : أسرة تحوتمس وأمنحوتب ، والثائر آخناتون ، والملك الصغير المرتد توت عنخ آمون .

ثالثة ملكاتنا مصرية صعيدية ، وكانت أعظمهن شخصية وقدراً . فالحرب التى مارستها لم تكن حرب فتوح ، ولا حرب دفاع . ولكنها كانت حرب امرأة

تطالب بحقها فى العرش – مثل كليوباترة – وتحصل عليه ، ثم تطلب شيئاً لم تفكر به كليوباترة ولا شجرة الدر ، وهو مساواتها بالرجال : فتسوى بالرجال ، لا لترفس وتنطح ، بل لتعمل من أجل السلام ، وتمارس المهنة المصرية القديمة : صناعة الحضارة !

فى حفلة الملعب الإسكندرى ، أطلق زير النساء الرومانى على عشيقته المقدونية لقب « ملكة الملوك » – لا الملكات – ، ولكن ملكة الملوك حقاً ، كانت حتشبسوت . لأن كليوباترة – مثل شجرة الدر – كانت ، قبل كل شىء ، امرأة ؛ لها كل صفات الأنثى من قوة محركها الضعف ، وسيطرة عن طريق اللعب بالعواطف ، واستغلال حب الرجال ، ومن قدرة على حبك المؤامرات والحيل . كانت حياة كليوباترة سلسلة من المغامرات ، تختلط فيها السياسة بالعاطفة . فعلاقاتها الغرامية – أو على الأقل ما حفظه التاريخ منها – كانت ذات هدف سياسى ، سواء عشقت ابن بومبيوس الكبير ، أو انطوت وتكورت فى أحضان قيصر ، أو فتحت صدرها البض ليغوص فيه رأس أنطونيوس ، ولكنها ، وقد قاربت الأربعين ، جربت أخيراً حظ كاليبسو من تليماك ، وعرفت يأس الملكة ديدونة من إخضاع إنياس ، فجرى عليها مع أكتافيانوس ما جرى على ملكة قرطاجة مع بطل الإنياذة ، وآثرت الموت على الحياة عندما تحققت من بطلان سحرها .

وشجرة الدر ، كانت حياتها هى أيضاً حياة أنثى ، ولكن فى الحلال ، ووراء أستار « البردة » . حكمت على بعلها التركمانى إيبك بتطليق ضرتها أم ولده . فنفذ حكمها صاغراً . وعندما تحققت بطلان سحرها ، أو عصيان أوامرها ، وسار عز الدين إيبك فى إجراءات الخطبة لمصاهرة صاحب حلب ، دبرت قتل زوجها شر قتلة ؛ وكانت كتلك الحيات التى يقال إنها تموت إذا ما أفرغت سمها القتال ، ولكن أعداءها لم يمهلوها ، بل سحقوا رأسها بالقباقيب سحقاً ، ورموا جثتها عريانة فى خندق القلعة .

أما حتشبسوت فكانت المرأة – الرجل حقاً ، كانت المسترجلة بالمعنى المعاصر ، على الأقل فيما عرفناه عنها ، وحدثتنا به آثارها . ولقد ضحكت سخرية يوم عرفت

أن بعض المؤرخين المحدثين يتهمون ملاتها بمهندسها « سن — موت » ، ذلك لأن الصورة السيكولوجية التى بقيت لنا عن تلك المرأة الغريبة ، ليس فيها سوى قليل من الأنوثة . ولست أعنى أن عملية جراحية حديثة كانت تحولها إلى رجل ، فإننا نعرف للملكة المصرية بنتين . والقليل الذى نراه من صورها لا يمكن الاستدلال منه على أكثر من أنها مثلت نفسها فى ملابس الفرعون . ولست أجد فارقاً كبيراً بين تمثالها من حجر الجير الذى استصلحه الأميريكان . والموجود بمتحف المتروبوليتان . وبين التمثال الرائع لتحوتمس الثالث بالمتحف المصرى . فى التمثالين نرى صورة من صور الشباب . وقد غطى كل منهما رأسه بذلك الغطاء المصرى الصميم ، الذى يغطى رأس خفرع . ورأس أبى الهول ، وستر كل منهما النصف الأسفل من جسده بالمئزر المصرى القديم . ونرى حتشبسوت على مسلتها الملقاة قرب البحيرة المقدسة بالكرنك . وهى فى هيئة شاب يافع ، يلبس التاج الأزرق المنتفخ ، يطل منه الصل الملكى فوق الجبهة . وفوق صدرها العقد الملكى ذو السبع « بوردو رت » . أو الستة الصفوف ، وفى خصرها المئزر يغطى ساقيها حتى فوق الركبة . وقد ركعت بين يدى آمون — رع ، وأولته ظهرها ، وإله طيبة يرفع يديه فى حركة من يباركها . أو ربما فى حركة إلباسها التاج الأزرق . وفى أعلى الصورة . بالحفر البارز . رمز السماء بنجومها فى خط مستقيم . وتحته نقشر اسم « آمون — رع . رب السموات » . وقوله : آتينا ابنتى معا — كا — رع ملك الأرضين ، وتراث آتوم ، عربوناً دائماً على حبى لتلك التى وهبناها الحياة » .

وفى صور أخرى لها . تظهر بلحيتها المستعارة ، كعادة ملوك الفراعنة ، وهى فى جميع صورها تمثل مفلطحة الصدر . وجاء عليها حين رفعت حرف التأنيث من اسمها . فهى ملك مصر لا ملكته . وهى الفرعون لا الفرعونة ، وهى حتشبسو لا حتشبسوت . ومن أسف أن لم يعثر على موميائها من بين المومياءات التى عثر عليها فى القرن الماضى بقاع بئر عند معبد الدير البحرى .

وحتشبسوت من أهم شخصيات الأسرة الثامنة عشرة . خلفت لنا آثاراً عظيمة : من أمثال مسلتى الكرنك : القائمة . وهى أعلى المسلات بالكرنك . والنائمة . ثم المعبد الصغير الأنيق هناك . المعروف بقاعات الملكة . وهيكل سفينة آمون .

والصرح الثامن بالكرنك . ولكن أعظمها معبدها الكبير بالدير البحرى . « رائعة الروائع » ، وهو من طراز يختلف عن الطراز المعروف فى معابد الدولة الحديثة . يظهر أنه يستوحى طراز المعبد الجنائزى لمينتوحوتب ، الذى ما تزال بقاياه المهدمة قائمة بالدير البحرى ، إلى جانب معبد حتشبسوت ، والغالب أن كان هذا الطراز سائداً فى الدولة الوسطى .

ومع أن الملكة الصعيدية حكمت أكثر من عشرين عاماً ، فإننا لا نجد لاسمها أثراً فى القوائم الملكية المعروفة ، ومحى اسمها من الخانات (الخراطيش) الملكية ، وضرب على الخطوط التى تمثل شخصها فى الصور الحائطية .

وحتشبسوت ما زال أمرها لغزاً تاريخياً ، تضارب الأثريون فى طريقة حله ، وذهب العلامة كورت زيته فى التعقيد شوطاً بعيداً ، ليفسر التسلسل التاريخى فيما بين تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث . ولم يؤخذ برأيه فيما نعلم ، وذهبت تفسيراته إلى غير رجعة . لأن الأمر لم يكن بحاجة إلى كل هذا اللف والدوران ، فإن تحوتمس الثانى ، وقد تزوج أخته حتشبسوت ، ترك بعد وفاته ابنتين شرعيتين — أى من أمهات ملكية — وولداً غير شرعى ، أى من زوجة غير ملكية . وقانون الوراثة المصرى كان يعنى بالأمومة [تبعاً للنظام المتريازكالى] . ولكن الإمبراطورية التى أسسها تحوتمس الأول بجيوشه حتى نهر الفرات شمالا ، وإلى الشلال الثالث جنوباً . كانت بحاجة إلى ملك يقود الجيوش . والغالب أن الحزب العسكرى خشى أن تجلس على العرش امرأة ، فانتهى إلى أن يولى هذا الابن غير الشرعى ، وهو تحوتمس (الثالث) . على أن يتزوج ابنة عمته حتشبسوت زوجة وأخت تحوتمس الثانى ، وابنة تحوتمس الأول . ولتوكيد الحق الإلهى لتحوتمس الثالث أشار فى آثاره — عندما بلغ مبلغ الرجال ، وتولى الملك وحده . بعد موت حتشبسوت — إلى أن الرب آمون بذاته هو الذى اختاره لعرش آبائه . فتقول النقوش التى وجدت بالكرنك بأن تحوتمس هذا ، وهو الابن غير الملكى . كان يدرس استعداداً لتولى وظيفة كهنوتية بمعبد آمون ، وأنه فى خلال حفل دينى . وقد حمل الكهنة تمثال آمون من قدس الأقداس . فتجول التمثال المحمول هنا وهناك وكأنه ينشد ضالته — على طريقة النعش فى عصرنا حين يطير بميته ! . ثم وقف فى مواجهة الشاب تحوتمس .

بمكان يعرف بموقف الملك ، وبذلك أعلن آمون عن فرحته بابنه ، وفى هذا يقول تحوتمس الثالث :

« لقد فتح لى أبواب السماء ، فتح لى مغاليق أفق رع [أى قدس الأقداس] . فاندفعت طائراً كالباشق الإلهى . أتأمل كيانه فى كبد السماء ، وصليت بجلالة الرب ، ورأيت فى مسار الأفلاك وجه ذى الجلال والإكرام . لقد ولانى رع بنفسه ، وتوجنى بالتيجان المرفوعة على رأسه . وعقد الصل الملكى على جبينى ... وتلقيت عنه مراسم الألوهية ، ووضع لى الأسماء الملكية العظيمة » .

ولما كان تحوتمس عند توليته التى يشير إليها حدثاً متزوجاً من طفلة — ابنة حتشبسوت — فقد اضطلعت عمته وحماته هذه بشئون الحكم ، كوصية على تحوتمس الثالث ، ثم أزاحت الغلام ، وتولت الملك حوالى اثنين وعشرين عاماً [١٥٠٥ حتى ١٤٨٣ ق.م.]

وتصف نقوش معاصرة الموقف عند موت تحوتمس الثانى على الوجه التالى :

« وصعد الملك إلى السماء ليدرج فى عداد الآلهة . وتولى ابنه [أى تحوتمس الثالث] مكانه ملكاً على الأرضين ، وجلس على عرش من أنجبه . وساست حتشبسوت ، ابنة الرب ، أمور الدولة حسب ما رسمت . وأحنت مصر رأسها تعمل من أجلها ، تلك النطفة من صلب الرب . لقد كانت حتشبسوت الحبل الذى تعتصم به مصر السفلى . والعماد الذى تعتمد عليه مصر العليا . وكانت الدفة المستقيمة للدلتا ، والسيدة التى تدبر الخطط ، وتصدر الأوامر . فينزل السلام على وجه الأرض . »

وليس معروفاً ما جرى لتحوتمس الصغير [الثالث] أيام استيلاء حتشبسوت على العرش . فاسمه يظهر فى النقوش خلف اسم عمته فى أول الأمر ، ثم ما يلبث أن يختفى هذا الاسم طوال حكم عمته . حتى يتولى الملك وحده ، بعد موت الملكة المعظمة نفسها . ولا يمكن أن نتصور أن هذا الشاب — الذى سيصبح أعظم ملوك مصر قاطبة — راضياً بأن يهمل هذا الإهمال الطويل . فهل كان معتقلا أم كان هارباً ؟ من يدرينا ؟ إنما نحن نفهم لماذا يحرص بعد موت عمته على أن يدق ويضرب ويمحو اسم الملكة حتشبسوت ورسمها أينما كان . فلم يكن الأمر مجرد إبعاد اسم حتشبسوت من القوائم الملكية لأنها امرأة . وقد حكمت مصر القديمة ملكات

مشهورات . وإنما كان عملا مسوماً بالتشفى والغضب . وقد سبق القول بأن الجب الذى استخلصت منه موميات ملوك الأسرة وكثير غيرهم ، لم يكشف عن مومياء حتشبسوت . فهل جرى التشفى أيضاً على جثمان الملكة ؟

ثم كيف استطاعت الملكة الاستئثار بالحكم إلا أن تستند إلى قوة حزب معين ؟ ونحن نعرف أسماء زعماء ذلك الحزب الذى آزرها ، وأول هذه الأسماء « سنن — موت » ، الوزير والمعمارى الكبير ، ثم « هابو — سنيب » كبير الكهان ، ثم حامل الأختام « نه — سى » ، فوزير الخزانة « بيت الذهب والفضة » ، توتى . حزب الملكة إذن هو حزب آمون الإله الأعظم . وكان كبير كهنته ، « هابو — سنيب » ، يجمع فى يديه السلطتين الروحية والزمنية ، لأنه كان رئيس وزراء الملكة . ومن هنا يمكن أن ندرك ما بلغته الرئاسة الدينية فى الدولة الحديثة من سؤدد ، والأوج الذى ارتفع إليه آمون — رع وسدنته .

وتعلن الملكة ، على جدران معبدها بالدير البحرى ، إخلاصها لربها ، وأنها فى سبيل آمون أوفدت ، تحت إمرة « نه — سى » ، بعثتها التجارية إلى بلاد « بونت » ، وعادت بأشجار العطر والبخور وكثير غير ذلك من منتجات الجنوب :

« وهذه هى المرة الأولى تقدم فيها تلك الأعطار الثقيلة لآمون ، ومعها عجائب البونت وغرائبها . وأعدت جلالتها بنفسها عطراً شذيًّا ، ضمخت به جسد الرب ، فتضوع كما يتضوع الندى الإلهى . . . وانتشر أريجه فى الأقطار والآفاق حتى بلاد « البونت » ، وتوهجت بشرة الإله ، وكأنها عجنت بالنضار . وتألقت طلعته كأنها النجوم النيرات » .

ولا تفتأ حتشبسوت تؤيد حقوقها الملكية على جدران معبدها الكبير بالدير البحرى ، وفى لهجتها تحد لا يخفى . فهى تؤكد أن أباها ، تحوتمس الأول ، هو الذى اختارها وأعدها لتتولى العرش ، وأن الآلهة أمنت على اختياره .

ثم تذهب إلى أبعد من كل هذا ، فتدعى بأن أباها الحقيقى كان آمون بنفسه ! وترسم على جدران « بهو الميلاد » قصة حمل أمها بها وولادتها ، فتعلن على رءوس الأشهاد أسرار ميلادها الإلهى ، الذى يثبت حقًّا لها لا ينازع . وإعلانها هذا ليس فيه من جديد على الملكية المصرية ، منذ تولى الملك ، قبل عهد الأسرات ، آلهة

وأنصاف آلهة استخلفوا على عرش مصر ملوكاً فى صورة الآدميين ، كانوا أبناء رع ، وأبناء أوزيريس ، وكل منهم فى ذاته هوروس المتجسد . بيد أن قصة ميلاد حتشبسوت تتخذ هناصيغة مادية ، تصور لأول مرة على جدران « رائعة الروائع » ، معبد الدير البحرى .

كانت حتشبسوت قبل ذاك تدعى فقط « السيدة الملكية العظيمة » : هورت [صيغة المؤنث لهورس] ورعت [صيغة المؤنث] لرع ، ولكنها ، فيما بعد ، بدأت تمثل نفسها فى هيئة الرجل ، بالمئزر القصير واللحية القصيرة . ويتحولُ اسمها المؤنث ، حتشبسوت ، إلى المذكر حتشبسو ، ومعناه « أول النبلاء » وكان قبلا « أولى النبيلات » . ثم تصور بالحفر البارز سلسلة من النقوش تمثل ميلادها الإلهى وسلسلة أخرى تمثل تتويجها .

فأبوها الفعلى ، آمون — رع ، يجتمع فى الصور بأمها الإنسانية أحماسى يجلس الإله آمون — رع فى مواجهة الملكة أحماسى على سرير له رأس أسد ، وأرجله مخالب أسد . وتلتف الساق بالساق فى حماية إلهة السماء « نيت » . وإلهة أخرى : « سلجت » . ويحف بالرسم نص شعرى لا يدع مجالا للشك فى طبيعة الاتصال بين الرب والملكة أحماسى :

« هذا ما يقوله رب الأرباب آمون — رع ، عندما تمثل لها بشراً سويًّا ، وتقمص صورة ملك الجنوب وملك الشمال : تحوتمس الأول . دخل على الملكة وهى تضطجع فى خدرها بالقصر الجميل ، فأفاقت لنفسها على أريج الإله . وعقدت الدهشة لسانها لمرأى جلالته يتجه إليها ، ويجتمع بها ، ويضع قلبه على قلبها . ثم يعود الرب إلى صورته السماوية ، وهى تتملى من جماله . وأعطافها ترجف بحبه ، وعبير الإله ، وعطر فمه ، يتضوعان بروائح أفاويه الجنوب .

« وهذا ما تقوله الزوجة الملكية أحماسى فى حضرة آمون : ما أعظم نفسك . وأشرف محضرك ، وأنت تجتمع بجلالتى فى رقة ، ونداك يسرى فى كل أعضائى ! »

وبعد ما ينال ذو الجلال وطره منها ، يقول لها : سيكون اسم الابنة التى تلدين : « سيدة النبلاء التى من صلب آمون » ، وستستوى على العرش ، تنوء بالخير والإسعاد على طول البلاد وعرضها ، فهى من روحى وقلبى ؛ إنها بنت مشيئتى .

وتاجها هو تاجى ، حتى تحكم الأرضين ، وتقود « كا» وات الناس أجمعين » .

وصور أخرى تمثل « خنوم » ، الرب الفخرانى ، وهو يسوى على دولابه الصورة الدنيوية للطفلة الملكية ولعفريتها — وهو القرين « كا » — وعند ما تحل اللحظة المرصودة ، يجىء الملكة أحماسى المخاض ، فإذا الطفلة ، وعفريتها « كا » ، يخرجان من تحتها ، فيقبل آمون « الكا » والطفلة ، ويهدهدهما ، ويعمدهما عماد التطهير الأول ، ويعدهما بتولى عرش هوروس ، وذلك بحضرة الآلهة .

وصور تمثل ما حدث لحتشبسوت ؛ « البتول الزهراء » ، عندما توجها أبوها الإنسانى ، بمعبد « إيون » ، فى هليوبوليس ، وحشد لها الفرعون الشيخ أشراف بلاطه ، وكبار رجال دولته ، وقدم لهم ابنته ، وهو يحملها بين يديه فى الحركة التقليدية للحماية :

« هذه هى الطفلة خنوم — آمون — حتشبسوت ، التى تخلفنى ، التى تجلس على عرشى ، التى تصدر الأوامر فى كل مكان بالقصر الكبير — فر عاو — إنها وايم الحق ، هى التى تسير أقداركم ، وهى التى تسمعون كلامها ، وتصدعون جميعاً بأوامرها . من أخلص لها طال بقاؤه ، ومن تقوّل عليها بسوء فالمنون لا محالة مدركه . أقبلوا سراعاً لتبايعوها أمام الملك ، وقد سمعتم اسم جلالتها ، كما فعلتم باسمى . لأن هذه الإلهة ابنة الرب ؛ فالأرباب حراسها على كر الأيام ، الذائدون عنها على مر العشى . بهذا قضى سيد الآلهة .

« وسمع الأشراف الملكيون ، فخروا سجداً لكل الآلهة ، ودعوا للملك تحوتمس الأول ، وخرجوا مهللين يرقصون فرحاً ويطيرون هناء . ثم سجل التوقيع الملكى « نخب » ، الأسماء الملكية لحتشبسوت هكذا : الإله آمون — رع أوصى كتاب التوقيع بتأليف الأسماء حسب ما جاء فى النطق الإلهى » .

ثم تقدم الملكة بواسطة الكاهن « أنموتيف » فى « الفرعاو » ، حيث أقيم جوسقا العرشين الملكيين ، حتى ترقى عرش مصر العليا ، ثم عرش مصر الدنيا ، رمز اتحاد الوجهين . ويدور « الموكب حول السور » ، ذلك الطقس المعروف فى أعياد التتويج ، منذ عهد « مينا » ، والكهنة مقنعون برأس الصقر « هوروس » ، ورأس الكلب « ست » ، يضعون على جبين الملكة تاج الوجه القبلى المخروطى الأبيض ، وتاج الوجه البحرى الأحمر المستدير ، وتظهر فى مقدمة الموكب الشعارات

الطوطمية التي نراها في آثار ملك الأسرة الأولى « نعر — مر » .

وتختم الاحتفالات — أو سلسلة التصاوير — بتقديم تحوتمس الأول طفلته الملكية حتشبسوت إلى الثالوث الطيبانى المعظم : « آمون — موت — خونصو » ، فيستقبلها كل منهم ، ويباركها ، بينما يسجل « توت » ، فى لوحه المحفوظ ، اليوبيلات الثلاثينية الكبيرة أى « أعياد سد » فى حياة الملكة مستقبلا . ويحرر صيغة البلاغ الذى يعلن به للتاسوع الأكبر خبر تتويج حتشبسوت . فيخطها كل منهم إعلاماً بارتقائها إلى المقام الفرعونى ، وهو مرتبة من مراتب الألوهية .

وبهذه النعوت والصور المنقوشة على الدير البحرى وغيره ، نعرف أن حتشبسوت حذقت فنًّا اشتهر به فراعنة الدولة الحديثة ، فكانوا أول من عرف الطبل والزمر والدعاية ، ومارسوها كما لم يمارسها الدكتور يوسف جوبلز ، بعدهم بحوالى أربعة آلاف سنة !

وإذ تتولى حتشبسوت العرش المصرى — بالقوة أو بالحيلة أو بالطنطنة ، لا يهم — تكرس حياتها لصناعات السلام والحضارة ، وتأمر بوقف الغزوات والفتوح ، التى بدأها أسلافها بعد طرد الهكسوس ؛ وتعمر الدروب إلى المحاجر ، وتوجه البعثات التجارية إلى البلاد المصاقبة والبعيدة ، على غرار بعثها إلى بلاد « البونت» ، وهى المسجلة على حوائط الدير البحرى ، تسجيلا رائعاً ، ما أحسبه إلا فى طريقه إلى أن تمحوه الحدثان ، كما أخذت تمحو تصاوير مقابر بنى حسن ، تقاعساً منا وإهمالا . وإن إحساس حتشبسوت بوطنها الغالى يظهر من نقش لها تتحدث فيه عما قامت به من إصلاح وترميم للمعابد التى خربت « منذ قام حكم الأسيويين فى أواريس بالدلتا ، وحين قام أولئك الغرباء الرحل بتدمير كلما بناه السالفون . لأنهم كانوا فى جهالتهم يعمهون ، كفروا بالرب رع ، والإله آمون . ولم يجئ لتنفيذ ما رسم به الآلهة إلا جلالتها » .

قليل غير هذا ما نعرفه عن الملكة حتشبسوت ؛ والأقوال تضاربت فى تفسير ما تركت لنا من « نشرات دعائية » ؛ ولكن لا تضارب ثمة فى أن معبد الدير البحرى عمل فنى له حساب كبير فى تاريخ العمارة ، يدل على فهم من أنشأوه لخصائص الطبيعة المصرية ، وإحساسهم العجيب بخطوط الربوة العالية المطلة على وادى آمنتى ،

فى طيبة الغربية . وانتفاعهم بتضاريسها فى إقامة الطوابق الثلاثة ، بأبهائها ذات العماد .

والقليل الذى نعرفه عن ابنة آمون البكر . يكفينا . فيما أظن . لنؤلف لها فى أذهاننا شخصية « المرأة الذكر » . يعلو قدرها . وهى المصرية الأصيلة . على المقدونية ابنة الزمار . والمملوكة الصالحية . والدة المرحوم خليل !

القيراط الخامس والعشرون

آخر ما كنت أفكر فيه، هو أن أعقد فصلا خاصاً بالملوك فى كتاب ألفته ملحمة للشعب المصرى : شعب – نامه ، لاشاه– نامه ، وملحمة السلام لا الحرب ؛ ملحمة شعب صناعته الحضارة ، وديدنه المسالمة. أرد فيها الفضل لذويه ، بحق العذابات ، والمحن والرزايا التى تحملها كل تلك الأجيال .

وقد يغتفر لى أن اخترت من الشاهنامة المصرية « ملوكاً » من جنس الأنثى ، ولعل ما دعانى إلى كتابة الفصل السابق هو إعجابى بعمارة الدير البحرى ، وسيدة الدير البحرى. أحْبَبْتُ تلك الملكة المقدام، منذ زيارتى لها أول مرة، فى بطن الجبل، بطيبة المقدسة ، ودراستى المتمهلة لتصاوير البعثة البحرية إلى بلاد « البونت » ، تزين جدران « رائعة الروائع »، وذلك أيام كنت أعنى بالبحر وأحيائه وآذيه ، فوجدت فى تلك الصور المثل الفرد ، فى كل الآثار المصرية – بقدر ما وصل إليه علمى – يصور أحياء البحر ، لا أحياء النيل ، ولا أحياء بطائح الدلتا .

أعجبت بتلك السيدة المسترجلة تمثل نفسها على آثارها رجلا بلحية مستعارة – ولحى الفراعنة كانت كلها مصطنعة ! – وصدر منبسط مفلطح . وعرفتها أيام سلكت المرأة فى أوربا طريقها الوعر نحو مزاحمة الرجل ، فجزت شعرها « آلا جارسون » ، وفلطحت صدرها ، وكشفت عن ركبتيها ، ودخنت السجائر فى المحال العامة ، ولعلها تدخن يوماً الغليون والسيجار . ومع أن جداتنا كن يدخن الشبك والشيشة ، إلا أنهن التزمن خدورهن . أما حفيداتهن فقد خرجن إلى الدنيا يسعين فى مناكبها ، مهندسات وزراعيات وجيولوجيات وخبيرات فى الدم والذرة وعاملات شريفات. وإنى لأستغرب أن لا تعنى سيداتنا المتحررات بأمر أول سيدة فى العالم زاحمت الرجل ، وغلبته ، وذلك منذ نحو ثلاثة آلاف عام . تلك كانت سيدة الدير البحرى ، وصاحبة أعظم مسلات الكرنك ، وأجمل حجراته .

وقد يغتفر لى أيضاً أن توحى كتابتى عن الملكات ، من طرف خفى ، بسخرية من الملوك وصناعة الملك . إذ يبدو لى أن السيدات كنّ ، فى الأغلب ،

أعظم نجاحاً فى حرفة الملوكية من كثير من الرجال . وسيداتى الثلاث ، إذا جمعنا شملهن على بلقيس ، وزينوبيا – التى استولت على مصر بعض الوقت أيام حكم الرومان ! – واليزابث الأولى ، وكاترين الثانية ، وماريا تيريزا ، يؤلفن باقة من الإناث حكمت وتملكت وساست الرعايا أحسن سياسة ، حتى أولئك اللاتى كانت مغامراتهن الغرامية سلسلة من الفضائح ، كبرت وتضاعفت بحكم المركز السامى لصاحباتها ، وخفت أو تضاءلت أهميتها ، عندما لم يكن لتلك المغامرات أثر فى توجيه السياسة ، ولا فى شئون الحكم .

تندر الخليفة العباسى بالمصريين إذ ولوا عليهم امرأة ، وأبدى استعداده لإيفاد رجال من بغداد ، إذا كانت الرجال قد عزت فى الديار المصرية . ويشاء القدر أن يرد سخرية هذا الخليفة إلى نحره ، بعد مضى سنوات قلائل ، عندما انقض على دولته ملك المغول هولاجو ، يدمر ملكه وحاضرة ملكه ، فلا يجد رجالا يدفعون عنها الكارثة . . وإذا مصر تجد فى رجالها ، وفى المماليك الذين ولوا عليهم السيدة أم خليل ، جيشاً قديراً على صد المغول وضربهم فى عين جالوت ، بعد أن كسروا من شوكة فرسان الصليب ، وكنسوهم من الأرض المقدسة ؛ وبعد ما اقتحم مدينة دمياط عليهم لويس التاسع وفرسان الداوية وتقدم إلى المنصورة فأزاحوهم عنها ، وكسروهم فى فارسكور ، وأسروا الملك وأمراء جنده ، من لم يرد منهم مورد الردى .

ولعلها فرصتى الوحيدة هنا ، أكفر فيها عن سيئتى فى التحدث عن الملوك ، حتى ولو كانوا ملكات ، أن أحدد حظ الشعب المصرى من أحداث تاريخه . وعجب كله عجب أن يحرص التاريخ على أن يحصى علينا العشرين والثلاثين ألف جنازة التى كانت تخرج كل يوم من باب القرافة إبان الوباء ، بل أن يسجل اسم الطاعون المعروف بقارب شيحه ، الذى أخذ المليح والمليحة ، ويتحفنا هنا أبو المكارم ابن إياس بمحفوظاته من الشعر السخيف ، فيروى : قيل مات فى هذه السنة [مجاعة سنة ٦٩٥ هـ] من الناس نحو الثلث :

يا طالبا للموت قم واغتنم   هذا أوان الموت مافاتا
قد رخص الموت على أهله   ومات من لا عمره ماتا

وأن يتمطى التاريخ فى وصف أكل الناس للكلاب والقطط والفيران والحمير

والبغال ، حتى ليبلغ الجوع بهم أن يخطف الناس بعضهم بعضاً ، ليتبلغوا بهم فى سنى المجاعة .

يحرص التاريخ على وصف خروج المئات والآلاف من ديارهم هرباً من السخرة والعونة ومقاول الضرائب . ويذكرنا بضرب الكرباج ، وسوق المجندين كالأنعام تحت سياط الباشبوزق ، وتوسيط الناس وتكليبهم وشنقهم وقطع رءوسهم ورميهم للحيوانات الضارية ، سواء حدث هذا أيام الاضطهادات الدينية فى عهد المسيحية الأولى ، أو على طوال حكم المماليك والعثمانيين . ثم لا يكاد التاريخ يذكر إلا القليل عن حياة هذا الشعب اليومية ، فى أوقات الرخاء أو فى الأوقات العادية ، إلا أن نطالع ذلك فى «ألف ليلة وليلة » ، أو نشاهده منقوشاً على حيطان المقابر المصرية القديمة . ولولا الشيخ تقى الدين المقريزى وابن تغرى بردى ، وابن إياس ، والجبرتى ، لما تصورنا هذا الشعب المصرى إلا فى بؤسه وذله وشقائه .

لأتصور الشعب المصرى على طول تاريخه الإسلامى — والفضل لمن ذكرت من أصحاب الحوليات العظماء ، وللمقريزى بنوع خاص — عندما أقف بحى الأزهر ، أو تحت الربع ، أو أجلس بباب حلاق بالحسينية أو بالحنفى ، أشاهد بياع البسبوسة يرجو جاره أن يحرس صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصلى فى سيدى البيومى ، أو فى جامع الأشرف برسباى ، ويعود الرجل بعد هنيهة متهلل الوجه ، نظيفه ، وزبيبة الصلاة ، وقد زادت سماراً . أتصور الشعب المصرى فى تلك العصور ، وفى المدن : بائع الحلوى والخراط والسروجى والبزاز والعطار وصانع الخيام . وعندما أستمع إلى حديث أوساط الناس فى أحيائنا الوطنية ، أستعيد أيام طفولتى بينهم ، فأفهم المعانى المستترة وراء لغتهم السمحة المهذبة ، من أمثال : « يفتح الله » ومعناها : السعر الذى تعرضه غير مقبول . و « صل عالنبى » ، أى فلنبدأ فى الفصال . و « علىّ الطلاق » ، أى لا تصدق كلمة مما سأقول ! و « يا فتاح يا عليم » ، أى أول القصيدة كفر . وبعدها وّياك ، وربنا يكفينا شرك . و « باسم الله » ، أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لا تكاد تكفينى ، ثم يتشجع عندما ترفض دعوته ، فيقول « حلفت عليك » ، ومعناها : أيها الأريب لقد فهمتنى ! و « اتوكل على الله » ، يعنى أغرب عن وجهى من غير مطرود ؛ و « دستور إيه يا عم الله

يخليك » ، بعنى شبعنا من هذا الكلام وأمثاله .

هذه لغة شعب فيلسوف مسالم يتكلم « بالكناية » ، وينادى على سلعته بصور شعرية : « يا للى طاب ، وطلب الأكتال ، يا بيض اليمام ، يا ناعم ! » . وبعض هذه النداءات قديم . وقد اكتشفت المناداة المعروفة على الكتاكيت : « ملاح الملاح » ، فى القرن التاسع الهجرى (عام ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م) . فابن إياس يذكر وفاة بدر الدين الدميرى ، المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية : وكان فاضلا عارفاً بصنعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة ، طلق اللسان فى حق الناس ، فكانت الشعراء تهجوه كثيراً :

قد عيل صبرى من خطب ألم به — عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فإن غدا الديك سلطاناً فلا عجب — فقد غدا قاضياً فى الناس كتكوت

فيرد الأديب على بن برد بك ، مدافعاً عن القاضى كتكوت :

إن الدميرى صديقى فلا — أسمع فيـــه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه — بل هو عندى من ملاح الملاح

شعب علمه ظالموه الحذر وصون اللسان ، كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المستترة . فما عرفت ، والله ، شعباً فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى حذقه التلاعب بالألفاظ ! ولكن الكيل قد يطفح أحياناً ، فإذا بالشعب المصرى يرفع صوته بالهجاء الصريح :

باشا يا باشا يا وش القمـــلة
من قال لك تعمل دى العملة

أو « إيش حا يجيلك من تفليسى ، يا برديسى ! » أو « يا رب يا متجلى ، اهلك العثمانلى ! » .

وإذا أردت أن تعرف المصرى فى صراحته ، وشباب تاريخه ، قبل أن تنقله قرون الظلم من التصريح إلى التلميح ، فاقرأ قصة « الفلاح الفصيح » فى الأدب الفرعونى ، لتسمعه يرفع عقيرته بالشكوى من كبار موظفى الدولة ؛ وأنا أقدم خلاصة وافية لها فى فصل من فصول هذا الكتاب .

وأتصور الشعب المصرى فى الريف كما هو اليوم وكما سيكون غداً وبعد غد : ينظر إلى المدينة كأنها مالكته ، وصاحبة الحق الأول فيه ، لا ينازعها حقها ، وكأنه لم يخلق إلا ليغذى المدينة بقمحه وفوله وعدسه وعسله وبصله وسمكه ولبنه . وإلا فماذا يصنع بكل هذا الخير أغدقته عليه السماء ؟ وكما أن الشعب المصرى القديم اعتقد بأن ملوكه من صلب الأرباب ، فقد رضى بأهل المدينة كأبناء عمومة ، ولو من بعيد ، للآلهة ! وقد تبادله المدينة اليوم بشىء مما تصنع الحضارة . ولكن ماذا كانت تقدم له المدينة فى الزمان القديم ؟ حتى ولا هدمته البيضاء والسمراء والزرقاء فيما أظن . لذلك تقول الاشتراكية بأن تطور المجتمع الزراعى لا يحدث إلا فى بطء شديد . وأن العمال هم قوات الاشتراكية الزاحفة . فالعامل فى المدن سريع الإدراك لحظه من الحياة ، حاضر الثورة على حاله . أما الفلاح ، فما حاجته إلى النظريات وهو القائل : هذه الأرض ، وما تنبت ، رزق الخالق لمخلوقاته من ناطق وصامت ، ليس لى أن أدعى فيها حقًّا أكثر مما قدر لى رب الرزق والعطاء . أما العامل فما أسرعه إلى التذمر والشكوى ، ولسان حاله يقول : وماذا قدم صاحب المصنع غير المال لشراء الآلات ؟ ومن أين حصل هذا المال إلا من عرق أمثالى ؟

أخشى أن أكون تعديت حدودى فى هذا التعقيب على حديث الملكات ، إنما أردت أن نعرف ، ولو مرة ، ماذا كان حظ الشعب المصرى من ثروة بلاده على طول تاريخه ؛ وبلوغ هذا يعد من أصعب الدراسات ، لحاجتنا إلى الوثائق . وهذه ، إذا زاد عددها عن حد معقول — كما هو الحاصل فى دراسات التاريخ الحديث — استعصى فحصها ؛ وإذا كانت قليلة ، كان الاعتماد عليها فيه الكثير من الحدس . وعندما يحدثك المؤرخون عن اقتصاديات بيزنطة ، أو جمهورية البندقية أو بيت المديتشى ، فكل ما أرجوه لك هو التوفيق فى استيعاب ما يزعمون ؛ ونصيحتى أن لا تحسن الظن كثيراً بتقديرات أولئك الجهابذة ، وخير لك أن تتحصن بالشك والريبة فيما يقولون .

أما إذا حاول مؤرخ أن يحدثك عن اقتصاديات مصر القديمة ، فمثله مثل ذلك العلامة الموسيقى الذى راح ينفخ فى مزامير الفراعنة ، ويقيس أطوال أوتار قيثاراتهم ، ويعد خروق ناياتهم وشباباتهم ، ويفحص نقوش مقابرهم ، ليحدثك

حديث الواثق عن أسلوب تآليفهم الموسيقية فى الدولة الحديثة ، ويقارنها بموسيقى الدولة القديمة ، أو بمؤلفات فاجنر وديبوسى !

إنما عثرت لك على حسبة بسيطة من صدر الدولة المملوكية . فى عهد السلطان المنصور حسام الدين لاجين ، فى أواخر القرن السابع الهجرى (٦٩٧ هـ) ؛ وتقول هذه الحسبة بأن الروك الحسامى قسم مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً . أربعة للسلطان . وعشرة للأمراء والإطلاقات ، وعشرة للجند .

هل تحسن الجمع ؟ أظن أننا لا نخطئ فى الحاصل هنا ، فهو أربعة وعشرون قيراطاً . أين منه نصيب الشعب المصرى ؟

احفظ هذه الحسبة البسيطة ، فإنها لم تجئ من برما ، وإنما نقلتها عن ابن إياس ويمكن الاطمئنان إلى أنها طبقت على طول التاريخ المصرى ، من عهد مينا حتى ... فلنقل حتى بيع أراضى الدائرة السنية فى أواخر القرن الماضى .

وقد تتغير أرقام المعادلة . يعدّلها الولاة والملوك والسلاطين ، وقد يدخل فى الحسبة الباشا العثمانى ، والباب العالى ، والاستراتيجوس الرومانى ، والخواجات ، وصرة الأراضى المقدسة وغلالها ، وديون الخديو إسماعيل ، ولكنها تظل معادلة صحيحة . طرفها الثانى لا يتغير ، فهو هو أربعة وعشرون قيراطاً . وتلك ميزة النظريات الرياضية الثابتة على مر الدهور : البساطة والدقة . معادلة الاقتصاد المصرى ، والمالية المصرية ، تدخل فى حكم قوانين الطبيعة : كالنظرية الذرية ، وقانون تمدد الغازات ، والجاذبية الأرضية ، هى شىء يعادل ، فى دقته وثباته ، حساب درجة تجمد الماء المقطر تحت ضغط جوى واحد .

ولكن أين نصيب الشعب المصرى من هذه المعادلة ؟ لا عليك إذا أضفت إليها س . وما دام المصرى يأكل ، ولو من خشاش الأرض ، ويلبس ، ولو هدمة زرقاء ، ويشرب الماء ، ولو بطينه ، من نهر قال له المستكشف الكبير حايد ابن عمران إنه رآه بالعينين التى فى رأسه ينبع من الجنة ، فلابد أن يكون للمصرى نصيب فى خير بلاده ، خارجاً عن الأربعة وعشرين قيراطاً ، رمزنا إليه بحرف السين . ثم توصلنا بعد جهد جهيد ، واستعانة بآلة الكترونية حاسبة ، إلى معرفة مقدار س هذه ، وإليك البيان :

كان أهلنا . أيام الاحتلال البريطانى والاستغلال الأوربى والليفانتى . يجيبوننا عن سؤالنا : لماذا اختص الله الخواجات بكل هذا الخير ؟ تقول الجدة . أحكم الحكماء : « لهم الدنيا يا بنى . ولنا الآخرة » .

هل عرفت نصيب الشعب المصرى من خيرات أرضه ونيله وشمسه ؟

إنه القيراط الخامس والعشرون . ومكانه . . . مملكة السماء !

III

الضياء

قفطاريم بن قبطيم
يرفع الستار
مرمدة بنى سلامة
أنوبيس يرقص
الفلاح الفصيح
وقفة الحائر
ثلاثة آلاف عام
الصفحات الأخيرة
الحضارة المصرية

قفطاريم بن قبطيم

عرفنا حال مصر بعد اندحار جيشها المملوكى فى موقعة الريدانية وسبيل علان ، والعوادى التى جرت عليها ، ورأينا إلى أى درك انحطت البلاد ، وسامها العثمانيون والمماليك والدلاة والأرنؤد العذاب والخسف والهوان .

ونحب أن نسأل : ماذا كان يذكر أجدادنا ، الذين عاشوا هذه الضعة ، بل ماذا كان يحفظ أجدادنا كلهم من تاريخنا منذ دخول المسيحية مصر ، وبماذا كانت توحى إليهم أطلال ذلك التاريخ القديم ؟

هل طالعوا أو سمعوا بما كتبه المؤرخون والرحالة اليونان والرومان ، ويوسيفوس اليهودى ، عن مصر القديمة ، دياناتها وآثارها ؟ لم يطالعوا شيئاً من ذلك فى الأغلب . أى أن أوربا كانت تعرف عن مصر القديمة أكثر كثيراً مما كان يعرف أجدادنا الأبعدون والأقربون . بل ما تزال أوربا تسبقنا فى كل شىء ، حتى فى دراسة تاريخنا القديم والحديث .

أى أن المصريين ، منذ العهد المسيحى ، نسوا تاريخهم ، أمجد صفحات من أيامهم ! ولا نعلم متى فقدوا الصلة بحضارتهم الفرعونية ، ومتى عجزوا عن قراءة اللغة القديمة . وإن كان الغالب أن مقاومتهم للهلينية ، علومها ومعارفها ولغتها ، واستعمالهم مع ذلك الحروف اليونانية فى كتابة لغتهم القديمة ، ثم اعتناقهم المسيحية ، وتغاليهم فى تطبيق مرسوم تيودوسيوس بإيقاف العبادات الوثنية ، كل هذا انتهى بهم إلى الانفصال عن التاريخ القديم . ومن السهل أن نتصور سر قراءة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، وقد دفن مع آخر الكهان والكتاب والعرافين ، الذين احتفظوا بدياناتهم العتيقة ، وماتوا عليها ، وعفت بانقراضهم .

ومعنى هذا ، من باب أولى ، أن ينسى المصريون المسلمون تاريخهم القديم .

وبذلك يجمع سكان وادى النيل على الاكتفاء من ذلك التاريخ بما ورد فى كتبهم المقدسة . قال المستشرق فون هامر ، فى كتابه عن تاريخ الدولة العثمانية :

« أما من جهة عجائب مصر ، فإن أكثر الناس تمدناً ، من الأتراك والفرس والعرب ، لم ينظروا إليها بالعين التى يراها الأوربيون وقدماء اليونان والرومان . فبينما يعتبر الأوربى مصر المنبع الأول للعلوم والفنون ، ومهداً للهندسة وتخطيط البلدان والعمارة والزراعة والكتابة والملاحة ، وبينما هو يحترمها ويقدسها التقديس الواجب لوطن الشرائع والنظم السياسية والكهنوتية والرموز الدينية ، وبينما هو يعجب بآثار عمارتها وبهياكلها وبمدافنها وأهرامها ومسلاتها وتماثيلها ، وبينما حب العلوم يحمله على مطالعة نصوصها السرية المنقوشة على ذلك الكتاب الحجرى ، الذى فتحت صفحاته منذ ألوف من السنين ، وأقيمت عند أعلى شلالات النيل ، منحدرة إلى الوادى الخصيب ، نجد أن الشرق لا يرى فى تلك الهياكل والقصور الملكية القديمة ، ولا فى تلك التماثيل الفخمة ولا فى أبى الهول ، سوى مخابئ سحرية لكنوز مدفونة . تقوم التماثيل والصور على خفارتها . ولا يجد فى تلك الكتابة الرمزية إلا طلاسم تخفى على الناس طرق استخراج الذهب ، واستكشاف المطالب المخبأة فيها . ولقد شاركت أوربا أهل الشرق فى الاعتقاد بتلك الأوهام زمناً طويلا ، وسألت تلك الأحجار عن سرّ حجر الفلاسفة ، وأنكرت المعانى المستترة وراء سر الكيمياء التى نقلتها العصور الوسطى من مصر .

« على أن تعاليم الزراعة التى تحيل ماء النيل ذهباً قد حلت تلك القضية حلا طبيعيًّا ؛ فإذا لم ير الشرقيون فى الفراعنة والبطالسة إلا أبطال رموز وأسرار ، ولم يمكنهم أن يفقهوا عقائد مصر القديمة ، وإذا استغلقت عليهم الكتابات المطوية فى ملفات البردى ، فإن شرائع الأنبياء قد نزلت فجلت لأعينهم أرض مصر مجللة بأكاليل من النور ، غاب إشعاعه عن أهل أوربا فلم تشاهده عيونهم إلا قليلا .

« فمصر مقدسة عند أهل الشرق ، لا بذكرى يعقوب وأولاده فحسب ، ولكن بما ورد عن صلاحها فى كتاب الله ، وأحاديث الرسول . فالمسلم لا يعرف سيزوستريس ولا أوزيمانداياس ، ولا فراعنة عنده إلا فرعون الذى ملأ يوسف أهراءه ، وفرعون الذى ابتلعته مياه البحر الأحمر . ومع ذلك فقد سمع ببناة الأهرام . وهو فى الحقيقة

يسميهم بأسماء تختلف تمام الاختلاف عن الأسماء التي يعرفهم اليونان بها ، وهو يجل منهم ذكرى هرمس بصفته مبدعاً للكتابة والهندسة والعمارة ، ومنظماً لطقوس الكهنة وشرائع الأسرار ، وترجماناً بين الأرض والسماء » .

ولو قد توفر المصريون الأقباط والمسلمون على مطالعة ما جاء عن أجدادهم في كتب هيرودوتس وديودورس الصقلي وجرجس سنسيلوس واسترابون وبلوتارك وبوليبوس ويوسيفوس ، لعرفوا بعض هذا التاريخ ، وإن اختلط بالخرافات والأساطير ؛ ولفهموا على الأقل ما فهمه اليونان والرومان ، ومن جاء بعدهم ، من آثار مصر .

ولكن سوء الطالع قضى بأن لا يتعدى الأقباط إلى أبعد من تاريخ المسيحية بمصر ، وأن لا يعنى العرب في عهد الحضارة الإسلامية الكبرى بغير ما جاء في كتب اليونان خاصاً بالفلسفة والطب والعلوم . وأن يبقى التاريخ والأدب بأنواعه شيئاً مجهولا عندهم إلا في أقله . وبذلك قصرت معارف المصريين جميعاً عن أن تبلغ من تاريخهم مبلغ ما عرفه الإغريق والرومان .

ولقد حاولت أن أعرف من كتب المسيحيين ما تذكر عن تاريخ مصر القديم فلم أجد إلا النزر اليسير ، فهذا العلامة غريغوريوس أبو الفرج هرون المعروف بابن العبري لا يتحدث عن تاريخ مصر البتة ، مع أنه يعنى بتاريخ العالم منذ الخليقة ، ويكتب تاريخ الدول اليونانية والفارسية والمغولية والإسلامية ، ويترجم لعلماء المسلمين والنصارى ، ويختص بعنايته تراجم الأطباء . وكل ما تعلمته من ابن العبري هو أن هرمس طرسميجسطس — أي المثلث الحكمة — هو إدريس العرب ، وربما كان أيضا أخنوخ بن متوشالح ، وأن معلم هرمس كان أغاثاذيمون المصري ، وأن أسقليبادس الملك واحد ممن أخذ الحكمة عن هرمس . كما عرفت أن مايندروس استنبط نوعا من الشعر يسمى « قوموذيا » (كوميديا) ونوعاً آخر يسمى « طراغوذيا » ، وأن الملكة البطليموسية المشهورة ينطق باسمها « قلاوفطرا » ، ومعناه « الباكية على الصخرة » .

ولم أك أكثر توفيقاً في قراءة كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » تأليف البطريرك أفتشيوس المكنى بسعيد بن بطريق (باتريك) ، وقد كتبه لأخيه عيسى يرد على مذهب الطبيعة الواحدة ، بعد أن يسرد التواريخ الكلية من عهد آدم

حتى سنى الهجرة الإسلامية .

وكل هذا غير مفهوم ولا معقول ، فإن تاريخ مصر القديمة لا يمكن أن يكون فص ملح ذاب بين أيدى المسلمين والأقباط . والحقيقة أنه موجود معروف متداول عند غالبية من أرخوا لمصر من الكتاب العرب . وما عليك إلا أن تتابع ما يقوله أولئك المؤرخون بعد الخليقة بقليل ، قبل الطوفان وعقب الطوفان ، لتكتشف لمصر تاريخاً هو العجب العجاب ، أقدم لك خلاصته ، لتكون على علم تام بالصورة التى كانت فى أذهان آبائنا منذ العهد المسيحى حتى الأمس القريب عن أجدادنا العظماء .

فمصر الفرعونية عند مؤرخى العرب كانت بلاد السحر والعرافة والكهانة . وقد سمع أولئك المؤرخون أن اليونان يعترفون بما للمصريين عليهم من فضل ، فيقولون بأننا عرفنا هذا عن طريق حكماء مصر ، وتعلمنا ذلك على أيديهم . وأن كهنة المصريين أسسوا علومهم على النجوم ، وأن النجوم علمتهم الأسرار ، وكشفت لهم عن الحجب ، وأن الكهنة أقاموا الشرائع العادلة ، وصنعوا الطلاسم المشهورة ، ورسموا الصور التى تبرجم ، ونحتوا التماثيل التى تتحرك ، وتخرج الأصوات ، وأنشأوا البرابى والأهرام ، ونقشوا على جدرانها أسرار الطب والعلوم .

وكانت مصر مقسمة فى أيامهم إلى خمسة وثمانين كورة ، خمسة وأربعين بالوجه البحرى ، وأربعين بالصعيد ، ويرأس كل كورة كبير الكهنة .

وكان اسم مصر « إمسوس » [إجبتوس] ، ويتولى عرشها ملك كاهن اسمه عنقام من نسل عرباق بن آدم . وعاش عنقام هذا قبل الطوفان وتنبأ به . وتنسب إليه كتب الأقباط ، التى تحكى سير ملوكهم . وفى أوارق الأقباط هذه ، حديث قونية ، الكاهنة التى تجلس على عرش من نار ، إذا جاءها طالب الحق يسعى ، وكان صادقاً ، اخترق إليها النار ، فكانت عليه برداً وسلاما .

وأول من حكم مصر ، قبل الطوفان ، مصرايم بن مراكيل بن داويل بن عرباق ابن آدم . خرج مع بضعة سبعين من نسل عرباق يبحثون عن مكان يقيمون فيه بعيداً عن الناس ، فبلغوا نهر النيل وساروا بمحاذاته ، حتى وصلوا إلى بلاد الحرث والزرع ، فاستقروا بها ، وهم الذين شيدوا القصور ، وأقاموا الآثار العجيبة .

وأطلق مصرايم اسمه على حاضرة البلاد ، وبنى غيرها مدنا كثيرة ، أسكن فيها الناس . وأخذ هؤلاء يحفرون الترع ليجلبوا ماء النيل إلى محلاتهم . أما قبل ذلك فكان النهر يجرى على غير نظام ، فى بطائح وسيالات وأخاديد .

وفى السنة العشرين بعد المائة من حكم مصرايم ، أمر فأقيمت الأبراج وكتبت على أسوارها أسرار الحكمة ، وقسم الملك بين بنيه ، فأعطى الغرب لنقراوس ، والشرق لسوريد ، وولى ابنه الأصغر المسمى باسمه ، مصرايم ، على مدينة اسمها يربيان .

وحكم مصرايم الكبير مائة وثمانين عاما ، ولما مات حنط جثمانه بدهان المسك ، ووضع فى تابوت من ذهب ، ومعه كنوزه وتماثيل من ذهب . وكتب تاريخ موته على القبر ، ثم صنعت الطلاسم لإبعاد الزواحف والأوابد ، وكل من حاول نبش قبره ، من إنسان أو حيوان .

ومن ملوك مصر خصليم ، وكان أول من بنى مقياسا للنيل ، وجمع لبنائه العلماء والمهندسين ، فأقاموا بيتا من زجاج على الشاطئ ، وفى وسطه حوض ماء من صفر ، وعلى حافة الحوض وضعوا عقابين من نحاس ذكرا وأنثى . فنى بدء الفيضان كانوا يجتمعون أمام تلك الدار ، ويدخل الكهنة بحضور الملك ويتلون التعاويذ ، حتى يصفر أحد الطائرين . فإن صفر الذكر جاء النيل عالبا ذلك العام ، وإن صفرت الأنثى فقل يا رحمن يا رحيم !

ومن ملوك مصر سوريد بن سهلوق ، وهو الذى بنى الأهرام التى تنسب إلى شداد بن عاد . والأقباط ينكرون أن أهل عاد دخلوا بلادهم ، بل وينكرون دخول العمالقة ! وبناها سوريد توقيا من الطوفان الذى تنبأ به الحكيم فليمون — ولعله نقل ذلك عن الملك عنقام من نسل عرباق ابن آدم ؟ — وكذلك أنشأ البرابى والآثار الأخرى ليحفظ فيها جثمانه وجثمان أهله ، وجميع ما تحتوى خزائنه . وأمر فنقشت على الحيطان والعمدان أسرار العلوم وأسماء النجوم والنباتات وخواصها ، وطريقة صنع الطلاسم . وبنى الأهرامات من الصوان الذى جىء به من أسوان ، وكانت أبوابها فى سراديب تحت الأرض ، وأقام عليها الطلاسم ، وأودع بها تاريخ الملوك وحكمهم ، وما هو مكتوب لمصر فى لوح القدر حتى آخر الزمان .

ويقول الأقباط الذين قرءوا ما كتبه على الأهرام إنه يتحدى الأجيال بقوله : « أنا الملك سوريد ، قد بنيت هذه الأهرام فى ستين سنة ، فمن أتى بعدى ، ويزعم أنه مثلى ، فليهدمها فى ستمائة عام ، علماً بأن الهدم أهون من البناء » وقيل بأن سوريد هو الذى بنى البرابى فى قفط وإخميم .

وعندما جاء المأمون إلى مصر ورأى الأهرامات ، أراد أن يهدمها ليرى ما بداخلها فعجز . ثم حاول فتحها ، وأجرى بها الفتحة الموجودة إلى الآن ، واكتشف أن عرض الحائط عشرون ذراعاً ، ودخل رجاله إلى الهرم فانحدروا فى سرداب ، وعاد بعضهم ولم يعد الآخرون ؛ وقال من نجا منهم بأنهم رأوا بالداخل وطاويط فى حجم النسور والعقبان .

وأغرق الطوفان مصر فى زمن الملك فرعان بن ميسور ، وبلغ ارتفاعه ربع الهرم ، وما زال أثر الماء يرى عليه إلى اليوم .

ومع أن الفرس والهنود ينكرون بأن الطوفان شمل الأرض كلها ، إلا أن المؤرخين أجمعوا على أنه أغرق الدنيا بما فيها .

وأول من حكم مصر بعد الطوفان كان مصرايم بن بيسر بن حام بن نوح ، وتزوج بنت الحكيم فليمون ، فأنجب منها قبطيم . وأكمل قبطيم دينه فى شرخ شبابه — وما يكاد يبلغ التسعين عاماً ! — فرزق بقفطاريم وأشمون وأتريب وصا . وبنى مصرايم مدينة مافة ، وهى منف . وكشف فليمون للملك عن كنوز مصر المخبوءة قبل الطوفان ، وعلمه قراءة الكتابات التى بالبرابى . وأنشأ فليمون على البحر المالح مدينة رقودة [راكو تيس] ، التى قامت الإسكندرية إلى جانبها فيما بعد.

وقسم مصرايم الملك بين بنيه : من أسوان إلى قفط لابنه قبطيم ، ومن قفط إلى منف لابنه أشمون ، وولى أتريب على الحوف ، وأقام صا ملكاً على الغرب حتى إفريقية .

وحكم قفطاريم بعد قبطيم ، وبنى أهرام دهشور ، وأسس مدينة دندرة . وكانت مدة حكمه أربعمائة عام . وهو الذى أقام حيال قفط منارة يرى من أعلاها البحر الشرقى كله . وفى عهده اكتشف إبليس اللعين أغلب الأوثان التى أغرقها الطوفان ، وأعادها إلى أمكنتها فى الهياكل . وبنى قفطاريم لنفسه قبراً فى الجبل

الغربى ، على مقربة من مدينة إرم ذات العماد ، حفره فى بطن الجبل قاعات كبيرة امتلأت بالكنوز ، وتحيط ببهو وسطها ، كسى سقفه بالجواهر . وأجلس الملك محنطاً وسط البهو على عرش يتلألأ ، وحوله آلاف من أوانى الكافور . ووضع أمام باب القبر صنمان عظيمان من النحاس ، يحمل كل منهما سيفاً ، وأمامهما مصطبة يطؤها الداخل إلى القبر ، فتتحرك ذراعا التمثالين ، وتقطع الداخلين بالسيوف .

وبنى مدينة بمصر على اسمه ، وجعل لها أربعة أبواب ، ونصب على كل باب منها صنما من صفر ، فكان إذا بلغ تلك الأبواب غريب ، ألقى عليه النوم ، فلا يفيق إلا أن يأتيه واحد من أهل المدينة ينفخ فى دبره . وإن لم يفعلوا ذلك ، ظل الغريب نائماً حتى يموت .

ويلى البودشير بعد قفطاريم ، وكان عالماً فاضلا فى الطلسمات والكهانة والسحر ، وله أعمال عجيبة ، منها أنه عمل شجرة من نحاس أصفر ، وأقامها فى الفضاء ، فكان لا يمر بها وحش ولا طير إلا وتسمر فى مكانه ، لا يستطيع حراكاً حتى يؤخذ باليد ؛ فشبعت الناس فى أيامه من لحوم الوحش والطير .

وفى زمانه قام هرميس على خدمته ، فأرسله للكشف عن منابع النيل ، وصنع الطلاسم هناك .

وفى أواخر حكمه ، اختفى البودشير عن الناس ، وأقام فى السحاب ؛ ثم ظهر لقومه عند طلوع الشمس وهى فى برج الحمل ، ونادى على الجند ، وأمرهم بتولية ابنه عديم ، وكان عديم جباراً عنيداً ، لم يحكم إلا مائة وأربعين عاماً ؛ وهلك فى العام الثلاثين بعد التسعمائة من عمره . وخلفه شداد وهو غير شداد بن عاد . وشداد هذا هو بانى معبد أرمنت ، كما أنشأ معبداً مماثلا بمدينة أنصنا . وهو أول من خرج إلى الصيد ، فاستألف الكلاب السلوقية من الذئاب ، ومات فى سن الزهور ، وعمره أربعون وأربعمائة عام . وكانت مدة حكمه قصيرة ، لم تزد على التسعين عاماً .

وخلفه منقاوس الذى قسم مغل مصر إلى أربعة أنصبة : ربع للملك ، وربع للجيش ، وربع لاستصلاح الأرض وإقامة الجسور والقناطر ، وحفر الترع ، وربع للطوارئ . وكان إيراد مصر فى زمانه ثلاثة ومائة مليون دينار . وكانت البلاد

مقسمة إلى ثلاثة ومائة كورة . ولكن كور مصر الآن خمسة وثمانون فقط .

وورثه ابنه متاوس ، وهو أول من عبد العجل فى مصر .

ومن ملوك مصر أشمون بن قبطيم ، وكان من أعظم ملوك مصر ، على قول القبط ، وحكم ثمانمائة عام ، وكان ملكه قد وقع فى أيدى أبناء عاد فى السنة الستمائة ، ولكنهم غادروا البلاد ، بعد أن أقاموا فيها تسعين عاماً . وفى عهد أشمون أنشئت مدينة البهنسا .

وتولى بعده ابنه مناقيوس ، وكان أول من صنع الميزان ؛ ثم مرقورة وهو فى كتب القبط أول من استألف الأوابد ، وروض السباع ، وركبها ذلولا . وتولى ابنه بلاطس وكان طفلا ، فأدارت المملكة أمه مرهبة ، وكانت امرأة حازمة عاقلة . وانتقل الملك إلى عم بلاطس ، وهو أتريب .

ومن ملوك مصر طوطيس . ويقول القبط إنه أول الفراعنة بمصر ، وهو الذى حاول اغتصاب سارة زوجة إبراهيم ، وكان إبراهيم ، حين وفد على مصر ، ادعى أنها أخته . وكلما هم بها الفرعون وقفت ذراعه وتيبست ، فيطلب إلى سارة أن تدعو ربها فيبرأ ، ويعود إلى مراودتها عن نفسها ، فتجف ذراعه ، وهكذا دواليك حتى يتوب ، فيقدم سارة إلى ابنته حورية ، فتتعلق حورية بها ، وتهدى إليها جارية قبطية اسمها هاجر ، هى أم إسماعيل .

وبعد طوطيس حكمت حورية ، وهى التى وجه إليها ملك سورية العمالقى جيشاً بقيادة جيرون . ولكن بعض المؤرخين يؤكدون أن الذى غزا مصر حينذاك هو الوليد بن دومع ، وأن الوليد هو الذى أعاد بناء الإسكندرية بعد أن دمرها أهل عاد . وتجىء هنا حكاية الراعى والجنية البحرية التى أوردت نصها فى كتابى : « حديث السندباد القديم » .

وبالوليد بن دومع تبدأ أسرة العمالقة بمصر ، ويخلفه فى الحكم الريان بن الوليد ، أسلادس ، وتسميه القبط نهراوس ، وكان طويل القامة جميل الخلقة ، عالماً بالطلمسات ، بدأ حكمه بالعدل والقسطاس ، ثم خضع لروح الشر ، وانغمس فى الفجور ، وترك الحكم لواحد من رجاله اسمه قطفير ، وهو الذى يعرف بالعزيز ، وكان حاكماً عادلا نزيهاً . قال الواقدى إن الريان بن الوليد هو الذى بنى

قصر الشمع [حصن بابليون] ولم يزل القصر عامراً ، حتى خربه بختنصر ، عندما دخل مصر . وأقام القصر خراباً نحو خمسمائة سنة ، لم يبق منه إلا الرسوم . فلما قويت شوكة الروم على اليونان ، واستولوا على مصر ، جدد بناء ذلك القصر ملك من الروم يقال له مقراطيس ، وجعله بيتاً لعبادة النيران . قال وهب بن منبه إن الريان كان مؤمناً على يد يعقوب عليه السلام لما دخل مصر ، وكان يكتم إيمانه خوفاً من فساد ملكه . وفى أيام الريان ، بنى يوسف مدينة الفيوم ، وقيل إنها بنيت بالوحى إلى يوسف على لسان جبريل عليه السلام . وعمرها يوسف فى مدة يسيرة ، فلما نظر إليها الملك الريان ، صار يتعجب من سرعة بنائها ، وقال هذا كان يعمل فى « ألف يوم » فسميت الفيوم .

واستمر الريان حتى هلك ، فاستقر يوسف مكانه .

وبعد ذلك تولى على مصر ملك يقال له داروم ، وهو الفرعون الثالث . أما الفرعون الرابع عند القبط فهو دريموس ، وكانت له أعمال وصنائع عجيبة ؛ منها أنه عمل تنوراً يشوى فيه من غير نار — كالفرن الكهربائى فى أيامنا — وعمل سكيناً منصوباً تأتى إليه البهائم فتذبح فيه نفسها من غير يد — الذبح الأتوماتيكى ! — وكل هذا من باب علم النارنجيات .

أما الفرعون الخامس فهو الذى يقال له ميلاطس بن دريموس ، وقد غرق فى النيل ، وطفت جثته أمام شطنوف .

والفرعون السادس هو فرعون موسى ، واسمه عند القبط طلما بن قومس . قال وهب بن منبه : كان اسمه الوليد بن مصعب ، وكان أصله من مدينة بلخ ، وقيل بل من أرض حوران من نواحى الشام ؛ وكان عطاراً فتجمد عليه دين . فخرج على وجهه حتى دخل مصر . وكانت صفته أعور ، وطول لحيته سبعة أشبار ، مع قصر قامة وعرج ؛ ولم يزل قائماً بملك مصر حتى هلك فى أيامه ثلاثة قرون من العالم ، وهو باق . فعند ذلك طغى وتجبر ، وقال أنا ربكم الأعلى . قال وهب ابن منبه : عاش فرعون موسى أربعمائة سنة ، وهو منفرد بملك مصر ، ولم يزل فى النعمة حتى أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، غرقاً فى البحر . قال إبراهيم بن وصيف شاه إن خراج مصر كان يجبى فى كل سنة اثنين وسبعين ألف ألف دينار.

ولم يزل فرعون قائماً بمصر حتى هلك وأغرقه الله تعالى ، لما خرج فى طلب موسى وبنى إسرائيل ؛ وقيل غرق فى بركة الغرندل المعروفة فى التوراة باسم بحر سوف .

قال القضاعى : لما أغرق الله فرعون وقومه ، صارت مصر ليس بها أحد من أشراف أهلها سوى العبيد والأجراء والنساء ، فكانت المرأة تعتق عبدها وتتزوج به ، والأخرى تتزوج بأجيرها . كنّ يشرطن عليهم أن لا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ؛ وقد صارت من يومئذ هذه عادة عند القبط إلى اليوم ، لا يبيع أحدهم ولا يشترى حتى يستأذن زوجته — والواقع أن أمر هذا معروف فى القانون المدنى أيام الفراعنة — ثم إن النساء اجتمع رأيهن على تولية امرأة منهن ، يقال لها دلوكة ، وكانت ذات عقل ومعرفة ، وكان لها من العمر نحو مائة وستين سنة ، فملكوها . وأنشأت دلوكة على أرض مصر حائطاً من أسوان إلى العريش ، وحفظت قرى مصرى وضياعها بذلك الحائط ، وجعلت له حراساً ، وجعلت عليه أجراساً من نحاس ، يحركها الموكلون بها إذا أتاهم طارق يخافونه ، فيسمعها من بالمدينة فيستعدون لقتالهم . وآثار هذا الحائط باقية إلى الآن بأعلى بلاد الصعيد ، وتسمى حائط العجوز .

قال ابن عبد الحكم : إن دلوكة لما تولت على مصر ، أرسلت خلف امرأة ساحرة يقال لها تدورة [تيودورة] وكانت ساحرة عظيمة ، فعملت بربا من الحجارة فى وسط منف ، وجعلت لها أربعة أبواب بالجهات الأربع ، وصورت بها فى كل جهة صور الخيل والبغال والإبل والحمير والسفن والرجال . وقالت للدلوكة قد عملت لكم عملا يهلك به من أرادكم بسوء من بر أو بحر . فكان إذا قصد إليهم أحد من الملوك الجبابرة ، وعجزوا عن قتاله ، يدخلون فى تلك البربا ويقطعون رءوس تلك الصور ، أو يفقئون أعينها ، فهما فعلوا فى تلك الصور ، يؤثر ذلك الفعل فى عسكر الملك الذى يقصدهم . فامتنعت عنهم الملوك ، ولم يقدروا على بلادهم فى أيام دلوكة . وأقامت دلوكة فى ملك مصر نحو ثلاثين ومائة سنة ؛ ولم تزل مصر ممتنعة من العدو بتدبير تلك العجوز حتى هلكت ، فلم يقدر أحد على إصلاح ما يفسد من تلك الصور .

قال المسعودى : لما هلكت دلوكة انتشأ من بعدها شخص من أولاد أشراف القبط يقال له دركون بن نكوطس ، فوقع الاتفاق من الجند على توليته ، فأقام فى

الملك مدة طويلة وهلك ، فتولى من بعده شخص يقال له مرنيوش ، فأقام فى الملك مدة ، وفى أيامه قدم بختنصر إلى مصر ، وجرى منه ما جرى من إخراب مدنها وقراها ونهب أموالها وقتل رجالها وسبى نسائها ، ولم يترك بها شيئا من الطلسمات والحكم ، وأخرب غالب البرابى التى كانت مودعة بها تلك الحكم . فلما خرب بختنصر مصر ورحل عنها ، أقامت بعد ذلك أربعين سنة خراباً ليس بها ساكن ولا متحرك ، فكان نيلها إذا زاد ينفرش على الأرض ثم يهبط ولا يجد من يزرع عليه وينتفع . ثم بعد ذلك عمر مصر أخلاط من الأمم ما بين قبطى ويونانى وعمليقى ، ولكن أكثرهم كانوا قبطاً ، وأكثر من ملك مصر الغرباء . واستمر القبط على ملك مصر يتولونه واحداً بعد واحد ، إلى آخر من تولى منهم وهو . . المقوقس .

وبذلك يسلمنا هذا التاريخ الأسطورى إلى ما نعرفه من وقائع الفتح العربى .

* * *

ولقد عجز المؤرخون فيما يبدو عن تقصى مصدر كل هذه الأساطير ، وقال البارون كارّا دى ڤو ، وهو الذى ترجم إلى الفرنسية مخطوطة « مختصر العجائب » ، التى نقلنا عنها الكثير مما أوردناه ، بأن الغالب أنها كل ما بقى لدى الأقباط من تاريخ بلادهم .

وللمسعودى قصة فى « مروج الذهب » تؤيد كلام دى ڤو كل التأييد . قال إنه سمعها وهو فى مصر أيام الإخشيديين :

« وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه ، فى سنة نيف وستين ومائتين ، أن رجلا بأعالى مصر من أرض الصعيد ، له ثلاثون ومائة سنة . من الأقباط ممن يشار إليه بالعلم من لدى حداثته ، والنظر والإشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها . . . برها وبحرها ، وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر فى الأرض وتوسط الممالك . وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم وأحكامها ، فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده فى أصحابه . فحمله فى النيل إليه مكرماً . وكان قد انفرد عن الناس فى بنيان اتخذه وسكن فى أعلاه ، وقد رأى الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر إلى رجل دلائل الهرم فيه بينة ، وشواهد ما أتى عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، يفهم عن مخاطبه ، ويحسن البيان والجواب عن نفسه . فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهد له ، وحمل إليه لذيذ المآكل والمشارب، فأبى أن لا يتوطأ على شيء ، وأن لا يتغذى إلا بغذاء حمله معه من كعك وغيره وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء وهذا الملبس . فإن أنتم سمتموها النقلة عن هذه العادة ، وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس ، كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتفريق هذه الصورة . فترك على ما كان عليه وما جرت به عادته . وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الديار . وصرف همته عليه . وأخلى نفسه له فى ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وإيراداته ، وجواباته فيما سئل عنه . فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط . . . قيل له فما منتهى النيل فى أعاليه ، قال : البحيرة التى لا يدرك طولها وعرضها ، وهى نحو الأرض التى الليل والنهار فيها يتساويان طول الدهر ، وهى تحت الموضع الذى يسميه المنجمون « الفلك المستقيم » . وما ذكرت فمعروف غير منكر .

« وسئل عن بناة الأهرام فقال : إنها قبور الملوك ، وكان الملك منهم ، إذا مات ، وضع فى حوض حجارة يسمى بمصر والشام ، الجرن، وأطبق عليه ؛ ثم يبنى من الهرم على قدر ما يريدون من ارتفاع الأساس ، ثم يحمل الحوض وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء ، ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذى ترونه ، ويجعل باب الهرم تحت الهرم ؛ ثم يحفر له طريق فى الأرض بعقد أزج ، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر ؛ ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت . فقيل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة ، وعلى أى شيء كانوا يصعدون و يبنون ؟ وعلى أى شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد إلا بجهد ، إن قدروا ؟ فقال : كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراق كالدرج ، فإذا فرغوا منه ، نحتوه من فوق إلى أسفل ؛ فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم وديانة .

« فقيل له : ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابى لا تقرأ ؟ فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومى ، كأشكال أحرف القبط والروم بأحرفها ، على حسب ما ولّدوه من الكتابة بين الرومى والقبطى ، فذهب عنهم كتابة آبائهم .

« فقيل له : فمن أول من سكن مصر ؟ قال : أول من نزل هذه الأرض ، مصر بن بيصر بن حام بن نوح ومر فى أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم وتفرقهم فى الأرض .

« فقيل له : أتعرف فى مصر مقاطع رخام ؟ قال : نعم فى الجبل الشرقى من الصعيد جبل رخام عظيم ، كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها ، وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر ، فمنها العمد والقواعد والرؤوس التى تسميها أهل مصر الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين ، فتلك نقرها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين ، ومنها العمد التى بالإسكندرية ، والعمود بها الضخم الكبير ، لا يعلم بالعالم عمود مثله ؛ وقد رأيت فى جبل أسوان أخاً لهذا العمود ، قد هندس ونقر ، ولم يفصل من الجبل ، ولم يحكّ ما ظهر منه ، وإنما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ، ثم يحمل إلى حيث يريد القوم . . .

« وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأى اليعقوبية . . وأقام عند ابن طولون نحو سنة فأجازه وأعطاه ، فأبى قبول شيء من ذلك ، فرده إلى بلده مكرماً ؛ وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك . وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرناه عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك » .

هذه قصة لا شك فى صحتها . ولست متأكداً إن كان الشيخ القبطى يقصد عمود السوارى بالإسكندرية أم المسلة التى كانت قائمة قرب محطة الرمل ، والتى كانت تعرف بمسلة كليوباترة . لأنه رأى فى أسوان أخا هذا العمود ، وكلنا نعرف المسلة التى لم تفصل من صخرها بقرب أسوان ، والتى ما نزال نرى بها كسراً ، يظن بأنه كان السبب فى العدول عن استخراج تلك المسلة .

وقول المسعودى بأن للعجوز « مصنفات » . ومعناه أن كانت لدى الأقباط كتب تحوى صفحات من التاريخ القديم ، يختلط فيها الواقع بالأساطير .

والواضح أن ما بقى لنا من واقعها نزر يسير . أما الأساطير فهى التى طالعنا بعضها فى هذا الفصل . وإن ثقتى بأبى الحسن المسعودى ، وإعجابى بتفكيره المنطقى السليم ، وبأسلوبه العلمى ، بقدر ما وعاه زمانه ، تغرينى بأن أزعم أنى وضعت إصبعى فى هذه القصة على مصدر من مصادر التاريخ الأسطورى لمصر . ولست أدعى أن يكون هذا الشيخ القبطى وحده هو مصدر ذلك التاريخ ، وإنما هو واحد من أسلافنا المسيحيين الذين احتفظوا أباً عن جد ، بأصداء تاريخنا القديم . عندى أن ما جاء فى الكتب العربية تاريخاً لمصر الفرعونية — وقد درج أصحابها على أن ينقل بعضهم عن بعض دون تحرج — منقول عن الأحاديث التى كان يدلى بها أمثال ذلك الرجل .

قال المسعودى : « وأخبرنى غير واحد من بلاد إخميم من صعيد مصر عن أبى الفيض ذى النون بن إبراهيم المصرى الإخميمى الزاهد ، وكان حكيماً ، وكان له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها . وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابى وزارها ، وامتحن كثيراً بما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور قال : رأيت فى بعض البرابى كتاباً تدبرته ، فإذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » . وزعم أنه رأى فى آخره كتابة ، وتبينها فى ذلك القلم الأول ، فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدرى ورب النجم يفعل ما يريد

« وكانت هذه الأمة ، التى اتخذت هذه البرابى ، لهجة بالنظر فى أحكام النجوم ، مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندها أن طوفاناً سيكون على الأرض . . . فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلها ، فاتخذت هذه البرابى ، واحدها بربا ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة ، وجعلت بنيانها نوعين : طيناً وحجراً ، وفرزت ما يبنى بالطين ، مما يبنى بالحجر ، وقالت : إن كان هذا الطوفان ناراً استحجر ما يبنى بالطين واحترق ، وبقيت هذه العلوم . وإن كان الطوفان الوارد ماء ، أذهب ما يبنى بالطين ، ويبقى ما يبنى بالحجارة . وإن كان الطوفان سيفاً ، بقى كلا النوعين ، ما هو بالطين وما هو بالحجر . وهذا ما قيل ، والله أعلم ، كان قبل الطوفان . وإن الطوفان الذى كانوا يرقبونه لم يعينوه

أنار هو أم ماء أم سيف ، وكان سيفاً أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها ، وملك نزل عليها ، فأباد أهلها ، ومصداق ذلك . . . ما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض فى كهوف وغيران ونواويس ، ومواضع كثيرة من الأرض ، لا يدرى من أى الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ، ولا تاريخ ينبئ عن حالهم . عليهم أثوابهم ، وكثيراً ما يوجد فى تلك الجبال والروابى من حليهم . والبرابى ببلاد مصر بنيان قائم عجيب ، كالبربا الموجودة بأنصنا ؛ والبربا التى ببلاد إخميم ، والبربا التى ببلاد سمنود . . . والأهرام وطولها عظيم ، وبنيانها عجيب ، عليها أنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة ، والممالك الدائرة ، لا يدرى ما تلك الكتابة ، ولا المراد بها . . . وأن ذلك علوم وخواص ، وسحر وأسرار للطبيعة » .

قال المسعودى : « وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد ، وغيره من بلاد مصر ، من أهل الخبرة ، عن تفسير فرعون ، فلم يخبرونى عن معنى ذلك ، ولا تحصل فى لغتهم ، فيمكن — والله أعلم — أن هذا الاسم كان سِمَةً لملوك تلك الأعصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية » .

وعندما يسرد المسعودى التاريخ الأسطورى لمصر يبدأه بقوله : « ثم يحكى المسعودى ، عن جماعة من الشرعيين ؛ أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده ، وكثير من أهل بيته ، غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة : مصر بن بيصر ، ونوف بن بيصر ، وساح ، وباح ، فنزل بموضع يقال له منف ، وبذلك يسمى إلى وقتنا هذا . . . »ثم واصل قصة الملوك القدماء الذين حكموا مصر ، من أمثال الريان بن الوليد ، وطلما ، والملكة دلوكة صاحبة حائط العجوز ، بما لا يختلف كثيراً عما نقلناه عن كتاب « مختصر العجائب » ، الذى ينسب إلى إبراهيم بن وصيف شاه ، ويظن البعض أنه منقول عن كتاب المسعودى المفقود ، الذى يشير إليه كثيراً فى « مروج الذهب » ، باسم « أخبار الزمان » .

يرفع الستار

سنة ١٨٥٢ ، فى عهد عباس الأول ، إرادة لمدير الجيزة .

حيث إنه يوجد آثار قديمة فى نقط مختلفة ببلدة سقارة التابعة لمديريتكم كان قد أعطيت رخصة حفر فيها قبل ثلاث سنين لأشخاص فرنسيين لاستكشاف هذه الآثار بشرط أن لا ينقلوا منها شيئاً للخارج . . . ولكن سمعنا أخيراً أن هؤلاء المرخص لهم كلما تصل أيديهم إلى آثار قديمة معدنية أو فخارية يخفونها وينقلونها للخارج سراً ، وحيث إن نقل الآثار والمومياء للخارج أمر ممنوع جداً ، فيجب بعد الآن الاهتمام بها ، ومنع إخراجها كلما ظهرت . ولأجل منع الأهالى من انتهاز فرصة بيعها وإخفائها ، يلزم أن تعينوا شخصاً مؤتمناً بواسطتكم . . . وتقيموه فى محل الاستكشاف ، ليراقب الحفر بدقة عظيمة ، ويمنع تسرب الآثار المكتشفة للخارج ، ويعتنى بجمعها وإرسالها إلى ديوان المدارس . . لتحفظ هناك وتبقى سليمة من التلف والضياع ، حسب رغبتنا . ومن بعد إذا سمعت أو أخبرت أن أحداً من الأهالى والأجانب استحوذ على شىء من هذه الآثار . . . تأكد أنى لا أنظر فى وجهك مرة ثانية ، وسأصدر أمرى حالا بعزلك ، وفصلك من المديرية . (مترجم عن التركية)

صح النوم يا أفندينا !

وفى هذه السنة اكتشف أوجست ماريت فى سقارة مقبرة العجل أبيس المعروفة بالسرابيوم .

* * *

سنة ١٨٥٧ ، فى عهد سعيد ، إرادة لعبد القادر بك مدير القليوبية :

كما ورد فى كتاب الموسيو أوغسطس ماريت الذى قدم لطرفنا كشف الجهات المأمول وجود آثار قديمة فيها ، لإخراجها ووضعها فى دار الآثار المزمع تأسيسها وإنشاؤها ، تنفيذاً لرغبتنا . . . وحيث أن الآثار الملحوظ كشفها وإخراجها ليست لغيرنا بل لذاتنا فبناء عليه . . . (مترجم عن التركية)

سنة ١٨٥٨ ، فى عهد سعيد ، أمر عال للداخلية منطوقه :

إنه قد عرض لدينا من موسيو ماريت عن بعض طلبات مختصة بأشغال عملية الأنتيقة مأموريته ، ويريد إصدار أوامرنا عنها ، ومن الجملة ما هو موضحاً بيانه بأعلى أمرنا عنه ، واقتضت إرادتنا تأديته بمعرفة الداخلية ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لإجرى ذلك ، والثلاثة أود أن يعطوا له فى المحل الذى تستنسبه الداخلية ببولاق . والموسيو وسالى تصرف له ماهيته من الميرى فى المدة المذكورة ، وبمقتضاها يرفت كما اقتضته إرادتنا . (نص أصلى)

سنة ١٨٥٨ ، فى عهد سعيد ، أمر عال لمديرية قنا وإسنا ، منطوقه :

إن موسيو ماريت قد أنهى إلينا عن بعض أشياء تختص بعملية الأنتيقة مأموريته ، ويريد إصدار أوامر عنها ، من ضمنها مادة العشش الكائنة على هيكل إدفو اللازم تخليتهم ، وإن كان رأى مع موسى بك أنه يمكن استعواضهم على أربابهم بمبلغ أربعة آلاف ، أو خمسة آلاف غرش ، ثم لزوم قدر أربعين

حمار لأجل أشغال الفحت ، كذا يريد إعطا الريسا اللازمة على الأنفار الشغالة من كل مديرية ، الذي يعين أسماهم . تكن يكون لهم دراية كافية بالمحلات الموافقه ، ليكونوا مأذونين بإدارة الفحت ، باعتبار كل خمسين نفر واحد نفر ريس تقريباً ، ويحسب لكل واحد منهم يومى أربعة أو خمسة غروش مدة أيام الشغل فقط ، وحيث من وافق إرادتنا إجابت الموصى إليه فى طلباته هذه ، فقد أصدرنا أمرنا لباقى المديريات فى خصوص الريسا المقتضى طلوعهم من مديرياتهم ، وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لأجل تهو مادة العشش ، ومشترى الحمير ، وإعطى الريسا المختصة بمديرتكم على الوجه المشروح ، كما اقتضت إرادتنا . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٣ ، فى عهد إسماعيل ، إرادة لمصطفى الكريدلى باشا ، محافظ مصر

حيث إن ماريت بك عرض علينا لزوم تخصيص الشونة الموجودة أمام دار الأنتيقة خانة الكائنه ببولاق لوضع الآثار ، لأن دار الأنتيقة خانة الحاضرة غير موافية للغرض ، فبناء عليه وافق إرادتنا تخصيص وإعطاء الشونة المذكورة لوضع الأنتيقة . فيجب أن تبادروا بالإجرى بمقتضاه

تحشية : الشونة الموصى إليها ليست شونه الميرى الكبيرة المعدة لوضع الغلال ، بل هى العر بخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الأنجرارية ، لذلك وضحنا لكم بهذه التحشية .

(مترجم عن التركية)

سنة ١٨٦٣ ، فى عهد إسماعيل ، أمر عال لديوان المالية ، منطوقه :

قد عرض علينا الإنهى الوارد من مدير الآثار التاريخيه . بناء على أمرنا السفاهى السابق إليه عن تنظيم الأنتيقة خانة تكون جاهزه للتفرج عليها وأن تعمل المصاريف اللازمه وبتقدم قايمتها ، وأوضح بأنه أجرى العمل . ومن أول شهر نوفمبر صار فتحها ؛ وكثير من المتفرجين حضروا للتفرج عليها . ولكون المصاريف التى صرفت على ذلك تبلغ خمسه وخمسين ألف فرنك وأربعين فرنك وخمسه وخمسين سنتيم يرام صدور الأمر بصرفه ، وبترجمة القوايم التى وردت مع الإنهى المذكور . . . وحيث وافق إرادتنا صرف ذلك المبلغ إلى أربابه ، بعد المراجعة وأخذ السندات اللازمة ، فقد أصدرنا أمرنا إليكم ، والقوايم المذكوره والجدول المحرر عنهم ، وإفادة أمين الأنتيقة خانه ، مرسولين لطرفكم معه عدد ٥٢ لإجرى صرف المبلغ . . . الذى توضح عنه على وجه ما ذكر ويخصم بالأمانية . (نص أصلى)

سنة ١٨٦٩ ، فى عهد إسماعيل ، أمر كريم صادر للمالية منطوقه :

ماريت بك مدير الأنتيقخانة أعرض لطرفنا بأن ولو أنه نتج من عمليه الفحر على الآثار القديمة بمقتضى أوامرنا استكشاف جملة آثار تكون منبعاً لعلم التاريخ مدة طويلة ، غير أنه لا يتم هذا المقصد إلا بنشرها وتعميمها ، وحيث لا يكتفى الحال بجمع وتخزين هذه الأدوات والمهمات فقط ، ويلزم للوصول لإتمام هذا المقصد ، إعمال مؤلف يتركب من ستة مجلدات ، فى الكامل ، تحتوى ثلثماية صورة ، ولأجل إعمال ماية نسخه من هذا المؤلف ، يتكلف جميع ذلك ثمانين ألف فرنك كالبيان الموضح بأعلاه ، وبما أن نشر وتعميم ذلك فيه منافع عمومية وخدمة مفتخرة لعلم التاريخ ، قد وافق إرادتنا قبول ذلك وتأدية المبلغ المرقوم إلى البيك الموى إليه فى باريس بالإحالة على بيت مسيو براوبه ، بشرط يصرف له كل سنة ربع المبلغ فقط ، حتى يتم على أربعة سنوات حسب إنهاه ، ولاعتماد الإجرى على الوجه المشروح ، أصدرنا أمرنا هذا إليكم . (نص أصلى)

لم يكن حديثى فى الفصل السابق الخاص بتاريخ مصر الخرافى لمجرد الفكاهة والتندر . إنما هو منطق الكتاب دفعنى إلى محاولة تحديد الحالة الفكرية التى كان عليها آباؤنا وأسلافنا منذ انهارت الحضارة المصرية القديمة ، وتحولنا عن الوثنية إلى المسيحية ، وقضينا على آخر صلة لنا بماضينا عندما كتبنا لغتنا بأحرف يونانية ، فضاع مفتاح الكتابة المصرية مع آخر العارفين بها من الكتاب والكهان . وآن لنا أن نصعد فى التاريخ ونهبط : نتابع أدوار التحول من أساطير التاريخ المصرى القديم ، إلى بعض وقائعه ، بفضل الكشف عما بقى من آثاره .

قال المسعودى فى « مروج الذهب » :

« ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق ، وما يوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض ، وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب ، إلى هذه الغاية (أى إلى زماننا هذا سنة ٣٣٢ هجرية) .

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة فى بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام [أى الكتابات] السابقة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها ، بأن فيه مطلباً عجيباً . فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم فى حفره ، وأباحهم استعمال الحيلة فى إخراجه ، فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء وحجارة مجوفة فى صخر . منقور فيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء ، والصور المختلفة . منها صورة شيوخ وشبان ونساء وأطفال . أعينهم من أنواع الجواهر ، كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوهها من ذهب وفضة . فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا فى أجوافها رمماً بالية ، وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبرانى [جمع برنية] ، وغيرها من الآلات من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذى قد طلى منه ذلك الميت الموضوع فى تمثال الخشب ، وما بقى من الطلاء متروك فى ذلك الإناء ، والطلاء دواء مسحوق ، وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منها على النار ، ففاح منها روائح طيبة مختلفة ، لا تعرف فى نوع من الأنواع

التى للطيب ؛ وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة ما فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم وتباين صورهم . وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل تمثال من الحجر المرمر ، أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم ، على حسب عبادتهم للتماثيل . والصور عليها أنواع من الكتابات ، لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملك [الإخشيد محمد بن طغج] . وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض — أعنى أرض مصر — أربعة آلاف سنة . وفيما ذكرناه (انظر الفصل السابق) دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى . ولم يؤدهم الحفر إلا إلى ما ذكرناه من هذه التماثيل . وكان ذلك فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، [٩٣٩ م] .

« وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر ، إلى أحمد بن طولون وغيره ، إلى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة — أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيبت فى هذه المطالب من القبور والخزائن ، وقد أتينا على ذكرها فيما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق » .

* * *

أما ترى فى هذه الفقرة وصفاً بديعاً للكشف عن مقبرة مصرية قديمة : « حجارة مجوفة فى صخر » ، أى نواويس ، « منقور فيها تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب » ، أى توابيت أغطيتها على شكل الميت . « فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا فيها رمماً بالية وأجساماً فانية » ، أى مومياء « وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبرانى وغيرها من الآلات من المرمر والرخام » . وهى الأوانى المعروفة بالكانوب . « وبإزاء كل تمثال من تلك التماثيل » ، أى التوابيت الخشبية . « تمثال من حجر المرمر أو من الرخام الأخضر . على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور » . أى تمثال القرين « كا » . أو ما أسميه « عفريت الميت » . إلى آخره !

وقد تنبهت إلى فقرة وردت فى تاريخ حياة أحمد بن طولون بكتاب (مصر فى العصور الوسطى » للدكتور على إبراهيم حسن ، حيث يقول (صفحة ٨٢ من الطبعة الرابعة ، يناير ١٩٥٤) :

« وكل هذه الأعمال العظيمة تطلبت أموالا قد لا تتمشى مع موارد البلاد فى هذا العصر ، فإن خراج مصر فى عهده لم يزد عن ٤،١٠٠،٠٠٠ دينار ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول إن ابن طولون قد عثر على كنزين كبيرين ، أحدهما فى الصحراء ، والآخر فى الجبل ؛ ولكن أحداً منهم لم يبين محتويات الكنزين » .

هل يقوم لديك شك فى صحة ما ذهب إليه أولئك المؤرخون ، بعد مطالعة ما يقوله أبو الحسن المسعودى عن البحث عن الدفائن والمطالب : « وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر إلى أحمد ابن طولون وغيره ، إلى هذه الوقت ، أخبار عجيبة فيما استخرج فى أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ... » إلى آخر الفقرة .

* * *

والعجيب أن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وقد زار دار البعثة العلمية الفرنسية ، وترك لنا وصفاً طريفاً لهذه الزيارة ، لم يشر إلى عملها الكبير فى وصف وتسجيل الآثار المصرية .

ولكنه أشار فى سلخ عام ١٢٣٢ ﻫ (أى عام ١٨١٧ م) بصف سائحين إنجليز يزورون الأهرام ، وينهبون الآثار ؛ وإليك الفقرة كلها كما وردت فى الجزء الرابع من « عجائب الآثار » :

« ومنها أن طائفة الإفرنج الإنجليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة ، الكائنة ببر الجيزة ، غربى الفسطاط ، لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشياء المستغربات ، والفحص عن الجزئيات ، وخصوصا الآثار القديمة وعجائب البلدان ، والتصاوير والتماثيل التى فى المغارات والبرابى ، بالناحية القبلية وغيرها . ويطوف منهم أشخاص فى مطلق الأقاليم ، بقصد هذا الغرض ، ويصرفون لذلك حملا من المال فى نفقاتهم ولوازمهم ومؤاجريهم ؛ حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد ، وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ، ونواويس من رخام أبيض ، كان بداخلها موتى بأكفانها وأجسامها باقية ، بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلى ؛ ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التى كان عليها فى حال حياته ؛ وتماثيل آدمية من الحجر السماقى الأسود المنقط الذى لا يعمل فيه الحديد ، جالسين

على كراسى ، واضعين أيديهم على الركب ، وبيد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى ، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة ، مفرغ معه . أطول قامة من الرجل الطويل ؛ وعلى رأسه نصف دائرة منه فى علو الشبر ، وهم شبه العبيد المشوهى الصورة ، وهم ستة على مثال واحد ، وكأنما أفرغوا فى قالب واحد ، يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين . وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة . وأحضروا أيضا رأس صنم كبير ، دفعوا أجرة السفينة التى أحضروه فيها ستة عشر كيسا (نحو ثمانين جنيها) ، وأرسلوها إلى بلادهم ، لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها ؛ وذلك عندهم من جملة المتاجرة فى الأشياء الغريبة .

« ولما سمعت بالصور المذكورة ، ذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير ، المعروف بالساعاتى ، وسيدى إبراهيم المهدى الإنجليزى ، إلى بيت قنصل بدرب البرابرة ، بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية ، وشاهدت ذلك كما ذكرته ، وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم ، وصقالة أبدانهم الباقية على مر السنين والقرون ، التى لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب .

« وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام ، وأذن لهم صاحب المملكة : فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحى والغلقان ، وعبروا إلى داخلها ، وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الوطواط وغيره ، ونزلوا إلى الزلاقة ، ونقلوا منها ترابا كثيراً وزبلا ، فانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك . هذا ما بلغنا عنهم .

« وحفروا حول الرأس العظيمة التى بالقرب من الأهرام ، التى يسميها الناس رأس أبى الهول ، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ، ممتد كأنه راقد على بطنه ، رافع رأسه ، وهى التى يراها الناس ، وباقى جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال ؛ وساعداه ، من مرفقيه ، ممتدان أمامه ، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر ، عليه نقوش شبه قلم الطير ، فى داخله صورة سبع مجسم ، من حجر مدهون بدهان أحمر ، رابض باسط ذراعيه فى مقدار الكلب ؛ رفعوه أيضاً إلى بيت القنصل ، ورأيته يوم ذاك .

« وقيس المرتفع من جسم أبى الهول ، من عند صدره إلى أعلى رأسه ، فكان اثنين وثلاثين ذراعا ، وهى نحو الربع من باقى جسمه . وأقاموا فى هذا العمل نحواً

من أربعة أشهر . . .

« . . . ومنها أن حسن باشا سافر إلى الجهة القبلية ، وصحبته بعض الإفرنج الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضى الصعيد ، والفحص وفحر الأراضى والكهوف والبرابى ، واستخراج الآثار القديمة ، والأمم السالفة من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى » .

وبعد ذلك لا نجد فى تراثنا غير الإرادات والأوامر العالية التى نقلنا طرفا منها فى صدر هذا الفصل ، والتى ندرك منها أن الولاة بدءوا يتنبهون ، تحت تأثير الأجانب ، إلى أهمية « الأنتيقة » . ويغلب على ظنى أنهم كانوا يطمعون ، كأسلافهم ، فيما يمكن أن تؤدى إليه « مادة الفحت » من كنوز مخبوءة . ولكنهم على كل حال اعتنوا بأمر الرجل الذى تدين له مصر والعلوم الإنسانية بدين كبير ، وهو أوجست مارييت ، وسلموا إليه « الشونة المومى إليها ، وليست شونة الميرى الكبيرة لوضع الغلال ، بل هى العربخانة المخصصة من زمان لوضع العربات ومتعلقات مصلحة الانجرارية » ، كما جاء فى « التحشية » ، لتضم إلى « دار الأنتيقة خانة ، الغير موافية للغرض » .

والحق أن قائمة الشرف — التى يثلج صدورنا أن تنتظم أخيراً أسماء مواطنينا ، تحت اسم أحمد كمال — تبدأ بالبعثة العلمية الفرنسية ، فشامبوليون ، فمارييت ، فلپسيوس . أولئك هم مؤسسو علم العاديات المصرية ، أو المصرولوجيا كما أحب سلامة موسى أن يسمى الإجبتولوجيا .

وضياع كنوزنا الأثرية ، وانتقال الكثير منها إلى متاحف العالم كله — حتى ذلك المتحف البسيط ، الذى زرته ببلدة صغيرة من بلاد المجر ، يحتوى على مومياته المصرية بتابوتها ! — وإلى أيدى الأفراد ، بدأ منذ عهد الأسرات بسرقة المقابر . وهناك قضية مشهورة فى التاريخ القديم عن عصابة من لصوص المقابر ، حدثت فى عهد رمسيس التاسع ، حين اتهم عمدة طيبة زميله ، رئيس حرس المدافن الملكية ، بالتستر على اللصوص ، وبأن مقبرة أمنحوتب الأول قد نهبت . وأجرى تحقيق على يد لجنة عليا اعترف أمامها أحد أفراد العصابة بسرقة هرم شبسسكاف ، وأقر على شركائه .

ولعل أهون الخطب أن تسرق الآثار . وتنتهى إلى مكان أمين ، سواء بمصر أو بالخارج . إنما الطامة الكبرى هى فيما انهار منها تحت معاول الهدم ، أو ذاب فى بوتقة الصائغ ، أو احترق فى شبشبة الساحر . ولو استطاع الرهبان المصريون أن يسووا بالأرض كل ما كان قائماً من آثار الوثنية المصرية ، لفعلوا ، ولكنهم عجزوا فى كثير من الأحوال ، أو هم فضلوا بناء بيعهم مستندة إلى صروح المعابد ، وتعميد كنائسهم فى قاعاتها الداخلية. هذا إلى أنهم حولوا المدافن المنهوبة إلى « قلايات» لإقامتهم وتعبدهم . وكانوا يطمسون على نقوشها وصورها بالملاط أو الطين مخلوطا بالتبن ، حتى لا يوسوس الشيطان لهم . وكان فى هذا الطين والملاط ، الذى طمسوا به حوائط المعابد والمقابر ، ما حفظ صورها على طول الزمان. ولم يكن المصريون المسلمون أكثر رحمة بآثارهم من إخوانهم المسيحيين . وقد طالعنا ، فيما اخترناه من كلام المسعودى ، صورة مما حدث على مدى آباد التاريخ المصرى ، من تدمير وتحطيم ، بحثا عن الدفائن والمطالب .

وكان أهلنا ، إلى عهد قريب منا ، يضعون أيديهم على كل ما تصل إليها من قطاعات الأعمدة ، ليستعملوها حجارة رحى ، ومن لوحات تذكارية « ستيلا » ، ليبسطوها عتبات بيوت ، وعقود أبواب . وكانت بعض المعابد تتحول إلى محاجر . . . وقمائن جير . هذا إلى ما نقل من أعمدة المعابد ، لإقامة الكنائس والمساجد . ثم تلك المدن الكبرى التى هجرها الناس ليسكنوا قراهم الحقيرة ، لم تترك لينهال عليها تراب الزمان ورماله ، بل ساعد الأهلون على دفنها ، إذ كانوا يحيلونها إلى مقالب لقمامتهم ، وكأنهم يعبرون بذلك عن كرههم لتلك « الكفريات » ، وخوفهم من العفاريت وفعل الطلاسم . وإنهم لعائدون إلى تلال القمامة فى الغد القريب ، سباخين يستخرجون منها سمادا كفرياً لزراعاتهم .

وقد حرصت على وضع نصوص الأوامر العالية فى صدر هذا الفصل بسبب قرب أولها من عهد محمد على ، وكان من أشد العهود نكيرا على آثار أجدادنا . وكأنه لم تكف هذه الآثار أن تنال منها القرون والأجيال ما نالته ، بل جاء نشاط محمد على فى بناء المصانع — التى أفلست كلها — وقضى فى أقل من ربع قرن على أكثر مما محاه الفرس واليونان والمسيحيون والمسلمون والمغامرون الأجانب مجتمعين .

ويقدر إرنست رينان أن تلك المصانع . وبناء القصور . أزالت من على وجه البسيطة ما لا يقل عن عشرة معابد كبيرة .

والآثار التي نراها الآن قائمة فوق الأرض . ونجوس في رحابها وأبهائها ، لم تكن حتى القرن الماضي غير حجارة مبعثرة في الفلاة . أو أعمدة مدفونة إلى أكثر من نصفها في الرمال . وتحت تلال من القمامة ، وكانت بعض المعابد قد تحولت إلى كفور وعزب وساحات موالد وأسواق . ويكفي أن نقلب صفحات الكتب التي سجلت صور هذه الأطلال . منذ البعثة الفرنسية . لنتحسر على ما صنعت الأيام والآباد . والسلف الصالح والطالح . بآثار آبائنا وأجدادنا الأولين .

الموقف إذن هو : أطلال مدمرة مهدمة مشوهة ، مدفونة في الحمأة والرمال السافية . وكلام يختلط فيه الوصف الصادق بالخرافات والأساطير . يرد في كتب الرحالة والجغرافيين القدماء . وعلى رأسهم ذلك الصحفي الأول هيرودوتس الهاليكارناسي . وتهريف لا رأس له ولا ذنب . تقدمه الكتب العربية على أنه تاريخ مصر . و « قلم » مات وضاعت مفاتيح قراءته . وقوائم بأسماء ملوك مصريين انتظموا في أسرات . نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس . ويوليوس الأفريقي . ويوسابيوس . فيما يعرف « بالمختصرات » عن كتاب ألفه الكاهن السمنودي مانيتون بأمر بطليموس الثاني . . . ودمتم !

ومنطق هذا الكتاب يطالبني بأن أصعد في التاريخ على ضوء ما بذل العلماء الأعلام من جهود المؤمنين . للكشف عن وجه أم الحضارات وقد تغطى بنقاب إيزيس . وعليه أوحال وأدران . . . وسباخ كفري . وتصعيدي في التاريخ ، عن طريق أولئك الجهابذة ليس من السهولة كما يبدو لأول وهلة . فهناك أسباب تجعل فهمنا للتاريخ المصري عسيراً ، وما أعنيه من فهم ، ليس مجرد الإدراك العقلي لتاريخ بلادي . وإنما هو الإحساس بذلك التاريخ ، ووصل ما انقطع من الروح المصري . فإن بين حاضرنا وماضينا البعيد . هوة فكرية عميقة . لم يحدثها الفتح العربي كما يظن بعض الناس ، وإنما غار الطريق المنبسط بعد غزو الإسكندر ، وربما قبل ذلك . فإن القرون الأخيرة للأسرات كانت في صميمها قرون انحلال ، نشأ عن اختلاط المصريين بالشعوب الأجنبية اختلاطاً كبيراً ، منذ غزا الهكسوس

مصر ، فقامت قومة رجل واحد تتخلص من نير أولئك البرابرة الأسيويين ، وتكتسحهم حتى حدود بلادهم ، وإلى أبعد من حدود بلادهم ، وتؤسس إمبراطورية واسعة الأرجاء . وقد أحست بأن اطمئنانها إلى حدودها المائية والصحراوية لم يكن إلا خيالا . وهى فى حاجة ، للاحتفاظ بإمبراطوريتها ، إلى جيش محترف ، لا مجرد زراع وصناع يجندون لأداء مهمة بوليسية محدودة فى النوبة أو سينا ، ثم يعودون إلى زراعاتهم وحرفهم . وما حدث فى مصر حدث فى روما ، وهى تتحول من جمهورية مزارعين إلى إمبراطورية يساندها جيش محترف كبير . وملوك مصر يصاهرون الأسر الأجنبية . يستقبلون أمراءها غلماناً وفتياناً . ويشرفون على تربيتهم تربية مصرية . لينشأوا أعوانا لهم فى بلادهم . يحكمونها باسم مصر . ولقد انتهت إمبراطورية الرعامسة إلى ما انتهت إليه الإمبراطوريات : رخاء واسع وثراء عريض ، أجناد أجنبية . ومعابد كبرى . أغدقوا الخيرات على آلهتها الذين ناصروهم فى فتوحاتهم . فإذا الكهنة يسيطرون على الحياة العامة . وعلى الأسرة الملكية . وإذا الكاهن الأكبر . هريهور . يغتصب العرش فى مطلع الأسرة الأولى بعد العشرين. وتجىء أسرات مصرية أخرى . وأسرات إثيوبية وليبية . تعيد إلى مصر بعض مجدها الغابر . فتتوهج شعلة الحضارة زماناً . ثم تخبو نهائيًّا تحت أقدام الغزاة الفرس والمقدونيين . ولا يفيدها شيئاً أن تتمسك الأسرة اللاجيدية بمظاهر العبادة المصرية . فلم يكن هذا إلا نوعا من النصب والاحتيال السياسى . مارسه غير قليل من الفاتحين . ولا سيما أن البطالسة لم يترددوا فى استنباط عبادات إله بزرميط ، اسمه يجمع بين اسمى أوزيريس وأبيس . فهو سيرابيس [أو زير — أبيس] ، وتماثيله الباقية لنا فى متحف الإسكندرية . تظهره على صورة أقرب إلى زفس كبير البانتيون اليونانى .

وزاد الاختلاط . بل التخليط ، فى العهد الرومانى ، فلم يبق حيًّا فى نفوس الشعب المصرى سوى أسطورة الثالوث الأوزيريسى ، وهى الأسطورة التى ألف فيها بلوتارك كتابا جميلا . واضح المعالم ، لولاه لظللنا نتخبط فى فهم هذا الثالوث تخبطنا ، إلى اليوم ، فى فهم البانتيون المصرى كله ، برغم ما كتبه ويكتبه المؤرخون المحدثون من مؤلفات عظيمة ، تقرأها بعناية ، فتحسب أنك فهمت شيئاً ، وتعاود قراءتها فإذا بنا . . . يا بلدر !

وعندما تحول أسلافنا إلى المسيحية ، وحظر مرسوم الإمبراطور المسيحى ثيودوسيوس عبادة الأوثان فى أنحاء الإمبراطورية ، أخذ الشعب المصرى ، بقيادة قساوسته ورهبانه ، يهدم الأوثان ، ويلطخ صور المعابد والمقابر ، وينزل بمعاوله على كل ما يستطيع تبطيطه منها ، وتسويته بسطح الأرض ، أو هو يحولها إلى كنائس وصوامع . فهل تنتظر من أجدادنا المسلمين خيراً من هذا ؟ لم يترددوا ، هم أيضا ، فى الزحف على المعابد ، وإقامة أضرحة الأولياء فى وسطها ، أو نقل أعمدتها ، وأعمدة الكنائس ، لإعادة استعمالها فى المساجد والجوامع والمنازل .

ودخول المصريين فى المسيحية لم ينته فقط إلى فقد أسرار الكتابة الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية ، بل إلى فقد معالم التاريخ المصرى . ومن أهم معالمه تلك الديانة القديمة التى كانت عماد الحياة الفرعونية ومصدر قوتها . . . وضعفها . فإذا كانت اللغة المصرية بقيت لغة المخاطبة بين المصريين ، حتى بعد الفتح العربى بزمان طويل ، فإن كتابتها بحروف يونانية ، وامتزاجها بغير قليل من الألفاظ اليونانية ، وبخاصة ما يستعمل منها فى طقوس الكنيسة ، وفى القضاء والإدارة ، قطع ما بينها وبين اللغة القديمة قطيعة نهائية . والعجيب أنه أصبح من الخطر على المصريين ، وطلاب العلم على وجه خاص ، أن يضبطوا وفى حيازتهم برديات قديمة ، على زعم أن كل هذه الكتابات المصرية إنما تنطوى على أسرار السحر . ولقد اكتشف طلبة ذلك الزمان أن زميلا مصرياً لهم ، يدرس فى بيروت ، ومن مواليد طيبة ، يمارس التبشبشة . فذهبوا إلى منزله ، فى غيبته ، وقرروا خادمه ، حتى عرفوا أن زميلهم يخبئ لفافات بردية فى قاع صندوق يستعمله كمقعد . ولما عاد الصعيدى إلى منزله ، وتحقق من اكتشاف أمره ، خر على وجهه ، وبكى وابتهل إلى زملائه أن لا يسلموه للسلطات . ويقول ساويرس ، الذى يحكى هذه الحكاية : « ولقد أشفقنا عليه ، لأننا مسيحيون نخاف الرب » . ولم يتركوا زميلهم الشاب المصرى ، حتى أحرق أمامهم بردياته . ويورد يوحنا « فم الذهب » قصة مماثلة ، شهد وقائعها فى شبابه : كبس فيها الشرطة رجلا يخبئ برديات تحتوى على أسرار السحر ، ومع أنه تمكن من إلقائها فى النهر ، فقد قبض عليه ، وحوكم وأعدم .

التحول إلى المسيحية هو الذى قضى على مصر القديمة عقيدة ، وقلماً ، وتاريخاً

وآثارا ؛ ولم يفعل المصريون المسلمون أكثر من الإجهاز على الوثنية ومعالمها ، ثم مطاردة لغة المصريين القديمة ، حتى يجئ زمان لا يكاد رجال الإكليروس يعرفون من هذه اللغة إلا القليل ، يرددونه فى بيوت عبادتهم . وإذا كان أجدادنا الأقباط ، فى القرون الوسطى ، حاولوا الإبقاء عليها ، فلم يكن ذلك ليعيدوها لغة تخاطب ، وإنما حرصاً على الطقوس ، وحفاظاً للكتاب المقدس فى ترجمته القبطية القديمة . فهى حركة علمية ، اتخذت اللغة العربية وسيلة لتعليم اللغة القبطية ، كما يظهر من الكتب التى ألفها الأقباط لهذا الغرض من القرن السادس عشر وما بعده .

والإحساس بالتاريخ إحساساً يحرك المشاعر ، ويوقظ القومية ، لا يكون إلا على أساس استمرار التقاليد . وقد انقطعت الصلة انقطاعاً تامًّا بين المصريين ، مسيحيين ومسلمين ، وبين أسلافهم الوثنيين ، ولم تعد آثار هذا السلف تتحدث إلى نفوسهم بأكثر من الإيحاء بأنها رموز كفرية ، وكنوز مخبوءة ، تقوم على حراستها طلاسم تعمل بقوى خفية . والمصريون المسيحيون الأُلى ، يسألون عن حكاية السحر والطلاسم هذه ، بل ويسأل عنها أجدادهم الوثنيون ، عندما لم تبق من عقائدهم القديمة سوى رموزها السحرية ، وطبها الروحانى ، وطقوسها فى عبادة الحيوانات ، ولم تكن إيزيس فى قرارة أنفسهم سوى سيدة السحر ، ومستودع أسرار الآلهة .

والعجيب أننا ما زلنا إلى اليوم ، لا فى مصر وحدها ، بل فى العالم أجمع ، نعتقد ، إن قليلا أو كثيراً ، بهذا السحر ؛ وما زالت شعوذة المشعوذين من أمثال « مغربى كذاب ، يفتح الكتاب » تتحكك بالدين . فالساحر الأفاق ، وأدعياء الطب الروحانى ، مازالوا يعتمدن أولا على مظاهر « الولاية » ، سواء فى هذا المسلمون والمسيحيون ، وهم يخلطون خلطاً خبيثاً بين ما يسمونه « اللغة السريانية » ، وهى لغة الجن فى عرفهم ، وبين بعض الكلمات القدسية ، ويعتمدون على ذلك فى تعاويذهم وتمائمهم وتخليطهم . ولقد اكتشفت أخيراً أن اعتقادنا بقدرة المغاربة على السحر ، يقابله ما كان يدعيه مشعوذو الشمال الأفريقى ، وسحرة الأندلس الإسلامية ، من أنهم تعلموا السحر فى ظلال الأهرام ، وتحت آزاج البرابى والمدافن . هذا وعلامة السحرة فى أوربا كانت ، وما برحت ، بومة — لعلها ترمز إلى الصقر ! — ومومياء ، أو بعض مومياء مصرية ! ثم تأمل الاعتقاد بلعنة الفراعنة ،

تلك الخرافة الشائعة بين الأنجلوسكسونيين . ألا ترى فيها أثراً مما لابس الديانة المصرية القديمة من ضروب السحر ؟

ولا أنسى . فى أول عهد إقامتى بأوربا . أننى دعيت إلى جلسة بين قوم مثقفين — وإن كانت غالبيتهم من السيدات ذوات اللوثة والتخليط — فإذا المحاضر يرقى المنصة . فتطفأ الأنوار . إلا ضوء مسرجة زرقاء . . ويدلى إلينا الحبر الفهامة بأسرار . . . الكوتشينة « التارو » . وعلاقتها بأبعاد الهرم الأكبر . واتجاهات زواياه ! وإلى عهد قريب منا . كانت تعيش فى الأقصر جماعة من المشعوذين الأجانب . يقيسون أبعاد معبد الأقصر . ثم يفصّلونها على جسم الإنسان . جنيناً . فطفلا . فرجلا ! وقد أهدانى أحدهم مقالا له فى هذا الهذيان . فأنعمت به على ضيف أجنبى « مهفوف » . وإذا بالرجل يطير بالمقال . حقيقة ومجازاً . بعد أن دار أمامى دورة . وقفز فى الهواء كما تقفز الهررة . فقد كان حضرته أستاذاً كبيراً من أساتذة الباليه !

وإذا فتحنا كتاباً من كتب السحر وقد عنيت مصلحة الآثار المصرية بنشر أحدها فى سلسلة بحوثها — وجدنا فصوله تجمع بين الوصفات و « الأعمال » التى تشفى العلل . وتذيب القلوب صبابة . وتنفع لمقابلة الحكام . وكانت النسوة . فى الربع الأول من هذا القرن . يقمن بطقوس مخصوصة حول موميات الفراعنة بالمتحف المصرى . علاجاً للعقم ، وتسمين ذلك : « راحت يا ختى تشق ». ناهيك بما فى تلك الكتب من التعازيم والخطط المعقدة . والبحث عن قلب هدهد يتيم . ودفن بيضة دجاجة سوداء . أربعين يوماً . بين أربعة مفارق . . . وذبح الكتكوت الذى يخرج منها . قبل أن يصيح . . . والكتابة بدمه فى كاغد . ودخول القبور المهجورة بظهرك وأنت تبرجم باللاوندى . حتى تنتهى إلى الرصد . الذى يفتح لك مغاليق المطالب والدفائن !

هذه هى مصر القديمة التى نبحث عبثا عن روحها . ونحاول أن نتصل بحقائقها الحية ، فيقصينا عنها شىء غير مفهوم . ربما كان سببه أن التاريخ الذى يكتبه علماء المصريات ما زال . فى أركان كثيرة منه . شذريًّا مفككاً .

ولم يكن الأوربيون . الذين وفدوا على مصر فى القرون الوسطى ، خيراً من

الزائرين العرب أو أقرب فهماً للتاريخ المصرى . هذا إلى أن مرورهم بمصر لم يكن إلا استكمالا لارتياد الأراضى المقدسة ، فكانوا يعنون ، أول ما يعنون ، بآثار يسوع الطفل مع السيدة العذراء وخطيبها يوسف النجار ، عند ما لجأوا إلى مصر هاربين من أرض الجليل، إنقاذاً للطفل من مذبحة الملك هيرودس. فيتبرك الحجاج بشجرة العذراء فى المطرية ، ويشربون من نبع البلسان، وينتقلون إلى قصر الشمع ، حيث يقودهم شماس كنيسة أبى سرجة إلى كهف تحت أرض الكنيسة، يقال إن العائلة المقدسة أقامت فيه بعض الوقت . وحتى الأهرام لم تكن عند أولئك الرحالة سوى أهراء الغلال ، ومخازن التموين ، التى أقامها يوسف الصديق لمواجهة السنين العجاف .

ومدينة طيبة العظمى ، ذات المائة باب فى قول هوميروس ، لم يكن أحد يعرف لها جرة ! حتى لقد حسب الرحالة الأوربيون الأوائل موضعها مدينة أنصنا [أنطنوس وهى الشيخ عبادة حالا] ، وذلك لأن دقلديانوس كان قد جعل من هذه المدينة عاصمة الطيبائيدة. وأول من بلغ مكان طيبة الحقيقى اثنان من الرهبان الكابوشين ، صفا ما كان يظهر من الكرنك فى منتصف القرن السابع عشر ، دون أن يدركا أنهما أمام أعظم المعابد المصرية ، فى أكبر عواصم العالم القديم . ولم يتحقق من ذلك سوى الأب سيكار ، فى أواخر ذلك القرن .

ثم يزور مصر الرحالة بوكوك ونوردن ونيبور، فساڤارى وڤولنيه ؛ ويبدأ عهد لصوص الآثار من الأوربيين ، وهواة الموميات والتحف ؛ وكانت مصدر رزق كبير لهم ، لحرص ملوك ذلك الزمان وأمرائه على اقتناء « أنتيكات » ، تضم إلى مجموعاتهم الخاصة التى كانت تعرف بـ « غرف التحف والعجائب » . وكانت الأصل لكثير من المتاحف الأوربية الكبرى .

تلك كانت مصر القديمة عند المصريين ، والرحالة الشرقيين والغربيين ؛ حتى جاءت الحملة الفرنسية ، وفى ركابها مجموعة ممتازة من العلماء والفنانين ، جاءوا ليستكشفوا ويدرسوا ويسجلوا . ومع أن « المعهد العلمى المصرى » كان قد أنشئ بمجرد بلوغ الفرنسيين القاهرة ، فإن لجنتى الآثار المصرية لم تؤلفا إلا بعد أن عاد البارون ڤيڤيان دينون من رحلة الصعيد ، وكان قد صحب تجريدة الجنرال ديزيه ، التى أتمت الاستيلاء على مصر ببلوغها أسوان . ودينون رسام بارع بريشته وقلمه ،

يرسم كل ما يمر به من أطلال ، ويدون مذكرات رحلته . وبعد عودته إلى القاهرة ، وحديثه مع الجنرال بونابرت ، وإطلاعه إياه على رسوماته ، أمر كبير الحملة بإنشاء لجنتين بالمعهد العلمي المصرى ، مهمتهما « قياس جميع آثار الصعيد ، ورسمها رسماً موضوعياً صحيحاً ، تراعى فيه الدقة العلمية » . وطبع دينون مذكرات رحلته مع رسومها بباريس سنة ١٨٠٢ ، فذاعت شهرتها عاجلا ، وتعددت طبعاتها وترجماتها . ومن هنا تبدأ « الإجبتولوجيا » ، تبدأ علماً موضوعياً ، يقيس ويسجل ويقيد ويرسم ، دون أن يحاول تفسيراً . وأنى له التفسير ، وذلك القلم البربائى — كما يسميه أحمد كمال فى كتاب « العقد الثمين » — لا سبيل إلى فض أغلاقه ؟

ولن نقفز هنا إلى خبر العثور على حجر رشيد ، فإن الهيروغليفية لم تنتظر هذه اللقيا لتجد من يبحث عن أسرارها . بل إن موضوعها قائم منذ عهد الرينسانس فى إيطاليا . وقد وجد الناس فى روما بعض مسلات أعادوا إقامتها . والمسلة أثر غاية فى التحدى ، فهى لوح محفوظ ، عليه كتابات تستثير فيك رغبة ملحة نحو تفسيرها . وكان المؤرخ أميانوس مارسللينوس ، فى القرن الرابع الميلادى ، قد دون فى تاريخه ترجمة لاتينية لنص منقوش على إحدى تلك المسلات ، نقلها عن واحد من الكهنة المصريين. ولكن الباحثين أيام الرينسانس ضلوا بين نصوص المسلات ، فأى نص ذاك الذى دوّن ترجمته أميانوس ؟ ثم وقع لهم كتاب باللغة اليونانية ، لمصرى اسمه هورابللون ، عن الكتابة الهيروغليفية ، يتضح منه أن أسرارها استغلقت عليه . ونشر هذا الكتاب إبان القرن السادس عشر فى طبعات كثيرة . وحاول الأب اليسوعى أثناسيوس كيرخر ، فى القرن السابع عشر ، حل اللغز البربائى ، وحسب أنه توصل إلى الحل عندما قال بأن الهيروغليفية كتابة دينية غيب فيها المصريون أسرار حكمتهم . وقد بلغ القس العلامة من فهمه لهذه الحكمة ، وفكه لتلك الأحاجى ، أن جاءت ترجمته لكلمة « أبريبيس » — وهو اسم علم لأحد ملوك الأسرات المتأخرة — على الوجه الآتى : « نعماء الإله أوزيريس ، تفيئها على البشر طقوس مقدسة ، يقوم بها نفر من الجن فتحل بركة النيل » . . . أقل من هذا ونفق الحمار !

وحاول من بعده القس الإنجليزى واربرتون ، فى منتصف القرن الثامن عشر ، محاولات فاشلة . وظن دى جين ، والأب نيدام ، أن الهيروغليفية ضرب من الكتابة

الصينية ، كما ذهب آخرون إلى أنها مشتقة من السريانية أو العبرانية . واستطاع الدانماركي زويجا ـ وكان عارفاً باللغة القبطية ـ التحقق من أن الخانات البيضاوية المعروفة بالخراطيش ، تحتوى على أسماء ملوك ، وأن للعلامات الهيروغليفية مقابلا لفظياً ، أى أنها حروف صوتية (فونيتيك) . ونقل كارستن نقوشاً بربائية نقشاً أقرب إلى الصحة من نقل سابقيه .

وفى آخر القرن الثامن عشر ، وبينما جنود بونابرت يقيمون تحصينات على بقايا قلعة مصرية من قلاع القرون الوسطى ، إلى الشمال الغربى من رشيد ، عند قرية البرج ، على الضفة الغربية للنيل ، فى مواجهة برج مغيزل على الضفة الشرقية ، عثروا على حجر أسود ، عليه كتابات بلغات ثلاث ، إحداها الهيروغليفية ، وآخرها اليونانية ، وفى وسطهما كتابة عرفت فيما بعد أنها ديموطيقية. وأبلغ الضابط المهندس بيير بوشار ، المشرف على الأعمال ، خبر العثور على الحجر إلى البعثة العلمية بالقاهرة. وبقية القصة معروفة ، ولكنها جديرة بأن تنشر تفصيلا فى كتاب عربى يترجم لحياة الرجل الفذ فرانسواشامبوليون .

وكنت أحسب ـ كما يحسب الناس فيما أظن ـ أن مجرد العثور على نص هيروغليفى وديموطيقى ، يقابلان ترجمة إغريقية لمرسوم بطليموس إبيفانوس، كاف لفتح مغاليق الكتابة المصرية القديمة ! والواقع أن النص الإغريقى ، على حجر رشيد ، يحتوى على أربعة وخمسين سطراً ، والنص الديموطيقى على اثنين وثلاثين سطراً ، أما النص الهيروغليفى فلم يبق منه سوى أربعة عشر سطراً ، انشطف هام فى الحجر . واللغة ليست مجرد ألفاظ متراصة ، بل هى كلمات وقواعد وأجرومية . ثم إن الكلمات ، فى لغاتنا ، مركبة من حروف ، فهل كانت الهيروغليفية حروفاً منطوقة ـ فونيتيك ـ أم أنها رموز ذات معان ، أى إيديوجرامات ؟

كان على شامبوليون أن يكتشف أولا أن الهيروغليفية فى أساسها كانت رموزاً، وتحولت فى تطورها إلى الانتفاع ببعض منطوق هذه الرموز، لتستعمل حروفاً أو مجموعة حروف . كأن نرسم صورة رجل يرمى بالجلة ، فنفهم منطوقها ومعناها : « رمى » ، ثم نرسم إلى جانب ذلك صورة خروف مذبوح ، ومعلق ، فنفهم منطوقه ومعناه « ضأن » ، ونخرج من هذين الرمزين ، بعد لأى ، إلى أن المعنى كلمة

لا علاقة لها بالضأن ولا بالرى ، فماذا تكون ؟ رمى ـ ضأن = رمى ضان = رمضان ، مثلا . ثم تطورت الهيروغليفية بعد هذا إلى حروف صوتية بعينها . ولكن الكتابة احتفظت مع ذلك بكل أدوار تطورها ، من الرموز إلى الانتفاع بمخارج أصوات الكلمات كمقاطع لكلمات أخرى [رمى ـ ضان = رمضان] إلى حروف بعينها .

وقبل شامبوليون ، كان السويدى « آكربلاد » وقد وفق إلى تبين بعض حروف الديموطيقية ، كما كان الإنجليزى « يونج » ركز همه فى تفسير الحروف أو الرموز المكتوبة داخل الخانات [الخراطيش] الملكية . وبما أن نص حجر رشيد هو مرسوم لأحد البطالسة ، فقد تابع يونج بحثه أربع سنوات ، يتخبط بين أسماء الأسرة اللاجيدية ، حتى أصاب فى قراءة بعض اسم « بطليموس » ، وبعض اسم « برنيقة » . وبذلك استطاع الكشف عن عدد من الحروف .

ولم يكن شامبوليون مجرد هاو لحل المسابقات الصحفية من نوع الكلمات المتعارضة وما إليها ، بل كان منذ حداثته كلفاً بدراسة اللغات القديمة شرقية وغربية . وقد حذق اللغة القبطية ، كما توصل إلى إدراك أن القلم المصرى القديم يكتب على ثلاثة أشكال . الخط الهيروغليفى والهيراطيقى والديموطيقى ؛ والأخيران يختصران الخط الهيروغليفى ، كما يختصر خط الثلث أو النسخ ، بخط الرقعة ، وكما تختصر الحروف الكيرللوسية الروسية ، والغوطية الألمانية ، عندما تكتب باليد سريعاً .

استغرق شامبوليون فى دراسة نص حجر رشيد ، وغيره من النصوص ، نحو عشرين سنة ، باحثاً منقباً ، على أساس من معرفته باللغة القبطية أولا ، وفى قدرة عجيبة على التركيز الذهنى . وما أكثر ما تردد وتراجع . فهو يؤكد فى عام ١٨١٣ أن الهيروغليفية ليست رموزاً تعبر عن فكرة ، بل حروفاً هجائية ؛ ثم يتنكر لهذه الفكرة سنة ١٨١٨ ، ليعود إليها مرة أخرى ، فيما بعد . إنه يبدأ بدراسة نص ديموطيقى ؛ فى بردية عليها اسم « كليوباترة » ، ويحاول أن يركب هذا الاسم ـ من عندياته ـ بحروف هيروغليفية . ثم يهمل ذلك حتى يجىء عام ١٨٢٢ ، حين يعثر على صورة لنص هيروغليفى منقوش على مسلة من جزيرة فيليه . يطالع فيه اسم كليوباترة . . . كما كان قد كتبه من قبل ، ومن عندياته !

محاولات مرهقة . استغرقت الأيام والليالى ، والأشهر والأعوام : حتى يجىء

صباح ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٢ ، وهو يطالع نقوشاً هيروغليفية ، نسخها ، وأرسلها إليه من مصر ، مهندس معماري من معارفه . وكانت تلك النقوش تتميز بخانات [خرطوشات] عدّة . فتأهب شامبوليون لقراءتها ، وقد جمع أمامه خمسة وعشرين حرفاً هيروغليفيًّا ، كان قد توصل إليها بعد قراءة أسماء بطليموس ، وكليوباترة ، وإسكندر ، وغيرها من أسماء البطالسة ، وأمبراطرة الرومان .

في إحدى خانات النص الذي وصله حديثاً ، لاحظ علامة الشمس ، وتحتها ثلاث علامات . اثنتان منهما مكررتان ، هما حرف س والأولى حرف م وقرأها « مسس » ، وبقيت علامة الشمس . وإذا به يدرك فجأة أن « رع » هو اسم الشمس — كما عرف من كتابات الأغارقة والرومان — فتتفجر في ذهنه انفجاراً كلمة « رع — مسس » ! وفي خانة أخرى ، يرى نصفها الأسفل مشابهاً لنصف خانة « رع — مسس » ، وفي نصفها الأول صورة طائر ، يقف على قاعدة . هو الطائر المصري أبو منجل ، وهو عند المصريين رمز إلههم « تحوت » . فيقرأ الاسم الجديد : « تحوت — مسس » أي تحوتمس !

يجمع شامبوليون أوراقه ، ويجري إلى أخيه الأكبر ، وكان يعمل في الأكاديمية الفرنسية ، سكرتيراً خاصًّا للعلامة « داسييه » . يدخل على أخيه منفعلا ، ويلقي على مكتبه بمجموعة أوراقه ، وهو يصيح « أدركتها » ، وكأنه يردد كلمة أرشميدس : « أوريكا » ، ثم يقع مغشيًّا عليه ، لفرط حماسه وإجهاده ، وعناء السنوات التي عاناها في البحث والتنقيب والمقارنات ، بالرغم من تضعضع صحته .

وفي يوم ١٩ سبتمبر ، بعد خمسة أيام قضاها مستغرقاً في سبات عميق ، يفتح عينيه ؛ وما يكاد يقوم من فراشه ، حتى يشرع في تحضير مذكرته المشهورة ، التي بدأ طبعها بعد ذلك بأيام ، وقدمها إلى المجمع الفرنسي ، بعنوان « خطاب إلى السيد داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية النقوش والآداب ، خاصًّا بأحرف الهجاء الهيروغليفية ، ذات المخارج الصوتية ، التي استعملها المصريون لينقشوا على آثارهم أسماء الملوك اليونانيين والرومانيين ، وألقابهم » .

وفي آخر عام ١٨٢٢ ، ينتهي شامبوليون إلى التعرف على أسماء عدة ملوك من الأسر الفرعونية : أخوريس ، ونفيريتس ، وبساماتيك ، وشيشونق ، وغيرهم .

وقد أدرك أخيراً أن الكتابة المصرية تتألف من أحرف ، ومن رموز ، وعرف أن قواعد النحو القبطى ، هى قواعد نحو اللغة المصرية القديمة ، وشرع فى ترجمة نصوص كاملة ، ظهرت سنة ١٨٢٤ فى كتابه المسمى : « الطريقة الهيروغليفية عند قدماء المصريين » .

ويسافر إلى إيطاليا ، ليدرس نصوص متحف تورينو . ثم يتاح له أن يزور مصر ، حيث قضى سنتى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ ، على رأس بعثة توسكانية يقص علينا طبيبها كيف عثر به ذات مرة مغمى عليه ، فى مقبرة من مدافن طيبة . وحوله اللوحات التى كان ينسخ عليها النصوص .

ويعود إلى فرنسا ، فينتخب عضواً فى أكاديمية النقوش والآداب ، وينشأ له بالكوليج دى فرانس أول كرسى لعلم المصريات . ولكن حاجته إلى الراحة التامة تضطره إلى الاعتزال فى بلدته فيجاك ، وهناك يضع آخر كتبه فى قواعد اللغة المصرية القديمة ، ويقول عنه بحق : « إنه بطاقة زيارتى ، أتركها للأجيال القادمة » .

ثم يعود إلى باريس ، محطم القوى ، ليشرع فى دراسة مواد بعثته إلى مصر ، ويصاب بالفالج صباح ١٣ يناير سنة ١٨٣٢ ، ويقبض فى ٤ مارس من العام نفسه .

فالأمر ، كما ترى ، ليس باليسر الذى كنت تتصوره . وقد نسيت أن أحيطك علماً بأن الكتابة المصرية ، كالكتابات السامية ، لا تعنى كثيراً بحروف الحركة ، وهى صعوبة تضاف إلى سائر الصعوبات التى يعانيها كل من يحاولون مطالعة هذه اللغة .

يقول العلامة إدوارد ماير ، مؤبناً شامبوليون :

« كان عبقريًّا موهوباً ، ما فى ذلك من شك ، ولكن عبقريته كانت تسندها معرفة عميقة ، وتنظيم لمادة دراساته . ولذلك استطاع شامبوليون الغوص فى معانى نصوص البرديات والنقوش ، فى صميمها على أقل تقدير . ويندر أن نجد فى تاريخ العلوم أمثولة كهذه. فما إن يدركه الموت ، فى شرخ عمره ، حتى يكون قد كشف ، فى وضوح وصحة ، لا عن أسس اللغة فحسب ، بل عن تاريخ مصر القديمة » .

ولم تنشر أجروميته للغة المصرية القديمة إلا عام ١٨٣٦ . أما قاموسه فقد خرج سنة ١٨٤١ . وبعد ذلك بوقت نشر كتابه عن « آثار مصر والنوبة » .

وبهذا يرتفع بناء ثان على ذلك الطريق الطويل الموصل إلى اكتشاف مصر القديمة . أما البناء الأول فكان مجلدات البعثة العلمية المصرية . وسيعمر الطريق بأعمال الألمان ريشارد لبسيوس وبروكش ودوميخن وإرمان وماير وزيته ، والفرنسيين ماربيت وإيمانويل دى روجيه وشاباس وماسبيرو ، والإيطالى روزلليني ، والأميركى برستيد ، والروسى جولينشيف . ويمكن أن تضيف إلى القائمة أسماء من أغلب البلاد الحية . لأن الأمم المتحضرة تفخر أن يسجل اسم ابن من أبنائها فى لوحة الشرف لمن عملوا ويعملون على اكتشاف « أمنا الكبرى مصر » .

ومن بشائر النهضة المصرية — وهى عندى من أهمها وأعمقها معنى — أن تظهر أسماء مصرية ، ما زالت قلة ، ولكنها تصل حاضرنا بماضينا القريب جدًّا حين ظهر اسم الرائد الأثرى أحمد كمال ، وبماضينا البعيد جدًّا ، حتى عهود ما قبل الأسرات . فلنحفظ فى قلوبنا ، ولنكرم بألسنتنا ، أسماء مصطفى عامر وسليم حسن وأحمد فخرى وبدوى (أحمد واسكندر) وجرجس متى وعباس بيومى وعبد المنعم أبى بكر ومكرم الله وأنور شكرى ولبيب حبشى وزكريا غنيم وزكى سعد وسامى جبرة وباهور لبيب وشارل بشاتلى وغيرهم . والتاريخ كفيل بأن يوسع لوحة الشرف المصرية هذه ، ويصحح أخطاءها ، ويغفر لى قصورى .

مرمدة بني سلامة

إن من البيان لسحراً . وقد استطاع أساتذتى فى المدرسة الابتدائية أن يجمعوا فى جملة واحدة : تاريخ مصر الأسطورى ، وتاريخ مصر فيما قبل التاريخ . وتاريخ الأسرات . قالوا : « أول ملوك مصر كان مينا أو مصرايم ، وهو الذى حول مجرى النيل ، ووحد الوجه البحرى والوجه القبلى » . وهكذا عرفت قبل أن أبلغ العاشرة أن مصر من مصرايم — التاريخ الأسطورى — وأن النيل تحول عن مجراه — تاريخ ما قبل التاريخ — وأن مينا وحد الإقليمين — العصر التاريخى .

أما أن النيل غير مجراه ، فهى الحقيقة الجيولوجية . لا يأتيها الباطل من أى مكان تريد . وكان النيل قبل أن يستقر فى مجراه الحالى نهراً كبقية الأنهار ، لايحيا الناس بفيضانه ، ولايموتون بتحاريقه . لأن شمال أفريقيا كله ، والصحراء الكبرى ، كانت مناطق أمطار غزيرة ، أشبه بالأحراج الاستوائية ، ترتع فيها الظباء ، والزراف يأكل من أعالى الأشجار ، وحمر تبرطع ، وفيلة تهش بآذانها وتلوى بخراطيمها ، وثيران ترعى الكلأ وتخور ، وتفترس هذه وتلك آساد وذئاب وضباع . وكان النيل يجرى هنا وهناك حسب التساهيل ، ويغطى جميع منخفضات الوادى ، فكانت كل الفيوم ، ومناطق الواحات ، بحيرات واسعة ، وكان العشب يغطى سطح الأرض ، وأشجار سامقة معرشة تلقى ظلالها الوارفة على العشب ، والماء يفيض من الأرض ، وينهمر من السماء مدراراً . والإنسان القديم كان يعيش فى تلك الآجام لم يكن نحن ، بل كان مخلوقاً بدائياً يعرف بالإنسان النياندرتالى . ولم نأت نحن — « هوموسابينس » . الإنسان المدرك العارف — إلا فيما بعد . فى أواخر العصر الحجرى القديم . أو ما يعرف بالعصر الحجرى الأعلى .

ثم حل عهد الجفاف . فكفكفت السموات مدرارها . وقلنا يا سماء غيضى . ويا أرض أقلعى . وهبط مستوى النيل ، ووقف جريان الماء فى الوديان . فتحولت أخاديد فى الصحراء ، ونقصت مساحات البحيرات ، واختفى أكثرها . وبهبوط مستوى النيل ، أخذ يهدأ ويرزن ، ويعنى بحفر مجرى دائم فى أرض مصر الجيرية ،

لا دخل فى هذا لمينا ولا لمصرايم .

والناس الهمج ، والأوابد آكلات اللحوم ، والمواشى آكلات العشب ، أخذت تتجمع حيث الماء والزرع . وعرف الإنسان الصياد القناص كيف يبقى على بعض صيده حيًّا ، لأن القنص لم يعد سهلا ميسراً كذى قبل ؛ وكان هذا أول باعث له على التفكير باستئلاف الحيوان ، ولعله أدرك معنى هذا ، فيما يختص بالنبات ، فانتهى إلى محاكاة الطبيعة برى الأرض وبذر البذور . وأصبحت حياة السكان الأفريقيين الرحل الذين نزحوا إلى ضفاف النهر المهذب مرتبطة بحركة المياه فى النهر : ارتفاعاً وهبوطاً .

وما أرجوه لك — إذا حرصت يوما على مطالعة التاريخ المصرى على طوله — هو أن لا تكرر خطأى فتهمل ما أهمله التاريخ : قسمى ما قبل التاريخ . على أن لا ترهق ذهنك بأرقام الآلاف ومئات الآلاف من السنين التى يذكرها أهل التخصص تقديراً لبدء الإنسان على وجه الأرض . وليس مهمًّا أن تعرف — إذا كنت تجهل — أن الإنسان ظهر فى الحقبة الجيولوجية الرباعية .

ولا تحاول أن تتعرف على تاريخ ما قبل التاريخ فى المتاحف . كما حاولت أنا ، لأنك ستقف أمام حصباء متراصة ، من الصوان أو الظران والشيست . وغير ذلك من أنواع الزلط . تراه مفلوطاً مشظباً ، يقول لك العلماء بأنه أسلحة الإنسان الأول والإنسان الثانى : وستمر بأصناف من الأوانى لم تسوها يد الفخرانى على دولاب ، مزينة برسوم هندسية ساذجة ، وبرسوم بعض حيوانات تبدو وكأنها تبرطع فى الهواء بقوائم كخيوط غزل البنات .

أقول لا تحاول ، لأن صناعة الإنسان فى بداية مغامراته العجيبة تحتاج إلى مران طويل . وحس تاريخى خاص ، وخيال كريم . حتى يمكنك أن تطالع ما وراءها من معان . أو تشعر بما تحتويه من فن .

وكلما رأيت أرقام السنين . مر عليها عاجلا . فليس ثمة من يؤكد لك صحتها أو يحلف لك على دقتها : إن هى إلا ركيزات ، أشبه بعلامات الطريق . لا غنى عنها لأهل الاختصاص ، وهم يحاولون رسم التطور صورة إثر صورة ، كما فى الفيلم السينماتوغرافى .

إنما يجدر بك أن تعرف أسماء أمكنة بعينها منتشرة على جوانب واديك ، لما أهميتها فى تلمس طريق الحضارة ومسالك التاريخ الطويل الذى عاشه أسلافك أسلافنا منذ فجر الإنسان . وهى أسماء لا يصح أن تبقى غريبة عليك ، ومتاحف العالم أجمع تحتفظ بأسمائها ، وبغير قليل من آثارها . ستسمع بحضارة البدارى وديمة وكوم أوشيم والفيوم ونقادة والعمرة وجرزة ووادى حوف والمعادى وحضارة الواحات الداخلة والخارجة .

يكفى أن تعلم أن حضارة البدارى قامت فى نحو الألف الخامسة قبل الميلاد ، وأن حضارة العمرة وجرزة ظهرت فيما بين منتصف الألف الخامسة حتى الألف الرابعة قبل الميلاد .

حضارات حديثة العهد بالنسبة لما يعرف بالعصر الحجرى القديم ، وهو سابق عليها ببضع مئات من آلاف السنين ، حضارات متأخرة حتى بالنسبة للمراحل الأخيرة من ذلك العصر الحجرى القديم التى كانت ، منذ نحو مائة ألف سنة قبل الميلاد ، متأخرة بالنسبة للعصر الحجرى الوسيط ، وكان فيما بين الألف العاشرة والألف الثامنة .

وأهم من كل ذلك أن تعلم أن المصرى ، من أول العصر الحجرى الوسيط ، يتجه اتجاهاً حضارياً مميزاً تختص به مصر ، لا يشبه فى شىء حضارة فلسطين أقرب جيرانه . فتطور الحضارة المصرية ، منذ العصر الحجرى الوسيط ، استقل بوسائله نتيجة لعزلة مصر ، الجزيرة الخضراء ، أو الخط الطويل الزمردى وسط أقيانوس من الصحراء ، وبحرين من المياه الزرقاء ، وجبال إلى الشرق ، وهضاب إلى الغرب . وذلك بعد ما أصاب المنطقة من تغير فى مناخها ، وكانت من قبل متصلة بالشمال الإفريقى كله ، تشبه فى طبيعتها أعالى السودان كما هى حالا . انعزلت مصر عن جيرانها ، وإن بقى لها ، عن طريق النيل ، اتصال ببلاد النوبة وما فوق أرض النوبة .

وأحسبك تعرف أن الجنس المصرى ما يزال مصدر نقاش لا ينتهى ، وليس فيه عند العلماء قولان ، بل أربعة أقوال . فالمصريون جاءوا من الشمال والجنوب ، وجاءوا من الشرق والغرب ، وهم خليط سامى حامى قارى ليبى حبشى عربى ، يشاركون

فى أصولهم شعوب جنوب البحر الأبيض ، وشعوب السودان والحبشة ، وشعوب غربى آسيا . ويتألف ، من كل تلك الأصول ، ذلك الجنس الواحد الباقى على صفحات الدهر حتى اليوم . وإذا كان أمر هذا الجنس المصرى استعصى على العلماء ، فإنهم على الأقل يؤكدون لنا شيئاً أهم لدينا من كل تخليطاتهم ، وهو أن المصرى الذى انعزل فى واديه الخصب وسط الصحراء والهضاب والجبال والبحار ، احتفظ بطابعه الإتنوغرافى ، غير مشوب فى أغلبه ، إلى يومنا هذا . فإن بضع مئات من الشعوب التى اعتدت على مصر ، أو استقرت فيها وعاشرت أهلها واختلطت بهم ، لا يمكن أن تكون أكثر من قطرات ماء فى بحر خضم من بشرية مصرية أصيلة .

لعلك تعبت الآن من كل هذا السرد . لا عليك إلا أن تنسى أمره ، بشرط أن تعيرنى انتباهك إلى ما يحدث فيما تلى ذلك من عصور ، وأولها العصر الحجرى الحديث « النيوليتيكى » ، والعصر الذى يليه ويعرف باسم « الإنيوليتيكى » ، وآخره يعرف بعهد ما قبل الأسرات . لأن فهم هذين العصرين أساسى لإدراك نشأة الحضارة الفرعونية ، ولاسيما أن هناك رأياً يزعم بأن حضارة الأسرات لم تخرج عن كونها تفاعلا وتطوراً نهائيًّا للنيوليتيكى ، لم يبلغه ناس آخرون فى مكان آخر ، أو كما قال كورت لانجه : « مصر القديمة ، حتى نهاية حياتها الفرعونية ، ظلت بنت العصر الحجرى . وبقاؤها فى داخل هذه التخوم الحضارية مصدر قوتها وسيطرتها وسحرها . وإذا فهمنا ذلك وجدنا حلولا لكل تلك الأحاجى التى تطرحها علينا مصر بلسان أبى هولها ، وهى الألغاز التى أثارت إعجاب الإغريق والرومان ، بل ما فتئت تبعث على التأمل إلى يومنا هذا . »

كان مؤرخو الحضارات ، إلى عهد قريب ، يلوكون خرافة اسمها « معجزة الحضارة » ، فيحدثونك عن المعجزة الإغريقية ، وبالتالى عن المعجزة الفرعونية . ولكن العلم لا يميل إلى إدراج المعجزات ضمن عناصر تفكيره ؛ فلما انحاز المؤرخون إلى مذهب التطور ، لم يعودوا يصدقون أن يقفز المصرى من مرحلة الأسلحة الظران ، والأوانى الفخار من غير دولاب ، وصنع السلال « البقوطى » ، ودفن موتاه فى حفرة سطحية ، أن يقفز من هذه البداوة إلى حضارة الأسرات الأولى .

استقرت الحياة فى وادى النيل محدودة محصورة فيما يحققه هذا الوادى من

ممكنات . وكان النيل قد غطى مجاريه القديمة بطبقات من الطمى ، ولم يعد المصرى يكتفى بصيد أكله وقنصه ، والتبلغ بما تنبت الأرض ؛ بل علم نفسه كيف يزرع ويقلع ، وكيف يجنى ويخزن ، واستألف من حيوان القنص ما استطاع أن يحافظ عليه حياً ، ليتغذى به عند الحاجة ، وما رأى فيه قوة على الشد والحمل ، أو معونة على الصيد والقنص فى طاعة وألفة . وحياة الاستقرار اقتضت بناء المساكن ؛ وادخار الغذاء قضى بصنع السلال والأوانى . واستعاض عن جلد الحيوان فى لباسه بما فضله عليه من ألياف النبات ينسج منها كساء وغطاء ؛ والاستقرار جعله يعنى بتنظيم معاشه ومعاش أسرته ، وزينة نفسه وأهله ، ثم التفكير بيوم يفارق فيه هذه الدنيا إلى عالم آخر .

كان العصر الحجرى الحديث فى مصر سابقاً بزمان سحيق على حضارة العصر الحجرى الحديث فى أوربا ؛ ومعنى ذلك أن أعظم خطوة من خطوات تطور الإنسانية حدثت غالباً فى وادى النيل الأدنى قبل أى مكان آخر . ولا يمكن الكشف عن أدوار هذا التطور ، لأنها اختفت تحت رواسب النيل ، إلا ما بقى منها عند أطراف الوادى ، وفوق الهضاب المشرفة على مجرى النيل

وأهم أثر لتلك الحقبة الحضارية ، كشف عنه يونكر إلى الشمال الغربى من القاهرة ، على بعد بضعة كيلومترات ، فيما يعرف اليوم باسم مرمدة بنى سلامة ؛ وكشف عنه أمين العمرى عند رأس وادى حوف إلى الشمال من حلوان ، عند موضع مصب النيل فى البحر الأبيض المتوسط ، قبل أن تتكون الدلتا ، وكشف عنه آخرون فى ديرتاسا بالصعيد ، ووادى الشيخ قرب مغاغة ، وفى إقليم الفيوم والواحات الخارجة والبحرية .

مرمدة بنى سلامة توضح مسكن المصرى الأول وطريقة بنائه . وكيف حرص على تنظيم منازله على جانبى طريق مستقيم يخترق المحلة . والآلات المشظاة التى وجدت بالفيوم بديع صنعها ، تحرص متاحف العالم المختصة على اقتناء نماذج منها .

ولا يعرف على وجه اليقين أية حضارة سبقت غيرها فى البقاع التى أشرنا إليها . وقد تكون حضارة العمرى بوادى حوف أقدم من حضارة مرمدة بنى سلامة والفيوم . وإنما الغالب أن الوجه البحرى سابق فى حضارته على الوجه القبلى ، لأن حضارة

ديرتاسا ووادى الشيخ تعتبر خاتمة لمرحلة الحقبة النيوليتيكية وتقدم لحضارة العصر الإنيوليتيكى ، أى حضارة ما قبل الأسرات .

وكلما اقتربنا عبر آلاف السنين من عهد الأسرات تجلت آيات التطور . فالنحاس يظهر بعد نهاية العصر الحجرى الحديث ، والقرى والمدن تنشأ على جانبى الوادى ، ويبدأ اتصال مصر بجيرانها . وأهم من كل هذا ظهور الحادث الجلل فى تاريخ البشر : وهو توصل الإنسان إلى رسم رموز يعبر بها عما يجول بخاطره ، أو ينطق به لسانه . وما يعنى به فى تلك الخطوات الحضارية الأولى ، هو أن يسجل ويرصد ويحصى ظواهر ذات خطر فى حياته الزراعية . وإذا حدثك المؤرخون عن أول تقويم عرفه العالم ، والغالب أن يكون التقويم المصرى ، فلا تحسبن أنه جاء نتيجة حساب فلسفى ورياضة عقلية — والمصرى لم تكن له عناية بالبحث العلمى البحت ، ولا بالتأملات الفلسفية لذاتها — إنما وضع التقويم بناء على ملاحظات للأفلاك والفصول وعلاقتها بالدورة الزراعية ، وصلة هذه بمواقيت الفيضان ، وهى على درجة عظيمة من الانتظام . وتلك ملاحظات لا بد أن تكون استمرت مئات السنين تسجل وترصد ، حتى اطمأن المصرى إلى إمكانه تحديد سنته بعدد من الأيام جمعها فى أشهر ، كل شهر منها ثلاثون يوماً . وإذا السنة لا تنتظم مع حركة الفصول والأفلاك ، على حساب اثنى عشر شهراً ، وإلا جاءت سنة شبه قمرية ، يتقلقل فيها ميعاد البذر والرى والحصاد . لذلك كان المصرى فى تلك العصور السحيقة يضيف خمسة ايام — أيام النسىء — إلى سنته ذات الستين والثلاثمائة يوم . ولم يتعدل هذا التقويم ، ويصحح خطأ ربع اليوم ، إلا فى زمان يوليوس قيصر ، فيما يعرف بالتقويم اليوليانى .

وظاهرة تختص بها حضارة مصر ، فيما قبل التاريخ وبعده ، وهى أن عصر النحاس يستمر طوال عهد الأسرات ، ويتأخر استعمال الحديد فى مصر ، ولا يستقر إلا حوالى العهد اليونانى . كما أن الآلات الحجرية تظل شائعة الاستعمال فى العصر التاريخى ، بينما يتحول عصر الحجر فى أوربا إلى عصر النحاس ثم إلى عصر الحديد ، فى الحقبات السابقة على التاريخ . ولعل هذا هو ما حدا بكورت لانجه إلى حسبان الحضارة الفرعونية منضوية كلها تحت العصر الحجرى الحديث « النيوليتيكى » .

وحضارة ما قبل الأسرات تظهر لنا جلية فى العمرى وفى جرزة ، وفى حلوان ووادى دجلة والمعادى وهليوبوليس ، وفى نقادة والسمانية والبدارى . ولقد نشأت أجمل الصناعات الحجرية بالبدارى فى الآنية المصنوعة من البازالت ؛ وتتقدم هذه الصناعة فى العمرة ؛ وتصنع الأوانى من المرمر والبازالت فى مرحلة جرزة .

ونظام العشائر واختيار كل عشيرة لشارة طوطمية ، أو شعار خاص ، يتقدم فى نهاية عصر جرزة : ثم تندمج الإمارات المحلية – أى الكور – فى مملكتى الشمال والجنوب : وعاصمة الشمال فى « بى » أو « بوطو » ، وبواقى أطلالها موجودة عند تل الفراعين ، إلى الشمال الشرق من دسوق . وعاصمة الجنوب فى « نخن » – عند الكوم الأحمر – وهى التى عرفت فيما بعد باسم « هيرانكوبوليس » ، أى مدينة الصقر ، وكان الصقر معبودها . وعلى مقربة منها قامت مدينة « نخب » – عند الكاب الحالية – وكانت من أهم المواقع فى عصر ما قبل الأسرات .

أما موقع المعادى – واكتشافه يرجع الفضل فيه إلى مصطفى عامر ومنجين – فقد قاسى الكثير من الاشتباكات بين أهل الشمال والجنوب ، مما كان سبباً راجحاً فى أن يتخلى عنه سكانه .

ولكن بعد أن تم اتحاد الوجهين البحرى والقبلى ، اتجهت سياسة الوحدة إلى قرب هذا الموقع الجغرافى الممتاز الذى قامت فيه وحوله عواصم مصر الكبرى : منف وبابليون والفسطاط والعسكر والقطايع والقاهرة .

وكان البداريون على صلة بالأقاليم المجاورة ، عن طريق الوادى الممتد من وادى النيل إلى شواطئ البحر الأحمر حيث معدن النحاس والأحجار الكريمة والأصداف . فقد اكتشفت بوادى الحمامات – على هذا الطريق – آثار ترجع إلى مرحلتى البدارى والعمرة . أما الذهب فكان يجلب من النوبة ، والنحاس والمنجنيز من شبه جزيرة سينا ، والقار من البحر الميت . والأبسيديان واللازورد والفضة والسنباذج ، من غربى آسيا ومن الأرخبيل اليونانى .

وهناك دلائل على اتصال مصر بسورية فى تلك الأوانى من الفخار ذات المقابض المموجة – وهى خاصة بجرزة – وقد وجدت فى سورية ، وكان المظنون أنها وردت على مصر من سورية تحمل الزيت ، ولكن الكشف عنها ، فى مرحلة

المعادى السابقة على جرزة ، قطع بأنها صناعة مصرية نشأت نشأة محلية .

أما ديانة هؤلاء الألى فقد استدل عليها المؤرخون من مصدر متأخر ، وهو النصوص المنقوشة داخل هرم أوناس وما يجاوره من أهرامات الأسرة الخامسة ، وتعرف بمتون الأهرام . فالثابت من لغتها ، ومن طرائق التفكير فيها ، أنها ترتد إلى زمان سابق على الأسرات ؛ فهى إذن تسجل العقائد القديمة والأساطير الإلهية لأولئك الذين أسسوا حضارة البدارى ومرمدة بنى سلامة وجرزة والعمرى والمعادى . ويستخلص منها أن المصريين ، فى عصر ما قبل الأسرات ، عبدوا أوزيريس فى الدلتا ، وعبدوا هوروس – الصقر – فى الدلتا وفى الكوم الأحمر أى « نخن » بالصعيد .

على أن آثار جرزة ، أو ما يعرف بحضارة نقادة الثانية ، وقد كشفت لنا عن قبور أهل العصر السابق على الأسرات مباشرة ، تؤيد حرص المصريين منذ ذلك الزمان الواغل فى القدم على امتداد الحياة الدنيا فى حياة الآخرة . فالمتوفى مسجى على جانبه الأيسر فى الغالب ، وفى وضع أشبه بوضع الجنين فى بطن أمه ، مغطى بحصير أو نطع ، ويغلب أن يكون اتجاه رأسه نحو الجنوب ؛ وفى يديه ، وهى مقتربة من وجهه ، توجد لوحة من الشيست على شكل سمكة أو طائر . وعثر فى تلك المقابر البدائية على قطع من العاج ، على شكل أمشاط وعلاقات وأسلحة وعقود من حبات مكورة ، وتمائم على هيئة ثور أو طائر أو حشرة . والأسلحة مصنوعة إما من الظران أو من النحاس . كما وجدت الأوانى وعليها رسوم تمثل سفناً تحمل شعارات تذكرنا بشعارات « كور » الدلتا فى العصر التاريخى .

والمعنى الذى يمكن إدراكه من هذه الرسوم ، هو أن التكوين السياسى لمصر ، فيما قبل الأسرات ، قام على أساس المراكز أو المديريات الصغيرة التى يسميها اليونان « نوميس » أى الكور . فالشعارات التى تمثل كل كورة ظلت قائمة خلال التاريخ المصرى زمناً طويلا . ولقد فسر العلماء تعدد آلهة المصريين ، على أساس أن شمل آلهة الكور قد التأم فى محاذاة التوحيد السياسى . ولم يتم ذلك فى بعض الأحيان دون مشاحنات حادة ، كما حدث ذلك بين عباد هوروس وعباد سيت . ويبدو أن انتصار هوروس على سيت كان ماحقاً ، فقد توطدت عبادة هوروس فى كلا الوجهين : شمالا فى « بوطو » ، وجنوبا فى « نخن » – هيرانكوبوليس – عند الكوم الأحمر . وانتهى اضطهاد سيت وزحزحته إلى اعتباره إله الصحراء والمحل

والشر . ولم يكن كذلك عندما كان المعبود الأكبر فى كورته .

ولعل ما انتهى إليه مؤرخو ما قبل التاريخ هو الأقرب إلى الصواب حين يزعمون أن حضارة مصر ، فيما قبل الأسرات ، قد تكونت ذاتياً فى الدلتا ، واستعارت الكثير من مرمدة بنى سلامة. ثم انتقلت إلى الصعيد. وحملت معها إلهها الأكبر هوروس. ويستدلون على ذلك من نقوش حجر باليرمو . وعليه سجل مؤرخو الأسرة الخامسة قائمة الملوك . لا من أول مينا رأس الأسرة الأولى . بل من قبله . وقد وجدوا فى قائمة الملوك . قبل مينا . ملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأحمر — أى بتاج الدلتا — وملوكاً يرمز إليهم بالتاج الأبيض — تاج الصعيد — كما وجدوا بعضهم يحمل الـ « بشنت » . وهو التاج المزدوج . رمزاً إلى توحيد الإقليمين . وفهموا من ذلك أن وحدة الإقليمين تمت قبل بدء التاريخ تحت زعامة الدلتا . ثم انفصم الاتحاد . ليعود فى أول العصر التاريخى تحت زعامة ملوك الصعيد . وهذا الاتحاد الثانى مسجل على اللوحة المشهورة باسم لوحة الملك « نعر — مر » — مينا ؟ — وهذه اللوحة تكمل صورة انتقال حضارة جرزة إلى حضارة الأسرة الأولى ، ومظهر هذا الانتقال نقوش على رءوس دبابيس القتال . وعلى اللوحات الأردوازية . ففى رأس دبوس منها ، نرى صورة ملك غير معروف الاسم . وإنما سماه المؤرخون الملك « العقرب » . لابساً تاج الوجه القبلى . ومحتفلا بذكرى انتصاره على الوجه البحرى .

فهل يمكن قبول الاستنتاج الأخير كحقيقة واقعة . وهى أن حضارة جرزة تمثل آخر مرحلة حضارية لعهد ما قبل الأسرات . وأن فجر الحضارة التاريخية انبثق من هناك ؟

إن القول الفصل فى هذا تحققه حضارة المعادى . وهى التى أثبتت أن حضارة جرزة جاءت من الدلتا . وبذلك ينتهى عهد المعجزات فى تاريخ الحضارات . ويكون الأثريون والمؤرخون قد وفقوا إلى تتبع الحضارة المصرية من بواكيرها فى آخر العصر الجيولوجى الرباعى . خلال العصور الحجرية القديمة والحديثة . والعصر « الإنيوليتيكى » . حتى عصر الأسرات الأولى .

ويصعب على كاتب هذه السطور أن يقاوم إحساس الاعتزاز والفخر بأن بعض الفضل فى وصل هذه الحلقات يعود إلى مصرى صميم . هو مصطفى عامر . أول من سجل اسماً مصرياً فى قائمة المشتغلين بحضارات ما قبل التاريخ .

أنوبيس يرقص

الست المندورة ما يزال يذكرها عجائز الروضة والمنيل ومصر العتيقة وفم الخليج ، لأنها كانت تقيم حتى العشرينات عند الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة . شامخة على أشجار أم الشعور [البانيان] التى ما زالت تقف كالآثار القديمة على ضفة النيل عند كوبرى الملك الصالح . ولم تكن مثلهن « أم شعور » . بل كانت جميزة معمرة . وربما كانت شجرة لبخ . فقد رأيتها طفلا غريراً . وكانت هلاهيل المرضى وأضراسهم وخصلات من شعورهم معلقة بفروعها . أو بمسامير دقت فى جذعها ، وهى التى كانت تلفت نظرى أكثر من أوراقها . وسأسأل خولى قصر المناسترلى عنها إذا ما التقيت به .

المندورة شجرة كان الناس يتبركون بها . ويقصدونها فى الحاجات . فهى من بواقى خرافات العهود البائدة . مثل رتبة الباشوية . وسيدى المتولى ساكن باب زويلة . والست المزيرة وبغلة العشر . ولو اندفعنا فى طريق الأنثربولوجيين لما ترددنا فى القول بأنها من بقايا عبادة أوزيريس الذى استقر داخل شجرة فى بيلوس . نبتت حوله وفرعت وأورقت على ساحل فينيقيا القديمة عند جبيل . وقد علمت من سكان طرف الروضة الجنوبى ، بعد غيابى الطويل عن مصر ، أن شجرة المندورة قطعت ، ويؤكد بعض من حضر قطعها أنه سمع أنيناً ينبعث من داخلها والمنشار يحز فى جذعها ، وأن سائلا نزف منها ، قد يكون عصارتها . ولو أن محدثى يعتقد أنه من شىء آخر .

ويزعم من شاهدوا المولد الكبير بالأقصر بأن حمل سفينة على عربة ، وفوقها أعلام أبى الحجاج الأقصرى فى الاحتفال بمولده ، يشبه أن يكون من بقايا طقوس آمون - رع ، والسير بسفينته المقدسة فى أعياده الكبرى . ويظن آخرون بأن عادة تأمين الأموات ، فيها ما يوحى بنصوص كتاب الموتى وتقاليد الدفن فى مصر القديمة ، إلى آخر ما نقرأ عنه فى كتاب مس بلاكمان الممتع . وفى رسالة تقدم بها أحد مواطنينا — الدكتور غلاب — إلى السوربون .

وكان أهلنا يحذروننا من الهرة السوداء فى الليل ، إذ يغلب أن يكون بعض

« إخواننا » تقمصها ، كما كانوا ، إذا رأوا واحدة من هوام الليل تحوم حولنا فى ليالى الجمعة ، يلقون فى روعنا أنها روح ميت من أهلنا . وقد ارتفعت من أعماق ذكرياتى هذه الخرافات عندما رأيت صورة « با » ، فى شكل طائر أو حشرة ، تقف فوق تابوت ميت من القدماء ، أو تطير فى بئر السرداب ، وعندما عرفت أن الهرة « بسطيط » كانت إلهة بوباسطيس .

واليوم وأنا أتمشى على شاطئ البحر ، فى نزهتى الطويلة مع طلوع الشمس ، تذكرت فجأة أنى رأيته فى طفولتى الإله « أنوبيس » يرقص . ولم أكن فى ذلك الزمن البعيد أعرف أنه « أنوبيس » ، ولا كان الملاعب الإسكندرانى الذى يحرك دميته فترقص يعنى بذلك تقديم صورة لأنوبيس . ولكنى لم أكن أفهم لماذا اختار الرجل حيواناً محنطاً يشبه الكلب الكبير ، قيل لى إنه « ديبة بو » ، ومعنى هذا فى لغتنا الحديثة أنه جلد ابن آوى حشى بالتبن والقش . وأوقف الرجل « دبيته » فى إطار يشبه مشايات الأطفال ، وألبسها ملابس الغوازى بشرائط القصب ، وركب فى وسطها لولباً يحركه بذراع خشبى أو بذراعين ، فيتخلع خصر دميته ويتكسر على إيقاع غنائه وهو يقول« يا بيلى با . . . يا رقاصة » . فإذا كانت « بيلى با » راقصة ، فلماذا اختار لها الرجل جلد ثعلب محشو؟ أما كان الأفضل أن يصنع عروساً ولو من قماش ؟

أسائل الآن نفسى : أيعنى الرجل عرض صورة من صور المساخر التى يلبسها الإفرنج فى أعياد المرافع قبل الصرم الكبير ؟ أو أنه يقصد جماعات السائحين ليتفرجوا على « أنوبيس » يرقص ؟ ولكن ذكرى هذا الملاعب وأنوبيسه تكاد تمحى تماماً ، ولن أستطيع اليوم أن أعرف شيئاً عن تلك الدمية العجيبة أكثر مما ذكرت . ومن غير المعقول أن يكون الملاعب عارفاً بأمر « التماثيل المتكلمة » ، وبرأس أنوبيس فى متحف اللوفر التى كان الكهنة يحركون فكها الأسفل بشد خيط مخفى فى قاع حلقها ، رداً على « استخارات » الطالبين .

ولم يبق إلا أن أضحك فى نفسى وأنا أردد : لقد رأيت أنوبيس ، حامل الميزان فى قاعة العدالة بمحكمة أوزيريس ، يرقص رقصة البطن فى حوارى القاهرة !

وابن آوى لم يكن سوى واحد من عديد الحيوانات التى اتخذها المصريون

أرباباً . فقد عبد أجدادنا الهر والأسد والصل والسقنقور والتمساح وسماك اللفش [اللاطس] والباشق والعقاب وأبا منجل والعجل والبقر والكبش والجعل ؛ واستطاع فنهم العجيب أن يوائم بين هذه الحيوانات وبين الجسم الإنسانى . فقد ترى آلهتهم فى شكل إنسان كامل ، أوحيوان كامل ، أو برأس إنسان وجسم حيوان ، أو برأس حيوان وجسم إنسان . ويحار الأثريون فى تفسير هذه العبادات الطوطمية التى استمرت حتى نهاية الأسرات ، بل وأصبحت المظهر البارز لديانة المصريين أيام البطالسة والحكم الرومانى والبيزنطى . وكانت موضوع سخرية يوفينال فى قصيدته المشهورة ، التى يقص فيها قصة مشاحنة قامت بين أهل دندرة وأهل كوم امبو ، ذكرتنى بما كان يحدث فى الهند البريطانية بين المسلمين والهندوس ، كلما عن للمسلمين أن يذبحوا بقرة ، وهى أقدس الحيوانات عند الهندوس . والفتنة التى تندر بها يوفينال نشبت حول تمساح أكله سكان إحدى المدينتين ، مع أنه معبود المدينة الأخرى .

تعددت آلهة المصريين ، وتشعبت تفسيرات الأثريين والمؤرخين ، وراح هؤلاء وأولئك يضربون فى كل واد . ولك أن تفهم من كلامهم ما فهموا هم ، أو ما تريد أن تفهم أنت . ما أهمية ذلك ؟ فالمصرى عبد ، كما تعبد الشعوب فى بداوتها ، مظاهر الطبيعة حوله : الشمس والسماء والأرض والماء والزرع .

ولكنه قدس أيضاً آلهة محلية تختلف فى كل كورة عن غيرها ؛ وقد تكون هذه مجرد رموز وشعارات للقومية المحلية . فالمصرى لا يحب وطنه الكبير وحده ، بل يحرص على وطنه الصغير ، إقليمه فعاصمة إقليمه ، ثم قريته . والآلهة العظام كانت هى أيضاً شعارات سياسية وأجداداً للملوك وأنصاراً ، ومصدر رزق واسع للكهان ، يحكمون باسمها على الملك والوزراء والموظفين والشعب ، بعد ما انقاد الملك لهم ، وكان ذلك إبان الدولة الحديثة .

لا قيمة تذكر لتلك الآلهة إلا فيما أقيم لها من معابد وهياكل ، ورسم لها من صور ، ونحت لها من تماثيل . ولقد كشفت لنا ثورة أمينوفيس الرابع « أخن — آتون » عن ألاعيب السياسة التى تستتر وراء الآلهة العظام . وكان أخناتون ثائراً غريباً ، يمكن أن نعتبره أبا الثوار فى التاريخ ، ندر أن نعرف له فى التاريخ مثيلا . فالثورة تقوم ضد الحاكم وضد الحكم ، يقوم بها واحد من الشعب ، أو من العظماء

يقود الشعب . أما ثورة أخناتون ، فكانت ثورة ملك على كهنته وشعبه ، وخروج ملك عن طاعة آلهته العظام . هنرى الثامن لم ينتقض على ربه ، بل ثار على شاغل الكرسى الرسولى فى روما ، وربما لأسباب عائلية ، ومسائل زواج وطلاق . والإمبراطور يوليانوس ارتد عن المسيحية التى اعتنقها أسلافه ، وعاد إلى الوثنية . والحقيقة أن يوليانوس لم يرتد ، بل أعدته تربيته الهلينية لينشأ وثنيًّا . أما أخناتون فقد خرج على عبادة آمون الكبير ، ذلك الإله الغول ، الذى حاول ابتلاع آلهة المصريين كلهم ، فجاء الشاب أمينوفيس يتحداه ، كما تحدى داود غالوت ، ويعود إلى عبادة الشمس فى مظهرها الواحد الخالق ، وفى صورتها المادية ، « آتون » ، أى قرص الشمس . ولو كان أخناتون من الرجال العمليين لصدقت أن ثورته سياسية ، ولكن طبيعة الشاب توحى بحركة روحية انبعثت من خلجات نفسه ، وربما من الجو الذى تربى فيه — وقد يشبه فى هذا الإمبراطور يوليانوس المارق — ومن أثر الدم الأسيوى يجرى فى عروقه . ولقد اهتدى الملك الشاعر إلى أقدم آلهة المصريين دون منازع ، فأفرد له عبادة قلبية ، ثم عبادة رسمية حين هجر طيبة إلى الشمال ، لينشئ عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارنة حالا .

وإذا كادت تلك الثورة أن تكلف مصر إمبراطوريتها ، فقد أهدت التاريخ المصرى فنًّا ثوريًّا أصيلا يتوخى الصدق ، وأدبًا رومانتيكيًّا تحس فيه بنفحات الإخلاص والأمانة تهب على الناس ، وإن كان فى كل من الفن والأدب عرق من المرض الملازم لكل رومانتيكية ، وهو المرض الذى تطالع آثاره على سيماء أخناتون وتكوين جسمه : ذلك الوجه المستطيل ، والشفة السفلى الغليظة المرتخية ، والخصر النحيل والبطن الثقيل . ولو لم يكن أخناتون صاحب ثورة هائلة ، ولو لم يجدد فى الحياة المصرية ، لاستحق أن ينعت ، من صوره ، بنوع من انحلال الشخصية ، يعرف فى اللغات الحديثة بال fin de siècle .

ولم يكن آتون خلقًا ذاتيًّا خرج من لا شىء ex nihilo ، أو من رأس أمينوفيس الرابع . بل كان إلهًا شمسيًّا ، أو صورة من صور الشمس الإلهة ، فإن كلمة آتون نكرة تعنى « قرص الشمس » . ويبدو أن محاولات فاشلة جرت أيام أمينوفيس الثالث لتخليص رع من شركة آمون — رع ، وأفردت للشمس عبادة

خاصة ، حتى قبل أن يشرك أمينوفيس الثالث ابنه أخناتون فى الحكم حوالى سنة ١٣٧٠ قبل الميلاد . ونستطيع أن نعثر على سوابق لتلك المحاولات ، ولكن الفضل الأكبر لوضعها موضع التنفيذ الجدى ، يعود إلى الملك الثائر أخناتون . فهو لم يكتف بالصفات الأصلية للشمس التى عرفتها مدرسة « إيون » — هليوبوليس — وإنما انتهى الرجل إلى مقاومة كل ما يتصل بطقوس الديانة المصرية المعروفة فى زمانه . ونكاد نجزم بأن عبادة الشمس فى مظهرها الجديد كانت أقرب الديانات القديمة إلى التوحيد . فالمعبد الكبير بعاصمة أخناتون لم يكن يحتوى على تمثال يعبد ، وإنما على صورة لقرص الشمس رمز الحياة . وكان للديانة الجديدة مظهر شخصى عجيب . فهى ديانة يبشر بها رجلها الأوحد ، الملك أخناتون ، ويرسم لها طقوسها ؛ ولم تكن كالوثنيات القديمة مجهولة المؤلف . فالملك فيها هو صاحب الديانة ، وهو كاهن الإله ، وقد قارب فى ذلك مركز الملك فى الدولة القديمة ، عندما كان هور وس نفسه ، ثم ابن رع كاهنه الأكبر . وقبل أن تتحول مهنة الكهانة إلى التخصص الذى عرفته بعد نهاية الدولة القديمة ، والذى ستعرفه بعد ردة توت — عنخ — آمون ، وينتهى أمرها إلى سيطرة الكاهن الأكبر على الدولة ، ثم تولى الكاهن هريهور الملك ، فى بدء الأسرة الأولى بعد العشرين .

وإذا كان المؤرخون يتشككون فى أن يكون أخناتون هو مؤلف اللحن الجميل والصلاة الرائعة الموجهة إلى آتون ، فهذا من حقهم ما لم يثبت ذلك بالدليل والبينة . ولكنى كلما تأملت صور ذلك الشاب المريض وأعضاء أسرته ، كنت أقرب إلى التصديق بأنه لم يكن رسول ديانته ولا كاهنها الأول فحسب ، بل كان شاعرها المفلق ، ومؤلف ألحانها . وإذا كانت الفنون المصرية قد تخلصت من ربقة التقليد فى عصر من عصورها ، فبفضل ذلك الملك الشاعر الفنان ، الذى أضفى شخصيته على عاصمته وفن عاصمته . فلم يعد التعبير الفنى فى زمانه مجرد الاحتفاظ بالقواعد والأصول ، بل انطلق شخصياً بلحمه ودمه ، فردياً فى كل مظاهره .

والملك ، رسول الرب ، يتلقى عنه الوحى دون وسيط من جن وإنس : « أنت فى قلبى ، لا يفهمك غيرى ، لا يدركك غير ولدك أنا » . فذلك الملك ، ضعيف البنية غير السليم عقلياً كما يبدو من صوره وتماثيله ، أصبح شعلة من الشعور بذلك

الإله الجديد أو المتجدد ، ولنقل إنه تحول شعاعة من تلك الأشعة التي يرسلها آتون إليه ، في صورة أذرع ممدودة ، وأيد منبسطة .

لم يعد الإله يصور لعبيده في صورة منحولة من حيوان أو إنسان ، إنما هو قرص الشمس . وأشعة الشمس تبسط أيديها المتعددة نحو الأرض . تنوء بالخير ، وتتقبل العبادة والقرابين . وتختص رسولها على الأرض بعلامة الأزل : عنخ .

ولم يعد الإله يقبع في ظلام قدس الأقداس ، داخل ناووسه . مثل آمون « الخفي — المتخفي » . بل هو إله يعبد في وضح النهار : لا سقف يغطيه . ولا جدران تحبسه ، يبدو للعيان وسط باحة المعبد الكبير في تل العمارنة . ثم هو إله واحد : لا شريك له ، ولا زوج ولا ولد ؛ : خالق نفسه كل يوم . والخليقة كلها تشارك ربها في أفراحه الخلاقة .

إنما أعجب ما في هذه الديانة ، هو حرص صاحبها على إلهة من البانثيون القديم ، لم تكن إلهة عظيمة إلا بمعناها الخلقي . لقد احتفظ أخناتون بإلهة الحق والعدالة والصواب : معات ، بنت رع . والمحبوبة من رع . وهي إلهة صاحبت المصريين على طول تاريخهم ، تهديهم إلى فعل الخير : وأداء الواجب . وإقامة شرعة العدالة .

وبعد أن نبذ الملك أمينوفيس اسمه — ومعناه « آمون الراضي » — وتسمى باسم جديد هو « عبد قرص الشمس » : أخن — آتون . وتغيرت أسماء أهل بيته وكبار رجال دولته ، واستتب الأمر لمدينته الجديدة في تل العمارنة « آخت — آتون » ، أي أفق الشمس — وهجرت المعابد القديمة في طيبة ، وطورد كهنتها وسدنتها ، وأوصدت أبوابها بعد أن محيت أسماء آمون وحطمت أصنامه ، أقامت الرجعية رأسها مرة أخرى . لأسباب سياسية . وتحت ضغط المصالح التي أضيرت ، ولم تك كلها صوالح الكهنة ، بل لحق الضر بالمصالح العليا للدولة : لأن الملك — النبي . والملك — الشاعر ، لم يكن يعني بشئون الإمبراطورية الكبرى التي أسسها كبير الأسرة الثامنة عشرة . وأرشيف الدولة ، الذي عثر عليه كاملا في تل العمارنة . شاهد على إهماله حتى الإجابة على رسائل مندوبيه السامين في الإيالات الأسيوية . ولقد شعر الأسيويون بالحبال أرخيت لهم ، فشرعوا في الانتقاض على الحكم المصري .

فلم يكن من بد أن ينهار نظام أخناتون كله ، ديانة وحضارة وعاصمة ، بعد موته مباشرة . وقد تولى العرش بعده أزواج بناته ، ومنهم ذلك الشاب اليافع المترف الضعيف ، ألعوبة البلاط والكهنة ، الذى غير اسمه إلى توت ـ عنخ ـ آمون .

وكان الكهنة بحاجة إلى قوة تسند الملك ، وقوة عسكرية قبل كل شيء ، فتدخلوا وآزروا رجل السياسة والحرب ، « هور محب » ، لارتقاء العرش . وآذن هذا بقرب انتهاء أعظم أسرات مصر القديمة ، وبدء آخر الأسرات الكبرى فى التاريخ الفرعونى ، وهى الأسرة التاسعة عشرة ، يتزعمها ويؤثل مجدها سيتى الأول وكبار الرعامسة . وخلف أولئك كان الكهنة يعملون ويؤيدون . وستظل الكلمة العليا لهم حتى سقوط الحكم الفرعونى تحت أقدام الغزاة الأجانب .

إنما الإله الذى سيطر على عقول المصريين ، ونفذ إلى قلوبهم لأطول زمن ممكن ، الإله الشعبى الذى حكم على عالم الأحياء والأموات ، وأقام ميزان العدالة فوق الأرض وتحت الأرض ، الإله الذى عرفته الشعوب التى اتصلت بمصر ، وانتهت بالتغلب على مصر . الإغريق والرومان . الإله الذى أفرد له بلوتارك دراسة ممتعة فى القرن الأول للميلاد ، كان أوزيريس .

أوزيريس كان إله الخير ، فى مواجهة أخيه « سيت » إله الشر ، كان إله الوادى الخصيب ، ضد إله المحل والصحراء . أوزيريس وزوجته ـ أخته إيزيس نظما شئون البلاد كلها . هى تكفلت بأمور البيت والأسرة ، وعنيت بعلوم الطب والسحر ، وهو المنظم لطقوس العبادة ، الواضع أسس السلوك والأخلاق. ولئن ظل السابقون عليه أربابا فى علاهم ، فقد كان أوزيريس أول إله ينزل إلى الأرض ، ويتحمل عذاب البشر ، ويجرى عليه الموت ، ثم ينشر حيًّا ، ويرفع إلى السماء ليلحق بالآلهة فى عالم الخلود . وحق له ، بعد تجربة الحياة والموت ، أن يتولى الحكم فى العالم الآخر حتى آخر عهد الوثنية المصرية ، أى حتى القرن الخامس الميلادى .

وأهمية أوزيريس وأسرته الصغيرة تبدو لنا فى ضوء التاريخ الوثنى ، وما جاء بعده ، لأن الثالوث المصرى القديم : أوزيريس ـ إيزيس ـ هوروس ، كان له أكبر الأثر فى تحول المصريين إلى الثالوث المسيحى .

وإن حب العالم القديم لإيزيس ، الزوجة العاقلة الأمينة ، وانتشار عبادتها فى

أطراف الإمبراطورية الرومانية ، وتحول عبادة أوزيريس ، وأبيس المؤله ، إلى عبادة مصرية يونانية فى عهد البطالسة ، تركزت حول الإله سيرابيس (ـ أوزير ـ أبيس) ، لظاهرة جديرة بالاعتبار ، لما كان لها من أثر فى تطور الديانات القديمة ، وتخلخل فى العبادة الرومانية مهد الطريق لتسرب المسيحية وانتشارها فى العالم القديم .

قيل إن أوزيريس كان ابن إله الأرض « جب » ، وإلهة السماء « نوط » ، وإن حياته وموته ونشوره ، رمز أبدى للطبيعة المتجددة : موات الأرض وعودتها إلى الحياة . أوزيريس إله زراعى ، يخضر عوده وينمو ويورق ويثمر ، ثم يجنى ويحصد ، وتذر أشلاؤه فى الأرض ، لتعود الحياة إلى الأرض نبتًا جديداً .

وأوزيريس إله الماء أيضًا ، تلك القوة الخلاقة . والماء فى مصر هو « حابى » رمز النيل الذى يفيض ويغيض ، يرمز ثديه الواحد إلى الفيضان والخير ، ونصف صدره المفلطح إلى الجفاف والتحاريق . ولا يبعد أن يكون « حابى » هذا مجرد رمز مصور للنيل ، وأن يكون معبود المصريين الثانى ، بعد الشمس ، هو أوزيريس ، الإله ـ الماء . فالابتهالات الدينية تتجه إلى أوزيريس بقولها : « النيل ينبع من عرق أياديك . . . أنت النيل ، والآلهة والناس إنما يحيون بفضل جريانك » .

وفى أخريات التاريخ الفرعونى ، كان الغرقى يكتبون فى الشهداء . أتعرف أن هذه الفكرة ما تزال حية بين أفراد الشعب المصرى إلى اليوم ؟

والأسطورة تجعل من أوزيريس أول ملك لمصر الموحدة ، أيام كان يتولى الأرباب عرش مصر . وصراعه مع أخيه « سيت » ، صورة من جهاد مصر فى سبيل الوحدة . وكانت بوزيريس عاصمة أوزيريس فى الدلتا . وربما كان أوزيريس حقًا أول ملك من البشر رفعه المصريون إلى مرتبة الآلهة . فالملوك من أول التاريخ المصرى ، وقبل أن يكونوا أبناء رع ، كانوا كلهم هوروسات ، وكان العامود « جد » يقف منتصبًا فى جميع الأعياد الثلاثينية الملكية ، كشعار لقيام أوزيريس من بين الموتى . وكان أوزيريس يمثل حاملا كافة الشعارات الملكية : التاج المزدوج ـ البشنت ـ والصولجان والسوط ذى اللسانين .

وأوزيريس كان إله العالم الآخر ، لأن الطقوس التى أجريت على أشلائه جمعتها إيزيس من شرق الأرض وغربها ، هى التى أعادته بقوة السحر إلى الحياة

الأبدية . فالناس يحرصون أن تجرى على بقاياهم الزائلة طقوس مماثلة ، حتى ينعموا بالحياة المقيمة فى مملكة أوزيريس .

أوزيريس إذن هو إله الزرع والضرع والنيل والخلود ، بل هو أكثر من هذا : إنه إله الأسرة الفاضلة مجتمعة ، إنه الأب المحبوب من أخته نفتيس ، ومن أخته وزوجته إيزيس ، ومن ابنه هوروس ؛ هو وهم مثال العائلة المتماسكة المتاضلة . أى أن أوزيريس اجتمعت فيه صفات الألوهية ، مادية وروحية ، إله نافع فى الحياة وفى الممات ، إله خلق أيضاً : فقصة صراعه مع أخيه ، رب الحيل « والمقالب » سيت ، وإخلاص إيزيس لذكراه ، وتجوالها فى العالم القديم تجمع بقاياه ، ثم إعادته إلى الحياة ، كل هذه القصة الإنسانية العظيمة كانت عناصر نجاحه على طول التاريخ المصرى العتيق ، بل وخارج مصر فى عبادة إيزيس وسيرابيس .

انتهت الديانة المصرية إلى أوزيريس ، وقد بدأت من قديم بالشمس فى مدينة « إيون » . والشمس منذ الأسر الأولى كان خالق كل شىء ، وخالق نفسه ، عندما خرج من ماء الحياة ، نون ، باسم آتوم . خلق نفسه ، وسمى هاراختى ، وسمى هوروس ، وغير ذلك من الأسماء . وهو « آتون » قرص الشمس ، وهو الجعل يدحرج كرة الخلق الدائم ، وهو الصقر يحلق فى السماء . بيد أن اسمه الأكبر ، الذى اشتهر وذاع فى طول البلاد وعرضها ، الاسم الذى انتسبت إليه الملوك ، منذ اعترف له ملوك الأسرة الرابعة والخامسة بالسبق ، كان « رع » .

ولكن أى شىء كان قبل « رع » هذا ، وكيف تصور أجدادنا أصل الخليقة ؟

قيل كان العالم ماء وظلاماً ، أو كان فيضاناً وطوفاناً ، وكما أن النيل ، إذا عاد إلى مجراه وانحسر عن الأراضى العالية ، ترك وراءه هضاباً مغطاة بالطمى ، هى مصدر الحياة ، فإن طوفان العالم بدأ يغيض ، وظهرت على سطحه أعالى الأرض كالجزر . وفوق جزيرة منها وقف مخلوق نفسه ، « آتوم » ـ وحيداً ، وشرع فى الخليقة ، فخرج الآلهة والمخلوقات من نطفته : استمناها بنفسه فى رواية ، أو أنه أخذ يتلفظ باسم كل عضو من أعضاء جسده ، وإذا الكلمات تتجسد آلهة وبشراً وكل المخلوقات .

ولكن كهنة منف ، وقد أصبحت عاصمة الوجهين ، أرادوا لإلهم الأكبر

« فتاح » أن يحتل الصدارة بين الآلهة ، بل أن يرتفع فوق آتوم نفسه . وقد تحايلوا على ذلك بقولهم إن « آتوم بأصغريه ، قلبه ولسانه ، وفتاح هو هذا القلب واللسان ». والقلب ، فى لغة المصريين ، يعنى العقل . فماذا كان آتوم بغير العقل واللسان ؟ إذن ففتاح — الفتّاح — هو خالق آتوم ، وخالق الآلهة ، وخالق الكل ؛ تدبر بعقله ، ثم نطق بلسانه ، فكانت الخليقة : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » ، كما جاء فى مطلع الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا . وفى نص مصرى قديم يقول كهنة منف :

« إنه الفؤاد يختلج بالفكر ، واللسان ينطق بما اختلج به الفؤاد . وهكذا خلق الآلهة جميعاً . . . والحق أن الكون الشامل خرج من صميم القلب عندما نطق اللسان بكل ما فى الكون ، ونزل معه قسطاس العدل يثيب المحسن ويعاقب المسىء . . وهكذا خلق العمل والحرف والصناعات ، كما نظمت حركة الأذرع ، وحركات السيقان ، وكل ما تنبض به حياة الإنسان ، انصياعاً لما اختلج به القلب ، وتحرك به اللسان ؛ فتاح مبدع الكون ومسوى الآلهة » .

* * *

وكان لمصر الوسطى ، بمنطقة الأشمونين ، إله اسمه « توت » ، اندمجت فيه آلهة كور عدة : آلهة على شكل حيات وضفادع وقردة وآباء منجل . وعزوا إليه كل ما ينشئه العقل وتنطق به الحكمة ، كالكتابة والحساب والعلوم والسحر . وكان يمثله ، فى الغالب ، الطائر « إيبيس » أبو منجل ، أو إنسان له رأس ذلك الطائر . ويظهر أن توت هو الذى تقمص بشراً فيما بعد ، وعرف فى عالم السحر باسم هرمس ترسميجسطس ، أى مثلث الحكمة .

ومحاولات مصر الوسطى ، وكهنتها ، لم تكن لتستطيع أن ترتقى بإلهها توت الحكيم إلى أكثر من درجة رئيس ديوان أوزيريس فى العالم الآخر ، لأنه لم يكن من السهل التغلب على سيد أبيدوس العظيم .

وخرج من بلاط توت إله قمىء إمعة ، لم يكن يتصور أحد أن يرتفع فى البانثيون المصرى إلى أعلى عليين . ولكن أراد له طالعه أن تختاره قرية حقيرة ، اسمها طيبة ، رباً لها ؛ ثم علا شأنها حين انتقل إليها الحكم منذ مطالع الدولة الوسطى ، حتى عهد الإمبراطورية الحديثة . وكان اسم هذا الإله « آمون » ،

ومعناه الخفي أو المختفي ، مستودع الأسرار . خرج آمون الخفي من بلاط توت الحكيم ، ليعيش مجهلا أول الأمر في زاوية من زوايا طيبة ، حتى أخذ بيده الملك آمون — إم — حعت ، وترجمة اسمه « آمون أولا » ، ورفعه إلى المرتبة العليا في عاصمة الأسرة الثانية عشرة . التي أسسها ذلك البناء العظيم .

وثبتت أقدام آمون منذ ذلك الحين إلهاً للملوك وأتباعهم من الطبقات الحاكمة ، ينتسب إليه ملوك الدولتين الوسطى والحديثة ؛ فكان الفرعون ابن آمون روحيًّا وجثمانيًّا ، كما تمثله نقوش معبد الأقصر ، أباً فعليًّا لأمينوفيس الثالث ، وكما تصوره أسرار ولادة حتشبسوت من صلبه ، عاشقاً لأمها أحموزى الحسناء .

لم يكن من الصعب على كهنة آمون أن يستولوا على الإله الشمسي القديم ، ويربطوه قسراً بعجلة إلههم الحديث ، فيصبح إله طيبة الكبير ، بل رب العالم القديم ، هو آمون — رع ، وهو الإله الذي يمم الإسكندر شطر معبده بواحة سيوة ، على اعتبار أنه معبد زفس ، أو جوبتر — آمون ، يسأله عن سر مولده ، فإذا آمون يشير في لغة كهنته إلى صلات وثيقة كانت بينه وبين أم الإسكندر ، أولمبياس زوجة فيليب . في بلاد مقدونيا . وقد يفسر هذا الادعاء الصورة المشهورة للإسكندر وقد نبت له قرنا الكبش آمون ، ولو أن الأولى بالقرنين كان ، دون شك ، الملك فيليب المقدوني .

وقصارى القول إن الإله الرسمي الكبير الذي تحكم في أقدار الملوك منذ الأسرة الثانية عشرة ، كان آمون — رع ، والإله الشعبي الذي استولى على أفئدة المصريين منذ أقدم العصور . كان أوزيريس ، أو الثالوث الأوزيريسي : أوزيريس — إيزيس — هوروس .

وكانت أطول الآلهة حياة هي إيزيس ، فحينما أصدر الإمبراطور المسيحي ثيودوسيوس (٣٧٩ — ٣٩٥ م) مرسومه يحظر إجراء الطقوس الوثنية في أية جهة من جهات الإمبراطورية . توقف الكهنة المصريون عن ممارستها علناً ، وانهال بطريرك الإسكندرية تاوفيلوس على معبد سرابيس الأعظم بالإسكندرية يهدمه ، وينكس الصنم الكبير ، ويأمر بتدمير ما يستطاع من المعابد المصرية في طول البلاد وعرضها . وتفرق الكهنة المصريون في الأرض ، وقد هجروا ما بقي من معابدهم تنعى من بناها ،

إلا فى جزيرة فيليه بأسوان ، وفى هذا يقول ماسپيرو :

« عاشت الوثنية المصرية خمسة قرون بعد ميلاد المسيح ، وقد أصابها من النصرانية الظافرة الاضطهاد نفسه الذى ذاقته المسيحية على أيدى الوثنية ، إلا معبد إيزيس بجزيرة فيليه ، الذى تمكن من البقاء أطول زمن ممكن بعد نهاية الآلهة والمعابد الكبرى . ومرد ذلك إلى تمساك الإثيوبيين بهذه الإلهة ، وتمسك جميع الشعوب القاطنة بأعالى النيل ، المتخلفة عن مملكة مروى . فعندما استولى البليميون [أسلاف البجاويين والبشارين والعبابدة ومن إليهم] على النوبة ، فى منتصف القرن الثالث الميلادى ، خضعوا لسحر إيزيس فعبدوها ، وظلت حمايتهم مبسوطة على معبدها فى جزيرة فيليه ، على الرغم من مرسوم ثيودوسيوس القاضى بإقفال المعابد . ولم يكن مسيحيو فيليه ، بتشجيع من مطارنة أسوان ، ليجدوا فرصة أنسب يطبقون فيها المرسوم على معبد إيزيس ، أولا خوفهم من بطش البليميين . لذلك بقى تمثال إيزيس مرفوع الرأس فى مواجهة المسيح الظافر . وبعدما قضى النوبيون على البليميين فى حكم بوستنيانوس (٥٢٧ — ٥٦٥ م) تمكن تيودوروس أسقف أسوان ، أخيراً ، من أن ينكس صنم الإلهة ، ويدك مذبحها ، ثم يحول معبدها إلى كنيسة .

« ونستطيع أن نتخيل فى هذا القرن الأخير للوثنية المصرية [القرن السادس] ظروف حياة كهنة المعبد المساكين . فقد تحولت أغلب رعيتهم إلى النصرانية ، ولم يبق حافظاً للديانة العتيقة سوى بعض بواقى الأسر الكهنوتية العريقة . يمكن تصور هؤلاء الكهنة قابعين فى حرم معبدهم ، خلف أبواب موصدة ، يتوقعون فى كل آونة أن يهجم عليهم الشعب المتعصب لديانته الجديدة . ولكنهم عرفوا بعض فترات من الهناء والسعادة ، عندما كان يجيئهم القاصد الرسولى لملك البليميين ، على رأس بعثة تنزل ببر الجزيرة فى احتفال عظيم ، تحمل العطايا والهدايا والقرابين . وكان الكهنة حينئذ يرفلون فى أبهى حللهم الكهنوتية ، ويخرجون تمثال الإلهة من قدس الأقداس ، ويفتحون بوابة المعبد على مصراعيها ، ويقفون فى جوسق نكتانيبوس الملك ، فى انتظار حجاجهم البليميين . ويتقدم أولئك فى موكب حافل وخشوع عظيم . كان منظراً يوحى بالعصور الغابرة ، عندما كانت إيزيس حقًّا سيدة العالم » .

الفلاح الفصيح

يتعلل العلماء، تفسيراً لهزال الأدب المصرى ، بأن أجدادنا كانوا أكثر عناية بالنصوص الدينية ، وهنا أيضاً تنحرف نظرتهم العامة تحت تأثير حضارة لم يبق من وجهها الدنيوى إلا القليل ، بالنسبة لما احتفظت به المعابد والقبور . ولكن الاطلاع على القليل من الأدب المصرى الدنيوى ، وهو الذى احتواه كتاب إرمان ، يقنعنا بضياع أكثر ذلك الأدب ضياعاً ربما كان نهائياً .

وهناك نظرية أدبية مقبولة فى بعض الدوائر تقول بأن أدب المواعظ والحكم والشعر الوجدانى ، فى أسفار التوراة — والتوراة هى تاريخ بنى إسرائيل ، أخبارهم وآدابهم وفلسفتهم — متأثر بالأدب المصرى ، ويظهر ذلك بشكل محسوس فى شعر المزامير ومراثى إرميا ، وسفر أيوب ، ونشيد الإنشاد .

ولا أصدق أن يبلغ الكاتب — الاسكريب — مكانته الاجتماعية فى مصر لمجرد أنه كان باشكاتب ديوان الفرعون ، أو ناظر شفالك أمراء الكور . بل كان فناناً كزملائه الرسام والحفار والنحات ، وكان مفكراً اجتماعياً ، وحافظاً لتراث الآباء والأجداد ، من علم ومعرفة .

ومن آثار الدولة الحديثة صفحة يصور فيها مؤلفها مشاق حياة الزارع والصانع وغيرهما ويشيد بمقام الكاتب :

« لا تكن مزارعاً ، وجانب صنعة الجندية ، واحذر مهنة الكاهن ؛ فليس فى كل هذه المهن ما يعدل صناعة الإنشاء » .

وجاء فى كتاب المدعو « أخطوى » إلى ابنه « پيپى » : « لا شىء يفوق الكتب ، وليتنى كنت قادراً أن أحبب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك ، وأن أنبه فيك الإحساس بجمالها » .

وفى بردية من مجموعة تشستر بيتى المشهورة ، تعاليم للشباب عن مقام أساتذة الماضى ، وما يجب أن تحفظه لهم الأجيال الطالعة :

« أما عن أولئك الكتاب الأعلام ، فإن اسمهم منقوش على صفحات الأزل ،

مع أنهم ذهبوا مع الذاهبين ، وعفت ذكرى معاصريهم . إنهم لم يشيدوا أهرامات ، ولا أقاموا لوحات لذكراهم ، ولم يخلفوا عقباً يتغنى بأسمائهم . إنما هى كتبهم ، وما أودعوها من حكمة أورثوها لنا ، تتحدث عنهم بمقدار ما لهذه الكتب من معنى وقيمة ، وتخلد ذكراهم إلى أبد الآبدين . . . والكتاب أبقى من قصر مشيد ، أو معبد جنائزى فى أرض آمنتى ، أو شاهد من الصوان فى معبد .

« فهل نجد بين ظهرانينا كاتباً مثل هارديديف ؟ أو عبقرياً كإمحوتب ؟ من نضع الآن فى صف بنوفرى وأخطوى ؟ أو نقارنه بفتاح - حوتب أو بقاثيروس ؟ أو بفتاح - أم - جيهوتى ، وحاخب - إراسونب ؟ » .

وكلمة أخطوى لابنه پيپى : « ليتنى كنت قادراً أن أحبب الكتب إليك ، أكثر من حبك لوالدتك » ، لا نبلغ عمق معناها إلا أن نطالع فى نصائح الوزير فتاح - حوتب هذا الكلام الذى كتبه فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد :

« ضاعف جراية أمك . تحملها كما حملتك ، ولاقت فيك المشقة والنصب . حملتك أشهراً فى بطنها ، ثم ولدتك ، فلم ينته عذابها ، بل أرضعتك ثلاث سنين ، وكفلتك وأدخلتك المدرسة ، لتتعلم الكتابة ، وانتظرتك كل يوم بباب المدرسة ، تحمل إليك الطعام والشراب . فعندما تشب عن الطوق ، وتتخذ لنفسك زوجاً ، ثم تصبح رب أسرة بدورك ، اذكر أمك التى حملتك وكفلتك ! وكل ما أتمناه لك ، أن لا تنحى عليك أمك باللائمة ، وأن لا تدعو عليك دعوة يستجيب لها سبحانه وتعالى » .

ومن الثابت أن كانت للمصريين مكتبات تحتوى على الكثير من المراجع ، وتحميها إلهة نرى صورتها على جدران معبد سهورا ، من ملوك الأسرة الخامسة ، هى « سيشات » ، ربة التاريخ ، التى تسجل حوليات الدولة ، شريكة توت فى حماية فن الكتابة والعلوم الرياضية ، سيدة « بيت الحياة » أى معاهد العلم ، وهى التى تنقش الاسم الرسمى للملك فى هليوبوليس ، على أوراق شجرة المنتهى .

ويسأل الملك زوسر ، رأس الأسرة الثالثة ، مستشاره إمحوتب الحكيم ، عن منابع النيل ، وعن الإله الموكل بها ، فلا يجيبه أعلم علماء العصر القديم قبل أن يراجع مكتبته .

والملك نفر — حوتب ، من الأسرة الثالثة عشرة ، ينعى ما أصاب الفن فى زمانه ، ويقول : « ألا كم أحب أن أرى الكتب القديمة التى تتحدث عن الإله آتوم » ، فيشير عليه رجال حاشيته بأن يدخل إلى بيت الكتب ليطالع الكلم المقدس : « وفتح جلالته لفافات البردى ، وحوله رجال بلاطه . . . ثم قال : نحن الملك ، نعلن إرادتنا فى أن يصور أوزيريس مع التاسوع كما نراه فى هذه الكتب » .

أما أن المصرى قصاص بالفطرة ، فأمر هذا قد لايحتاج إلى دليل ، وقد عرفنا ، أبناء الحضر منا وأبناء الريف ، مكانة القصص فى حياة الأسرة والمجتمع ، وقدرة أهلنا على الحكاية المرتبة المشوقة . وأنا واحد من الناس أعتقد بأن كتاب « ألف ليلة وليلة » أدب مصرى فى الكثير من قصصه ، وقد عنيت يوماً بالقصص البحرى فى العربية ، وبقصة السندباد بخاصة ، فوجدت لغة هذه القصص ، وعقلية المتحدثين فيها ، وسماتها ، مصرية بلدية . أما مصادرها فقد تحدثت عنها طويلا فى كتابى « حديث السندباد القديم » ، وأرجعت ما يكاد يكون كل ما فيها من وقائع إلى كتب الرحلات والعجائب والكوزموغرافيا العربية .

أين إذن القصص المصرية فى العصور القديمة ؟ فيما عدا قصة الرحالة ، أو النوتى الذى توغل فى البحر الأحمر وانكسرت سفينته ، وألقى به الموج إلى جزيرة فى جنوبى البحر ، رأى فيها الزوبعة البحرية المسماة « نافورة الماء » ، والتى تعرف عند العرب بالتنين ، لاعتقادهم أنها حيوان بحرى ضخم ؛ التقى فيها بطل القصة المصرية القديمة بهذا التنّين يجاذبه أطراف الحديث . وفيما عدا قصة « سنوهى » ، وقصة « أونامون » ، وقصة « خوفو والسحرة » ، وقصة الأخوين ؟ أين أصول القصص التى سمعها هيرودوتس ، وسردها علينا فى صور مشوهة ، غير مقبولة عقلا ، فى كتابه عن مصر ؟

ولقد اخترت لك من الأدب المصرى كله ، وهو قليل ، صفحة واحدة من روح كتابى هذا . فإن كان كتابى — كما أردت له — صفحات مختارة من ملحمة الشعب المصرى ، فقد حرصت على أن يتضمن قصة « شكاية الفلاح » ، كما يسميها أدولف إرمان ، أو قصة « القروى الفصيح » ، كما يسميها برستيد ، لأنها

تمثل عندى قصة فلاحى مصر على مدى الأجيال والآباد .

وإنما أحب قبل ذلك أن أشير إلى حادثة بسيطة جداً وردت فى قصة « خوفو والسحرة » ، أترك للقارئ أن يستشف منها ما يراه ، وأرجو أن يوافق رأيه ، ما رأيته فيها :

« ومثل ديدى الساحر بحضرة الملك خوفو ، فقال جلالته : يا ديدى ، كيف لم أروجهك من قبل ؟ . أجاب ديدى : إنما نتوجه إلى من يدعونا ، وقد دعانى الملك فلبّيت . قال جلالته : أصحيح ما يقولون من أنك قدير على أن تلصق رأساً فصل عن الجسد ؟ . أجاب ديدى : أى نعم ، يا مولاى الملك ، فى مقدورى ذلك . قال جلالته : علىّ بسجين ننفذ فيه العقوبة توّاً . فاستدرك ديدى وهو يقول : حاشا يا مولاى ! أنا لا أجرب سحرى فى الإنسان . أليس الأخلق بنا أن نجرب مثل هذا العمل فى العجماوات ؟ وأحضروا له إوزة يجرى عليها سحره » .

* * *

فلنقص عليك الآن قصة الفلاح الشاكى الفصيح . حدثت وقائعها إبان الدولة الوسطى ، عندما كانت عاصمة البلاد فى هرقليوبوليس ، فيما بين لشت ودهشور بمصر الوسطى ، وفى عهد ملك اسمه نب — كاو — رع ، يظن أنه حكم قرب نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد . ويبدو أن بطل القصة كان من أهل وادى النطرون ، يتوجه إلى العاصمة ومعه حميره محملة بالنطرون ، يبادل به غلالا .

« كان يا ما كان ، رجل اسمه خنوم — آنوب ، وهو قروى من وادى الملح ، له زوجة اسمها مريا................ واتجه القروى جنوباً إلى هرقليوبوليس ، واتفق له أن التقى برجل واقف على قارعة الطريق اسمه توتى — نخت بن أزيرى ، من رجال رينسى بن ميرو ، رئيس ديوان الملك » .

ما إن رأى توتى حمير القروى حتّى حدثته نفسه بالاستيلاء عليها . فجاء إلى مستدق فى طريق القروى « لا يزيد عن عرض مئزر » ، يحده من يمينه غيط شعير ، ومن يساره مجرى ماء . ففرش عليه ثوباً من قماش ، سد به الطريق ، فيما بين غيط الشعير وشاطئ الترعة ، جرّاً للشكل . ورأى القروى الطريق مسدوداً ، مع أنه ، كما يقول ، « طريق ملك للجميع » ، أى طريق عام ، فجانبه حرصاً على القماش

المفروش ، ودفع بحميره إلى ناحية الحقل ، ليمر من طرفه ، فقضم أحدها قضمة شعير ، فكانت الفرصة التى يغتنمها توتى — ناخت ، صاحب الحقل ، قال :

« سآخذ حمارك هذا ، لأنه يرعى شعيرى !

« قال القروى : إننى أسير فى طريقى ، وأنت الذى اعترضته ، فحملتنى على الانحراف إلى طرف حقلك ، فهل تأخذ حمارى لأنه قضم قضمة شعير من شعيرك ؟ اسمع أما أجول لك : إننى أعرف صاحب هذه الأبعادية ، إنه رينسى ابن ميرو ، رئيس ديوان الملك ، وهو الذى يطارد كل لص فى البلاد ، فهل أسرق فى أملاكه ؟

« توتى : أنا الذى أتكلم ، فما الداعى لذكر السيد رينسى ؟

« وشوّح توتى بهراوته ، ثم انهال بها على الفلاح ضرباً ، وساق حميره كلها إلى دار العزبة . وأخذ الفلاح يصيح مستغيثاً ، فقال له توتى :

« لا ترفع صوتك هكذا يا ولد ، وإلا شيعتك إلى عالم رب الصمت [أى أوزيريس ، وكأنه يقول له : اخرس يا وله ، لاحسن أطلع روحك !] .

« الفلاح : تضربنى ، وتستولى على مالى ، ثم تريدنى أن أسكت ؟ يا إله الصمت ، أستجير بك أن تعيد إلى مالى !

لبث القروى عشرة أيام بباب توتى ، يستعطفه فلا يلقى منه إلا عنتاً وإعراضاً ، فيذهب المسكين إلى العاصمة ، يرفع شكواه إلى السيد رينسى . وهذا يحيله على موظفيه ، فلا يلاقى منهم سوى إهمال أمره ، والميل إلى الغرض ، تحيزاً ازميلهم ، ناظر الضيعة . ويعودون إلى الرئيس ليقولوا له : « إنما القروى مدين لابن أزيرى ، فلم يصنع هذا أكثر من استرداد حقه عنده . وعلى أية حال ، هل يعاقب توتى — ناخت على قليل من النطرون ، وشوية ملح ؟ فليرد عليه قليل ملحه ونطرونه إذا ما لزم الأمر » . ويتغافلون قصداً عن الحمير التى استولى عليها ، وهى مصدر رزق القروى .

يقول برستيد : « يستمع القروى إلى هذا الحكم الجائر ، بينما يجلس رئيس ديوان الملك سارحاً صامتاً . إنها لصورة تجمع فى بساطتها قروناً وأجيالا من التاريخ الاجتماعى للشرق : فى ناحية : شرذمة من الدهاة المداهنين ، رجال رينسى ، ويمثلون

فئة الموظفين ، وفى مواجهتهم الفلاح المغبون ، يمثل صيحة أجيال المحرومين يطالبون بالعدالة الاجتماعية » .

ولم يثن الفلاح حكم الموظفين ، ولا سطوة المحسوبية ، عن أن يعيد بث شكواه إلى رينسى فى بلاغة وفصاحة ، لا يجد بعدها رئيس الديوان مندوحة عن الذهاب إلى ولى النعم ، نب — كاو — رع ، ليقول له : « لقد وقعت يا مولاى بقروى ذرب اللسان . فياض البيان ، وقد استولى واحد من رجالى على أموال له » . فيأمر الملك بأن يستمع رئيس ديوانه إلى الشاكى ، دون أن يظهر استجابة إلى شكواه ، حتى يفرغ ما فى جعبته ، على أن تدون أقواله فى محضر ، وبأن يرسل الرئيس إلى أهله وأطفاله رزقاً ، وأن يوصى حاكم الإقليم بهم خيراً .

وهنا تنتهى تلك المقدمة التى أراد بها كاتبها أن تكون إطاراً لتسعة أحاديث ، يضمنها حكمه على العهد، ونقده للرجال المسئولين ، وهى صفحات كانت تدرس للأولاد كمحفوظات ، وتتلى عليهم كإملاء ، وينقشونها فى ألواحهم تحسيناً لخطهم :

« جعلت يا سيدى أباً لليتامى ، وعائلا للأيامى ، وأخاً للمحرومين . اسمك على رأس شرعة العدل ، ونفسك عالية تكبح جماح الظالم ، وتقيم ميزان الحق . أنصت إلى شكواى ، واستجب إلى دعائى ، ليعود الحق إلى نصابه . أغثنى وارفع عنى ما ألم بى من جور .

« يا سيدى الرئيس ، أنت الصالح المؤمن ، البار بأرزاق الناس ، كأنك النيل تخضر به الحقول ، ويحيا به موات الأرض . فى حماك يأمن الناس غائلة المعتدين ، ولا يمنع السائل عن بابك . لا تستخف بأمرى ، ففى رقبتك شكاية الضعفاء . أنزل بالمسىء عقابك ، حتى لا يختل ميزان العدالة فى يدك ، فتهبط كفة ذنوبك يوم الحساب .

« واجبك أن تصغى إلى الشاكى ، وتفصل بين المحتكمين إليك . وظيفتك حمايتى من المعتدى ، لا أن تقف إلى جانبه . أقم من نفسك للفقير سداً يحميه من الفيضان ، ولا تكن كالسيل الذى يجرفه .

« يا سيدى الرئيس ، أزح عنا الجور ، وامنحنا عدالتك . هبنا من لدنك الخير ، تقطع دابر الشر . كن طعاماً للجوعان ، ورياً للظمآن ، ولباساً للعريان ، ودفئا لمن عضه القر بنابه .

« لقد علمك أهلك ، وأحسنوا تربيتك ، لا لتسرق ، ولا لتساعد السارق ، لا تميل مع المعتدى ، فتكون على رأس المعتدين . حذار أن تصبح البستانى الضال ، فتروى أرضك بالظلم ، وينبت زرعك البهتان ، ويروج الشر فى سوقك .

« أنت ربانها ، سفينة البلاد ، وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ، وهوذا يتدفق من فمى أنيناً وشكوى .

« أنت مغيث الملهوف ، وموقظ النائم ، وملهج لسان الصامت . ليس من شيمك أن تحكم مغاليق قلبك ، وأن تضع أصابعك فى أذنيك حتى لا تسمع إلى من يتهم رجالك الذين أقمتهم لإنصاف الناس ، فكانوا عوناً على من لا خلاق لهم .

« أنصفنى بحق العدالة ، وربة الحق ، يا حامل الطرس والقلم ، كأنك توت الحكيم . فالحق بالحق أولى ، و « معات » إلهة الحق والعدل قائمة إلى يوم الدين ، تؤازر المنصف ، ومن عمل صالحاً ، وهو يوارى التراب مسجىً فى ناووسه ولحده ، وتخلد اسمه لأنه رفع شرعة العدالة ، وأصاخ إلى كلماتها إليه : « لا تنبس شفتاك بغير كلمة الحق ، ولا تقدم يداك إلا الصالحات ، فالحق عظيم ، قوى ، سرمدى ، وثوابه معك حيث تكون » .

« أما الخديعة فلا تورث إلا الندامة ، وريحها الخبيث يدفع بسفينة صاحبها إلى حيث لا مرفأ . ومن نكث عهد العدالة ، فقد الصاحب والولد ، وكانت سوداً أيامه .

« إيه يا سيدى الرئيس ! أرفع عقيرتى بالشكوى فلا تسمع ؟ لم يبق لى إلا أن أستجير منك بأنوبيس فى العالم الآخر » .

* * *

ومع أن نهاية هذه البردية الجميلة ، التى يحتفظ بها متحف برلين ، مشوهة غير واضحة الكتابة ، فإننا نتصور أن الوزير رينسى ، وقد سجل شكوى الفلاح ، حمل المحضر إلى ولى النعم ، فوجد فيه « ما تطيب له نفسه ، ويفرح به قلبه » .

ويتبين ، مما تمكن قراءته ، أن الملك أمر بفحص حالة الفلاح الفصيح ، ثم ترد بضع كلمات غير واضحة ، نرجو أن تكون سجلت قرار الملك بإعادة الحق إلى نصابه ، والأخذ من الظالم للمظلوم .

وقفة الحائر

اللهم قد بلغت الذرى ، وتسنمت قنات المجد ، وكان طريقى الطويل فى الليل المدلهم وعراً عسيراً ، يدمى القلب والقدم . بدأته فى جحيم التاريخ المصرى ، ظلامه وحميمه ، جوعه وزقومه ، جوره ومظالمه ، زبانيته الغرباء يعتدون على وطنى ، وأهل وطنى يعتدى بعضهم على بعض .

أقف أملأ رئتى من هواء الأعالى المخلخل ، وأرجع البصر حائراً . . . متردداً . . . وأنا من عل أشرف على حضارة أربعة آلاف عام ، هى التى جعلت اسم بلادى على كل لسان ، منذ قدماء الإغريق إلى اليوم . الحضارة التى رفعتنى فى أعين العالم المتمدن ، قديمه وجديده ، هى التى نزلت بى إلى الحضيض عندما اشتبه العالم فى أننى غير جدير بأجدادى الأولين ، بل تشكك فى شرعية مولدى ، عندما عرفنى أقل الناس علماً بمجدى الغابر ، وأشدهم إنكاراً لأرومتى .

لست مستحقًّا رفعاً ولا خفضاً ، فقد ولت عصور التفاخر بالحسب والنسب ، وصدق الناس أخيراً أن المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه . لا تحكم لى أو على ، لأن ماضىّ البعيد كان مجداً مؤثلا ، وماضىّ القريب كان ذلة وهواناً . أنظرنى حتى تتبين حاضرى ، وستعرف أن حرفاً واحداً لم أنسه مما بقى من تاريخى الوثنى ، والمسيحى والإسلامى . فليس من طبيعة المصرى أن يتخلى عن تراثه ، تالده وطريفه ، كراكيبه وتحفه الغالية ، عظيمه وحقيره .

فى قلبى الفسيح مكان لكل أسلافى ، عاقلهم وأحمقهم ، غنيهم وفقيرهم . « بهو الأجداد » فى بيتى لا يعنى بأسماء يتردد صداها فى رحاب التاريخ وقاعاته ، بقدر ما يعنى بالمجهولين المغمورين منهم ، ذلك الجبار المصرى الذى رمى وراءه ستين قرناً من الزمان ، مكلل الجبين بكل ذلك المجد ، مثقل الكاهل بكل ذلك العذاب والقهر .

أقف فوق قمة الجبل الشامخ الأشم ، لأملأ رئتى من هذا الهواء المخلخل ، يعترينى دوار ، وينعقد لسانى ويتعطل بيانى ، فما هو هذا التاريخ المصرى الذى

طال السرى بحثاً عنه ، وطلع الفجر علينا ، فإذا به ماثل أمامى من أوله ؟

* * *

عندما سأل هيرودوتس الكهنة المصريين عن عدد الملوك الذين تولوا عرش مصر بعد مينا ، أجابوه بأنهم ثلاثون وثلاثمائة ، وادعى أنهم فتحوا له بهواً عظيماً ، اصطفت فيه تماثيل أولئك الملوك الثلاثمائة والثلاثين .

ويقول ديودورس الصقلى بأن المصريين يعتبرونه مقياساً على حكمتهم ، وسلامة شرائعهم ، أن يتولى الحكم فيهم قافلة من الملوك تتوالى على مدى سبعمائة وأربعة آلاف عام ، وكان جلهم من أهل البلاد .

وكان سولون يردد قول الكهنة المصريين له : أنتم يا علماء اليونان أبناء يومكم فيما تعرفون ، ويضيف أحمد كمال فى ترجمته المسجعة : ليس فيكم كهول فى الفضل ولا شيوخ ، ولا من له فى المعارف قدم ثابت ولا رسوخ .

* * *

التوغل فى العتاقة والقدم هو أول ما يميز التاريخ المصرى . ومن المشكوك فيه جداً أن تكون الحضارات التى قامت فى وادى دجلة والفرات أقدم من الحضارة المصرية ، وهى على أية حال لم تدم دوام الحضارة المصرية .

ويتراوح التقدير الحديث لتاريخ مصر بين ما يعرف بالتقدير الطويل ، وهو ستة آلاف عام قبل الميلاد ، وبين التقدير القصير وهو مئتان وثلاثة آلاف عام . وهذا يتناول تاريخ الأسرات وحدها ، أما ما قبل الأسرات فتاريخ يمتد إلى آلاف مؤلفة لا نعرف لها عداً ولا حصرا .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن : هل توصل العلماء إلى الكشف عن تاريخ مصر كله ؟ والإجابة عن هذا نفى بات ، فما أبعدنا اليوم عن معرفة هذا التاريخ كاملا . ولا يظن أن نبلغ منه يوماً مبلغ ما اجتمع للأوربيين عن تاريخهم اليونانى والرومانى .

وأمامى الآن كتاب أحمد كمال ، المؤلف منذ نحو ثمانين عاماً ، وكتاب جاستون ماسپيرو من أواخر القرن الماضى ، وكتاب أحمد فخرى الصادر عام ١٩٥٦ ، ثم الطبعة الأخيرة من كتاب دريوتون وڤاندييه ، المنشورة سنة ١٩٥٢ ، وتحتوى على تصويبات ومناقشات تحاول وضع الأمور فى نصابها ، حتى تاريخ تأليف الكتاب ، أو إعادة طبعه .

لا أتصور أن أدعى بأن هذه الأعوام لم تضف شيئاً ، بل أضافت الكثير مما يشهد للأثريين والمؤرخين من كل الشعوب بالمثابرة ، والكدح العظيم . ولكن الصفة المميزة للتاريخ المصرى القديم ، سواء طالعته فى كتابى ماسبرو وأحمد كمال أو فى طبعات كتاب برستيد ، أو فى أحدث الكتب ، هى إشعارك بأنك تطالع مجلداً قديماً أكلت القرضة صفحاته ، واخترقت الكثير من كلماته ، بالإضافة إلى ما تشعث وتفرك من أوراقه ، فضاعت فيها فصول بأكملها .

ثم أين الأدب المصرى فى أربعة آلاف عام ؟ أهذا هو كله ، بعصوره الثلاثة ، يجمعه كتاب متوسط الحجم وضعه أدولف إرمان ؟ حقًّا إن الأدب بكيفه لا بكمه ، ولكن ما بقى لنا من الأدب الفرعونى لا يشتمل على صفحات تراع من جمالها كما يروعك هوميروس ، أو قصائد الرجفيدا . إنما هو أدب فيه فن ، وشعر صادق الرنين ، مصرى إلى نخاعه ، كما أحس به وأنا أطالعه فى ترجمات باهتة ، دون أن أستطيع تفسير هذه المصرية القح لشخص أجنبى .

وما هى تلك الآثار الباقية بالنسبة لما ضاع ودال واختفى ؟ أربعمائة أوخمسمائة قبر اكتشفت فى وادى طيبة وسفوح تلالها ، هى كل رصيد ألفى عام على الأقل من تاريخ الأسرات ؟

بل ما هى تلك المعابد المتهدمة ، والأصنام المشوهة ، التى أخرجها العلماء من وسط القمامة والرمال والتراب ، والعشش . وما هى تلك الأهرامات والمصاطب ، والقبور المحفورة فى بطن تلال بنى حسن والبرشة وأسيوط ، وما عددها بالنسبة لما كان موجوداً فى أخريات التاريخ القديم ؟ هل يمكن أن نتصور مصر القديمة كاملة بمبانيها وأهلها ، وحكوماتها المحلية والمركزية ، ونظمها القضائية والإدارية ، وإكليروسها وجيشها وبوليسها ومهندسيها وأطبائها ؟

ومما أضحك له كثيراً سعة خيال زوار الكرنك ، أعظم الآثار القديمة فى العالم أجمع دون شك . ولست أنوى الانتقاص مما يبعثه فى النفس من أثر عميق جدًّا ، ساحق ، يكاد يصرع كل حساس بالفن ، مدرك لمعنى التاريخ . ولكن أين هو معبد الكرنك ؟ وأين الصروح العشرة التى يحدثونك عنها ، ويثبتون موضعها فى رسوماتهم القطاعية ؟ إننى لم أعرف للمعبد المصرى رأساً من ذنب ، إلا قليلا بعد زيارة معبد الأقصر ، وكثيراً جدًّا بعد رؤية معبد سيتى بأبيدوس ، أمثولة لجمال

العمارة بمعناه الكامل ؛ وعندما تشاهد معابد دندرة ، وإسنا ، وإدفو ، ترى أبنية أقيمت فى عهود متأخرة ، تحمل فى كيانها جرثومة التدهور الفنى ، ولكنها احتفظت على الأقل بوضعها وشكلها ، فلا تطالب مخيلتك بأكثر من تصور الألوان ، وإضافة بعض السجف هنا وهناك ، ورفع الأعلام ، واستحضار حياة ذلك العالم القديم الذى احتفظ بالكثير من تقاليده ، وطقوسه ، ومثله الفنية والفكرية ، حتى انهار تحت معاول الهدم ، وسفت عليه رمال الحدثان ، وعوادى الزمان .

يجب أن ندرك ذلك وغيره لنفهم صعوبة الإحاطة بالتاريخ المصرى ، وربما استحالتها ؛ ولا أظن أننا واصلون إلى كتابة هذا التاريخ القديم بطريقة متصلة متناسقة . ومن أحسن الكتب حقًّا ، فى هذا الصدد ، كتاب جيمس هنرى برستيد ، لأن الرجل ، مع استناده الطيب إلى النصوص التى نشرها فى أربعة مجلدات كبيرة ، وإلى غيرها ، لا يفتأ يحدثك حديث الحكاية ، عن ذلك التاريخ ، ويسحرك بأسلوب عفا الآن أمره ، هو أسلوب أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ذلك الأسلوب الأزهر الأنيق . ولكى تعرف ما يضطر إليه ذلك المؤرخ العلامة من التخيل والفروض فى كتابه ، أضرب لك مثلا اخترته عفواً ، مما كنت أطالعه ليلة أمس ، فى أول الفصل الثامن ، عن « تدهور الشمال ، وارتفاع نجم طيبة » :

« وتحول الكفاح الداخلى ، الذى أطاح بالدولة القديمة ، إلى نوبة من الصرع ، كانت فيها يد الدمار هى العليا . أما متى ، وعلى أيدى من نزل ذلك الخراب ، فليس فى مقدورنا حتى الآن أن نعرفه . بيد أن المدافن الفخمة ، التى أنشأها أعظم ملوك الدولة القديمة ، خربت تحت معاول الهدم ، حتى لم يبق للكثير منها أثر يدل عليها . والمعابد لم تنهب فحسب ، بل إن ذخائرها الفنية ، كتماثيل الملوك من الصوان ، وحجر الديوريت ، كانت تدك دكا ، وتتطاير شظاياها شذر مذر ، وتلقى فى بئر ببوابة طريق الأهرام . . . »

أو

« وكان النصر حليف أمينمحعت فى تلك المشاحنات ، ولكنه واجه موقفاً ممعناً فى الصعوبة . ففى كل مكان وقف النبلاء المحليون ، حكام الكور الذين شاهدنا ارتقاءهم فى الدولة القديمة ، موقف أمراء مستقلين بإقطاعاتهم ، وكأنهم ملوكها .

وكانوا يتأملون قائمة أجدادهم القدامى ، وقد انتهوا إلى جيل آبائهم ، أولئك الذين قضى سلطانهم على الدولة القديمة . فيعملون على ترميم مدافن مؤسسى أسراتهم » .

* * *

وفى أول الفصل التاسع : « وكان طبيعيًّا أن يسكن ملوك الأسرة الحادية عشرة فى طيبة حيث عاش مؤسسو الأسرة أيام الحرب الطويلة للتغلب على أهل الشمال . ولكن أمينمحعت لم يكن فى إمكانه السير على هذا التقليد . ويسهل تصور الأسباب التى حدت به إلى تقدير ضرورة انتقاله شمالا حتى يحتفظ بمقامه بين حكام الشمال ، ممن لم ينفكوا عن الميل إلى البيت المالك فى هرقليوبوليس . هذا إلى أن جميع ملوك مصر — فيما عدا الأسرة الحادية عشرة ، التى أزاحها أمينمحعت — منذ انتهاء دولة طينة [طينيس] ، أى منذ ألف عام استقروا هناك . فاختار موضعاً قريباً من النهر ، لبضع أميال إلى الجنوب من منف . وهو موضع لم نوفق بعد إلى تحديده ، والغالب أنه كان قريباً من الموقع المعروف الآن باسم لشت ، حيث اكتشفت أنقاض هرم يحمل اسم أمينمحعت . . . وكانت الأمة مؤلفة من مجموعة دويلات ، أو إمارات صغيرة يدين رؤساؤها بالإخلاص للفرعون ، ولكنهم لا يعتبرون موظفين عنده ، أو خداماً له . كان بعضهم من « اللوردات » الكبار ، أى حكام الكور ، والبعض الآخر كانوا مجرد « كونتات » يحكمون على أبعادية ، يتوسطها مركز العزبة الحصين . كانت دولة إقطاعية ، لا تختلف كثيراً عما عرفته أوربا فى عصورها الوسطى ، تلك هى الدولة التى ساس أمينمحعت أمورها . . . »

* * *

ستجد الكثير من هذا فى كتاب برستيد ، وغيره ، وسأنقل إليك فى فصل تال صفحة طويلة من كتاب « موريه » عن « النيل والحضارة المصرية » ، تعرف منها وسيلة مؤرخى مصر القديمة فى إنشاء تاريخ يقرأ . فالمؤرخ إما أن يلزم حدود النصوص ، فلا يخرج عن مجرد آلة تسجل وتترجم ، وإما أن يعمل بعقله وقريحته وأسلوبه ، فيستنتج ويعلل ويحلل . ولو لم يفعل ذلك لظل تاريخ مصر « أرشيفاً » ميتاً . وأصدق ما طالعت فى هذا الصدد قول ولسون فى مقدمة كتابه عن الحضارة المصرية الذى نشره فى طبعته الأولى تحت عنوان « عبء مصر » ، قال :

« والكتاب التاريخى بمعناه يحاول الاحتفاظ بأكبر قسط من الطريقة العلمية ،

والتزام الموضوعية ، ويكون الكتاب مرجعاً للمشاهدات التي سجلت، وروجعت ، في أحقاب التاريخ المختلفة . وهذه المشاهدات والملاحظات يجب أن تعرض بحيث يمكن التحقق منها ، وتحليلها واختبارها بواسطة الآخرين . أما تفسير المشاهدات والوقائع ، أي محاولات المؤرخ أن يضفي عليها رواء التسلسل ، ويجعل لها قيمة ، فيجب أن يحدد ويوضح ، حتى لا يأخذ القارئ به إذا أراد أن يستنتج بنفسه من واقع الحقائق المعروضة . والطريقة المثالية لعرض التاريخ المصري هي في تقديم مكتبة تحتوي على الكتب التي تعالج مصر القديمة ، وإلى جانبها المصادر ، والمجلدات والدراسات المختصة ، التي تؤدي إلى تاريخ الحضارة . أي أن تعرض للقارئ : مجلدات تشتمل على ترجمات لجميع أنواع النصوص والمتون المصرية ، يضاف إليها الجديد أولا بأول ، وأن ترفق هذه الترجمات بتعليق كاف يقنع القارئ بقيمتها كترجمة ؛ ومجلدات تصف وتحلل البقايا المادية للحضارة المصرية ، ومن ضمنها الأعمال الفنية ، مع صور واضحة لها ، ومع تحديد تواريخها ، حتى تمكن القارئ من الحكم عليها كمستندات ؛ ومجلدات تتناول الدراسات الخاصة بالديانة ، والسياسة ، والاقتصاد ، والنظام الاجتماعي ، والصناعات ، والعلوم ، والفن والأدب إلخ ، والتطورات التي مرت بها كل هذه . ثم تلخيص كل تلك المواد في تأريخ للحضارة لا يخرج عن حدود الاعتدال ، يتاح فيه للمواد الأصيلة أن تتحدث بقدر الإمكان عن نفسها . وهذا هو الأساس الذي يمكن للمؤرخ من أن يتقدم بتعليلاته التي تستهدف ، أو تزعم ، تفسير قصة التاريخ ، وإبراز قيمتها » .

ويعترف ويلسون ، وهو يقدم لكتاب من أحسن وأعمق ما كتب دراسة للحضارة المصرية ، بأنه وضع فيه « العربة قبل الحصان . فالدراسة الحالية في أغلبها هي عربة التعليلات ، والحكم الشخصي للمؤلف ، التي كان يجب أن تسبقها خيول من المصادر الأصيلة ، وتاريخ في حدود الاعتدال » .

ثم يقول بأنه وضع العربة قبل الحصان لأن « أغلب خيولنا . . . لا وجود لها أو أنها بلغت من الكبر عتياً » ، مشيراً بهذا إلى نقص كبير في النصوص ، وحاجة ملحة إلى إعادة النظر في ترجمة ما سبق أن ترجم منها .

ويتساءل ويلسون عما هي « الحقيقة » في التاريخ المصري القديم ، وعما هو

السجل التاريخى ؟ يعنى بذلك أن من الخطأ الاعتماد على ما كان المصريون يقولونه عن أنفسهم ، تبريراً لأعمالهم ، عندما يقفون أمام الديان ، أو ليرسموا لأنفسهم صورة تاريخية معينة . وقد ثبت مثلا أن حكاية رمسيس الثانى التى تمدح بها الشعراء ، ورسمها الرسامون ، وسجلها المؤرخون : حكاية وقوفه بعربة الحرب وحده ، يصد جحافل الحيتا ، ليس لها ظل من الحقيقة ! ولم نكن بحاجة إلى إثبات علمى للزيف فيها . فقد كنت ، وأنا غلام يعلمونه التاريخ ، لا أرى فيها إلا ما يشبه وصف بشر بن عوانة للقائه مع الأسد ، فى قصيدته المشهورة ، وإلا ما يذكرنى بأشعار عنترة العبسى يصور نفسه لحبيبته وهو فى نقيع المعامع ، والسيوف تلمع « كبارق ثغرها المتبسم » . لم أكن أصدق البتة أن بشر بن عوانة كان « هزبراً أغلباً لاقى هزبرا » ، ولم آخذ العبسى مأخذ الجد لحظة واحدة . وما كان أقسانى تشفياً فى المتنبى عندما عرفت أنه كان أى شىء إلا ذلك الفارس المقدام ، والأسد الضرغام ، الذى صور به نفسه فى شعره الجزل الرائع !

إننى أحيل القارئ على مقدمة الدكتور ويلسون ، فهى من أصدق وأعمق ما طالعت تعليقاً على كتب تاريخ مصر القديمة ، والرجل معترف بأن كتابه واقع فى المحظور الذى يتحدث عنه .

لقد حاولت مثلا أن أفهم ولو قليلا من الديانة المصرية خلال تفسيرات وتخريجات ، ولف ودوران ، فأحسست إحساساً مؤلماً بأن أصحاب هذه التعليلات غير واثقين مما يكتبون ، وأن حقائق الديانة ليست واضحة لهم ، وإلا لما صعب عليهم أن يوضحوها لنا . ولست أظن بحال أن تلك الديانة كانت على شىء من التعقيد الذى نعرفه فى الديانة الهندوكية — وهى وثنية متعددة الأرباب كالديانة المصرية — ولكنهم أهل التخصص ، مؤرخو مصر القديمة ، هم الذين صوروا الديانة المصرية على شكل ذنب الضب ، أو أعقد .

وليس من عملى فى هذا المجال ، ولا فى غيره ، أن أوضح معالم التاريخ المصرى ، أو أصف الحضارة المصرية ، إنما هى انفعالات يجرى بها القلم هنا وهناك ، ورحلات فكرية فى رحاب ذلك التاريخ .

لا أعرف للتاريخ المصرى غير حقيقتين لا مرد لهما : الحقيقة الأولى هى النصوص المنقوشة على الجدران ، والمكتوبة فى البرديات ، أو فوق الشقفات والشظايا ،

مترجمة ترجمة أقرب إلى الصحة. وفى التاريخ المصرى نصوص ذات أهمية كبرى ، كنصوص برديات هاريس عن عصر رمسيس الثالث ، وكتون أهرام أوناس وأسرته ، ونصوص كتاب الموتى ، وبرديات إدوين سميث الطبية ، وكل ما يدخل فى عداد الأدب من آثار. ولكن هذه النصوص وأمثالها ، إن ألقت ضوءاً على بعض حقائق الحضارة المصرية والتاريخ ، فهى لا تمثل إلا قسطاً يسيراً من الحياة المصرية ، وهو القسط الممتاز الذى يخرج فى الغالب عن حدود الاعتياد .

فهل صورة مصر الموتى هى صورة مصر الأحياء ؟ وهل كانت فكرة الموت مستحوذة على المصرى ذلك الاستحواذ الذى يبدو فيما بقى لنا من آثاره ؟ هل من المحتوم أن أصدق كلام ديودورس وهو يقول : « أولئك الناس كانوا ينظرون إلى الحياة كأنها فترة قصيرة لا أهمية لها ، بينما هم يعنون عناية كبرى بحسن الأحدوثة التى تتخلف عن فضائل الإنسان بعد موته . لذلك هم يعتبرون بيوت الأحياء نزلاً يقضى فيها المرء بعض الوقت ، ثم يمضى ليقيم إقامة دائمة فيما كانوا يسمونه « بيوت الأزل » . فلم يعن الملوك ببناء قصورهم ، إنما بذلوا كل مرتخص وغال لإعداد مدافنهم » .

وماذا نقول نحن المسلمين غير ذلك ؟ وهل يقول إخواننا المسيحيون شيئاً آخر ؟ ألسنا نحيا فى هذه الدنيا بكل معانى الحياة وكأننا نعيش أبداً ؟ وما أقل ما نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً . ولكن إذا جاء بعدنا من يطالع أمثال هذه الأحاديث القدسية ، وروائع ما يؤثر عنا من كلم ، وما تأمر به الديانات وما تنهى عنه ، هل يستطيع — إذا لم يكن عرف حقيقتنا — أن يتصورنا إلا قوماً . . . نعمل لآخرتنا كأننا نموت غداً ؟ !

يصف العلامة أميلينو الجنس المصرى بأنه من أعظم الأجناس بشراً وحبًّا للحياة ، ويدعى بأن المصريين منذ العهود القديمة حتى اليوم — أى حتى أوائل القرن الحالى — أطفال كبار ، يحبون البحبحة ، ويقبلون على المسرات ، أهل اجتماع وألفة ، ينزعون إلى كل مباهج الحياة الدنيا ومتاعها . وما علينا إلا أن نلقى نظرة — ولو عابرة — على الرسومات والتماثيل التى تزين المقابر منذ أقدم العصور لنتأكد من صدق ما يقول . والمصرى — على حد قول أميلينو — لا يكتفى بحقائق

الحياة وحدها ، مهما كانت مفرحة مبهجة ، فهو ما فتئ هائماً فى خياله بحثا عن الخوارق، وجرياً وراء المغالاة . . . وما إن تحول المصريون إلى المسيحية حتى مزجوا بين عقائدهم القديمة وبين دينهم الجديد ، ولم ينبذوا أساطيرهم العتيقة ، بل كسوها لباسا مسيحياً ، فتحولت آلهتهم القديمة وجنهم ، إلى ملائكة وقديسين ، وإلى أبالسة وشياطين .

* * *

لقد حسب كابار عدد مقابر طيبة ، فكانت فى حدود الأربعمائة ؛ وقدرها بالنسبة للقرون التى دفن أصحابها فى خلالها ، وعلى أساس خمسة وعشرين عاماً للجيل الواحد فى الزمن القديم ، فإذا لكل جيل عشرة قبور لا غير . أى أن حسبته أوْصَلَتْهُ إلى أربعين ميتاً فى كل مائة عام ! ثم قال بأن محاولة استخراج الطقوس الجنائزيةمن هذه القبور تشبه أن يحاول الناس ، بعد بضعة آلافالسنين من اليوم ، التوصل إلى طقوس الفرنسيين والإنجليز فى الجنازات . . . من مدافن البانتيون ودير وستمنستر .

ما أصدق قول ماسبرو لسائليه، عما إذا كان تاريخ مصر القديمة تم ظهوره للعيان : « إننا لم نفعل حتى الآن شيئاً أكثر من خدش أحدثناه فى ذلك التاريخ ! » ماسبرو الذى فارقنا منذ أربعين عاماً وبعض الأعوام : وكان من أعمق رجال عصره، وأوسعهم علماً بتاريخ مصر والشرق القديم !

ثم هل فهمنا النصوص المصرية ، التى تفرش على أكثر من ثلاثة آلاف سنة ـ على وجهها الصحيح ؟ أما نلاحظ تطور اللغة على مر القرون ؟ ونحن نعرف ما يصيب لغاتنا الحية من تحول فى مئات السنين ، حتى مع بقاء ألفاظها دون تغيير : تأمل على سبيل المثال كلمة « نكتة » عند الجبرتى منذ أقل من قرن ونصف ومعناها « واقعة » أو « كائنة » أو « اختراع » ؛ وقارن ذلك بمعناها المتداول اليوم : تحولت من « واقعة مهولة » إلى « قافية » . كما انتقلت كلمة « قافية » ، هى أيضاً، من مكانها فى النظم ، لتعنى شيئاً آخر ، مع احتفاظها بمعناها الأصلى . وكلمة « كائنة » ـ وهى أيضاً « الواقعة المهولة » ، كانت إلى عهد قريب تستعمل فيما لا يخرج عن معناها الأصلى ، فى قولك : « دا كاينة » أى « مصيبة » أو

« داهية » . وتأمل كلمة « داهية » فى معناها المزدوج من الدهاء ، ومن دهته داهية !

فلنفتح أحدث قواميس اللغة المصرية لنتعجب من كلمة مصرية ما زال كل معناها عند جهابذة اللسان البربانى هو : « فعل يعنى حركة أو عملا عنيفاً » ! ؟ فإذا توصل القاموس إلى المعنى الدقيق لكلمة من الكلمات ، إذا به يضيف فى ذيل شرحه ؟ « أو ما أشبه ذلك ! » ، كأن تقول : عجلة ، دائرة ، خاتم ، طوق ، حجر رحى . . . أو ما أشبه » ! !

وتذكرنى « ما أشبه » هذه بخاتمة الشروح والمباحث والهوامش فى كتب العرب ، وهى تختم بقولهم « والله أعلم » .

كلا ، إن مصر لم تكشف بعد عن كل مخبوءاتها ، وما برحت نصوص كثيرة تنتظر أن تترجم أو أن تعاد ترجمتها . ومتاحف العالم ما فتئت ملأى بالبرديات والشقفات والشظايا والألواح والشواهد من الحجر ، لم تفحص بعد ولم تترجم . هل تصدق أن البرديات العظيمة المعروفة باسم برديات إدوين سميث ، منذ سنة ١٨٦٢ ، وهى البرديات التى كشفت عن عبقرية — وأقول عبقرية ! — مصر فى الطب ، لم يترجم نصها وينشر بترجمته إلا عام ١٩٣٠ ، على يد جيمس هنرى برستيد ، ثم ألقى عليه محمد كامل حسين ، بعد ذلك بسنوات قليلة ، ضوءاً باهراً من علمه وألمعيته الجراحية ؟

وكيف نأمل أن نتوصل إلى صورة أقرب إلى الكمال للتاريخ المصرى ، والعواصم المصرية الكبرى فى الدلتا — فيما عدا تانيس ! — لا عين ولا أثر . أين بوطو ، وبوباسطيس ، وعاصمة رمسيس الثانى فى شرق الدلتا ، وسبينيتوس (سمنود) ، وزويس (سخا) ، بل أين منف ، وايون (عين شمس) ؟

والحقيقة الثانية فى التاريخ المصرى ، والأخيرة ، وهذه لا يمكن أن يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، هى الفن : فن العمارة ، والرسم ، والتصوير ، والحفر بالبارز — المنخفض [بارلف] ، والنحت المستدير . الفن هو العنصر الحى الخالد فى تاريخ مصر ، يعيش بين ظهرانينا ، يتحدث إلينا بلغة العقل والشعور . قد نفهم لغته وقد لا نفهمها ، ولكننا فى هذا كمن يفهم لغة الموسيقى أولا يفهمها ، ويتفاوت

تقدير الناس للفنون وتختلف آراؤهم . ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الفن الماثل لعيوننا . حقيقة خرجت من تحت يد الفنان المصرى ، كأنه انتهى منها تواً. ولست أعنى أن الصور احتفظت بألوانها وخطوطها كما تركها أصحابها ، إنما أشير هنا إلى صفة تختص بها الفنون التشكيلية عامة ، وهى أنك تشاهد العمل الفنى — إذا قدر له البقاء — بعد ساعة أو بعد ألف عام ، فكأنك تراه وقد انتهى منه الفنان على التو ، وانزوى عنك ليسمح لك بمشاهدته ، دون أن يسمع تعليقاتك عليه .

وضحت معالم طريقى ، وثبت لرشدى ، بعد ذلك الدوار الذى أصابنى ، وقد بلغت الذرى ، وارتقيت فى رحلتى عبر التاريخ إلى القمم العليا . فلأتحدث قليلا عما حققته لنا النصوص من تاريخ عام ، قاعاً للصورة وإطاراً لها ، أقدم فيه الفن المصرى .

ثلاثة آلاف عام

سأحدثك عن تاريخ مصر القديمة فى صفحات قليلة ، وهى كل ما أحب أن أتذكره من تاريخ بلادى فى العهد القديم . وقد لا يكفيك هذا القليل ، وإنما الذى يجب أن نتفق على إدراكه والإحساس به : هو الحضارة المصرية ، وأهم ما بقى لنا منها . وهو الفن .

وادى النيل الأدنى ، وقد درجت فيه حياة ما قبل الأسرات ، يحكمه نظام مركزى يقتضيه رخاء البلاد ؛ واشتراك سكان ضفتى النيل فى حراسة فيضانه ، والاستعداد لتحاريقه . ما إن يوحد مينا شطريه البحرى والقبلى ، حتى تنتهى العصبيات الإقليمية ، ومشاحنات أمراء الكور ، وكانت فى الغالب اشتباكات مصادرها أنانية الأمراء ، مما لم يكن يرضى عنه الشعب . وهو يحس فى قرارة إلهامه بأن حياته ، المرهونة بالشمس والهواء والأرض والنيل : لا تتحمل التفرق والتناحر . وعندى أن سلطان الملك على الجميع ، والأساطير التى تتحدث عن الأصل الإلهى للفرعون ، وعن عهود كان ملوك مصر هم الآلهة ، تؤدى معنى واحدا : ذلك أن الشعب هو الذى أله الملك ، ووطد سلطانه .

والخرافة التى أطلقها هيرودوتس ، وتصور المصريين عبيداً للفرعون ، قضى عليها المؤرخون المحدثون . فأهرام الملوك . ومصاطب العظماء . كما نعرفها ، وما تدل عليه من براعة فى التصميم ، ودقة فى التنفيذ ، وما تحتويه من فن رفيع ، لا يمكن تصور تحقيقها على شعب من الأذلاء . لأن جو الاستعباد الخانق يقضى على الملكات ، ويعرقل تفتح العبقريات . وإمحوتب العظيم ، الذى أله المصريون فى الدولة الحديثة — وهو من رجال الدولة القديمة — لم يكن ملكاً ولا أميراً ، وإنما كان من آحاد الشعب المصرى ، ارتفع بنبوغه . وساد بعبقريته فى الخلق والتصميم والتنفيذ . وغير إمحوتب العظيم . أولئك الفنانون المجهولون الذين حفروا رسومات سقارة ؛ ونحتوا تماثيل خفرع وشيخ البلد والملك بيبى والأمير رع — حوتب والأميرة نفرت ؛ ورسموا إوز ميدوم ، لا أتصور تيقظهم الفنى ، وحريتهم فى التعبير ، فى جو عبودية

وكبت . تأمل حياة الشعب المصرى على جدران مقبرة تى وفتاح – حوتب ومير يروكا ، وتجول فى حرم الهرم المدرج ، وقف بأعمدة البهو القديم ، تحس بحب الحياة ، حياة شعب مطمئن هانئ ، لا شعب يعيش كما صوره هيرودوتس فى زمان رأى الشعب ذليلا مستعبداً تحت أقسى حكم عاناه فى تاريخه القديم ، لم يعرف الشعب له شبيهاً إلا تحت الحكم العثمانى : وهو سيطرة الفرس .

هذه الدولة القديمة ، من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة ، هى قمة الحضارة المصرية الأصيلة الخالصة ، النابعة من روح الشعب المصري ، دون ضغط أجنبي ، أو تأثر بالغرباء . ولا تحسبن الأهرامات غروراً ودعاية ، بل طالع فيها ما طالعه ذلك الرومانتيكى المرهف الحس شاتوبريان حين قال :

« لم يشيد المصرى الأهرام لشعوره بالفناء ، بل لإيمانه بالبقاء . هذه المدافن لا تمثل ختام حياة يوم أو بعض يوم ، إنما هى معالم الطريق إلى حياة لا تعرف النهاية ، إنها أبواب الخلود ، أقيمت على حدود الأزل » .

لا تصدق من يتحدثون عن الصلف والغرور والدعاية فى الدولة القديمة ، فلم يعمل ملك أو أمير ، ولم يشيد مهندس ولم يرسم فنان ، ليعرضوا بضاعة ، ولكنهم استجابوا إلى نوازعهم النفسية نحو حياة باقية ، لا تقطعها لحظة الموت .

تحس أمام آثار الدولة القديمة برخاء البلاد ورغد عيشها ، وإقبالها على الحياة بنفس رضية . تأمل أبا الهول ذات صباح عند شروق الشمس ، وطالع على سيماه صورة صادقة للحياة المصرية فى الدولة القديمة : سماحة الوجه ، وابتسامة الجيوكوندا ، رأس إنسان بكل معانى الإنسانية ، على جسم حيوان رابض ، رمز للهدوء والاطمئنان ، لا تحفز فيه لعدوان ، ولا توقع لعدو طارئ . تلك هى مصر الدولة القديمة ، آمنة داخل حدودها الطبيعية . فليست مواقع حربية تلك التى تجرى فى شبه جزيرة سيناء ، إنها حملات بوليسية تأديبية ، لتمنع عبث العابثين هناك ، ولتؤمن الطريق إلى المناجم . وحينما نام الأمير تحوتمس ، من أمراء الأسرة الثامنة عشرة ، بين ذراعى أبى الهول رأى فى منامه ما تراه أنت فى صحوك إذا طالعت وجه هارماخيس ، يستقبل شمس الصباح : آتوم – رع – هاراختى .

ويفاجئك المؤرخون بقولهم إنهم لا يفهمون تماماً ما حدث بعد الأسرة السادسة .

ومن حقهم أن يحسبوا البلاد تفرقت شيعا وأحزاباً ؛ فكل هذا جائز ، والغالب أن يكون قد حدث كما يظنون . ولا تنس أنها مئات السنين ، لا عشراتها ، انقضت بين بناة الأهرام والأسرة الثانية عشرة . والملك پيپي الثانى ، آخر ملوك الدولة القديمة ، حكم نحو مائة عام حكماً صالحاً ؛ ولكن استطالة ملكه انتهت إلى نهاية محتومة ، من نزوع أمراء الكور إلى الاستقلال ، كما يحدث فى الأسرة الواحدة ، حينما يطول عمر كبيرها ، ويمتدّ عهد خدمه معه . ومتى انفرط عقد مصر ، انهار كيانها السياسى والاقتصادى والفنى ، ويمكنك أن تتوقع حدوث أى شىء للبلاد . ففى أوقاتها المضطربة ، يكفى أن يتأخر الفيضان ويتراخى ، حتى تنزل بالناس المجاعة ، وتشوطهم فى إثرها الأوبئة . كل ذلك نعرفه عن يقين فى مصر العصور الوسطى ، والتاريخ لا شك يكرر نفسه فى المكان الواحد والظروف الواحدة ، بل هو يحاكى نفسه فى أمكنة متباعدة ، إذا كانت ظروفها متشابهة .

وإذا كانت القوة المركزية ستعود إلى الدلتا فى أكثر من حقبة من أحقاب التاريخ المصرى القديم ، فإنه يمكن القول من الآن بأن عهد منف العظمى قد انتهى ، وبدأ الصعيد يرفع رأسه ، أولا على أيدى أمراء مصر الوسطى ، وسيكونون سلماً لهيمنة أمراء الصعيد الأعلى فى الطيبائيدة . وسيبدأ فى الدولة الوسطى عصر التوسع والفتوح نحو الجنوب فى بلاد النوبة . ولكن هذه الدولة الوسطى ستكون عهد حضارة أقرب إلى عصر الدولة القديمة منه إلى الدولة الحديثة ، عهد تنظيم الري والزراعة ، وإقامة المنشآت العظيمة ذات الأهداف العمرانية ؛ وستعود الملكية إلى سلطان ليس كالقديم فى إطلاقه ، ولكنه شبيه له فى إحكامه وبسطته وعدالته .

ثم يختفى تاريخ مصر فى غياهب عثمانية ، عندما ينزل بأرضها كالجراد شعب جائع بربرى ، جاء من الشرق ، من آسيا ، يظن آنا أنه فخذ من أفخاذ إسرائيل ، وآنا آخر أنه ينتمى إلى جنس هندو — أوربى ، وينتهى بعض المحدثين إلى أنهم كنعانيون . وسواء أكان هذا البلاء إسرائيلياً أو قحطانياً أو هندو — أوربياً ، فقد حل معه الخراب والدمار ، ونزلت مصر إلى حضيض لن نعرفه فى تاريخها الحديث إلا تحت حكم باشوات آل عثمان . إلا أن الصعيد المصرى يظل — كما هو — وكما سيظل دائماً — مهد الخلاص ومأوى الأحرار . فليهيمن الهكسوس فى الدلتا ما شاء لهم

جوعهم وعريهم وتبربرهم ، وليقيموا معسكرهم الكبير فى أواريس فى شرق الدلتا . أما أمراء الوجه القبلى ، فلم تخب حميتهم ، ولا بردت نخوتهم ، وما فتئوا يعملون حتى نظفوا البلاد من أولئك الهمج الدخلاء .

ويبدأ عهد الأسرة المجيدة ، الثامنة عشرة فى حساب الأسرات ، عهد أحمس وتحوتمس وحتشبسوت وأمينوفيس وأخناتون . تلك هى الإمبراطورية المصرية التى رفع عمادها ابن من أبناء الصعيد ، يروق لبعض المؤرخين أن يشبهوه بنابليون ، وللبعض الآخر أن يقرنوه بيوليوس قيصر : هو تحوتمس الثالث . فإذا كانت الدولة القديمة هى عهد الأمن والرخاء والاطمئنان ، فقد كان الأمن خداعاً ، ولم تعد الحدود المصرية أرصاداً سحرية تمنع الأعداء ، وأصبح لزاماً على ملوك الصعيد ، وهم يطاردون الهكسوس إلى ما وراء الحدود ، أن يتعقبوهم شمالا حتى جبال طوروس ، وأن يبسطوا سلطانهم جنوباً حتى فوق الشلال الرابع ، وغرباً إلى بلاد برقة . فالدولة الحديثة ، اضطرتها ظروف الغزو الهكسوسى ، وقيام القوى الخارجية : إلى أن تدخل فى مغامرات هائلة ، مغامرات فى الحرب والسلام على السواء ، وفى العقائد والأدب والفن ، وستدفع مصر غالياً ثمن هذه المغامرات ، وهى أتاوة الشعوب التى تنزع إلى التوسع والسيطرة البعيدة ، أيًّا كانت أسباب هذا التوسع . لن تعود مصر ، بعد طرد الهكسوس ، إلى أمنها وطمأنينتها ؛ فقد عرفت قيمة الاعتماد على الحدود الطبيعية ، عندما تقوم وراء تلك الحدود دول تطمع فى خيراتها . وسيكون طريق الشرق هذا هو سبيل الغزو على مدى التاريخ المصرى حتى العصور الحديثة ؛ ولن يجىء الغزو من الغرب إلا أيام المعز لدين الله الفاطمى ، وإلا فى محاولات الأتراك والألمان الفاشلة ، فى الحربين العالميتين الأخيرتين .

حق لمصر أن تتمثل بالحكمة القائلة : إذا أردت السلام ، فعن طريق الحرب . وستحارب إبان الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين . وستضطر إلى إنشاء جيوش مدربة ، تمارس فنون القتال الحديثة ؛ فلم يعد يكفى تجنيد المواطنين لشدة أو لعملية تأديب البدو ، يعودون بعدها إلى زراعاتهم وصناعاتهم . وإذا ما أنشئ جيش عامل محترف ، فهو يبدأ بالمصريين ، ثم يضم إلى صفوفه كل من تقع عليه اليد من أمم العالم القديم المحاربة ، من أمثال الليبيين والنوبيين والإثيوبيين واليونان .

وظاهرة من ظواهر الحروب فى كل الأزمان . آن يعتمد مثيروها على آلهتهم ، يسألونهم العون اعتماداً على عدالة قضاياهم فى تلك الحروب . وملوك الصعيد برره بآلهتهم ، وبكبير هؤلاء الآلهة . آمون . ولن يعزو الملوك انتصاراتهم إلى أسلحتهم وأذرعتهم وحدها ، بل إلى مؤازرة آمون هذا : فهم يغدقون عليه الخيرات ، ويقدمون له الأسرى والغنائم . وبذلك طغى سلطان آمون وكهنته ، فى الدولة الحديثة ، على كل سلطان . ، وجاءت ثورة أخناتون . وإخفاقها بعد موته ، سنداً جديداً لآمون . وسبيلا لتضاعف سطوته وبطشه ، ومن ورائه كهنته . ولن يجدى مصر نفعاً فتوحات رمسيس ومغامراته . ما دام كهنة آمون من ناحية ، والأجناد الأجنبيه من ناحية أخرى . يشعرون بسلطانهم . أى أن مصادر تضعضع الإمبراطورية الحديثة كانت داخلية وخارجية : داخلية بسبب هذا الصراع بين كهنة طيبة وبين الملكية ، وخارجية فى تلك الدول الأجنبية التى عرفت أن مصر يمكن أن تغزى كما غزاها وحكمها الهكسوس ، وتخضع للقوة كما خضعت لأجناد أورايس .

وإذا خشعت الشعوب المغلوبة بعض الوقت ، واستكانت للحكم الفرعونى ، فآلها أن تنتقض على السيادة المصرية ، وما عليها إلا أن تتربص بالدولة المستعمرة تتلمس تبلبل أحوالها ، وضعف حكامها . لتثور عليهم ، وتنتزع منهم استقلالها .

سيحكم مصر كهنة آمون ، وستحكمها أسر ليبية وإثيوبية ، ولن يرتقى هؤلاء وأولئك عرش مصر كغزاة جاءوا من الغرب أو من الجنوب ، بل كرؤساء جند بالجيش المصرى ، أو كحكام محليين من قبل فرعون . كل هذه الأسماء ، من أمثال شيشونق وطهارقة . أسماء ليبيين وإثيوبيين ، اقتحموا مرتقى العرش بسواعدهم من بين قواد الإمبراطورية المصرية ، كما سيفعل المماليك فيما يجىء من الزمان

وقد ترنو مصر إلى المجد فى العهد الصاوى ، فتتخذ مثلها فى الفن والإدارة من الدولة القديمة ، وستتوهج جذوة الحضارة زماناً غير طويل . ولن يصون استقلال مصر إلا تخاذل الدول الحديثة حولها ، أما حينما تقوم من بينها دول قوية ، كالأشوريين والفرس . فما أسرع أن تهاجم مصر وتحتلها . وكان الفرس ، بعد الهكسوس ، وقبل الأتراك العثمانيين ، من أسوأ من عرفتهم مصر ظلمة مفسدين . وسيجىء الإسكندر ليخلص مصر من حكم الفرس ، وتنتهى بذلك سلسلة الأسرات المصرية الثلاثين .

والأسرة الفارسية التي يعدها بعض المؤرخين القدماء الأسرة الأولى بعد الثلاثين ، وتدخل مصر فى حومة الحضارة الهلينية .

* * *

أرجو أن يكون الوقت قد حان لنجرى حساب سنوات الاستقلال المصرى ، بالنسبة لسنوات الاستعباد . وفى هذا الحساب يجب الاتفاق على أن مصر لا تفقد استقلالها وإن قامت على حكمها أسرة أجنبية ، كالبطالسة والطولونيين والإخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك . إنما مصر تفقد استقلالها عندما تنزل إلى مرتبة الولاية والإيالة والإقليم ، ويحكمها ملوك أو إمبراطرة أو خلفاء أو سلاطين ، يعيشون فى عواصم خارج مصر . ومع أن الهكسوس حكموا فى أواريس قرب صا الحجر ، إلا أنني سأسقط حكمهم من حساب سنوات الاستقلال ، كما أسقط حكم الفرس .

فلنبدأ من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، حسب التوقيت القصير ، حين يتوحد الوجهان البحرى والقبلى ، ويلبس أول ملوك الأسرة الأولى التاج الأحمر والتاج الأبيض ، مجتمعين فيما يعرف بالتاج المزدوج « بشنت » . وعندما ينتهى حكم البطالسة ، وتضم مصر إلى أملاك أغسطس قيصر الخاصة ، عام ٣٠ قبل الميلاد ، يكون قد انقضى على مصر نحو ٢٨٠٠ عام ، كانت فيها دولة مستقلة ، دون نظر إلى نوع الأسرات الحاكمة .

ومنذ الحكم الرومانى حتى بدء الدولة الطولونية ، مضى على مصر نحو ٩٠٠ عام كانت فيه ولاية لروما ، ثم لبيزنطة ، فالعرب بالمدينة ودمشق وبغداد .

ومن الدولة الطولونية حتى الغزو العثمانى ، عاشت مصر دولة مستقلة نحو ٦٠٠ سنة .

وسواء اعتبرت حكم أسرة محمد على استقلالا عن الدولة العثمانية ، أو تبعية لها — ولقد حرصت على أن أدقق فى سنوات الاستقلال ، حتى أصل إلى نهايتها الصغرى ، فى سلسلة الاحتمالات ، فلا يتطرق شك إلى ما أنا بسبيله ، ولهذا راعيت أن مصر إيالة تركية ، تابعة اسميًّا لتركيا ، حتى زالت عنها تلك السيادة العثمانية عام ١٩١٤ ، بإعلان الحماية البريطانية — فإنك واصل معى إلى أن مصر ، فى تاريخها الذى يقدر

بحوالى خمسة آلاف سنة ، تمتعت باستقلال كامل مدى ٣٥٠٠ سنة . منها حوالى ٢٥٠٠ سنة حكمتها أسر مصرية ، ونحو ألف سنة حكمتها أسر أجنبية .

أمة تحيا خمسة آلاف عام ، تستقل فيها ٣٥٠٠ سنة ، أى ما يعادل سبعين فى المائة من تاريخها ، أليست هذه حقيقة يجب أن ندقها بالقدوم والمسامير فى رءوس الشباب ؟ أمة ألفية ، أطول الأمم تاريخاً ، نعيش فى أكثر من ثلثى تاريخها مستقلة ، تتنقل بين الحضارات : من حضارة مصرية صميمة ، إلى حضارة مصرية يونانية ، ومصرية بيزنطية ، ومصرية إسلامية .

وذلك بدلا من الادعاء — الذى مجته أسماعنا منذ الحداثة — بأن مصر فقدت استقلالها نهائياً فى القرن الرابع قبل الميلاد ، عندما قضى الغزو الفارسى على عهد نكتانيبوس الملك. وما زلت أذكر ، حتى هذه اللحظة ، الألم الذى كان يحز فى قلبى ، وأنا غلام بالمدرسة الابتدائية . أردد أسماء أمازيس وبساماتيك ونكتانيبوس : فقد انطبعت تلك الأسماء فى نفسى انطباعاً عجيباً، لأن أصحابها كانوا آخر ملوك مصر المستقلة : أولهم انهزم أمام جيش قمبيز ، والثالث ختم عهد الأسرة الثلاثين ، وهرب إلى إثيوبيا أمام الزحف الفارسى الأخير .

وعندما انتقلت إلى المدارس الثانوية . كانت كتب التاريخ تدرس لنا أمجاد آل عثمان ! وكان رفقاء المدرسة ، ممن خفت سمرتهم ولمع شعرهم، سادرين فى الزعم والتفاخر بأنهم من عائلات تركية أقول هذا ليعلم شباب اليوم أن جيلى لم يقدر له أن يتمتع بمصريته طويلا !

الصفحات الأخيرة

فكرة هذا الكتاب هي أن الحضارة المصرية ، أعني مجموع الحضارات التي تداولت مصر في مدى خمسة آلاف عام ، تلقت ضربتها القاضية في الغزو العثماني ، وأن النهضة المصرية يجب أن تقوم روحيًّا على استيحاء التاريخ المصري كله ، دون تفضيل عهد على عهد ؛ فكما أن أهل الغرب يخطئون إذ يختصون حضارة الفراعنة بتمجيدهم ، ويعتبرون غيرها دخيلا على مصر ، فإن فريقا من مواطنينا لا يعطف عطفاً خاصا على حضارة مصر القديمة .

ولعل للمتخصصين بالتاريخ المصري القديم العذر في حرصهم على الحقبة الكبرى ذات المقام الرفيع في التاريخ العام ، لقدمها ، وطولها ، وأثرها المباشر وغير المباشر في حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ ولأنها أصيلة نبعت من صميم التربة المصرية ، وعلى أيدي أبناء هذه التربة وبناتها وحدهم . ثم أخذت الاتصالات الخارجية في الاتساع والازدياد بعد غزو الهكسوس ، وصحوة مصر فجأة لتدرك أنها ليست كنانة آتوم وفتاح وآمون ، تحميها الصحاري والبحار والجنادل ، وأن عليها ، كي تعيش في عصرها الحديث ، أن تدفع غائلة هؤلاء الغزاة الأسيويين الذين أذاقوها علقم الاستعباد مائة وخمسين عاماً ، وأن توسع رقعتها بالفتوحات إلى ما وراء حدودها الطبيعية .

وبرغم هذه الصلات الأجنبية ، وتبادل السلع والخبرات ، فإن الحضارة المصرية ظلت محتفظة بخصائصها حتى آخر عهد الأسرات ، بل وبعد غزو الإسكندر ، وقيام البطالسة ، وبعد أن دخلت مصر في حوزة الرومان . ولم تنته هذه الحضارة إلا بنهاية العقائد القديمة ، وتحول السكان من الوثنية إلى ديانة الناصري .

فكل ما يجيء عقب الحقبة الفرعونية ، لا يعتبره إخصائيو تلك الحقبة ، ولاغيرهم ، فنًّا ولا حضارة مصرية أصيلة . العهد اللاجيدي كان إغريقيًّا ؛ والعصر القبطي تأثر مكرهاً بما يجري في بيزنطة وأنطاكية وسورية ، والعصر الإسلامي انقاد للحضارة الإسلامية ، فكان طولونيًّا وإخشيديًّا وفاطميًّا وأيوبيًّا ومملوكيًّا وعثمانيًّا .

لذلك أردت أن أثبت هنا أقوال بعض مؤرخي مصر القديمة في نهايات كتبهم .

وأبدأ بجيمس هنري برستيد ، لأن للرجل فضلا كبيراً عليّ ، فقد كان أول من أشعرني أني حقاً من أحفاد ذلك الشعب العريق ، وصحح الأفكار الخاطئة الطائشة التي خرجت بها من مدارس وزارة المعارف المصرية ، يسوقها المستشار البريطاني دنلوب . كانت محاضرة ألقاها برستيد في مكان بحي المنيرة ، أظنه كلية من كليات الجامعة حالا ، وألقاها في وقت هز مشاعر العالم نحو مصر الكشف عن مقبرة توت عنخ - آمون . وقد نسيت اليوم ما قاله الأستاذ الأمريكي الكبير ، ولا أذكر إلاطشاشاً شكل المحاضر ، وأظنه كان رجلا طويل القامة منتصبا ، يلبس نظارات تقربه كثيراً من هيئة القسس الأنجليكان . ولكني أذكر ، كأنه بالأمس ، أنني خرجت من المحاضرة شخصاً جديداً ، ويظهر أن الرجل - الذي عاش « مجاوراً » للتاريخ المصري القديم ، وقد وجد نفسه أمام مجموعة من شباب المصريين ، في وقت كانت ثورة ١٩١٩ أعلنت للعالم أجمع أن قد صدقت نية مصر في أن تنهض - لمح في عيوننا بريق الأمل في مستقبل هذه الأمة ، التي كانت عظيمة جداً ، ورأى في لون بشرتنا ، وعلى سيمانا ، ما ذكره بصور المعابد والمصاطب وتماثيل القدماء ، فراح يبعث روح التاريخ المصري في نفوسنا ، ويوقظ فينا معنى المجد المؤثل ، الجاثم فيما بين صحراء الأهرام ووادي حلفا .

ولا أغلو إذا قلت إن كتابي اليوم - وأنا أؤلفه فيما بين السنوات ١٩٥٤ ١٩٥٩ - هو ثمرة محاضرة جيمس هنري برستيد عام ١٩٢٣ أو ١٩٢٤ .

يقول الأمريكي الكبير ، في نهاية كتابه « تاريخ مصر » ، الذي نشرت أولى طبعاته سنة ١٩٠٥ .

« وبسقوط بساماتيك الثالث ، دخلت مصر في عالم جديد ، كانت قد قامت بعمل كبير في سبيل تقدمه وتطوره ، ولم يعد لها فيه دور إيجابي؛ لقد انتهى عملها الجليل . ولما كانت لا تستطيع أن تختفي من الميدان ، مثلما فعلت نينوى وبابل ، فقد واصلت حياتها المصطنعة بعض الوقت ، تحت حكم الفرس فالبطالسة ، وهي تتدهور إلى الوهدة ، حتى أمست أهراء غلال روما ، ومزاراً لأثرياء الرومان واليونان ، يفدون عليها ليتفرجوا على عجائبها ، كما يفعل السواح في أيامنا .

« أما شعبها الذى لا يحب الحرب ، الشعب الذى يواصل إعدادها لتكون متنزهاً للعالم ، فلا يبدو عليه أنه يفيق من غفوته ، وقد صدقت فيه نبوءة حزقيال ، وهو القائل : " لن يقوم بعد ملك من أرض مصر " » .

* * *

وأنا أدعو الله أن تصدق نبوءة حزقيال هذا فى الحاضر والمستقبل ، كما صدقت فى الماضى ، فقد شبعت مصر خلفاء وسلاطين وملوكاً وأمراء ، وشربتهم حتى كيعانها . ونرجو أن تكون حرفة الملوك فى مصر آلت نهائياً إلى البوار ، وأن يواصل أبناء البلاد حكمها ، والتطور بها ، إلى أحدث ما تنادى به مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصادية .

وألتمس العذر لجيمس هنرى برستيد ؛ فقد ختم كتابه سنة ١٩٠٥ ، ومصر تهوى إلى قرارة يأسها ، إذ تتخلى عنها فرنسا ، نصيرتها ضد بريطانيا فى ذلك الوقت . وتجرى اتفاقها الاستعمارى مع بريطانيا على اقتسام مناطق النفوذ فى أفريقيا ! فلن أنسى برستيد ، الذى رأيت وسمعت ، فى أوائل العشرينات ، محباً لمصر ، معجباً بحضارتها القديمة ، والذى ترك لنا آثاره شاهدة على بعض ما صنعه لتنبيه أذهان العالم إلى روحانية تلك الحضارة . وأكاد أوقن أن الرجل مات قرير العين . مطمئناً إلى مستقبل أحفاد بناة الأهرام والبرابى !

وأذكر له بالخير فقرة وردت فى الفصل الختامى لكتابه الذى نشر عام ١٩٣٣ . بعنوان « فجر الضمير » ؛ قال ، وهو فوق جبل الزيتون بفلسطين ، ينقل ناظريه بين وادى الأردن والبحر الميت ، وخلفهما جبال مؤاب ، ومدينة بيت المقدس :

« وكان منظراً طبيعياً ، يحقق عملياً وقائع الانتقال المعجب من عالم تعمل فيه قوى الطبيعة وحدها . إلى عالم تشرق فيه القيم الإنسانية . فذلك حدث فعلا فوق أرض الشرق الأدنى القديم .

« وإذ كنا نجلس مطلين على قرية النبى إرميا ، حولنا أبصارنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، واخترقنا بخيالنا جبال اليهودية الجرداء ، إلى أرض وادى النيل . منبت أول إنسان أدرك قوة المثل الأخلاقية — تلك المثل التى قلبت الصفحة الكبرى فى تاريخ التطور البشرى — فتذكرنا أن حكماء المصريين كانوا أول الناس إدراكاً

لمعنى الشخصية والأخلاق وصدق الإحساس ، وذلك قبل أن يولد النبي إرميا بألفى عام ! »

* * *

أما الأب دريوتون والسيد ڤانديه ، فيختمان كتابهما عن مصر ، فى السلسلة التاريخية المسماة « كليو » ، بقولهما :

« ويظهر أن مصر كانت قد استنفدت قدرتها على المقاومة . لأن قبولها عن رضى ، واستقبالها لسيدها الجديد ، الإسكندر ، فيه البرهان على تدهورها . ختام تاريخها لم يعد بالمستطاع أن يعالج وحده ، لأن مصر انضمت . منذ ذلك التاريخ ، فى مجموعة العالم الشرقى الذى سيخضع شيئاً فشيئاً للمؤثرات الإفريقية . نعم إن الأفكار المصرية العتيقة ستعيش فترة تطول إلى مئات السنين . ولكن فى صيغ ممسوخة ، ينقل عنها الأغراب ويفسرونها . فيبدو على لسانهم كأن دور مصر لم ينته بعد ؛ والحقيقة أن ما بقى منها لن يكون إلا خيالا وظلالا تنشرها البلاد العريقة فوق صفحة العالم » .

* * *

ويختم جاستون چكييه كتابه : « تاريخ الحضارة المصرية » ، متحدثاً عن ظهور الكتابة الديموطيقية . والاقتصار عليها دون الهيراطيقية ، إبان الحكم الفارسى ، فى تسجيل العقود . ونسخ المخطوطات المختلفة ؛ أى فيما لا يدخل فى عداد الأثر القائم ؛ ويقول بأن هذا الانتقال من الهيراطيقية إلى الديموطيقية ، يمثل فى رأيه خاتمة مصر المستقلة :

« فحين ينزل بمصر ملوك أغراب . ليحتلوا نهائياً مكان الأسر الفرعونية فوق عرش مصر . نستطيع أن نقطع بنهاية الحضارة المصرية . ومع أنها سوف تعيش بضعة قرون أخرى . بل وستقدم فى بعض النواحى . كالعمارة مثلا . أعمالا مصرية أصيلة ، فإن حياتها لن تزدهر . بل سوف تتدهور سريعاً .

« فالحضارة التى أشرقت على العالم القديم آلاف السنين . ووهبته عن طيب خاطر كل ما فيها من خير . سوف تغمرها حضارات جديدة ؛ والدم الجديد الذى ينقل إليها . سوف يكون غزيراً إلى حد يوردها مورد قضائها . بدل أن يجدد شبابها .

ومنذ الآن ، لن تكون مصر أكثر من إيالة من إيالات العالم الهليني ، وولاية من ولايات دنيا الرومان ، سواء من الناحية السياسية ، أو من وجهة نظر الحضارة » ؛

* * *

وإذا لم تكن الصفحات التالية خاتمة لكتاب جونييه ، فى مجموعة « مجمل تاريخ مصر » ، الذى نشر بالقاهرة فى ثلاثينات هذا القرن ، فإنها ، فى صدد كلامنا هذا ، ومعنى مختاراتنا ، تعتبر حكمه الأخير على نهاية الحضارة المصرية ، قال فى مقدمة الفصل العاشر وهو خاتمة فصوله :

« بقى لنا أن نلقى نظرة خاطفة على مختلف أشكال الحضارة المصرية فى السبعة أو الثمانية قرون ، التى انقضت فيا بين سقوط دولة الرعامسة ، وظهور الإسكندر ، وهى الحقبة التى نطلق عليها اسم « العصر المتأخر » .

« فإذا دققنا النظر فى الملكية ، يفجأنا أن لم تعد سدة قومية . وإذا جانب بعض المؤرخين الصواب فى حكمهم على ملوك الأسرة التاسعة عشرة بأنهم لم يكونوا خلصاء الأرومة المصرية ، بحسبان اختلاطهم ببعض العناصر السامية ، فإن مما لا شك فيه أن الدم الأجنبى اختلط بدم الملوك ، منذ تبوأت العرش أسرة الملوك — الكهنة . ولقد رأينا ، منذ الأسرة الأولى بعد العشرين ، أن الليبيين يتسربون إلى الحياه المصرية ، وأن كبير كهنة آمون يحمل اسماً ليبيًّا ، وهو مصحرتا ؛ وهذا التسرب لم يتعد الفئة العسكرية . وعندما يتولى الملك زعيم من كبار زعماء « المشاواشة » ، وهو شيشونق ، فى بوباسطس ؛ تصبح الأسرة الثانية والعشرون ليبية لحماً ودماً . ثم يعقبهم الملوك الملقبون بالإثيوبيين ، وكانوا فى الحقيقة من أصل بوباسطى ، أى ليبى ، يحملون أسماء ليبية ، ولكنهم اقترنوا بأميرات إثيوبيات ، بحكم إقامتهم فى بلاد النوبة ؛ وكانت ملكات الأسرة الخامسة والعشرين نوبيات خاصاً ، وسوداوات فى بعض الأحيان . وكان ملوك الأسرات الصاوية — الرابعة والعشرين والسادسة والعشرين — من أصل ليبى أيضاً ، وآية ذلك أسماؤهم ، من أمثال اسم بساماتيك ، احتفظوا بأرومتهم الليبية خالصة ، لأنهم لم يقترنوا بأميرات من النوبة . ويبدو أخيراً أن فراعنة منديس وسمنود ، وهم ملوك الأسرة التاسعة والعشرين والأسرة الثلاثين ، لم ينحدروا من صلب مصرى غير مهجن

« واستمر هذا الدم الأجنبي ، وهو ليبي فى أغلبه ، يساب فى عروق أبناء البلاد ، وهو قبل أن يجرى فى أوعية الفراعنة ، كان قد جدد قوى الطبقة العسكرية المعروفة بالمشاواشة ، وهى الطبقة التى تحمل أكبر عبء فى الحكم بعد الملك . ولقد رأينا المرتزقة الليبيين يؤلفون ، على مدى أجيال عدة ، العنصر الأكثر نشاطاً وحيوية فى الجيش المصرى القديم ، الذى دب فيه الوهن . ولم يتقهقر أثرهم إلا رويداً أمام سيل المرتزقة من بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، حتى اختفى تماماً بعد الغزو الفارسى .

« والحق أن هذا التسرب لم ينفذ إلا قليلا جداً فى دم الشعب المصرى ، سواء فى ذلك صناع المدن أوالفلاحون . إنما الطبقات الحاكمة هى التى تلقت العصارة الأجنبية ، الليبية فى غالبها ، واليونانية والأناضولية والسامية فى بعضها . فاستطاعت ، بدمها المتجدد ، أن تحفظ على مصر حياتها المستقلة لبضع مئات أخرى من الأعوام .

« والطبقات العليا هى التى كانت فى مسيس الحاجة إلى تجديد قواها . أما الطبقات الوسطى ، والدنيا بخاصة ، فلم يعتورها الانحلال الذى دب فى الأرستقراطية المصرية . وظلت تلك الطبقات العاملة محتفظة بدمها المصرى الخالص ، وبخاصة فى الريف ، لم تتهجن أرومتها الناشطة ، ولم يتبدل عنصرها الموسوم بالاعتدال وذلك على الرغم من حالة الحرب المستمرة ، والثورات الداخلية ، التى كانت تعيش خلالها حياتها المتواضعة القميئة » .

* * *

ويختم ولسون كتابه عن « الحضارة المصرية » ، أو ما سماه فى الطبعة الأولى « عبء مصر » ، بهذه الكلمات :

« وإن انهيار أسلوب الحياة المصرية العميقة فى أيامها الأخيرة كان مأساة . ولكن من حق مصر علينا أن نقول بأن هذا الأسلوب عاش نحو ألفى عام ، وصمد كل ذلك الزمن ، لأن مصر حبتها الطبيعة مزايا العزلة ، مما حقق لها التطور الداخلى ، والإبقاء على وسائلها فى هذا التطور . فكان المصرى مستطيعاً أن ينهج نهجه فى الحياة فى ظل الطمأنينة الجغرافية والروحية ، وهو نهج له من المرونة ما يفسح المجال للتطور التاريخى ، وآية هذه المرونة كانت سلسلة من الموازنات والتوافقات ، سمحت

للقوى المتعارضة أن تعمل دون أن يفنى بعضها بعضاً . . . فرونة الأسلوب المصرى ، والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام ، على أساس التوازن بين القوى المتطاحنة ، تظهرنا على عبقرية شعب عظيم .

« ولا يصح أن نزعم بأنهم كانوا أعظم الشعوب ، ما دامت سماحتهم قد حالت بينهم وبين بحث المشاكل والوصول إلى حلول لها تطبق تطبيقاً عملياً كاملا . فالمرونة ، التى حققت لهم الهناء كل تلك الأحقاب ، كانت رخاوة فى تكوينهم ، تقابلها حدة العبرانيين التى لا تلين ، أو الصفاء المتأصل فى قرارة النفس اليونانية . هذا إلى أن المصريين لم يستمسكوا بصفاتهم العالية . ففقدوا فى النهاية تسامحهم العملى الموفق، وأمسوا صلاب العود فى تمسكهم بظواهر الأمور . ولكن حكمنا عليهم يجب أن يتناولهم فى أحسن أحوالهم ، وقد عاشوا أحقاباً طويلة من التاريخ البشرى وهم على خير حال ، يحققون حضارة رفيعة من النواحى المادية والفكرية والروحية .

« ولقد جاءت كلمات النبى إشعيا ، فى مأساة الأيام الأخيرة للتاريخ الفرعونى ، دليلا على أصالة الحكمة القديمة ، ورفعة الشأن ؛ قال إشعيا : « إن رؤساء تانيس أغبياء ، حكماء مشيرى فرعون مشورتهم بهيمية » ؛ وذلك مقابل القول القديم : « أنا ابن الحكماء ، ابن الملوك القدماء » .

* * *

وختام كتاب موريه : « النيل والحضارة المصرية » ، صورة من العقل الفرنسى ، وحرصه على التجميع فى وحدة فكرية ، مع براعة فى التلخيص . ولهذا نقدم فصله الختامى بأجمعه ، لأنه سيعيننا على فهم الحضارة المصرية القديمة ، يحللها رجل من خير من درسها وفهمها ، وعاش لها ودافع عنها :

« ماضى المصريين هو أطول الأحقاب التى يسجلها تاريخ البشرية. وإذا كان تاريخ ما بين النهرين يوازن فى قدمه التاريخ المصرى ، فإن حقبته السابقة على التاريخ ، ما زالت تستعصى على الباحث . إنما مصر وحدها هى التى تعرض لمن يدرسها تاريخا يمتد من العصر الحجرى القديم حتى العهد المسيحى . فإذا لم ندخل فى حسابنا سوى الحقبة التى تلت العمل بالتقويم ، فإن أمامنا أربعة آلاف سنة من حضارة خلفت آثارها المدونة . ولكن من يستطيع حساب آلاف السنين التى

عاشها المصرى فى الانتقال من عصر الحجر المشظى ، حتى بلغ عصر التنظيم الاجتماعى والسياسى ، إبان حكم المملكة الطينيسية ؟

« فلنلخص ، فى إجمال ، الحقبة التى عالجها هذا المجلد ، والمجلد الذى سبقه ، مع بيان أوجه النقص فى معارفنا :

١ — عهد أول . ينقلنا من أبعد الأصول حتى الآثار التاريخية الأولى ؛ وهنا يعد الحساب كله تقريبياً . فنقول مثلا : الحقبة السابقة على الألف الخامسة ، حين كان الإنسان يستعمل أدوات من الظران . ولكننا نجهل كل شىء عن تقدمه فى العصر الحجرى الوسيط . لا ندرى كيف حقق أولئك الناس ما ظهر من جديدهم فى عصر ما قبل الأسرات : الحجر المصقول ، والفخار ، واستخدام المعادن (النحاس والذهب) . وصناعة النسيج . واستئلاف الحيوان والزراعة . إنما نعرف أن المصريين فى ذلك العهد كانوا مبدعين . دون منازع . فى فنون الحجر والمعادن . وأنهم يعيشون فى مجتمع مؤلف من عشائر . تقودها الطواطم والأرصاد السحرية .

٢ — وباستقرار العشائر . يبدأ عهد ثان . تظهر فيه الكور . وآلهتها المحلية ؛ وزعماؤها وارثو الطواطم . ولكن أنى جاء فيما بعد المحاربون المؤسسون للمملكتين المركزتين فى الصعيد والوجه البحرى ، عباد هوروس . وآلهتهم العالميون . وملوكهم . وكتاباتهم المصورة . وفنهم ذو الأسلوب الواضح ؟

تقول أساطير العهد التالى بأن هذا النظام نشأ فى الدلتا . وأن آلهة الطبيعة . هوروس وسيت وأوزيريس . لقنوه للناس . إلا أن مناخ الدلتا — بعكس مناخ الصعيد ، حيث الآثار غير قليلة — محى بقايا ذلك العهد ؛ ومن ثمة لا نملك أثراً مباشراً من تلك المنطقة . حيث نشأت الأفكار والمذاهب التى ازدهرت فى العصور التالية . وإن « متون الأهرام » هى التى مكنت لنا من محاولة رسم صورة عامة لتلك المذاهب ، وذلك عن طريق الاستدلال بها عما حققته الأزمان السالفة . وما زال أمامنا مجال واسع للبحث فى هذا الموضوع . وقد أعان القارئ . فى حينه ، بأن تلك الحقبة كانت حقبة الإعداد . وأنها كانت طويلة ، وذات أهمية عظيمة . وفيها بدأ العمل بالتقويم [عام ٤٢٤١ قبل الميلاد] . وأنها تنتهى بتولى الملك مينا [حوالى عام ٣٣١٥] .

٣ — والآثار العديدة التي تخلفت عن الأسرة الطينيسية ، وما تلاها حتى نهاية الدولة القديمة (٣٣١٥ — ٢٣٦٠ ق . م .) ، تصور لنا طبيعة المجتمع المصرى وتقاليده ونظمه ؛ وتتوحد مصر تحت سلطان ملكية مركزة مطلقة مستبدة ، ذات حق إلهى ، وتصبح الأهمية الاجتماعية مقصورة على شخص الملك حيًّا وميتاً ، فمصر ملك خاص للأسرة المالكة . وتنتهى دولة بناة الأهرام بنهاية الأسرة السادسة . وإلى عهد قريب ، كان المؤرخ يتخبط فى ظلام المجهول حيال انهيار الدولة القديمة حوالى عام ٢٣٦٠ ، دون أن يجد لاختفائها تفسيراً . فقد عفت الآثار الملكية ، وتراجعت مصر إلى أسلوب حوشى فى الفن ، وعمت فيها الحروب الأهلية ، وحامت بها الضيقة الاجتماعية ؛ ولكن كيف ، ولماذا ؟ لقد كشفت الحفائر الحديثة عن مراسيم أصدرها آخر ملوك منف ، جعلتنا نتابع تهجم الكهنة والموظفين والشعب على سلطة الملك ، يهدمون حصن الملكية شيئاً فشيئاً ، حتى ينتهى إلى الخراب التام .

وحاولنا ، من واقع نصوص منشورة منذ أمد بعيد — لم يتضح معناها التاريخى حتى الآن — أن نعزو الأمر إلى ثورة شعبية تحت حكم الأسرات الهرقليوبوليتية ، فيما بين عام ٢٣٥٠ و ٢١٥٠ ، حدثت إبانها وقائع دموية وحوادث غريبة ، أوضحنا أثرها ، وهو حصول الشعب على حقوقه الدينية والسياسية ؛ وما زالت بعض نقاط تنتظر التفسير ، ولكن الثابت ، على ما يبدو ، هو أن استبداد الملوك قد زال بزوال دولة منف القديمة .

٤ — ويظهر مجتمع مصرى جديد ، بظهور الدولة الطيبية (٢١٦٠ — ١١٠٠) ، وسوف تحتفظ هذه الدولة بكل سماتها الأساسية حتى زوال الاستقلال القومى عام ٥٢٥ قبل الميلاد ، وذلك خلال تطورات وأحداث سياسية . ولا غرو أن تظهر لنا فجوات وفراغات فى دنيا الآثار ، خلال هذه الحقبة الطويلة التى دامت خمسة عشر قرناً . فجوة فيما بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة الطيبية ، إبان الاحتلال الهكسوسى ، وفجوة انهيار الإمبراطورية المصرية فى آسيا انهياراً سريعاً بعد مرنفتاح ، وفجوة انحلال الرعامسة ، وفجوة تشتت شئون الحكم وانفراط عقده ، إبان دولة بوباسطة ؛ وبعدها يجىء عهد الإحياء الإثيوبى والصاوى . كل تلك فترات دقيقة ، وحقبات غير معروفة تماماً ، نقر فيها بنقص معلوماتنا نقصاً بالغاً . ولكن الاضطرابات

التي وقعت في مصر كانت من نتائج قارعات السياسة الخارجية وأحداثها ، أي أنها تناولت الأسرات الملكية ، لا المجتمع المصري ، الذي ظل حيًّا برغم الغزوات ، يتابع حضارته المتناسقة ، ويتطور داخل إطار مبادئه الثابتة .

وتحولت فكرة السيطرة الملكية المطلقة إلى ناحية إنسانية ، بفعل إصلاحات ملوك مشرعين ، حكموا بعد الملوك المستبدين . كان سلطان الملك في الدولة القديمة عقيدة منزلة من السماء ، نفذها الفراعنة في دقة وصرامة ، ورضي بها المحكومون دون تردد ... ولكن هذه العقيدة تتحول تحت حكم الأسرة الثانية عشرة إلى مبدأ ومذهب في الحكم ، أي إلى تعاليم تحاول أن تكون إنسانية ، تقوم على حكم العقل ، ويصبح دار الملك مثابة القانون ؛ ولم يكن مجرد قانون تعاقدي ، يطبق في العلاقات السياسية والتجارية (فإن بابل شرعت في هذا تشريعاً أكثر أصالة من التشريع المصري) ، وإنما هو قانون اجتماعي ، ينشئ العلاقات بين الشعب والملك على أساس من العدالة الإلهية في العالم الآخر . فلا يحسب الملك أنه مضعف من سلطانه إذا أشرك الشعب في إدارة أملاكه . وبذلك يتطور نظام الحكم إلى شيء قريب من نظام اشتراكي في الدولة . نعم إن الفرعون يظل مالكاً للأرض وما عليها ، ولكن بشرط أن يكون للجميع هدف واحد ، هو « خير المجتمع » . فالملك يؤدي خدماته في الدولة ، كما أن الشعب ، خاصته وعامته ، رفيعه ووضيعه ، يعمل من أجل المجموع ، في الأرض ، وفي الحرف ، وفي وظائف الدولة . بل إن القوى الإلهية ، والطبيعة ذاتها ، تدرج هي أيضاً وتحشد في عداد الآخرين .

ودليلنا على قولنا هذا نتلمسه في برديات من أواخر الدولة الطيبية ، يعدد نصها قائلا : « هذا بلاغ للناس ، جاهلهم وعالمهم ، بما خلق فتاح وأبدع ، وما سجل توت وأثبت ، من كل ما يوجد تحت قبة السماء ، أو على ظهر الأرض » ؛ أولا العوالم : السماء وقرص الشمس والقمر والنجوم ... والعواصف والرعد والفجر والظلمات والنار والماء والفيضان والبحر والبحيرة والأرض والرمال والزرع ، ثم الأحياء : الرب والربة ، والروح « آخ » (الميت المؤله) ، والملك القائم ، والزوجة الملكية ، والملكة الأم ، وأولاد الملك ، والأمراء ، والوزير وأمير الصحبة ... إلخ . ويتبع ذلك موظفو الدولة المركزيون ، وموظفو الأقاليم (الشئون المالية والعدل والجيش

والمعابد) ، وتنتهي القائمة بالكتبة وأصحاب الحرف الفنية ، والطهاة والنجارين والحفارين وعمال المعادن وصانعي أحذية الملك . . . (والبردية ناقصة) .

وهكذا يبدو لنا المجتمع المصرى مجتمعاً مجنداً للخدمة العامة ، يضم ما حوله من العناصر إلى المخلوقات : الكل مسجل مدوّن ، كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . ويمكن أن نشير فى هذا الصدد إلى معاهدة الصلح بين رمسيس الثانى وملك الحيثا ، حيث يستشهد على توقيعها بالسماء والأرض والرياح والسحاب

* * *

« تلك إذن كانت الأدوار التى مرت بها نظم الحكم : مجتمع على الشيوع أيام العشائر ؛ وحكم مطلق مؤسس على الحق الإلهى أيام الدولة القديمة ؛ واشتراكية ملوكية بعد الثورة .

وبرغم قصور هذه الأدوار وحدودها ، فإن النظام الذى ظل المصريون مخلصين له — وأساسه الفكرة الدينية فى أصول الحكم — أظهر بحيويته ، وطول بقائه ورخائه ، قدرة حكم حصيف على أن يسوس الناس ، مستنداً إلى محكومين جبلوا على النظام .

فالحضارة المصرية ، بأوضاعها المتعاقبة ، توحى إلينا بصورة شعب متماسك متناسق فى أصله ومنبته وروحه ، شعب ، وإن قل عدده ، ينبئ بالقوة فيما أبدعته عبقريته الخارقة المدبرة ، وفنه القوى العنيد ، ونظامه العقلى ، وإيمانه بالبعث ، ومثله فى العدالة .

ومرد هذا النظام إلى ظروف المعيشة التى فرضتها عليه القوى المسيطرة على البلاد : النيل والشمس . وإلى أنه — من ناحية أخرى — وريث مباشر للمجتمعات البدائية . أى أنه فى حالته الراهنة ، كما كان فى عصور البداوة ، يخضع الفرد للجماعة ، ويعيش على اتصال دائم بالأرواح واحترام بنوى للتقاليد .

والمجتمع المصري ، فى نظام الحكم ، وفى طباعه وأخلاقه وعاداته ، يظل حتى النهاية فى صف المجتمعات الخاضعة للمقدسات ، وهو فى هذا متخلف عن المجتمع الإغريقى الرومانى . تأمل المعابد المصرية يرعاها أباطرة روما ، ويتوج الكهنة فى داخلها ملوكهم الأجانب ، ليدعموا ويطيلوا سلطانهم وحياتهم بممارسة الطقوس . ويدفع هؤلاء الكهنة عن الآلهة والناس غائلة الموت ، وذلك بتلاوة التعاويذ وإجراء

الطقوس التى وضعت منذ أربعة آلاف سنة ، من أجل الفراعنة القدماء ، عباد هوروس . فلا غرو أن نقرأ ، فى مؤلف مكتوب فى عهد الإمبراطور تيودوسيوس ، هذا القول :

« مصر ظل الإله على الأرض ، وهى قدس أقداس العالم ، وحاضرة الأديان » .

فالعقلية القديمة، على الرغم من الجهود المواتمة، ظلت تتحكم فى مصر المتطورة ، والمصرى لا يجنح إلى الحرية ، ولا إلى تكوين الشخصية الفردية ، إلا فى فترات نادرة من أزماته الاجتماعية . وإنما هو استعداده للكمال ، دفع به إلى التجديد فى فنونه وصناعاته . أما التحرر ، الذى يضمن للفرد حقوقه فى مواجهة مطالب المجتمع ، ويطلق المرء من عقال العقيدة الدينية ، والفنان من قيود الأساليب المرسومة ، والمؤمن من حدود الطقوس الجامدة ، والمفكر من التقاليد ، ذلك التحرر لم يظهر فى مصر بوجه عام ، بل إن فلاسفة اليونان ومشرعيهم هم الذين سوف يحررون الفرد من ربقة هذه القيود كلها .

وعندما يفتح ملوك العهد الصاوى أبواب البلاد للغرباء ، يجىء أول من يجىء الأغارقة الذين تربوا فى بحبوحةالديمقراطية المعروفة بالمدناليونانية ، أولئك المتشككون، أبناء دولة العقل ، الفنانون الذين أبدعوا أسلوباً إنسانياً ، يجيئون إلى مصر ، فتثير دهشتهم تلك الآثار الهائلة ذات الطراز الثابت ، وتلك الحيوانات تؤله ، والملوك — الآلهة يحكمون دولة عظمى دون منازع ، وتلك الإدارة المركزية تتغلغل فى كل شىء ، والشعب المستكين لآلهته ولملوكه وأمرائه ! ما أشبه بها دهشتنا ونحن نشاهد حفريات الحيوانات الضخمة ، المنقرضة منذ عهود سحيقة ! فلا هيرودوتس ، ولا الآخرون ، فهموا عقلية المصريين . ولكنهم ، مع هذا ، أدركوا أنهم حيال مشهد كله روعة ، فريد فذ فى دنيا العالم المعروف إذ ذاك ، يستوجب منهم أن يفهموه ويتمثلوه جيداً ، قبل أن يضيع فى عباب التطور والتقدم . ظهرت لهم مصر وكأنها الكنز الحافظ لحضارة الإنسان منذ مهادها وأصولها . فهى عندهم أم الفنون والعلوم والدين ونظم الحكم ، تحيا حياتها وقد آذنت بالأفول ، وتحتفظ بآثارها منذ عصور واغلة فى القدم ، تحت سمعهم وبصرهم ، عبرة وأمثولة للمجتمعات « الجديدة » . وهنا أقبل الأغارقة ، أهل الشك ، فى رجعية عقلية غريبة على العقل

البشرى . يسائلون كهنة هليوبوليس . لعلهم يتعرفون على أقدم التقاليد وأعرقها .

هنا يبدأ دور مصر ، معلمة الأجانب ، عندما يقبلون عليها أفواجا . يجيئها المشرعون والفلاسفة يستوحون تجاربها الاجتماعية . وفلسفتها فيما وراء الطبيعة ، ويؤمها من يتلمسون عقيدة تطمئن إليها النفس . محاولين فهم أسرارها الروحية . ويدخلها الفاتحون يتلقون عليها مبدأ من مبادئ السلطان . ويأخذون عنها أساليب الإدارة . فأى مثل يفوق هذا المثل ، يضرب لمؤسسى الإمبراطوريات . وهم يرون سلطة الملك ممثلة فى وظيفة مرصودة للخير والنفع العام ، قائمة على وحى الآلهة ، يرضى عنها الناس . لذلك يخترق الإسكندر سباسب ليبيا ، يطلب إلى آمون واحة سيوة أن يضفى عليه أبوته ، ويخرج المقدونى للناس فى صورة آمون وابن آمون ، ويتأثر البطالسة خطاه ، ويتلقى عنه قياصرة روما هذه الأمثولة ، فيتحولون وشيكاً ، فى إمبراطوريتهم ، إلى أرباب يعبدون .

أما عن تلك الأداة المتكاملة فى الإدارة المصرية . وهى أس عمل المجموع من أجل الدولة . فقد عرف البطالسة قدرها وميزاتها العملية . فحولوا مصر إلى مصنع كبير للإنتاج . واستغلوا ثروتها الزراعية وصناعتها استغلالا تاماً لفائدة المقيمين على ضفاف بحر الروم كلهم . وعند ما تتحول روما من جمهورية إلى إمبراطورية ، تمسى مصر لا مخزن غلال العالم اللاتينى فحسب ، وإنما الولاية النموذجية فى نظام الحكم الإمبراطورى ، يحتفظ بها قيصر ملكاً لشخصه .

ومع كل هذا ، فإن الرخاء والعمل المنظم والإدارة الحكيمة لا تكفى لإطالة عمر أمة ؛ لأن الشعوب بحاجة إلى عقيدة ومذهب . ولقد ابتدع الفراعنة مبدأ الحق الإلهى لسلطة الملك ، ومذهب التعاون الاجتماعى ، وسادنه الكهنة آلافاً من السنين ، وآزرته قوى الشعب الروحية والمادية . ثم جاءت الأجناد المرتزقة والغرباء يستولون من المصرى على مثله الاجتماعية العليا ، ويسلبونه إيمانه بالسلطان ، وعقائده وعاداته وتقاليده وكتاباته . فالحق أن الفكرة الفرعونية للمجتمع كان قد انتهى زمانها ، وقضى عليها بالعفاء . وأمست مصر فى قول أحد نصوصها : « جسماً بلا روح ، ومعبداً بلا إله » ، وانطوت أسرار كتابتها عندما طارد المسيحيون السلالة الباقية من كهانها ، وانزوى حتى اسم مصر وكلمها المقدس .

فلنستمع إلى المرثية التى تقطع نياط القلب ، يتلوها واحد من آخر الحكماء الذين تعلموا بمدرسة الإسكندرية . وعند هذا الحكيم أن زوال وانحلال آخر مجتمع كان يعيش الناس فيه مع آلهتهم كأسرة واحدة ، ليس معناه نهاية مصر فحسب ، بل هو بمثابة انتهاء العالم . وما أشدها لوعة نحس بها إلى اليوم ، يفيض بها الوداع الذى يودع به أسكلبيوس (فى القرن الرابع الميلادى) حضارة كانت فى زمانها خيرة مجيدة ، وهى تسير دون رجعة فى طريقها المحتوم إلى الزوال :

« سيجىء زمان يظهر فيه كأن المصريين حافظوا ، دون جدوى ، على طقوس الآلهة ، بروح العبّاد البررة ، والصلاح المؤمنين . وما دام الصلاح والعبادة والإيمان لم تؤد إلى شىء ، فقد أورثتهم خيبة الأمل القنوت واليأس . سترتفع الآلهة عن أرض مصر ، وستهجرها إلى سماواتها العلى ، فتخلو أرض الرسالات ، وتغدو يتيمة من آلهتها ، لأن الغرباء تكتظ بهم تلك البلاد والدنيا الواسعة . ولن تهمل أركان الدين فحسب ، بل إن المؤمنين به سيحل بهم العقاب ، وذلك بحكم القوانين التى تجعل من إيمانهم وصلاحهم وعبادتهم أمراً محظوراً ؛ وهذا أقسى ما يرزؤها به القدر . وحينذاك ستتحول تلك الأرض القدسية ، مثوى المعابد ومعرش الآلهة ، إلى أجداث وأرماس .

يا مصر ، أى مصر ! لن يبقى من أصول دينك سوى أحاديث خرافة مسطورة على ألواح من الحجر ، تحكى قصة إيمانك ، لا يأخذها الخلف مأخذ الجد ، ولا يجدون فيها مبنى ولا معنى » .

* * *

فإذا كان هؤلاء الأقطاب من المؤرخين الأجانب يقفون بتاريخ مصر وحضارتها القديمة عند حدود تخصصهم ، ويعتبرون موت الحضارة الفرعونية نهاية لتاريخ مصر ، فإن تلاميذهم المصريين — وهى ظاهرة طبيعية ، ولكنها جديرة أن ينوه بها — كان من غير المعقول أن يقفوا منها هذا الموقف . لذلك أختم هذا الفصل بما انتهى إليه مؤرخان مصريان ، أولهما أحمد بدوى . صاحب كتاب « فى موكب الشمس » . ولن ننقل آخر كلماته . لأن كتابه فى حكم غير المنتهى ، فقد وقف منه عند آخر الرعامسة ، وإنما نقتبس الكلمة التى اختتم بها ما سماه « نظرة عابرة » ، فى آخر مقدمته ، قال :

« وبعد ، فهذه صورة عاجلة من تاريخ مصر . ومن سيرة حظها العجيب ، ترينا كيف يدال من دولة إلى دولة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن جيل إلى جيل . كل عرض يفنى ، وكل محنة تزول ، أما الشعب المصرى . فخالد لا يموت » .

* * *

وثانيهما أحمد فخرى ، فى كتابه « مصر الفرعونية » . وهو يختمه بهذه الكلم :

« لقد سكتت أصوات الكهنة والكاهنات ، وانقطعت المواكب وموسيقى العازفين ؛ ولكن صوت التاريخ ما زال يتردد بين أبهائها وحجراتها ، يهتف بمجد مصر ؛ وكل حجر نراه فيها ليس إلا كلمة أو سطراً أو صفحة فى ذلك الكتاب الكبير الضخم ، الذى سطره المصريون بأنفسهم . ..

« إن روح مصر القومية سليمة قوية ، وستظل دائماً وثابة متعطشة للتقدم .

« لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها ، وزالت الدول وزال الغزاة ، وبقيت مصر وبقى الشعب المخلص لتقاليده منذ آلاف السنين ؛ وستظل للمصريين تقاليدهم المجيدة ، طالما بقى النيل جارياً بين شاطئيه . يفيض بالخير والبركات ؛ وهو باق بإذن الله إلى أبد الآبدين » .

الحضارة المصرية

بالفصل السابق مختارات مما ختمت به بعض كتب التاريخ ، ونريد الآن أن نفهم لماذا يجمع المعجبون بمصر القديمة من المؤرخين الأجانب على القول بأن مصر انتهت بانتهاء الحضارة المصرية ، ويهملون أمر مصر كله بعد ذلك . ولا يمكن أن يتهموا بسوء القصد ، أو الخطأ فى التعبير ، وجلهم يختمون كتبهم بما يشبه ما جاء فى أحدها ولم أسجله فى الفصل السابق ، احتقاراً لشأن كتيب عن مصر القديمة ليس فى العير ولا فى النفير ، إذ يقول : « جاءت الساعة المرصودة فى لوح القدر ، وآن لمصر أن تموت » . كذا !

لا أظن هذا مجرد إجماع على الحط من شأن أمة عاشت فى عين الدهر ، بعد نهاية الأسرات ، نيفاً وألفى عام ، وما تزال حية ، وفى عنفوان الشباب ، وكأنها خلقت خلقاً جديداً . وأذكر فى شبابى أول لجنة دولية جلست فيها مندوباً عن بلادى ، وكانت اللجنة تضم ممثلين لبلاد البحر الأبيض المتوسط ، وكان موضوع اجتماعها علمياً محضاً ، لا علاقة له بتاريخ حضارة قائمة أو بائدة ، وكنت أصغر الحاضرين سناً ، فجاءت فى خطابى إشارة إلى مصر « الدولة الفتية » ، وإذا بأولئك الشيوخ الأعلام حولى يتبادلون النظرات ، ويعلق أكبرهم على كلامى قائلا : كنا نظن قبل أن يتكلم المندوب المصرى أن مصر أقدم البلاد وأعرقها ! فأجبته على التو بأنى لم أقل الأمة ، أو البلاد ، وإنما قلت « الدولة الفتية » .

ولم يكن فى تعليق المندوب الكبير ما يتعدى مداعبة شيخ لشاب ، وفى حدود الاحترام لبلادى القديمة والحديثة . هذا وأغلب العاملين فى الدراسات المصرية القديمة من أصدقاء مصر . لذلك أحب أن أضع على لسانهم فيما يلى ما أحسبه منحى تفكيرهم :

إننا نرى الحضارة المصرية القديمة شيئاً رائعاً حقاً ، وما حدث على ضفاف النيل من انتقال الإنسان من البداوة إلى تلك الحضارة الرفيعة ، وقبل كل الشعوب ، ودون

مساعدة من الآخرين ، هو ما أردنا أن نقص عليك أحسن تصصه ، بعد أن قضينا حياتنا ، وأساتذتنا من قبلنا ، ننقب عن آثار مصر ، وننقل ونترجم ، ونسجل ونقارن . فإذا انحدرت شمس تلك الحضارة نحو المغيب ، شعرنا بالحزن يملأ قلوبنا ، وأحسسنا بأن أروع صفحة من صفحات التاريخ البشرى تطوى نهائياً

أى نعم ، ستعرف بلادك حضارات ، ولن تغرب شمس الفن والعرفان عن بلادك . فلسنا نحن الذين ننكر حضارة الإسكندرية ، ولا ما أدته مصر للمسيحية الأولى ، ولا أن مصر قلب الحضارة الإسلامية الخفاق منذ أكثر من ألف عام . ولماذا نذهب بعيداً ، وإليك ما قاله أستاذنا أوجست ماريت :

« مصر لا تشرق بضع لحظات ثم تغيب فى ليل طويل ، كما حدث فى بلاد أخرى ، بل العكس هو الصحيح ، فإن يمن طالعها العجيب أراد لها أن تواصل عملها سبعين قرناً . وأن تترك أثرها فى ناحية من النواحى واضحاً جلياً ، فيما يكاد يشمل جميع حقبات هذا التاريخ الطويل . فى العصر الفرعونى ظهرت مصر ، فى غابر الزمان ومطالع الدهور ، جداً أعلى لجميع الأمم ، بملكها خوفو ينشئ بناء لا يتفوق عليه الفن الحديث ، وبملوكها تحوتمس ، وأمنحوتب ، ورمسيس ، يسحبون خلف عرباتهم الحربية أسرى من جميع الأجناس التى عرفها ذلك الزمان . وإبان الحكم اليونانى والرومانى نرى مصر تتحكم فى عالم الفكر ، كما تحكمت من ذى قبل بأسلحتها ، فهم فلاسفة الإسكندرية الذين تولوا الحركة الفكرية فى غضون أزمة من أشد الأزمات الروحية ، وهى الحركة التى تمخضت عن العالم الحديث . وفى القرون الوسطى شاد الفن العربى بالقاهرة منشآته التى تعز على التقليد ، ووقفت مصر سداً منيعاً أمام الصليبيين ، وأسرت عاهلهم لويس بالمنصورة . وفى أيامنا تجيء الحضارة الحديثة لتعيش على ضفاف النيل ، فتستأنف مصر سيرها بخطوات واسعة فى ركب التقدم ، وإذا العالم أجمع يتنبه إليها » .

ونحن نؤمن على ما يقول مؤرخ من مؤرخى مصر الحديثة ، إدوار دريو :

« ليست مصر طريقاً ، ولا معبراً ، ولا هى ورقة كوتشينة ، فى الألاعيب المعقدة بين الدول ، ولا يمكن أن تكون مصر مستعمرة للاستغلال ، أو لاستيطان الغرباء .

« مصر جذوة إنسانية ، من أقدم الجذوات اشتعالا ، وأروعها وأظهرها للعيان ، فى كل ما أوقد حول البحر الأبيض المتوسط من مشاعل الحضارة على مدى الأجيال .

« مصر صنعتها رواسب حضارات لا يعادلها فى الثراء إلا طمى نهرها الإلهى ، وامتزجت فى تربتها ملايين من الأجساد : أربعة آلاف عام من حكم الفراعنة : منف ، طيبة ، الكرنك والأقصر . ضفاف النيل أجداث ألفية ، طابقاً فوق طابق ، تنطوى على كنوز من الفكر والفلسفة .

« وألف عام من الحضارة العربية ، أضافت كنوزاً إلى العلوم والآداب ، إلى جانب تلك الآثار الفنية من جوامع ومساجد ، بوحى القرآن ، تتحلق حول الجامع الأزهر » .

ولكن ما حققتموه فى عصوركم التالية لعصر الأسرات ، حققه غيركم فى أصقاع أخرى من العالم ، ولم تعد لكم ميزة التفرد والتفوق ، وهى الميزة التى كانت لكم فى فجر الإنسانية .

وهنا يضيف العلامة كورت لانجه :

« لتكفى برهة من التفكير لتهدينا إلى أن قلة يسيرة من الشعوب — منها مصر وسومر والصين — استطاعت أن تنتقل من البداوة إلى الحضارة فى الأزمان السحيقة ، وأن تنتهج لنفسها أسلوباً فى الحياة يعد من أغنى وأصح ما حققه الجهد البشرى فى هذا السبيل ، وهو أسلوب لا تدين به لغير نفسها ، ورجاحة عقلها ، وصدق شعورها ، وتتسنم به ذروة رفيعة من ذرى التمدن ، وبهذا تمهد للبشرية طريقها إلى الرقى . وما بمصر حاجة إلى إثبات أثرها الظاهر فى الحضارات التالية لحضارتها — وما أكثر من ينكرون عليها هذا الأثر — ولكن الرأى مجمع ، حتى عند هؤلاء الجاحدين ، على أن أثر مصر القديمة ما يزال يعمل إلى اليوم » .

فإذا لم تفهموا ذلك يا أحفاد الفراعنة ، وإذا لم تنفعلوا بتاريخكم الأول مثلما ننفعل نحن الغرباء ، فلا تلومن إلا أنفسكم !

* * *

قال ولسون فى كتاب « قبل الفلسفة » :

« الميلاد اليومى للشمس ، والميلاد السنوى للنهر يشكلان قسمات الطبيعة المصرية . كانت مصر غنية ولكن فى غير إسراف ، ولم يكن يتساقط الخير عليها ثمرًا جنيًّا ، ليغتنمه زرّاع كسالى . الشمس والنيل يشتركان فى إعادة الوادى إلى الحياة ، ولكن بفضل جهاد الشعب المصرى ضد الموات ؛ فالشمس تدفئ ، ولكنها فى حمارة القيظ تلوح وتلفح . والنيل يحمل إلى مصر المياه والطمى والخصب ، ولكن فيضانه السنوى قلب . لا تنفع فيه نبوءة ، فالفيضان العالى يغرق الأرض والحرث والنسل ، والفيضان الواطئ يجلب المجاعة والوباء . عالياً كان أم واطئاً ، فهو يجيء دفعة واحدة ، وينتهى عاجلا ، مما يلزم سكان الوادى بالعمل المضنى لخزن مياهه ، وتنظيم الرى نوبة بعد نوبة . والصحراء عدو متحفز ، يقرض الأرض المزروعة ، ويحيل الخصب محلا . وهى إلى ذلك موطن الأفاعى والضوارى والغيلان والسعالى . وبطائح الدلتا وقد تحولت أجمات ومستنقعات ، تتطلب الرى الدائم حتى تعود حقولا مزروعة . والبلاد تشرف على الفناء فى ربع العام تلفحها الرمضاء ، وتلوحها الشمس ، وتهددها التحاريق ، حتى يعود الفيضان ، فيعتدل الجو ، ويبارك الله أرض الكنانة ، ويبسط لها الرزق والرخاء دون جيرانها الأقربين . ولكن ذلك لم يكن ليعفى أهلها من الكفاح الدائم والحرمان ، أو ليحميها من الأخطار ، مما يجعل ظفرها الموسمى أروع أثراً وأصدق ، إذ لم يجيء نعمة سابغة ، وإنما حققه التعب والنصب .

« وثمة صفة أخرى لوادى النيل تنعكس فى أخلاق أهلها : وحدة المناظر ، واتزان عناصرها : الشاطئ الشرقى يوازن الصفة الغربية ، وسلسلة جبال العرب تواجه مرتفعات ليبيا . وسواء أكان هذا التقابل فعالا أم غير فعال ، فإن المصرى كان شديد الإحساس بالاتزان والنظام والهندسة ، يتجلى إحساسه ذاك فى فنونه وآدابه ، وتتسم كلها بالجلال ورتابة الإيقاع :

أصغ إلى أقوالى ، أعرنى سمعك ،
إنى ألقى إليك بالكلم لتعرف أنى ابن رع ،
خلقت من صلبه ، لأجلس هانئاً على عرشه ،
مكن لى فى الأرض ، سيداً على الوادى ،

سديد رأيي ، يتحقق على الأيام تدبيري ،
أنا حامي الحمى ، أنا المدافع عن مصري »

* * *

لا شك أن وحدة الشعب المصري أقدم وحدة تمت لأمة ظهرت على وجه البسيطة ، وأقواها . سوّاها النيل وطميه ، وأحيتها الشمس المشرقة . فالشعب المتحضر ، أي الشعب الذي يفلح الأرض ، اضطر إلى ترتيب معاشه حسب ارتفاع النيل وانخفاضه ، ونظم تقويمه على حركات الشمس والفصول ، وضم شمله ليستطيع أن يحقق أعظم النفع من طمي النيل وشمس مصر ، وليدفع عنه غوائل الفيضان ، أو خطر القحط والأوبئة إذا ما أصيب بفيضان منخفض . لذلك نفهم أن تتجمع العشائر المصرية الأولى حول وادي النيل في مراكز أو مديريات عرفها الإغريق باسم « نومس » وهي الكورة ، ولكل كورة إلهها ، وربما مجموعة آلهتها ، وقد تكون مجرد طواطم ؛ ولكن تجمع الكور في أقاليم ، ثم في إقليمين كبيرين ،قضى بتجميع تلك الآلهة ، وتغلب بعضها على بعض . بيد أن أساس ديانة المصريين كان عبادة الشمس والنهر ، وكما تعود الحياة إلى الأرض الموات بعودة الفيضان وبقوة الشمس ، فإن المصري الأول بنى عقائده على فكرة النشور ، أي الحياة بعد الموت ، وبذلك يمكن القول بأن الإله الأكبر الذي اشتركت في عبادته الأقاليم كان رع — الشمس ، وكان أوزيريس الذي بدأ معبوداً للوجه البحري ، إله النشور ، والعالم الآخر .

والهندوكية أيضاً — وهي وثنية متعددة الآلهة ، ما تزال قائمة إلى اليوم — تقول بعودة الميت إلى الحياة ، لا في العالم الآخر — فليس للهندوكي عالم آخر — بل في هذه الدنيا ، وفي صورة متناسخة ، صعوداً في سلم المخلوقات — إن كان المتوفى من الصلاح — وانحداراً إن كان طالحاً ، ولكنه في الحالين معذب ، فالحياة عذاب . وينتهي عذاب هذا التناسخ بعد سلسلة من العود إلى الحياة في صور متشكلة من إنسان أو حيوان ، عندما يبلغ الهندوكي مرتبة القداسة القصوى ، فينتهي بموته إلى التلاشي التام في البراهمان .

فالهندوكي ، سجين التناسخ ، شقي حزين ؛ كل ما يأمله أن يتلخص من

هذه الحياة ويفنى ... فى النرفانا !

أما المصريون القدماء فقد دفعهم حب الحياة إلى الحرص على امتدادها بعد الموت . ألا يكون تفسير هذا أن المصرى السعيد بعيشه الرغد ، كان لا يطلب إلا أن تطيل الآلهة عمره فى الدنيا ، وفى الآخرة ؟

* * *

يتقدم البشر من الفطرة إلى البداوة ، ومن البداوة إلى الحضارة ، أو قل إنهم ينتقلون من التوحش إلى التبربر ، ومن التبربر إلى التحضر . والإنسان الأول صياد قناص ، ولكنه لم يكن ليستطيع أن يكون وحشاً ضارياً يضرب بمخالبه ، ويمزق بأنيابه وأظلافه كالأوابد . فهو حيوان ضعيف البنية بالنسبة لسكان الغاب والأحراج ، ثالم الأسنان ، مفرطح الأظافر ، يدرج فى زمرة أهل الحيلة والمكر من الحيوان . هيأته الطبيعة ليأكل من خشاش الأرض ، وأوراق الشجر وفواكهها ... ومن لحوم الحيوان والسمك . هدته حيلته إلى مخترعات هائلة فى بساطتها : اكتشف طريقة لإشعال النار ، وصنع البومرانج والنشاب والقوس والسهم ، واخترع الشص والحوبية لصيد الماء ، وحذق « المقالب » يحفرها لأخيه الحيوان ... والإنسان ، دون أن يقع هو فيها ، وقد يقع . ثم حول قطاع جذع شجرة يتدحرج ، إلى عجلة تدور ، واستألف الحيوان يقتنيه لغذائه ، ويروضه لمعونته . وعرف الزراعة، مقلداً الطبيعة ، وصنع الأوانى ليخزن فيها الحبوب . وكان قد ترك سكنى الكهوف وأعالى الأشجار ليحفر فى الأرض مأوى ، أو قبراً ،وتعلم كيف يكسوه بأغصان الشجر ، ثم بجذوعها ، وكيف يجدل سوق النبات حصيراً ، ثم عرف كيف ينشئ من جذوع الأشجار وأغصانها كوخاً مسقوفاً ، أى أنه انتقل من حياة الهائم يطارد ويطارد ، إلى نوع من الاستقرار انتهى إلى النجع والمحلة والقرية .

والمصرى مر بكل تلك الأدوار ، وقد عرفنا بعض آثاره فيها ، درس العلماء « حضارة » عصوره الحجرية ، وظهر أنه اتجه قبل الأسرات بزمان طويل اتجاهات اجتمعت فيها خصائصه الإنسانية كيفتها طبيعة بلاده . وفى آخر عهده الحجرى الحديث ، قبيل الأسرات ، ابتكر رموزاً مصورة يسجل بها بعض كلامه . وعرفناه

يواصل صناعة الظران طويلا ، حتى فى عهد الأسرات . وإذا كان استعمل النحاس مبكراً ، فلن يصل إلى الحديد إلا متأخراً ، وربما فى العهد اليونانى ، أو قبل ذلك بقليل .

بلغ الإنسان المصرى قبل عهد الأسرات « حضارة » فيها النحاس ، وفيها الكتابة ، ولها نوع من التفكير الدينى بالخلق ، وبالحياة قبل الميلاد ، وبعد الموت . وفيها فن بدائى استودعه انفعالاته بشىء سماه « نفر » ، ربما عنى به « الجمال » وربما « الخير » ، وربما كل شىء طيب .

والمصرى ، فى الأسرات الأولى ، حقق ما أخطأ العالم الأوربى فى وصفه بالمعجزة ، كما سبق له أن وصف حضارة الإغريق بهذا الوصف . وليست هنالك معجزات فى تكوين الحضارات ، مصرية أو سومرية أو يونانية .

ولسنا مرتبطين فى هذا الكتاب بخطة جمع المعارف وحشدها ، إنما نحن رحالة فى رحاب التاريخ نشاهد آثار الحضارة المصرية حولنا ، ونقرأ عنها ، ونقلب صفحات الكتب التى تسجل صورها ، لنتذكر ونتمعن فيما رأيناه منها بين الركام ، وفى هجير الحر ، تحت الأرض وفوقها ، نسف التراب والرمال . ونهش الذباب والهوام . . . والأدلاء . وينادى علينا من باب المقبرة ونحن فى أسفل سافليها بأن الأنوار ستطفأ ، و « الأسطى عاوز يروح الأقصر ، وابور الكهرباء حايقف ! » . فهى الكتب بصورها تجدد الانفعالات التى انطبعت فى نفوسنا أمام الأصول . ثم نسجل ما وعته ذاكرتنا عندما نأوى إلى مخادعنا بعد يوم عناء للجسد ، وغذاء للروح . وخطأ الرحالة أنه يريد أن يشاهد كل شىء ، فينتهى به الإجهاد إلى ثلم إحساسه ولقد عرفت ، كرحالة قديم ، كيف أختار ، وكيف أقنع بالقليل من الكثير ، لأحتفظ برواء الأثر الفنى وجدته .

وما زلت أتصور متحفاً للآثار المصرية تكفى ساعة أو ساعتان لارتياده ، نتخير له القطع الفذة من فن المثال والحفار والرسام ، وننسقه بطريقة فنية تحيط كل تحفه بما يبرز محاسنها ، ويؤكد خطوطها وأقواسها ، وانبعاجاتها وتكورها . يتنقل الإنسان فى ذلك المتحف الصغير وكأنه يتريض فى « نزهة الفن والروح » ناعماً بما يرى ، لا يستعجل الزمان خطاه ، ولا تشغله مئات التحف يمنة ويسرة ،

تزوغ بينها عيناه ، وتتصلب رقبته ، فهو يتلفت كمن يخشى مباغتة طارئ مهاجم ، يرفع الرأس ويخفضها ، ويميل بها ، يركع ويسجد ، يصوب النور إلى عينه هنا فلا يرى شيئاً ، ويضايقه الظلام حيث يحب أن يشاهد ويتأمل .

المتحف الذى أتصور ، بناء مستقل عن دار الآثار المصرية ذات التاريخ المجيد ، ردهاته محدودة ، ويا حبذا لو استوحى المهندس فى بنائه ذلك المعبد الصغير الجميل الذى أعاد بناءه هنرى شفرييه فى ساحة الكرنك حديثاً ، وهو من آثار سنوسرت الأول من ملوك الأسرة الثانية عشرة . كان يودع فيه تمثال الإله آمون الفحل ، وسفينته المقدسة .

ولست هنا متخيلا أو حالماً ، فقد نشأت فكرتى هذه منذ ابتدع متحف اللوفر ، قبيل الحرب الكبرى الثانية ، بدعة الزيارات الليلية ، وخصص لها قاعات صغيرة فى بدرون القصر ، واختار لها قطعاً ممتازة من مجموعاته الغنية التى انتهت هى الأخرى فى الطوابق العليا إلى ما يشبه « سوق الكانتو » المعروف عندنا قديماً باسم « الأنتكخانة المصرية » . هناك فى ذلك البدرون على ضفة السين اليمنى أحسست ، وربما لأول مرة ، بروعة جمال الفن المصرى . وبذلك رحم اللوفر زواره من الإرهاق، بمثل ما نرهق به زوار المتحف المصرى .

والفنان المصرى لم يكن « أرتست » بالمعنى الذى نعرف . لم يصور ولم يحفر ولم ينحت تماثيله لتراها العين فى معرض ، أو ليقتنيها الأثرياء فى دورهم . إنه يعمل للأبدية ويشتغل فى نطاق الطقوس الدينية ، فهو والمحنط والكاهن الذى يتلو التعاويذ والبناء والمبيض ، يعدون « للمرحوم » — باعتبار ما سيكون — مثواه فى الآخرة .

ونحت التماثيل نشأ فى أول أمره حلا لمشكل بقاء الجثمان ، فإن المصرى لم يضمن مع التحنيط ، الاحتفاظ به ، وعفريت الميت ، أو قرينه «كا» فى الأصح ، بحاجة إلى جسد يتمثل فيه بشراً ، فإذا ما اختفت المومياء ، راحت على الميت حياته الأزلية . فتماثيل الأسرات الأولى بدأت غالباً كبديل للجثمان ، أو احتياطى لها .

ومجموعة التماثيل التى انحدرت إلينا من تلك الأسرات لا تمثل الفن المصرى فى ذروته فحسب ، بل إنها تضعه إلى جانب آثار الفنون العالمية التى عرفها التاريخ فى أجمل عصوره ، بعد قرون من انهيار الحضارة المصرية .

فلنؤم المتحف المصرى لنشاهد بعض هذه التماثيل ، ولنتصور تحقيق فكرتنا فى متحف « المختارات » فنقتصر على قلة منها . إنك ستعرفها كلها واحداً واحداً ، وتكاد تقرئ « شيخ البلد » ، السيد كا ــ آبر ، السلام فى شيء من الألفة ، وتحدج الأميرة نوفرت بنظراتك وأنت تحسد زوجها رع ــ حوتب على حسن ذوقه فى اختيار رفيقة حياته ، جمالا ودعة . وللعثور على هذين التمثالين الجالسين قصة أحب لك أن تذكرها وأنت ترى الوجوه المزججة ، والعيون البراقة ، والألوان المشرقة ، يكاد بهم صاحباها بالتحدث إليك . فى شهر ديسمبر سنة ١٨٧١ كان العمال القائمون بالعمل فى حفائر المدعو دانينوس باشا يفتحون مصلى مقبرة مكتشفة حديثاً لأمير من أمراء الأسرة الرابعة ، بوادى ميدوم ، وإذا بهم يتراجعون مذعورين ، وهم يؤكدون للعلامة المشرف على الحفر أنهم رأوا عيون الأرصاد السحرية التى تحرس الكنز ، تلمع غضباً ، وتهددهم بالويل والثبور !

هذه أعمال النحات المصرى تصور الإنسان أميراً ، أو كاتباً ، أو موظفاً عمومياً ، كلا على سجيته . ولكن فى تشخيصه للملوك استطاع أن يحقق أعجوبة بسيكولوجية . فلنلق نظرة على أعظم قطعة فنية فى التاريخ المصرى كله ، ومن أجمل وأقوى ما حققه فن المثال فى العالم أجمع : تمثال الملك خفرع ، من حجر الديوريت الأسود مجزعاً ببياض . لن تتمالك من الشعور بأن هذا الجالس أمامك إنسان رفيع المقام ، والألفة بينك وبينه ليست ميسرة ، تلك الألفة التى شعرت بها أمام الأميرة نوفرت ، والجنرال رع ــ حوتب ، والسيد كا ــ آبر . لم يصنع المثال شيئاً خارقاً يعلن أنك بحضرة ملك عظيم ، لأنك إذ تنظر إلى التمثال من أمام ، لن ترى علامة ملكية واحدة ، إذا لم تتبين رأس الصل فوق جبينه . إنما هى النظرة الجانبية تقدمك إلى الإله هوروس فى صورة باشق يحمى رأس الملك بجناحيه . وستطالع على جانبى المقعد رمز مصر العليا والسفلى . فأنت إذن فى حضرة ابن هوروس ــ رع ــ هاراختى . صاحب الهرم الثانى ، أجمل الأهرامات فى عينى ، يزهو على جاره الأكبر بتاجه الهرمى الكامل . لم يصوره المثال فى جلال الملك ، وقوة السلطان ، جباراً عاتياً . ولكنا نواجه ، من دون شك ، شخصية بارزة ، رافعة الرأس فى ثقة بنفسها ، واطمئنان إلى قوتها . ولست أدرى من أين جاءتنى فكرة قديمة فى شبابى ــ

عرفت تفسيرها فيما بعد – وهى أننى كلما رأيت وجه أبى الهول ملأت فراغاته، وأكملت سيماءه وتقاطيعه برأس خفرع هذا. كم أحب أن يوضع تمثاله الماثل فى مكان منفرد بمتحف المختارات فى صدر المكان، يبلغه الزائر بعد أن يتم مشاهدة روائع الأسرات الخمس الأولى. ومن رأيى أن الزائر الفنان، إذا أحب أن يحتفظ فى نفسه برعدة الفن، يجدر به أن يكتفى من يومه بزيارة مختارات فن الدولة القديمة، وأن يعود إليها مثنى وثلاث ورباع، لأنه سيكون حينئذ قد تشرب روح الفن المصرى فى أرقى وأخلص أعماله.

وليس فى نيتى، بطبيعة حال هذا الكتاب، أن أعدد الأعمال التى أقترحها لمتحف «المختارات». فلن يعسر على حسنى الإرادة، إذا ما استقر الرأى على تنفيذ مقترحى، أن يدلهم من هم أقدر منى على ما يختارون، وكيف ينسقون مواضع مختاراتهم.

* * *

هل ساءلت نفسك إن كان المصريون عرفوا كلمة «فن»؟ وما علامتها الهيروغليفية؟

يقول فقهاء اللغة البربائية إن الرمز الهيروغليفى الذى يمثل «مثقابًا للصخر» معناه هذه الكلمات: فن، صنعة، حرفة، فنان، صانع. فلم يكن لدى المصريين – ولا عند اليونان فى هذا الشأن – كلمات تميز الفنون عن الصناعات. والمثال الذى صنع تمثال «شيخ البلد» من خشب، أو نحت تمثال «تى» من الحجر الجيرى، لم يكن إلا صانعاً فى «شركات المقاولات المتحدة لبيوت الأبدية»، أى أجيرًا لنقابة الحانوتية. فمتى يتحول هذا الصانع إلى فنان؟ لاشك أن عنايته أولا وآخرا – وهذا شىء يميز الصانع المصرى فى كل عصوره الفنية الزاهرة، من عهد الأسرات وما قبلها، حتى قضت على فنه حضارة القرن التاسع عشر الآلية، والتفرنج الذى طمس على عيوننا، ومحى بقايا الذوق الفنى من نفوسنا – أقول إن عناية الصانع المصرى كانت فى إجادة عمله فحسب، حتى يجىء تمثاله مطابقًا للأصل. لأن فى هذا ضمانًا لنجاح التحول السحرى عندما تنفخ «كا» فى التمثال حياة صاحبه، أى عندما يلبسه عفريت المرحوم. ولكن الفنان، فى محاولته

المطابقة ، تتداخل فى نفسه تلك العوامل المجهولة التى تقود يده إلى اللمسة الروحية اللماحة ، فيجيء التمثال صورة للواقع ، وصورة لانفعالات نفسه الشاعرة .

هل ساءلت نفسك ، كما بحثت أنا طويلا ، عن مركز هذا الصانع الفنان فى المجتمع المصرى القديم ؟ لأننى حقـاً غلوت فى الدعابة عندما نزلت بأولئك الفنانين العظماء إلى مساعدى حانوتية !

بحثت طويلا فلم أفز بجواب ، لأننى يوم قصدت زيارة مدينة أخناتون بتل العمارنة لم أوفق لأكثر من الوصول إلى ملوى ! فلعلك لا تعلم ما تلاقيه من عناء ومشقة ، إذا أردت أن تعرف عن آثارك فى الصعيد شيئاً غير الأقصر والكرنك وطيبة . لن أحدثك عما تكلفت من جهد وضيق ، وما ضايقت به غيرى ، حتى وصلت إلى الأشمونين وتونة الجبل ومقابر بنى حسن وإسطبل عنتر ومعبد أبيدوس ودندرة وإدفو وإسنا . . . ويظهر أن كل تلك الآثار قائمة ليراها مفتشو الآثار وخفراؤها ، أو من واتاهم الحظ والثراء فصعدوا النيل فى ذهبية أو باخرة .

لو أننى فى ذلك اليوم البعيد ذللت صعوبة العبور من ملوى إلى الضفة الأخرى ، بعد أن عرفت فى أية فلاة أترك السيارة ، لتوصلت إلى الإجابة عن سؤالى . لأن بقايا مدينة أخناتون ما تزال محتفظة ببيت مثالها الأكبر « تحوتموزى » . ويقول عنه جان كاپار : إنه مجموعة مبان تضم منزل توتموزى الخاص ومرسمه . وبيت أحد أسطواته ، ومساكن عماله وصبيانه . ويؤكد بأن منزل المثال الأول لأخناتون لا يقل فخامة عن بيت رئيس وزرائه . ولا كبير كهانه .

وسؤالى لا أقصد به ما يظهر من نصه وحده ، لأن بيت المثال توتموزى كشف عن طريقة صنع تلك التماثيل التى فازت منا متاحف برلين بالنصيب الأوفر . ومن هذا النصيب نماذج أقنعة طبعت عليها أوجه الشخصيات التى صنع النحات تماثيلها . والتمثال يبدأ بالنقل الأمين عن طريق صبع قالب من حمأة لينة تطبع عليه تقاطيع الوجه مثلما تسجل وجوه الموتى العظماء فى أوربا على ما يعرف بالـ «القناع الجنائزى» وفى متحف القاهرة رأس لنفرتيتى صب من مثل تلك القوالب ، وكان الفنان يبدأ منها دور تحوله من صانع إلى خلاق . وطريقه مرسوم أمامه من هذا الرأس المصبوب . حتى ذلك الرأس الجميل لزوجة أخناتون الموجود حاليـاً ببرلين . وقد زعمت ألمانيا قبل الحرب

أنها على استعداد لرده إلى أهله ، لولا أن المصور الفاشل ، مبيض الجدران ، المدعو أدولف هتلر ، زعيم ألمانيا فى ذلك الوقت . . . وقع صريع هوى . . . نفرتيتى !

هذا ما أردتك أن تعرفه : الفنان المصرى القديم ، مع ما تقيد به من محاولة نقل الطبيعة ، ومن التزام قواعد وتقاليد مرسومة منذ عهد الأسرات الأولى ، استطاع ، على الرغم من تلك القيود ، أن ينفعل بوحيه الداخلى ، وهو يترجم عن الطبيعة .

ولعلك أن تعود إلى تمثال خفرع لتحاول لهذه الأعجوبة الرائعة تفسيراً .

* * *

الحضارة المصرية ، إن لم تكن أثرت تأثيراً مباشراً على الأمم التى اتصلت بها ، كما لا يزال ينكر ذلك عليها بعض المؤرخين ، فإنها على الأقل عملت عمل الخمائر فى العالم القديم والحديث ، بما قدمت من أمثولة على ما يبلغه جهد الإنسان العقلى والجثمانى والاجتماعى . وهى حضارة يمكن أن تجد فيها العناصر التى تثير عجبك وإعجابك ، من أية زاوية نظرت إليها ، وأية ناحية طرقت دراستها ، بشرط أن تكون مدركاً لحالة البشر فى العهود الأولى لتلك الحضارة : فى العلوم التطبيقية ، لا سيما الهندسة والطب ، فى المعاملات ، تنظمها التقاليد والتشريعات ، فى نظم الحكم ، فى الرى والزراعة وتربية الحيوان ، أو فى تلك النواحى التى لا يكابر فيها مكابر ، وهى هندسة البناء ، وفى فنون العمارة والحفر والنحت والتصوير والصناعات الزخرفية ، وأخيراً ، وليس آخراً ، فى تلك المغامرات الروحية للإنسان بحثاً عن الخالق ، وتحديداً لعلاقاته بما وراء الكون والطبيعة ، وما بعد الحياة الدنيا .

كما أن للطاعن فى حضارة أجدادنا أن يكشف عن أوجه الضعف فيها ، سواء فى نظرته إلى روحانيتها أو إلى حياتها المادية : توقف الفردية وجمودها عند حلول لم تتغير مدى الثلاثين قرناً التى لبثتها تلك الحضارة ، وقصور فى مجال الفكر المطلق والمغامرات الذهنية التى تميزت بها الحضارة اليونانية أو الهندية . والتغيرات التى حدثت لم تتجاوز حدوداً مرسومة أملتها العقائد الراسخة ، ووضعتها المبتكرات الأصلية التى تفتقت عنها أذهان شعب الدولة القديمة .

والحضارة المصرية غريبة عنا – حتى نحن أحفادها الأصالى ! – إلى درجة أن حكمنا عليها يصح أن يكون موضوعياً بحتاً ، فنمتدحها أو نقدح فيها ، تبعاً

لحكم العقل وحده ، دون العاطفة . فلا تعجب أن ترى الناس بيننا فريقين أو ثلاثة : الجيل القديم المحافظ ، وما تزال نظرته إليها موسومة باحتقار « تلك الكفريات » ، والجيل الحديث يشمل القادح والمادح ؛ والمدح والقدح يتسمان بالمبالغة والمغالاة . والواقع أن الموضوعية تباعد بين الناس وبين إدراك معنى هذه الحضارة المصرية ، لأنها ليست موضوعية منزهة ؛ فنحن نتأثر دون شك بظروفنا الحاضرة وبتفكيرنا الحديث ، كما نتأثر بماتلا الحضارة المصرية من حضارات ما بين النهرين واليونان والرومان والإسلام والرنيسانس وما بعده . فلا تحسبن أنك واصل إلى قلب الحضارة المصرية بانتهاج موضوعية زائفة . إنما الموضوعية المثمرة أن تحاول الاندماج فى الحياة المصرية القديمة ، وأن تحاول التفكير كما كان يفكر أسلافك فى سنة ألفين أو سنة ثلاثة آلاف قبل الميلاد ، وأن تعمل ، فى كل ناحية من نواحى الكشف عن هذه الحضارة ، بنصيحة ناقد فنى كبير تخصص فى فن الرسم عند المصريين القدماء قال : يجب أن نبدأ بنسيان معارفنا الحديثة فى فن الرسم ، حتى نستطيع فهم الصور المصرية والحكم عليها .

* * *

قلت منذ لحظة إنك حين تلتقى بتماثيل الدولة القديمة بالمتحف المصرى ، ستقبل عليها فى شىء من الألفة ، وستحس كأنك أمام أشخاص تعرفهم جيداً . وكنت أود أن أضيف : حتى لو أنك التقيت بأحد هذه التماثيل فى بلاد الغربة ، مثل لقائى بتمثال « الكاتب المتربع » بمتحف اللوفر .

لقد حدثت فى حياتى الطويلة ببلاد الغربة ظاهرة ربما لم أنتبه لها فى وقتها .. ولعل أغلب من سافر مثلى شاباً ليقضى سنوات فى الخارج ، خبر إحساس الحنين إلى الوطن الذى يعرف فى لغات الغرب بالنوستالچيا . وهو شعور يستولى عليك بحدة فى الأشهر الأولى من إقامتك ، ولكنه لا يفارقك طوال إقامتك بعيداً عن أرض « كيمى » .

ومع أننى سافرت إلى أوربا كلفاً بحضارتها — وما زلت ، مما حكيت بعضه فى كتابى « سندباد إلى الغرب » — فإن انصرافى التام إلى دراسة أهم مظاهر تلك الحضارة وأصولها ، لم يحمنى من نوستالچيا أرض كيمى . وكان الحنين إلى الوطن

يعاودنى فترات متباعدة طوال الخمسة الأعوام التى قضيتها بعيداً عن بلادى . ويرى بعض المواطنين علاجاً له فى أن يجتمعوا للاستماع إلى اسطوانات المطربات والمطربين المصريين ، أو فى أن يأكلوا أكلة مصرية يصنعها واحد منهم .

وعرفت ، إلى مثل هذه العقاقير ، علاجاً كنت أمارسه دون قصد أو وعى ، إذ لم أفهم أن كان كذلك إلا بعد عودتى إلى بلادى . كنت أعرج على القسم المصرى من المتاحف الكبرى لأقضى فيه بعض ساعة . وأذكر جيداً زيارتى « للكاتب المتربع » الذى يعتز به متحف اللوفر ، لأنه حقاً من أجمل أعمال الدولة القديمة . وإذا بالكاتب المصرى يفاجئنى بنظرات نفاذة لا تتجه إلى محدثه ؛ خيل إلى فى تلك اللحظة أن الرجل يرهف السمع إلى « لغط » ثلاثة آلاف عام من تاريخ بلاده وبلادى، وأننى أسمع هذا اللغط الموسيقى ينزل على قلب النازح عن وطنه برداً وسلاماً.

كما لا أنسى زيارتى الأولى للمتحف البريطانى ، وكانت أول مرة أسمع فيها أن لنا تاريخاً وآثاراً سابقة على عهد الأسرات، حتى رأيت أميناً كهلا من أمناء المتحف يشرح لمجموعة صغيرة من شباب البريطانيين حياة ما قبل الأسرات المصرية ، أمام قبر من قبور أهلها . لحظ الرجل ذلك الشاب الغريب الدخيل على محاضرته، وكنت أغطى رأسى ببيريه من بلاد الباسكيين ، فبدأ حديثه قائلا : « نحن هنا ندرس حياة أعرق الشعوب حضارة . . . (ثم يحدجنى بنظرة المتبرم بى) . . . لسنا مجرد عابرى سبيل . . . نحن هنا نتفحص ونعود إلى كتبنا لنتذاكر . . . (نظرات كأنها تقول : سامع يا بارد ؟) . . . لسنا من أولئك الأشخاص السطحيين الذين يمرون بهذه الآثار العظيمة ، وكأنهم يشاهدون فترينات بوند ستريت . . . (فهل فهمت يا بنى آدم ؟) . . . »

ولما يئس الرجل قطعاً من صرفى عن جماعة الدارسين ، بما كان يحسبه « صنعة لطافة » ، بدأ محاضرته التى استمعت إليها وكلى آذان ؛ ولولا البرود الإنجليزى ، وما أعرفه من طبع هؤلاء الناس ، ولومهم لمن لا يكبت عواطفه ، لقصدت الرجل بعد المحاضرة لأؤكد له بأنه لن يجد بين تلاميذه من كان أشد إحساساً . وأعظم حماساً لكل كلمة قالها . . . من ذلك الشاب الدخيل الغريب !

فلنستأنف رحلتنا . ونغادر المتحف المصرى لنذهب إلى سقارة، أعجوبة التاريخ المصرى كله . خرجت من رأس عبقرى واحد حفظ لنا التاريخ اسمه : إمحوتب . ربما كان مهندساً أو كاتباً أو طبيباً أو فناناً . فالمصريون القدماء يذكرون اسمه محاطاً بهالة من الإكبار والإجلال ، حتى لقد رفعوه إلى مرتبة الآلهة فى عهد متأخر . هذا هو الرجل الذى يقرن اسمه بروائع سقارة التى تحيط بهرم زوسر ! فلندخل حرم المعبد ، ولنتأمل أعمدة ذلك البهو الأبيض . أتعرف أنها أول أعمدة أقيمت فى تاريخ العمارة ؟ ومنها العمد المضلعة ، وإن لم تستقل بعد عن حوائطها . تأمل نحت قطاعاتها الحجرية ، ودقة صنعها ، ورقة إحساس صانعها . لقد حسب الأثرى إنجلباك دقة نحت عمود من الصوان الأحمر من الأسرة الخامسة . فوجد أن الخطأ فى كل قطاع سمكه ٢٦٠ سنتيمترا ، يتدرج بين قطاعات قطرها من ٩٢,٢ سنتيمتراً إلى ٧٩,٨ سنتيمتراً ، لا يتعدى ثمان ملليمترات . وقدر فلندرزبترى الخطأ فى ناوس من الجرانيت لسيزوستريس (سنوسرت) الثانى ، فلم يكتشف أكثر من ثمن ملليمتر فى أسطحه الجانبية ، وهى صقيلة كأنها لوح زجاج مصنفر .

ولننزل إلى مقابر تى ، وفتاح — حوتب ، وميريروكا . وهناك ستعرف أن حياة أسلافك فى الأسرات القديمة هى حياتك الحاضرة . هنا ، لأول مرة وربما لآخر مرة . ستحس بأنك حقاً حفيد أولئك الفلاحين والصيادين والصناع ، وستقاسمهم كفاحهم ، وتشاركهم فى مشاحناتهم . وتتعرف على أسماك نيلك ، وتسمع خوار ثيرانك ، ووشوشة هيشك وقصبك . سيعيد فنان الحفر بالبارز — باريليف — أمام عينيك حياة الشعب فى الدولة القديمة . ويقول الأثريون إن مصريى الأسرة الخامسة قد تنبهوا إلى نقش مقابرهم لا للزينة ، ولكن للغرض نفسه الذى عمل له المثال فى الأسرات السابقة ، أى لتتقمص « كاوات » الشعب صور نشاطه فى الحقل والمصنع . وعلى ضفاف النهر . وفوق صفحة مستنقعات الدلتا كى ينعم المتوفى بكل ما حوله من مباهج الحياة . فجاء الفنانون يحفرون على الجدران صوراً أمينة لحياة الشعب المصرى فى جده أكثر من لهوه . . . وسيجىء فنان الدولة الحديثة ليصور المصريين فى لهوهم وجدهم وعبادتهم . لا أعرف كيف أصف لك هذه المحفورات البارزة وتنسيقها فى صفوف متراصة — لأن الفنان المصرى لم يكتشف المنظور ولا عنى

بإثباته — والكتابات الهيروغليفية تملأ فراغات الصورة بطريقة الموازنة والمقابلة ، بحيث تحس وأنت ترى هذه الصفوف الرتيبة كأنك تسمع موسيقى بعينيك ، موسيقى ذات إيقاع هادئ ، وتكاد تسمع أصوات أولئك الصناع والزراع والمراكبية والصيادين سكون صحراء منف .

ولست أنسى أنى دخلت هذه المصاطب آخر مرة مع بعثة ثقافية أجنبية ، من ضمن أعضائها موسيقى محترف . ما كان أشد عجبى إذ رأيت الشاب ينتحى منا مكانًا قصيًّا ، ويخرج من جيبه دفتره الموسيقى ، ليدون ألحانًا أوحت بها إليه صور المقبرة . وكان الرجل من تلك الشعوب الجديدة التى لا تعنى بتعلم اللغات الأجنبية ، فاستحييت أن ألجأ إلى المترجم لأتبادل مع الموسيقى حديثًا يتصل بمصادر الوحى الفنى . المهم أن الرجل سمع بعض الموسيقى التى كنت أسمعها بعيونى منذ فجر شبابى !

وما بنا حاجة إلى الانتقال من منف إلى طيبة لنطمئن إلى أن هناك تجوزاً كثيراً فيما يقال عن جمود الحياة الفنية فى مصر القديمة . وإنما يغتر الناس بالشبه العام بين مظاهر الحضارة المصرية ، وهو الشبه الذى نراه بين نماذج كل مدرسة فنية : فى الفن الكلاسيكى اليونانى . أو فى فن الرينسانس . أو الفن الهندى أو الفارسى . إنها القرابة العائلية ليس غير . فما لم تتفحص تفاصيل فن من الفنون . وتعرف مؤثراته ، وشيئًا مما وراءه من تاريخ . تظل نظرتك إليه نظرة سطحية . ترى فيها جميع الصينيين واليابانيين يشبه بعضهم بعضًا . . . كأنهم التوائم !

أما ترى الفارق العظيم بين معبد أبى الهول ومعبد زوسر ؟ ألا تلاحظ تطور بناء الأهرامات خطوة خطوة ؟ ألم يعمل المثال المصرى فى الخشب والصوان والديوريت وحجر الجير ، وفى كل مرة تملى عليه المادة خطوط تطوره الفنى ؟ إذا امتدت أمامه صفحة حجر جيرى متماسك ، رسم عليها . ثم أعمل فيها إزميله على طريقة الحفر البارز . وإذا لم تطاوعه مادة الجدار للحفر . طلاها بطبقة من الجير ، أو من ملاط الطين المخلوط بالقش ، وصور عليها بريشته وألوانه ، كما فعل فى صور إوز ميدوم من أعمال الدولة القديمة ، وفى جميع مقابر وادى طيبة فى الأسرات الأولى للدولة الحديثة .

ما هو الهرم بضخامته الشامخة إلا تاج مسلة مكبر إلى أضعاف أضعافه ، كما عرفت المسلات فيما بعد ، رمز عبادة آتوم – رع ؟ أو أنه مصطبة فوق مصطبة ، حتى يرتفع هرماً مدرجاً ، ثم هرماً هندسياً ؟

إننا نتابع خطوط التطور حتى فى ذلك القليل الباقى من آثار الدولة القديمة . أين آثار مدينة إيون بعين شمس ، بل أين مدينة منف ذاتها ومعبد فتاح بها ؟ وهل هذا الذى نرى هو كل ما بقى من آثار دهشور وأبو صير وميت رهينة وسقارة ؟

كلا ! لم يكن الفن المصرى جامداً ذلك الجمود المزعوم .

جامداً ؟ ألا ليته ثبت طوال هذه القرون ! فما إن تنتصف الألف الثانية بعد الأسرة السادسة ، حتى ينهار كل شىء ، وتتقلص الأهرامات ، وفى ظلالها المنكمشة تنحل أربطة الحكم المفرد المتماسك ، وتنهار الملكية القديمة . فهل كانت ثورة هبت من أسفل لا تبقى ولا تذر ، حتى اختفت فى أتونها ثلاث أسرات ملكية أو أربع؟ أو أن هناك تسرباً أسيوياً ، أو غزواً شبيهاً بغزو الهكسوس فيما بعد؟ ما معنى أن تضمر أهرام الملوك ، وتنفسح جنبات مصاطب الوجهاء والأعيان ؟

جاء فيما بين الدولة القديمة والدولة الوسطى عصر غامض يعرف بالفترة المتوسطة الأولى ، يعتقد المؤرخون أنه كان عهد ثورات واضطرابات عنيفة وتسرب أجنبى . ولا تنس أن مصر مجموعة من الكور وحدها إيمان أهلها بأن الفرعون ابن إله الخير والفيضان والشمس ، بل وحدتها آلهة عظام ، وأنصاف آلهة ، قبل أن يوحدها أول ملوك الأسرة الأولى . فإذا اعتقد كبار الموظفين وحكام الأقاليم أن الأهرامات والمعابد أنشئت على أكتافهم ، وبفضل سلطانهم على الشعب ، وإذا استطال حكم الملك بيبى إلى نحو مائة عام ، ألا تتوقع أن يدرك أولئك الرؤساء بأن حقهم هضمه الفرعون فينتقضوا عليه ؟ تأمل حين عاد ملوك الأسرات الأولى فى الدولة الحديثة من مغامراتهم الحربية ، وتوسعهم الإمبراطورى ، يغدقون على معبد آمون وكهنة آمون بطيبة أسلاب فتوحاتهم . أفلا تتوقع ، عند ما تتقاعس همة الرعامسة ، أن يزحزحهم كهنة آمون عن عرشهم ؟ وهذا ما حدث فعلا عندما تولى كبير الكهنة، هيريهور ، عرش مصر فى نهاية الأسرة العشرين .

أما فى المرة الأولى ، بعد استطالة حكم بيبى ، فإن الذين تولوا الحكم كانوا

مجموعة من الأشراف والأعيان ، كل يستقل بكورته أو مجموع كوره . ومصر لا تعيش هانئة دون التعاون الوثيق بين أجزائها ، ولذلك راحت البلاد تتخبط أجيالا فى المجهول المظلم الذى كان يعرف فى وقت ما باسم عهد الإقطاع ، ويفضل المؤرخون الآن تسميته بالفترة المتوسطة الأولى ، تمييزاً لها عن الفترة المتوسطة الثانية ، بعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة ، والتى فيها نزل البلاء الهكسوسى بمصر .

والفترتان ستزيحان الغشاوة عن أعين المصريين المؤمنين إلى آخر حدود الإيمان بالبقاء والخلود ، المطمئنين إلى منعة حدودهم الصحراوية والبحرية . الفترة الأولى أطاحت بفكرة أن هناك وسائل مادية تحقق الخلود ؛ والغزو الهكسوسى أطاح بفكرة أمة لا تغزى ولا تغلب . استمع إلى أثر الفترة الأولى فى نفس الشاعر المغنى :

« لقد ترامى إلى ما جرى على أسلافى عندما تخربت بيوتهم ، وامحت أسواقهم ، وكأن لم يكونوا منذ عهد الآلهة شيئاً مذكوراً .

« لا تفكر بما بعد هذى الحياة حتى تذهب بنفسك إلى هناك . حيث تغرب الشمس .

« أى جدوى لما ينثره على الأرض كهان يلبسون جلد النمر ، أو لما يقدمون من قرابين ؟

« افرح بيومك المشرق ، وتمتع بما توحى به إليك نفسك ، فليس من دأب القدر أن يكرر أيامه .

« وكل ما هو آت آت ، ولم نر من الذاهبين إلى هناك من عاد » .

لكأنى به قس بن ساعدة القائل :

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر

يقول هيرودوتس ، وقد زار مصر فى أواخر سنى حضارتها وهى ترزح تحت النير الفارسى ، بأن رجالا يدورون فى المآدب على المدعوين يحثونهم على التمتع

بمباهج الحياة الدنيا، ويعرضون لعيونهم دمى صغيرة تمثل ميتاً مدرجاً فى أكفانه . وقد نبهنى ذلك إلى عادة متبعة فى الريف ، وهى ترك خشبة الميت مكشوفة فى العراء إلى جوار المسجد أو الزاوية من ناحية الميضة . أذلك لعدم وجود مكان خاص ، أم ليعتبر الناس ويذكروا أنهم كلهم ، وبعد عمر طويل أو قصير ، راحلون إلى هناك فوق تلك الآلة الحدباء ؟

أما الفترة الثانية ، فطالع ما تركته من أثر فى نفس المؤرخ المصرى مانيتون السمنودى ، الذى ألف تاريخ أسلافه باللغة اليونانية ، أيام بطليموس الثانى ، وسماه « إچيسياكا أبومنماتا » ، أى « مذكرات مصرية » :

« وفى حكم الملك ديدوميس استشاطت الآلهة غضباً علينا لسبب لا أعرفه ، فرزأتنا دون سابق إنذار ، بفئة من الناس لا نعرف لهم جنساً ، وتجرأ على اقتحام وطننا قوم جاءوا من الشرق ، فامتلكوا البلاد عنوة دون ممانعة منا أو قتال ، وقبضوا على الزعماء ، وأحرقوا المدن دون رحمة ، وقوضوا معابد الآلهة ، وأذلوا أهل البلاد ، وذبحوا الرجال وسبوا النساء والأطفال .

« ثم أقاموا على مصر ملكاً اسمه صاليتس ، سكن منف ، وفرض الجزية على إقليمى الصعيد والوجه البحرى ، ووضع الحاميات العسكرية حيث راق له ، وحصن القطاع الشرقى بخاصة ، توقعاً أن يتقوى الأشوريون يوماً فيطمعوا فى المملكة ويغيروا عليها » .

ومنف عاصمة الدولة القديمة لن يعود إليها مجدها ، وإن ظلت تحتفظ بمركزها كمدينة المجد القديم ، حتى جارت عليها العوادى ، وتاه الخلف فى معرفة مكانها زماناً طويلا . ولو أن الطبيب البغدادى عبد اللطيف وقف بآثارها وتحدث عن عزها ملياً ، وكان ذلك فى القرن الثانى عشر الميلادى . وستظل مثل الدولة القديمة نصب عين المصريين القدماء حتى آخر أيامهم .

وحان الوقت لقرية حقيرة بالصعيد أن يرتفع نجمها فى فلك التاريخ ، هى طيبة . ولن يكون ذلك قبل أن يقوم أمراء الصعيد بالقضاء على فوضى الفترة الأولى ، ويؤسس أحدهم : منتوحوتب — نبه—نب — رع أسرة جديدة ، ويجىء سنوسرت الأول ليكبح جماح الأمراء ، ثم يمهد من جاء بعده من المنتوحوتبيين الطريق للأسرة الثانية عشرة ، أسرة أمينمحعت ، وستختار تلك الأسرة عاصمة عند مدخل الفيوم فى

هرقليوبوليس ، غير المعروف مكانها الآن ، وإن قيل بأنها على مقربة من لشت ، أو بين لشت ودهشور .

والأسرة الثانية عشرة هي أمجد أسرات السلام بعد الدولة القديمة في التاريخ المصرى ؛ هي أسرة البناء والإنشاء ، وملوكها طاردوا الأسيويين أمامهم حتى سورية، وتوثقت العلاقات التجارية بين ملوك مصر وأمراء ببلوس (جبيل) كما يظهر ذلك في قصة « سنوهي » ، ولو أننا لا نعرف على اليقين إن كانت هذه مجرد قصة ، أو أنها مذكرات من واقع حياة رجل البلاط سنوهي .

وفى أبيدوس لوحة تشير إلى حرب فى آسيا ، أيام الملك سنوسرت الثالث ، وهو البطل الذى يتحدث عنه هيرودتس فيما يشبه الأساطير ، تحت اسم سيزوستريس إنما الواضح أن ملوك الأسرة الثانية عشرة أعادوا لمصر مقامها فى النوبة ، حيث يذكرنا نص لأمينمحعت الأول بانتصاره فى كوروسكو على شعب « واوات » . وللأسرة آثار عند الشلال الثانى . وأعيد فتح طريق قفط — وادى الحمامات حيث مناجم الذهب ، وقد أمن سنوسرت البلاد ، وأقام التحصينات فى الجنوب ، وأوقف زحف السود على مصر ، إلا من دخل منهم بتجارة الجنوب .

ولكن أعظم ما تذكر به ملوك الأسرة هى مشروعات الرى الكبيرة ، وما قاموا به فى منخفض الفيوم ليكون ميزاناً لمياه الفيضان ، تخزن فيه المياه العالية وتطلق منه لرى الشراقى ، تبعاً لحاجة البلاد ، وتمشياً مع حالة الفيضان .

ولقد اختفت معظم أعمال جبابرة الدولة الوسطى ، لولا أن هيرودتس وديودورس وإسطرابون وبلينيوس تحدثوا عنها فيما يكاد يدرجها فى عداد الأساطير . ولم يكن معقولا أن يجمع كل هؤلاء على خرافات ، وبعضهم رأى بعينيه قصر اللابرانت عند مدخل الفيوم . وقد عثر الأثريون على بقايا منشآت خزان المياه الكبير منخفض الفيوم ، وتتبعوا أسماء ذلك الخزان فكان « هونت » ، أى « المياه التى تفيض » و «ميرى» أى البحيرة و «فلوم» أى البحر . ومن كل هذا خرجت أسماء الفيوم ، وموريس — وهو الاسم القديم لبحيرة قارون حسب طبوغرافيتها القديمة — أما القصر فكان معبدا ،وبه مدفن لأمينمحمعت الثالث . وقد عرف فى اللغة المصرية باسم « لوبى — رو — هونت » أى « المعبد عند مدخل المياه التى تفيض » ، وهو

الاسم الذى حرفه اليونان إلى ما يقرب من قصر مينوس بجزيرة كريت المسمى « لابيرانت » .

وكان « قصر » لابيرانت يقع إلى الشرق من البحيرة ، على مرتفع من الأرض فى مواجهة مدينة التمساح (الفيوم) . وقامت البعثة البروسية ، برئاسة ريشارد لپسيوس ، بقياس أبعاد ما تبقى من آثاره ، فكانت مائتى متر فى عرض ١٦٠ متراً . وقد بقى قائما ، رآه فى القرن الخامس قبل الميلاد أولئك الزوار من الشمال ، وكان من أسباب إعجابهم بحضارة المصريين ، قال هيرودوتس :

« رأيت اللابيرانت ، فكان مرآه يفوق كل ما سمعته عنه ؛ ولو أننا جمعنا كل ما بناه الإغريق لما تطاول ، عملا وتكاليفاً ، إلى اللابيرانت . هذا مع أن معبد إفسوس عظيم ، هو ومعبد ساموس . ولقد رأيت الأهرامات فكانت هى أيضاً أعظم من شهرتها ، وواحد منها يساوى أعظم منشآت اليونان ؛ فإذا باللابيرانت يفوق فى نظرى الأهرامات ذاتها . أما خزان موريس فهو عجيبة تفوق اللابيرانت نفسه » .

وبرغم تلك الشوامخ ، وما تحدث به المصريون عنها إلى الرحالة الإغريق ، فقد اختفى اسم أمينمحعت . فمن قائل إن منشئها هو بساماتيك أو موريس — وقد عرفنا مصدر الاسم من « ميرى » أى البحيرة — ومن قائل إنه منيتس أو إمنديس أو غيرهم ، وكلها أسماء ملوك مجهولين لا أثر لها فى قوائم مانيتون ، ولا فى غيرها . ولم يكتشف اسم منشئها الحقيقى ، أمينمحعت الثالث ، فى خرابات آثاره إلا فى القرن الماضى .

ولا تعليل لاختفاء أعظم آثار الدولة الوسطى ، بل أعظم آثار الشعب المصرى القديم ، إلا فيما نكبت به البلاد من أولئك البرابرة الأسيويين الذين نزلوا بمصر نقمة . ولما طهر ملوك الدولة الحديثة البلاد منهم ، أخذوا فى حمل أطلال الدولة الوسطى ، ليستعينوا بها على إنشاء معابدهم . وقد اكتشف الأثريون فى بقايا صرح للملك أمينوفيس الثالث بالكرنك ، حجارة معبد صغير من الحجر الجيرى ، أنشأه الملك سنوسرت الأول مقاماً لتمثال آمون وسفينه المقدس . واستطاع المعمارى مسيو هنرى شڤرييه ، بعد جهود مضنية ، أن يعيد بناء ذلك المعبد فى ساحة الكرنك . وكذلك ظهرت تحت أنقاض قرية مدامود بقايا من مبان للملك سنوسرت الثالث .

ومسلة المطرية من آثار سنوسرت الأول أو « أوسرت ــ سن » ، كما كان يكتب اسمه فى القرن الماضى ، وهى أقدم المسلات المعروفة .

وكل هذا قليل بالنسبة لما اختفى من آثار دولة الأمينمحعتيين والسنوسرتيين فى تانيس وهليوبوليس والفيوم وقفط وطيبة ، ولا تعوضنا إلا قليلا عن زوال معبد أمينمحعت الثالث ، الذى عرفه اليونان باسم قصر اللابيرانت .

بل إن أسرة المنتوحوتبيين كان من حقها على التاريخ أن يبقى معبد ملكها بالدير البحرى ، لا لأن منتوحوتب قد وحد الإقليمين ، وافتتح العهد الذهبى الثانى للحضارة المصرية فحسب ، بل لأن أسلوب بناء ذلك المعبد كان شيئاً جديداً فى العمارة ، تأثرته الملكة حتشبسوت عندما أقامت معبدها فى بطن جبل طيبة ، إلى جوار معبد سلفها الكبير .

وكأن هذه الدولة الوسطى محكوم على آثارها بالفناء ! فقد حفظت الأجيال منها مجموعة قبور فى سفح الجبل عند قرية بنى حسن ، أمام المنيا ، وفى البرشة ومير وأسيوط ، وبالقرب من أسوان . وتفطر قلبى أسى وأنا أزور مقابر بنى حسن ذات يوم فى مطالع عام ١٩٥٥ ؛ فإذا هذه الروائع من فن الدولة الوسطى مهملة ، يسطو عليها ما هو أقوى من اللصوص . . . يمحوها الزمن محواً من فوق جدران المغارات ذات العمد السابقة على الطراز الدوريكى ، والعمد ذات التيجان اللوتسية . وهى قبور أمراء الكور فى الدولة الوسطى ، صورة من فن الريف المصرى بعيداً عن العاصمة القديمة منف ، والعاصمة الجديدة هرقليوبوليس ؛ تصور ، كالعادة ، حياة الزرع والضرع ، ولكنها تصور أيضاً شيئاً جديداً على الحياة المصرية . وهو إعداد الشباب بكل أنواع التمرينات الرياضية والعسكرية للقيام بواجب الدفاع عن الوطن . تفطر قلبى لأن تصاوير بنى حسن ستختفى حتما فى بضع سنوات إن لم نتداركها . ولأن تصاوير مقابر سقارة مآلها هى أيضاً إلى الزوال ، وبخاصة الواقع منها فى ممرات المداخل ، ولأن تصاوير الدير البحرى مآلها هى أيضا أن تمحى . ولا أعرف على من نلقى اللوم يوم يعان فى العالم محو صور بنى حسن ، أو بعض صور سقارة أو الدير البحرى ، كما لم أعرف إلى من وجهنا اللوم عندما انهار صرح من صروح الكرنك فى أوائل عام ١٩٥٩ ، وتفركت صور مقبرة نفرتارى !

وماذا يفيد اللوم بعد أن خرج من مصر الكثير من تماثيل هذه الدولة الوسطى ، وهى كنوز غالية تحتفظ بها متاحف العالم المشهورة . فمن المسئول عن خروج رأس للملك سنوسرت الثالث من زجاج الأبسيديان الأسود ، وتمثاله فى شكل أسد رابض من حجر الديوريت . وتمثال الأميرة سنوى ، أميرة أسيوط ، وكان زوجها حاكماً على النوبة من قبل سنوسرت الأول ؟

و بالمتحف المصرى مجموعة تماثيل وصور حائطية لملوك الأسرة الثانية عشرة، أرجو أن يخرج بعضها إلى « متحف المختارات » يوماً . حتى لا تضيع وسط المخزن العام الذى ضاق بسكانه العظماء . فهى صور ناطقة بالتحول الذى انتقل بالمصرى من عهد الطمأنينة والسلام والمنعة، إلى عهد عرفوا فيه ثورات لا تبقى ولا تذر، وذاقوا مرارة تسرب الأسيويين البرابرة إلى وادى الحضارة .

وقاعة الحلى بالمتحف المصرى احتفظت لنا بأجمل ما أنتج صاغة الجواهر فى الدولة الوسطى. تلك العقود والخواتم والغوايش والتيجان والصدريات الملكية لأمينمحعت الثالث وسنوسرت الثالث . تلك النفائس التى كشفت عنها حفائر دهشور ، ليست مجرد ذهب وزمرد وياقوت ولازورد ، ليست مجرد صور للبذخ والثراء أغدقه المصريون على موميات أميراتهم وملوكهم . وإنما هى نماذج لفن حضارة رفيعة ، تعنى بالجمال فى الأثاث واللباس والصحاف والأوانى، من أية مادة صنعت ، حتى لنعجب اليوم بتلك العقود « الفالصو » التى يقتنيها السياح ، مع أنها مصنوعة من صفيح وخرز وزجاج وقطع الميناء . لا لشىء إلا لأنها تقلد ، وتحتذى إلهام ذلك الصانع المصرى العجيب .

* * *

وفى الخمسين سنة الأخيرة من حكم هذه الأسرة العظيمة ، الذى دام أكثر من قرنين ، أخذ يغشى مصر ظلام تاريخى وإبهام لم يكشف عنه بعد ، والغالب أن يكون الهمج الأسيويون قد عادوا إلى التسرب فى شرق الدلتا ، أو تكون موجات الهجرة قد تحركت من أواسط آسيا فاكتسحت الشرق الأدنى ، ودفعت أمامها ذلك الشعب المجهول الأصل والنسب . فنزل بمصر ، وقضى على استقلالها وحضارتها . هى فترة مجهولة ، لأن حكم الهكسوس فى المائة أو المائتى عام التى أناخ فيها بكلكله

على مصر ، لم يترك لنا من آثاره . . . إلا مجموعات من الجعارين !

وهذا الغزو الماحق أزاح عن عيون المصريين نهائياً غشاوة الاطمئنان داخل الحدود، فلم تفد بشيء حصون الأسرة الثانية عشرة التي تذكرنا بمآل خط ماجينو الفرنسي ، عندما تحول إلى مصيدة هائلة لحماته ، خرجوا منها إلى معسكرات الاعتقال الألمانية مباشرة !

تعلم المصريون ، في الألف الثانية قبل الميلاد ، أنه غير كاف أن تطرد الدخيل إلى خارج بلادك ، وتقيم وراء حصون حدودك ؛ بل يجب أن تطاردهم إلى ما وراء تلك الحدود ، حتى تطمئن إلى البلاد الواقعة وراء حدودك ، سواء باستعمارها أو بضمان صداقتها وحيادها .

يفسر لك هذا الدولة الحديثة كلها ، أو الإمبراطورية المصرية العظمى ، ضعفاً وقوة . فضعفها نشأ عن قوتها ؛ تعتدى على جيرانها لتؤمن حدودها ، فتضيف إلى الخطر الذي يهدد نظامها في الداخل ، كلما ضعفت أداة الحكم ، خطراً جديداً ، وهو تحفز الدول المحكومة ، أو الدول التي تخضع بطريقة أو بأخرى ، وتربصها بمصر ، وتحركها للانفصال عن الدولة المسيطرة ، بل والانقضاض عليها ، كلما أحست بتخلخل الضغط واضطراب الملك . سيحدث ذلك كلما قامت في الشرق الأدنى دولة جديدة ، حتى يقضى القضاء الأخير على استقلال مصر الفرعونية ، تحت سنابك الجحافل الفارسية ، ثم تحت أقدام كتائب المقدونيين المتراصة ، التي اقتحمت كل شيء أمامها منذ خرجت من بلادها ، بقيادة الإسكندر ، حتى بلغت حدود الهند .

وما أكثر ما خلفت لنا الدولة الحديثة من آثار ، وآثار عظيمة ، ولكنها لا تقارن في قيمتها الفنية ، ولا في أصالتها ، بآثار الدولة الوسطى ، ومن أولى ، بآثار الأسرات القديمة . إنني أستجمع في خيالى كل ما تركته آثار الدولة الحديثة ، سواء ما رأيته منها على طول الوادى ، أو ما تزدحم به قاعات المتحف المصرى ، ومتاحف العالم الخارجى ، فأحس حيالها بشيء من القلق ، لا تفسير له عندى إلا في أن أصحاب هذه الآثار يتكالبون على الدنيا ، ويحاولون إقناعك شخصياً بأنهم خير أمة أخرجت للناس . وترتفع في هذه الدولة جعجعة الملوك ، وتصطخب دعاويهم الطويلة ،

ويسردون عليك حكايات هى إلى الفشر أقرب ، من أمثال حكاية رمسيس الثانى الذى وقف وحده أمام جيوش الحيتا كلها ، فى العام الخامس من حكمه ، إبان موقعة قادش، وهى القصة التى تكررها معابد الرمسيوم والأقصر وأبو سمبل، وغيرها ، كأنها بلاغات رسمية ، ويترنم بها شاعر العهد ، المدعو بنتاؤر ، فإذا ببردية فى متحف تورينو تسرد الحكاية بتفاصيلها ، ووقفة الملك وحيداً أمام أعدائه يدعو إلهه آمون ، فيهب إلى نجدته ، ويرتد الأعداء فى هرج ومرج من عرباتهم الحربية تتحطم ، ويتساقطون غرقى فى نهر العاصى ... ولكن هذه البردية تصف الحادث على أنه وقع للملك ... تحوتمس الثالث ، وهو الملك الفاتح، فى الأسرة السابقة على أسرة الرعامسة ، ولا يبعد أن تكون أمثال هذه الحكايات أكليشيهات شعرية تعار لمن يستعير .

ورمسيس الثانى ربما كان أصعب الشخصيات تحليلا لدى المؤرخ ، ومؤرخ الفنون بالذات . لقد تولى العرش شابا ، ومات بعد أن حكم سبعة وستين عاماً ، وحكم على إمبراطورية واسعة الأرجاء ، وأنشأ من المبانى ما لا يكاد يدخل تحت حصر ، وبعضها من أعظم ما أبقى التاريخ عليه من آثار الأمم الماضية . ماذا دهى ذلك المتكالب على الدنيا والآخرة ، المسعور بالسطو على آثار غيره ، ومنها بعض آثار ملوك الدولة القديمة ؟

كنت أطالع ، بمحض الصدفة ، وأنا أكتب هذا الفصل ، «سفريشوع» [يوشع] من أسفار « العهد القديم » — أتذكر قصيدة شوقى : أيا شمس يوشع خبرينا إلخ ؟ — وهو سفر من أكثر أسفار التوراة إثارة للملل والضجر ، فكله طنطنة وشنشنة تشبه ما عرفته من أخازم الأسرة التاسعة عشرة . وإذا كان رب الجيوش ، « الأدوناى » الذى وعد بنى إسرائيل بامتلاك الأرض وما عليها، هو الذى يأمر يوشع بأن ينفخ فى الصور فتندك حصون أريحا ، وهو الذى يستجيب ليوشع فيوقف له الشمس فى مسارها ، فإن رب الجيوش فى مصر ، المدعو آمون ، يتكفل بتحقيق الكثير مما يشبه تلك الأساطير العبرانية .

إنما الحقيقة التى لا يمكن إنكارها هى أن الدولة الحديثة — بإهمال أمر الفتوة الفردية لملوكها التى تذكرنا بفزورة المشط : « قد الكف ، ويقتلماية وألف ! » — هى قمة من قمم الحضارة المصرية فى كل ما عرف عنها، بل هى اجتماع تيارات

العصور السالفة فى مجرى حضارى هائل – أفكر به دائماً كلما اقتربت من شاطئ النيل فى عنفوان فيضانه – حتى واو اتسمت أعمالها الفنية بالقلق . كما فى عهد التحوتمسيين ، أو بالمرض والعقد النفسية كما فى عهد أخناتون ، أو بالعنجهية والطنطنة كما فى عهد رمسيس الثانى . ولنا أن نعتز بالعاصمة المصرية فى زمانها ، إذ كانت طيبة حاضرة العالم المعروف فى عهد الدولة الحديثة . كما كانت الإسكندرية فى عهد البطالسة ، وكما كانت القاهرة . كبرى العواصم الإسلامية فى القرون الوسطى ، وفى العصر الحاضر .

كادت طيبة . عاصمة آمون ، تجعل من إلهها رب العالم ، وإننا لنسمع صدى طيبة فى أشعار هوميروس . وهو يقول فى الإلياذة : « طيبة حيث القصور المنيفة تنضم على الكنوز . وأبوابها المائة يخرج من كل منها مائتا فارس مغوار مدجج بالسلاح » .

طيبة أعادت مجد منف إلى مائة ضعف وأكثر . وستصور قبورها حياة المصريين . فإذا هى حياة متاع وبذخ ورقص ومآدب . لم نعهدها كثيرا فى قبور الدولة القديمة . فبريروكا . من الأسرة السادسة ، الجالس إلى مائدته . هو التقشف بعينه إذا قيس ذلك بالحفلات الراقصة فى الدولة الحديثة . والغوانى تتولى الوصيفات زينتهن ، وعازف الصنج الأعمى ينشد قصائده ، وفتيات يعزفن على آلات وترية ، أو ينفخن فى مزامير رقيقة مثل قدودهن. وذلك إلى جانب صور الحياة الجادة للزارع والصانع والصياد كما فى عهد الدولة القديمة . إنما الجديد حقا هو تصوير حياة الملاحم والوقائع الحربية تتساقط فيها الرءوس ، وتتطاير الأكف . وتدك المعاقل ، وذلك فى كل شبر على جدران المعابد وصروحها ، لا تحتله صور الأسرى الأسيويين والجنوبيين . أو تشغله لحى الأغراب وأنوفهم المعقوفة وشعرهم الأجعد . ولنتصور حياة طيبة عاصمة العالم القديم إذ ذاك . وقد تزاحمت فى طرقاتها وساحاتها ومغانيها ومعابدها أجناس وأخلاط من الشعوب . تتدلى ألسنتها عجبا . ويرتد منها البصر وهو حسير ،أمام صروح الكرنك والأقصر . ومعبد سيتى بالقرنة ، والرمسيوم ، وقصر أمينوفيس الثالث . ثم معبده الجنائزى ، وعلى أبوابه قام تمثالان هائلان ، عرفا فيما بعد باسم « جبارى ممنون » . وكانت شمس الصباح وهى تدفئ صخورهما ، فيتبخر عنهما ندى الليل ، تحدث ذبذبات عجيبة ، ينبعث عنها من أحد

التمثالين صوت كالصفير أو الرنين .

ولكى تعرف ضآلة ما بقى من تلك الآثار بالنسبة لما كانت عليه ، اذكر فى عودتك من مدينة هابو أن قصر أمينوفيس الثالث كان قائماً قرب معبد رمسيس الثالث ، إلى الجنوب الغربى منه ،وأن معبده الجنائزى كان أمامه ، ممتداً إلى الشرق حتى تمثالى أمينوفيس الثالث (جبارى ممنون) . ثم تأمل تمثالى الملك الآن ، مشوهين تشويهاً كاملا ، وقائمين وحدهما وسط المزارع الواسعة كأنهما خيالا مقاتة أقامهما أبناء العملاق عوج بن عنق .

ويقابل صور هذه الحياة الصاخبة فى مقابر الأشراف والوجهاء ،بقرية الشيخ عبد القرنة ، عناية سكان بيبان الملوك بالحياة الآخرة ، وحرصهم على أن يقفوا بمحكمة أوزيريس وتوت وقفة البرآء طاهرى الذيل . ألم يملأوا خزائن آلهتهم بخيرات الدنيا ؟ ألا تستحى عيون أولئك الأرباب وقد أطعمت أفواهها ذهباً وجواهر ، وأقيمت لها الهياكل والنصب والمعابد ، من ضفاف الفرات حتى ما فوق الشلال الرابع ؟!

وكأن التمسك بالدين فى الدولة الحديثة لم يعد هو أيضاً ذلك الإحساس الصافى الصادق ، النابع من روح شعب متدين دائماً ، وكأنى به وقد أصيب بحمى الإعلان والدعاية ، والتوكيد بأن الملوك كانوا من الصلاح المتقين .

لست أنسى ذلك الصديق الكاتب المبدع محمود طاهر لاشين ، ونحن نزور المتحف المصرى ، أيام أرخى شبل إسماعيل لحيته ، وعرض على الأنظار سبحته ، وإذا بطاهر يشير إلى تمثال ملك لست أذكره الآن ، وقد تدلت من ذقنه لحية مستعارة ، ويقول : ما من جديد تحت الشمس ! ألا ترى أن هؤلاء أيضاً كانوا يضحكون بذقونهم على دقن شعبهم ؟

وتلفتنا حولنا . . . ولكن بعد أن أطلق صديقى دعابته الصادقة فردد صداها بهو المتحف الكبير ، وأتبعها بضحكاته المعهودة التى تمثل صراحة طاهر لاشين وصدقه أحسن تمثيل .

ومهما كان من أمر فتوحات تحوتمس ، وهى ضرورة قومية ، وكان الرجل يجمع إلى عبقرية السياسى قدرات رجل الحرب ، فإن طبيعتى المصرية لا تميل إلى تلك

المغامرات البعيدة وراء الحدود ، إذ أنها ستأتى إلى بلاط فرعون بالأغراب من أمراء ينشأون على التقاليد المصرية ، وأميرات أجنبيات يثرن فى حريم الفرعون ما المرأة أعرف به ، وستأتى بالأجناد المرتزقة من كل حوب ، يلتمسون العيش أينما كان ، وبالتجار والمغامرين يهربون إلى داخل البلاد سمومهم الخلقية . طبيعى المصرية المحافظة تخشى ما سيحل بالشعب المصرى الأصيل عندما يختلط بالغرباء اختلاطاً يتعدى المدى القديم ، وقد عاش تاريخه بمنأى عنهم ، وكأنه أقام «كردون » صحيًّا بينه وبينهم !

وعندى أن فن العمارنة الجذاب يحمل جرثومة الانحلال من أثر هذا الاختلاط ، فقد يتوه أخناتون فى بوادى فلسفته الدينية ، ويدور فى أبهاء قصره يتغنى بأشعاره ، متغزلا فى ربه القرص ، أو فوق درج معبده المفتوح إلى السماء . ألم يتح الفرصة لما يجىء به الغرباء من أفكار فى الفن والأدب ، يدلسون بها على المصريين ، تحت ستار تمجيد الثورة وصاحبها ؟

يخيل إلى أننى تماديت حتى تورطت فى الخطأ المعروف بالحكم الجزاف على هذه الدولة الحديثة . فكيف أنسى آثار سيتى الأول فى أبيدوس وطيبة ، وبهو أمينوفيس الثالث بالأقصر ، وبعض آثار رمسيس الثانى فى شبابه ، كيف نسيت كل ما نشاهده فى بيبان الملوك والملكات ، ومقابر عبد القرنة ، ومعابد الرمسيوم وهابو والدير البحرى ، من قرائن على قوة الخلق فى حياة هذا الشعب الفنان ، وتمسكه بمثله العليا فى الجمال والخير ؟

ورمسيس الثانى هو اللغز الذى لا أفهمه ، وهو المسئول عن جموح رأيى . فكلما قارنت بين البهو الخاص به فى معبد أبيدوس — وأبيدوس عندى ، هو والأقصر ، أجمل المعابد المصرية كلها ، قديمها وحديثها — وبين البهو الخاص بأبيه سيتى الأول ، ظهر الفارق العظيم بين فن الأب وفن الابن . فن سيتى عريق رائع ، يرتفع إلى مقام فن الأسرات القديمة ، وتشغف به النفس شغفها بأجمل الآثار ، بينما فن رمسيس متعجل ، مكلفت ، يذكرك بما خرج فى حكمه الطويل من أعمال تتميز بالضخامة والجعجعة ، وحب الدعاية والتفاخر . كيف حدث هذا بين عهدين يتلو أحدهما الآخر ؟ فن غير المعقول أن يكون جيل الفنانين

الكبار فى عهد سيتى الأول قد انقرض هكذا سريعاً ، ولا سيما أنك ترى فى بعض آثار رمسيس جمالا ورقة وعمقاً لا تعهدها فى آثاره الأخرى: تمثاله الجاثى وهو يدفع قارباً ، وصور مقبرة زوجه نفرتارى ؛ جيل فنانى سيتى لم ينقرض ، وإنما بواعث العهدين اختلفت ، كما أن تميز ملك عن آخر فى حسن اختيار مهندسيه وفنانيه ؛ لا دخل فيه لقرب أو بعد فى الزمان أو فى المكان . وعندى أن سيتى الأول كانت تتغلب عليه نزعتان : النزعة الدينية العميقة ، وتتمثل فى السبعة المحاريب التى أنشأها بمعبد أبيدوس لكل واحد من كبار آلهة المصريين : أوزيريس وإيزيس وهوروس وفتاح وهوروس — هاراختى ، ومحراب الملك المؤله ، ويتوسطها محراب آمون . وبها أجمل الصور بالحفر البارز فى تاريخ الفن المصرى كله . النزعة الثانية عند سيتى إحساسه التاريخى بالماضى — فى مقابل اهتمام ابنه السوقى باسمه ، ومستقبل اسمه فيما يجىء من الزمان — وهو الإحساس الذى أطالع أثره فى القوائم الملكية التى أمر بنقشها على جدران « قاعة الأجداد » ، وقد صور فيها نفسه يحمل مبخرة ، وأمامه ولى عهده ، بشوشة الغلمان المضفورة ، يتلو من لفافة بردى ، وهما يمجدان ستة وسبعين ملكاً نقشت أسماؤهم على الجدران ، من أول مؤسسى الأسرات حتى سيتى ، الآمر بأن تكتب هذه الكلمات فوق القوائم الملكية :

« فروض الصلاة على أرواح الذاهبين ، يؤديها الملك سيتى ، ويقدم لأرواحهم القرابين : ألف رغيف ، وألف دن من الجعة ، وألف رأس من الماشية ، وألف كيلة أذرة ، وألف وزنة من البخور ... فليضاعفها فتاح — سوكر — أوزيريس ، رب القبر الذى يسكن ،فى معبد سيتى» .

ولم يأخذ الصبى ذو الضفيرة عن أبيه هذا الدرس الأخلاقى ، بل راح يعتدى على آثار الأجداد يدعيها لنفسه ، تغلب عليه نزعة التفاخر ، ويتملكه جنون العظمة . اندفع يذرع أرجاء الإمبراطورية طولا وعرضاً ، كمن به مس ، يستحث المهندسين والبنائين ، كمن يتعجل تخليد ذكراه ، فإذا به يحكم سبعة وستين عاماً ! لم يكن يعنى كثيراً باختيار مهندسيه وفنانيه ، وهو شبيه فى ذلك بجميع الملوك والحكام الذين حذقوا فن الإعلان ، فما أسهل أن يدخل عليهم الفنانون السوقيون بالخنجل والمنجل ، فيزيحوا الفنانين الأصالى الصادقين ، كما يطرد النقد الردىء ، النقد

الجيد . ولعل رمسيس ، لتعجله ولهفته ، حشد الجميع حشداً دون تمييز فخرجت فى عهده أعمال تتفاوت تفاوتاً كبيراً فى تعبيرها الفنى ، ويغلب عليها التعاظم والتضخم ، والضرب فى العالى . ولهذه جمالها ، وجلالها دون شك ، فإن بهو الأعمدة الكبير فى الكرنك يأخذ عليك أنفاسك . وصدق شامبوليون وهو يقول عنه : « هؤلاء الناس كانوا يبنون لعمالقة طولهم مائة قدم ! »

* * *

أما العهد المتأخر فقد كان موضع إشفاق المؤرخين الأثريين إلى عهد قريب ، حتى جاء رجال أكثر إحساساً بالفن ، وأقل تأثراً بوقائع التاريخ . فأدركوا أن هذا العهد مرّ بحتميات فنية هامة . تقف إلى جانب الأحقاب السالفة رأساً برأس . ومرد ذلك تياران : الأول تيار التطور . ولم يكن تطوراً قاصراً . فقد اعتنى فيه بإجادة تمثيل الجسم الإنسانى . أما التيار الثانى فهو التزام الفنان للقوالب والطرز المعهودة . ونشأ عن التيارين أسلوب فيه من الحيوية ما حدا باليونانيين إلى التأمل والدرس ، فاستطاعوا أن يتطوروا بفن المثال عندهم . ويحققوا ما بدا لنقاد الفن كأنه « المعجزة الإغريقية » . عنى الفنان المصرى فى العهد المتأخر بثنيات القمائص الرقيقة فوق الجسم العارى ، مما يحول كساءه عرياً ، نتيجة تأثر الفنان المصرى باللمسة الحسية ، سابقاً فى ذلك زميله الإغريقى .

وفى متحف القاهرة تمثال من الصوان لكاهن من كهنة آمون فى العهد الإثيوبى ، ارتقى إلى منصب حاكم الإقليم ومحافظ طيبة . وبمتحف برلين تمثال صغير للكاهن فتاح — أمينوفيس جالساً القرفصاء . وضامًّا ذراعيه فوق ركبتيه . ورأس تمثال يعرف بـ « الرأس الأخضر » من أواخر ما أنتج الفن المصرى . وبمتحف اللوفر رأس كاهن من الصوان فيه ثورة واضحة على فن النحت القديم ، توحى بالتساؤل عن مدى تأثر الفن المصرى بالفن الإغريقى ، وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نتساءل إلى أى حد تأثر فن المثال الرومانى فى آخر عهد الجمهورية بهذا الفن المصرى المتأخر ، النابض بالتعبير النفسانى .

وفى الوقت الذى كان فيه الإسكندر يستولى على مصر ، كان كاهن مصرى اسمه بتوزيريس يأمر بأن تنقش على مقبرته هذه الحكمة : « سعادة المرء فى مراعاة

العدالة ... وإذا كنت قد بلغت إلى هنا ،حيث الحياة الباقية ،فبفضل ما قدمت يداى من خير على الأرض ، ولأن قلبي سلك طريق الهداية إليه تعالى . . . عملت هذه الصالحات حتى أبلغ ربى بعد موتى ، ولأننى لم أفتر عن ذكر أسياد العدالة فياصل الخير والشر . سعيد من أحب الرب ، وسيبلغ مثواه الأخير مبرأ من كل ذنب . »

ومقبرة هذا الكاهن ، القائمة فى منطقة تونة الجبل ، من الفن المصرى المتأخر ، وليست من الفن المتدهور . أعجب ما فيها محفوراتها الحائطية : صميمة فى مصريتها عندما تصور الطقوس الدينية ، فالفنان يلتزم هنا الفن الكلاسيكى التزاماً ، ولكنك تحس فى التصوير بيقظة وحركة لا يفسرها إلا الصف الأخير من تلك الصور ، حيث ترى واضحاً جليا تأثر الفنان المصرى بالفن الإغريقى .

والتأثر غير التهجين الذى نراه فى مقبرة كوم الشقافة ، وهى من آثار القرن الثانى بعد الميلاد ، تهجن الفن المصري بالفن الغريقو رومانى ، فكان كالغراب الذى حاول أن يقلد الطاووس ففقد شخصيته الغرابية ، فلا هو يخطر كالطاووس ، ولا هو يخطو كالغراب .

مقبرة بتوزيريس هى الفن المصرى يتأثر فيتحرر ، لا يتحور .

* * *

ثلاثون قرناً من الفن المصرى تحيا برغم الاضطرابات والثورات والغزو الهكسوسى والرزء الفارسى والحكم المقدونى والرومانى . أليست هذه هى الأعجوبة الحقة فى تاريخ الفنون الإنسانية كلها ؟

وإن احتفاظ المصريين بتقاليد مجتمعهم وحكومتهم ، وأهم من ذلك : تمسكهم بعقائدهم ، هو الذى يفسر لنا ذلك الاستمرار ، بل تلك العودة إلى التفتح والازدهار ، لا فى العهد الصاوى وحده ، فى الأسرة السادسة والعشرين — وهو عهد معروف بالحرص على إنتاج الأعمال الممتازة ، واستيحاء فن الدولة القديمة — بل حتى الأسرة الثلاثين آخر الأسرات المصرية . فلا يمكن أن يعيش الفن طوال ثلاثة آلاف عام إلا إذا كانت نظرة المصرى تتجه دائما إلى ماضيه ، يتمثل بتاريخ أجداده وأسلافه ، ويرى فى أعمالهم ، وأعمال الأسر الأولى بخاصة ، أن « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . وحب المصريين لماضيهم ذلك الحب ، وتمسكهم به حتى آخر رمق من

حياة حضارتهم ، هو فى الحق عجيبة الأعاجيب . فإلى ما حفظته لنا الآثار من قوائم الملوك وسلسلة الأسرات ، نجد قوائم ، أو شجرات نسب ، لآحاد من الناس ؛ مثل ذلك المهندس المعمارى الذى نقش على صخور بوادى الحمامات شجرة نسبه ، من عهد رمسيس الثانى حتى أيام حكم داريوس الفارسى . وفى متحف برلين صور من الحفر البارز لستين تمثالا لأسرة خرج من بين أفرادها عشرون كاهناً من رؤساء كهنة فتاح ، وذكرت مع أسماء ستة وعشرين من أعضائها أسماء الفراعنة الذين عمل هؤلاء الأشخاص إبان حكمهم . فهذه وثيقة تبدأ فى الأسرة الحادية عشرة ، وتختم فى حكم الأسرة التالية . ووجدت لوحة بمقبرة المدعو « تونروى » ، المعاصر لرمسيس الثانى ، وتبدأ باسم « آجب » وهو من يظن أنه منشئ مدينة منف . وفى مقبرة أوخ — حوتب ، بقرية مير ، جدار نقشت عليه قائمة أجداد صاحب المقبرة، وكانوا يتولون وظيفة حاكم كورة القوصية ، من الأسرة الخامسة حتى الأسرة الثانية عشرة ؛ وكان أوخ — حوتب نفسه معاصراً للملك سنوسرت الأول : أى أنها شجرة نسب تسجل تسعة وخمسين جيلا .

إن مجرد التفكير بالارتقاء فى شجرة الأسرة كل تلك الآلاف من السنين ظاهرة بسيكولوجية تؤيد ما نحن بسبيله . وإذا تأملنا الحضارات العظيمة فى التاريخ ، استوقفتنا دائما علامتها المميزة : الاستمساك بالأجداد وما صنعه الأجداد . استمع ما يقوله ، فى مقدمة تاريخه ، شيخ من شيوخ التاريخ ، وأب من آبائه العظام : تيتوس ليفيوس ، مؤرخ روما الأكبر :

« موضوعى فسيح الرحاب انفساحاً هائلا ، فهو يرق إلى سبعمائة عام . بدأ بدايات متواضعة ، ثم أخذ يتسع علىّ ، حتى لأخشى أن أضيع فى رحابه ، هذا إلى أن الكثيرين من قرائى لن تهمهم فى قليل أو كثير أصول روما ، ولا مطالع دورها فى التاريخ ؛ وسيتعجلون تحدثى إليهم بتاريخهم المعاصر ، حيث نشهد بأعيننا كيف يسير قومنا إلى العفاء ، وهم يقضون بأنفسهم على مصادر ثروتهم . أما أنا ، فخير ثواب لى أن أريح بصرى ، طوال الوقت الذى أصرفه مسدداً غرضى نحو استحضار الماضى البعيد ، وأن أريح بصيرتى مما حل بأهل هذا الجيل من شقاء وهوان » .

* * *

يبقى بعد كل هذا السؤال المعلق ، والذى سيظل معلقاً زمناً طويلا : هل تعتبر مصر أم الحضارة الحديثة ؟

وسأجيب عنه بسؤال آخر : هل فهمنا الحضارة المصرية على وجهها الصحيح ؟

إننى واحد من عامة قراء التاريخ أحس بضعف العلماء المفسرين لديانة مصر القديمة ، وما لم نوقن من فهمنا الصحيح لهذه الديانة ، ستظل روح الحضارة المصرية تحاورنا وتداورنا . وشعورى بضعف تفسير العلماء لديانة أجدادى مرجعه التعقيد الذى أصابوها به ، وهو تعقيد لا أحس بوجوده فى طبائعنا نحن المصريين . اعتنقنا الإسلام فى بساطة وسماحة ، لأن الإسلام عقيدة بسيطة سمحاء ؛ وعندما تقبل أجدادنا المسيحية ، حولوا أوزيريس إلى السيد المسيح فى يسر ، وإيزيس إلى سيدتنا مريم ، ورفضوا تعقيدات اللاهوتيين القائلين بطبيعة ناسوتية وطبيعة إلهية لابن مريم ، وتمسكوا بعقيدة الطبيعة الواحدة ، الإلهية ، كما نتمسك نحن المسلمين ، فى الناحية الأخرى ، بطبيعته الواحدة ، البشرية ، وبأن خالقه هو الله : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » .

كنا فى تاريخنا القديم — وما برحنا فى ظنى — رجالا عمليين . وإذا كان أسلافنا قد آمنوا بالتعاويذ والتمائم والسحر ، فلأنهم وقفوا عاجزين عن تفسير ما وراء حسهم ، ولم يندفعوا فى تلك المغامرات الفلسفية التى عرفتها شعوب أخرى ، كالإغريق والهندوس .

ويعجب أطباء اليوم من طب المصريين القدماء ، إذ جمع بين الملاحظة الدقيقة والممارسة العميقة والمهارة العملية ، وبين الاعتماد على السحر والتمائم والتعاويذ ، وهى تؤلف شطراً لا ينفصل عن الشطر العملى فى المؤلفات الطبية . فإلى جانب وصفاته من الأملاح والأشربة والعجينات والمراهم ، قوائم من الأحجبة وما إليها من وصفات « الطب الروحانى » . ولكن اللورد دوسون ، فى فصله الموجز الوافى عن طب المصريين فى كتاب « تراث الحضارة المصرية » ، فهم مأزقهم أحسن الفهم حين قال : « وقد يجىء ، فى يوم واحد ، إلى طبيب فى منف أو طيبة ، شقيقان : أحدهما يشكو جرحاً قطعيا من ضربة خنجر فى صدره ، والآخر يلتمس العلاج لطفح منتشر فوق صدره : علة الأخ الأول واضحة ، أما الثانى فأمره سر مستغلق ، وبذلك يختلف علاج

الاثنين . ونفهم حينئذ كيف يسير العلاج الطبي والعلاج الروحاني – أو السحري – جنباً إلى جنب » . وكان دوسون قبل ذلك قد أتى على ذكر الأمراض غير الواضحة العلة ، ونسبتها إلى سيطرة أرواح شريرة على الجسد ، ومحاولة المصري القديم التغلب عليها ومطاردتها . « ونفهم إذن أن يبقى لنا من ذلك العصر بردية إدوين سميث ، وبردية جورج إيبرز ، على ما بينهما من اختلاف في وسائل العلاج » . وهنا لا أرى خيراً من أن أحيل القارئ على فصل ممتع لمحمد كامل حسين ، في كتابه « متنوعات » ، يشرح فيه ممارسة الجراح المصري لفنه ، تبعاً لنص بردية إدوين سميث ، ممارسة تكاد تكون من خصائص عصرنا الحديث . أما بردية إيبرز فهي الطب الروحاني يمارسه الطبيب القديم كلما تعثر حيال فهم أسباب المرض الخفية . ولقد بلغ من حرص المصري على « طرق كل وسائل العلاج » ، أن لا يتخلى عن تعاويذه وتمائمه ، إلى جانب ما يصفه من علاج مادي ، ويقول دوسون في هذا : « ومع ذلك فإن بردية إدوين سميث الجراحية ذاتها ، تحتوي على رقى وتعاويذ سحرية ، نسخها الناسخ على ظهر البردية ، فيما يشبه ما يملأ صفحات وصفحات من البرديات الطبية الأخرى» وكأنه طالب طب في إحدى جامعاتنا الحديثة . يضيف إلى المذكرات التي يدونها في كليته . فصولا مختارة من طب الركة . وكتاب أبي معشر !

الروحانية المصرية لم تكن من النوع الهندوكي المستغلق ، التائه في بوادي الأسرار الفلسفية ، إنما هي روحانية الواقف بباب المجهول يحاول اقتحامه ، أو تفسيره ، عن طريق تصورات مادية . ولا نعرف شعباً صور كل شيء ، عرفه أو تخيله ، بالقدر الذي بلغه آباؤنا الأُلى . وكان المصري منطقيا مع طبيعته ، وحسب منطق خاص به ، لا حسب المنطق الذي أورثنا إياه اليونان والعرب من بعدهم .

لذلك أرجح أن ديانة المصريين كانت أبسط بكثير مما يحاول أن يفسرها به العلماء المحدثون . وعندما أراد ذلك المؤرخ العظيم بلوتارك أن يفهم ناحية من نواحي تلك الديانة ، لم يجد صعوبة في أن يصور لنا قصة «إيزيس وأوزيريس» ذلك التصوير اليوناني البلوري الشفاف ، على الأقل في الفصول الأولى من كتابه . أما هيرودوتس فكان مثال المخبر الصحفي الكبير ، بعيوبه وفضائله ، يعنى بظواهر الأمور ، ولا يحاول النفاذ إلى أعمق مما يراه ، جل همه أن يثير انتباه القارئ لكل عجيبة ، حتى ولو لم تكن

كذلك ! ولقد ذهب فى هذا إلى حد أن يرى فى المصريين عكس ما رآه فى الشعوب الأخرى كافة . ولما كان المصريون قد وجدوا فى جو يخالف الأجواء الأخرى، ويعيشون على ضفاف نهر تخالف طبيعته طبائع الأنهار الأخرى — كأن يجرى من الجنوب إلى الشمال، وكأن يفيض فى الصيف لا فى الربيع — فإن طبائع المصريين وتقاليدهم وقوانينهم يجب أن تخالف طبائع الشعوب الأخرى وقوانينها ! .. ثم يذكر رحالة هاليكارناس تفاهات وترهات انساق إليها ليثبت ما ذكره فى أول الكلام ، كأن يقول بأن المصريات يسعين إلى الأسواق بينما الرجال قعيدو البيوت ، يغزلون وينسجون ؛ وأن الرجال يحملون الأثقال على رءوسهم ، بينما النساء يحملنها على أكتافهن ؛ ورجال الدين فى البلاد الأخرى يرسلون شعورهم . أما الكهنة المصريون فيحلقون شعر رءوسهم زلطة !

أمثال هذه « اللفتات » من هيرودوتس يمكن أن تفسر لك مقدار عجز الرجل عن فهم حقائق ذلك الشعب الذى شاخ وهرم ، سياسة حكم ، واجتماعاً ، ديانة ، وفنا .

ولعل كورت لانجه لم يخطىء كثيراً عندما ادعى أن مصر ، فى واقع تاريخها القديم ، لم تخرج عن العصر الحجرى حتى آخر أيامها . ويذكرنى هذا بمن يزعم أن مصر المعاصرة لم تخرج بعد عن عصرها الوسيط ، لأن الجبلة المتأصلة فى قرارة هذا الشعب ، هى شدة تمسكه بالماضى ، وحرصه عليه ، برغم كل مظاهر التحول والتطور التى تلوح على سطح حياته .

يقول كورت لانجه بأن من خصائص ذلك العصر الحجرى : اتصال الإنسان المصرى روحيا بالحيوان ، إلى درجة أثارت إعجاب الإغريق وعجبهم ، واستنكار الرومان . وقد دعى أكتافيانوس قيصر ذات مرة فى مصر إلى الاشتراك فى عبادة العجل أبيس فقال ، من طرف أنفه : « لقد درجت على عبادة الآلهة لا الثيران ! » . من خصائص العصر الحجرى قوة ملاحظة الطبيعة ، والاعتماد على الخبرة العملية ، دون الاندفاع فى المغامرات الفلسفية ؛ ومن خصائص العصر الحجرى تمسك المصريين بالسحر .

وسواء أكان ما يقوله لانجه صوابا ، أو مجرد رجم بالغيب ، فإن الخصائص التى يشير إليها حقائق لا شبهة فيها ، وقد برزت عيوب تلك الخصائص فى العصر

المتأخر ، عندما أغرق المصريون فى عبادة الحيوانات ، وما كان أبعدهم حينذاك عن نصيحة والد ممن عاشوا فى أعقاب الدولة القديمة يعظ ولده ، ويبصره بحكمة الرب ، فيما يتخذ من أصنام ومخلوقات :

« واذكر أن الرب قد أخفى ذاته بذاته ، وأنه يعلم بخصال البشر ، ويعلم أن إله الأزل أولى أن لا يقاوم ، إذا كان محسوساً فيما يراه البصر . فاعبد الرب إذن على سبيله التى ارتضاها ، سواء قُدّ من حجر أو صنع من معدن ؛ لأن الجدول الصغير قد يطمسه الطمى ، أما النهر الكبير فيأبى أن يحده حد ، والرب قادر على أن يتحلل مما يسيره ويحتويه » .

لقد تدهورت الديانة المصرية إلى مجرد طقوس فارغة ، باعدت بيننا وبين مصر التى عرفناها فى عصورها الأولى ، وأظهرتها لنا فى صورة جامدة متصلبة الشرايين ، لا تريم ولا تتحول ، تفضل أن تموت فى جمودها ، من أن تتحول عن عبادتها . وهذا الجمود فى ذاته يفسر تحول المصريين إلى المسيحية ، فيما يعد التجديد الأول لدم الحياة المصرية ؛ لأن الشعب الحى لا يموت . ولو لم تتمسك مصر بعقيدتها الجديدة حفاظا لقوميتها، ولو تابعت الحركة الفكرية التى شرع فيها آباء الكنيسة العظام من أمثال أثناسيوس وأوريجانوس ، متأثرين بالفلسفة اليونانية ، ولم تجمد وتتوقف من جديد ، فلربما استطاعت أن تساير ركب الحضارة اليونانية فالرومانية فالبيزنطية . ولكنها فضلت ، حتى فى مسيحيتها ، أن تنهج نهجها الخاص ، فى عقيدتها ، خوفاً على قوميتها أن تذوب فى القوميات الأجنبية ، واستطاعت بذلك ، على الأقل ، أن تهب العالم المسيحى نموذجاً جديداً للحياة الروحية ، فيما يعرف بالرهبنة المسيحية .

وبعد ألف عام من هذا التصلب والجمود ، احتاج دمها إلى التجديد مرة أخرى ، فتحول غالبية أهلها إلى الإسلام، وكان هذا هو التجديد الثانى لدم الحياة المصرية .

والغريب أن مصر الإسلامية لم تتميز بأدب مصرى عظيم ، ولا برعت براعة خاصة فى الفلسفة ولكنها — كما كان شأنها من قديم — حذقت فنون العمارة والزخرفة ، وصناعاتها المشهورة ، وظهر فيها العلماء والأطباء ، وعنيت بالدراسات الدينية

عناية كبرى ، وبالعلوم العربية كوسيلة فعالة ، لا ثانى لها ، لفهم الدّين فهماً صحيحاً . وبذلك كانت مصر منارة للعلوم الإسلامية على طول تاريخها ، وبالرغم من تدهورها الاقتصادى والفكرى تحت الحكم العثمانى ، تمكنت من الاحتفاظ بمركز الصدارة الروحية للعالم الإسلامى إلى اليوم .

خير ما تقدمه مصر القديمة ليس شيئاً ملموساً محسوساً ، إنما كانت مصر أمثولة رائعة أمام كل من يعنى بأقدار الإنسانية . فذلك شعب حقق حياته فى صميم داخليته ، ملبياً نوازع نفسه ، وظل متمسكاً بحضارته ، متعالياً فى إباء ، لا يتكلم كثيراً ، وإنما يدعو ، فى رزانة ، الوافدين عليه ، ليروا بأنفسهم آثار حضارته ، ويقول لفلاسفة اليونان فى شمم : ما أنتم سوي أطفال بالنسبة لنا . ولا شك بأن موسى وصولون وطاليس وأفلاطون ، تأثروا بكل ما رأوه وعركوه فى الحضارة المصرية . لم يرتدوا إلى أوطانهم ليقلدوا شيئاً عز على التقليد ، وإنما آبوا إليها ، وقد عرفوا المدى الذى يبلغه الإنسان بكفاحه العقلى والمادى .

لعل هذا هو ما يراه الرجل الحكيم فى العصور الحديثة ، ولعله يفسر إعجاب أولى الألباب فى العالم كله بهذه الحضارة المصرية .

خاتمة

لا يعنيني كثيراً إن كانت مصر أثرت على حضارة أوربا ، أو أن أوربا هي بنت التوراة ويونان وروما والإنجيل فحسب . كما لا يجدى الادعاء بأن حضارة مصر القديمة باقية فينا إلى اليوم ، فهي غير باقية ، وانتهى الأمر . إنما الذى يعنيني ، ويجب أن نهتم به كل الاهتمام ، هو أن نعيد تلك الحضارة إلى الحياة فى نفوسنا ، وذلك بأن نحاول فهمها ، وأن ندرس حكمتها وعلمها وفنها ، إلى جانب دراساتنا للحضارة العربية ، والحضارة الأوربية ، حكمتها وعلمها وفنها . وليس معنى هذا الفهم وتلك الدراسة أن نعود إلى أساليب الفن القديم ، فتلك أفكار سطحية مشوشة ، ودعوة تنقصها أقل خبرة بالحياة الفكرية .

إنما الشعب الحى يجب أن يعيش دائماً على اتصال وجدانى بتاريخه ، لأن للتاريخ قوة هائلة على التنبيه والإحياء ؛ التاريخ مثل حية تضرب للناس ؛ فإذا كنا اليوم نعنى بتاريخ الحضارات التى انتهت إلى العالم الحديث ، فلا أقل من أن نجعل من حضارتنا المصرية نموذجاً ، لا للاحتذاء ، وإنما للإيحاء . والتاريخ رياضة فكرية عجيبة ، كما أن التاريخ القومى لأهله عصب أخلاق ، يحرك فينا نشاطاً جديداً ، ونتعلم منه الشيء الكثير دون وعى . ولا أقصد أن يدرس تاريخنا على طريقة « تلك آثارنا » ، أو « نحن أول من . . . » ، أى لمجرد التفاخر والغطرسة ، بل يدرس ونصب عين القائم على تدريسه السهر على بقاء خمسة آلاف عام من تاريخنا حية بحيث يتابع التلميذ دراستها أطول مدة ممكنة ، وتشرح له فى أطوارها كلها ، مبسطة سهلة فى مرحلة التعليم الأولى ، ثم يعود إليها فى المراحل التالية بشيء من التفصيل . ولا داعى لحشد ذاكرة التلاميذ فى المرحلة الأولى بأسماء ملوك لم يبق منهم غير اسمهم فى الأغلب ، ولا بأرقام سنوات يعترف المؤرخون أنهم يخطئون فى بعضها بالمائة وبالخمسمائة سنة . ولماذا نضطر التلميذ إلى معرفة الثلاثين أسرة فرعونية ؟ أما يكفى لفهم الحضارة المصرية أن يعرف عصر بناة الأهرام والمصاطب : ثلاث أسرات ،

وأسرة أمينمحعت ، والأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة ؟ ست أسرات فى أول الأمر ؛ ثم تملأ بعض الخانات : أسرة أو اثنتين من العهد المتأخر ؛ ويمكن أن نعبر سريعاً العهد البطليموسى والرومانى ، كى نعنى عناية خاصة بدراسة العهد المسيحى فى مصر . وبعد الفتح العربى تتجه الدراسة اتجاهاً توسعيا ، لما لتاريخ مصر الإسلامية من صلة بحياتنا الحاضرة ، وبمركزنا فى العالم العربى . ويراعى فى تدريس كل تلك العهود أن يشاهد الطالب أمثلة من الفن المصري كله، من الدولة القديمة ، حتى الفن العثمانى ؛ وأن يطالع نماذج ومختارات من الأدب المصرى ، مترجماً من النصوص القديمة ، ومن اللغة القبطية . يجب أن توضع بين أيدى الطالب ترجمات عربية جزلة الأسلوب لذلك الأدب القديم ، فى تصرف يخلصها مما يعتور النصوص من غموض أو نقص ، أو خروج على العرف العام .

أما اللغة العربية فهى دعامة صرحنا الثقافى كله ، وتعمقنا دراستها ، نحواً وصرفاً وأساليب ، يزيد من اطمئناننا إلى صدق حياتنا ، ورسوخ قواعدها . ولست ممن يطالبون بتدريس اللغة المصرية القديمة ، ولا اللغة القبطية ، إلا لمن يتخصصون فى حقباتها التاريخية . وإذا كان الأدب العربى المصرى فى بعض العصور يقصر عن البلاغة الكلاسيكية ، فليس معنى هذا النكوص عن دراسته ، ولا سيما أن أدبنا المصرى المعاصر تطور على أساس من كل عصور العربية فى مصر ، وخارج مصر ، ومن المؤثرات الغربية .

وعنايتنا القويمة بالحضارة العربية لاتعفينا من أن نحيى فى نفوسنا تاريخ حضارتنا السالفة ، فى قالب عربى بليغ . إذ يجب أن يتكون المصرى عقلا وشعوراً مما يوحى به تاريخه الحضارى كله ، فيتمثل حضارته جميعها فى إطار من لغته العربية . يجب أن يدعم قوامه الفكرى والخلقى بكل ما هو مصرى ، حتى تكون له شخصية مصرية واضحة ، تعمل فى الآداب والفنون والعلوم . ثم ليصور الرسام ، وينحت الحفار ، ويؤلف الموسيقى ، ويكتب الكاتب ، فى كل ما يوحىَ به إليه عصره وبيئته وثقافته ووجدانه . وليتأثر ما شاء له التأثر بمدرسة هنا ، ومدرسة هناك ، دون خوف ولا وجل . فإن وجدانه المصرى سوف يطبع تآليفه وتصاويره وتماثيله وموسيقاه بالروح المصرى المتأصل .

ولقد مسكنا أخيراً جداً بخيط من خيوط « أريان » يهدينا إلى مصريتنا ، ألا وهو التراث الشعبي . ولكنه واحد من خيوط الهدى ، أسهلها رؤية وأبسطها وجوداً . إنما التاريخ الحضارى كله — وما الفلكلور إلا قطعة منه — فهمه ، وتمثيله ، هو مستودع خيوط « أريان » الأخرى ، الأصعب منالا . وبمجموع هذه الخيوط ، يهتدى المصرى إلى أركان شخصيته وأغوارها ، فيتمكن من أن يقدم للإنسانية شيئاً جديداً ، وجديراً بالبلاد التى وهبت العالم مثلا فى الحكمة ، وفى الأخلاق ، وفى الفنون وفى العلوم ، ما تزال مصدر وحى ودرس وإعجاب لا حد له فى سائر العالم المتمدن .

* * *

أردت لهذا الكتاب أن يكون ملحمة للشعب المصرى ، فإذا هو فى أكثر من موضع مرثية طويلة لما عاناه على مدى الأزمان ، وإذا بى ، وأنا أؤكد قوة هذا الشعب على المقاومة والصراع والبقاء ، وأشير إلى ما أداه من خدمات للحضارة ، أتوكأ على آلامه وهزائمه .

أترى فى هذا معنى من المعانى المتأصلة فى النفس المصرية ، وهل كنت معبراً عن ذلك الروح الحزين ، روح المصرى يضحك بملء فيه وحنجرته ، ثم يقول فجأة « اللهم اجعله خير » ؟ لا أدرى ، وإنما أعرف أننى أعيش مثل مواطنى ، نظرنا يحدق فى الماضى المجيد ، يستوحيه أملا فى المستقبل ؛ وموقن بأن ما أبقى على المصرى خمسة أو ستة آلاف سنة من تاريخه المهول ، هو إيمانه بشمسه ونيله وأرضه السمراء ، وقوة الخير التى تدبر أموره من عل ، فهو مؤمن بأن المدبر الأعلى لا ينسى كنانته ، وأن من أرادها بسوء قصمه الله ، وأن بعد العسر يسراً . وهو يحب أن يردد « رب تمم بالخير » . وإن أعمق الكلمات التى سمعتها تتردد على لسان الناس فى أحياء القاهرة القديمة هى كلمة « الفرج » ؛ فالمصرى ، مهما نزلت به النوازل ، يأمل فى الفرج بعد الشدة . ولست متأكداً إن كنت هنا قد نفذت إلى سر قوة هذا الشعب العجيب ، أتكون حقا فى إيمانه بكلمة « تفرج » ؟ أهى فى أنه لم ييأس يوماً واحداً فى ستة آلاف عام ، من رحمة مفرج الكروب ؟

هأنذا وقد بلغت ذروة المجد فى عصر الجدود الأوائل، أختم كتابى بكلام لهم، فيه

صورة من نفسيتهم ، ومن نفسيتنا نحن أحفاد الأحفاد . فقد عرفوا الشدة والآلام والاضطراب والخراب ، على الأقل فى فترتين من تاريخهم الوضاء : الفترة الأولى بعد نهاية الأسرة السادسة ، وهى فترة طويلة ، فى حياة أربع أو خمس أسرات ، يخرجون منها منتصرين على أنفسهم ، فى عهد الأسرة الثانية عشرة ؛ والفترة الثانية عندما تقع مصر بين براثن شعب لا يرحم ، وهم الهكسوس ، أى ملوك الرعاة ، فى ترجمة مانيتون ، والملوك اللصوص فى ترجمة أخرى ، والغرباء حسب آخر النظريات فى ترجمة الاسم . وسيذوق المصريون صاب الذل بعد ذلك أحقاباً فوق أحقاب ، بعد أن فتحوا بلادهم للغرباء ، فطمع هؤلاء فى أرض الجود والعطاء ، وفى الموقع المتحكم المسيطر وسط العالم القديم بين ثلاث قارات . سيخضعهم ، بعد الهكسوس ، الأشوريون واللوبيون والإثيوبيون والفرس والمقدونيون والرومان وعرب تدمر فى ملك زنوبيا ، والروم والعرب والديلم والفرغانيون والمغاربة والكرد ، وكل ما تجلبه أسواق النخاسة على الشرق الأدنى من أجناس الترك ، سيحكمهم العثمانيون والفرنسيس والأرنؤد والبريطانيون . أى أن مصر ذاقت حكم الأجنبى على كل لون تراه فوق خريطة أوربا وآسيا ، لم ينقصها إلا حكم الهنود والصينيين واليابان ، حتى يمكن القول بأن مصر ليست بأقدم الأمم حضارة وأعرقها فحسب ، بل قد تكون الوحيدة من بلاد الله عانت خلق الله جميعاً .

أقول هذا دون تحرج ولا خجل ، لأن بلادى خرجت من محناتها ورزاياها محتفظة بشخصيتها وطبائعها السمحاء ، مقبلة دائماً على صناعتها الواحدة ، صناعة الحضارة ، برغم كل شىء ، وتحت حكم كل إنسان ، وضد كل إنسان .

* * *

آن لى أن أعود من هذه الرحلة الطويلة فى الزمان ، إلى ركنى من هذه الأرض ، وزمانى من تاريخها ، فهل أقول بلغة الجدات : توتة توتة ، فرغت الحدوتة ، وادينى كنت عندهم وجيت ، وان ماكانشى طاقيتى مخروقة ، لجبت لكم معايا فتة ومسلوقة ؟

ولكن الجدة كانت تعود من عندهم فى عالم القصص والأساطير ، وأنا عائد من دنيا التاريخ الذى أحسست بوجيبه كما أحس به فى دمه ولحمه ساكن نحن

وبوطو ومنف وطيبة وتانيس والإسكندرية ومصر والقاهرة .

أنا الذى بدأت رحلتى بالسرى فى ظلام العبودية ، وانتهيت من رحلتى إلى ضياء العصور القديمة ، ونفسى تشرق بنور الأمل فى العصر الحديث . حاشا وكلا ، أن أعود من رحلتى خاوى الوفاض !

وإنما حملت لكم ،ممن كنت عندهم ،حديث رجلين عاشا منذ أربعة آلاف عام، يندبان عصر الاضطرابات فى الفترة المتوسطة الأولى ، التى كانت تعرف بعصر الإقطاع . وهما مثلك أيها المصرى ، لا تنكس أعلامهما النكبات ، بل يحدوهما الأمل الواسع العريض . لأنك يجب أن تعرف نفسك على حقيقتك ، أنت المصرى البحبوح الطرير ، السارح فى بوادى الخيال ، المغرم بأغانى الحب وألحان الصبابة . أنت أيضاً ، مثل الكاتب الذى عاش منذ أربعة آلاف سنة ، ومثل هذا الضعيف الذى يضع كتابه وديعة بين يديك : فى طبعك سوداوية وحزن كظيم ، تقول فى عز أفراحك « اللهم اجعله خير » . وكما أنك لا تنسى البأساء فى السراء ، فإنك لا تفقد الأمل مهما عز الأمل ، وتؤكد بأنها ، فى ليلة اليأس الليلاء : تفرج !

أصغ إلى ما يقوله جد من جدودك الأولين ، المدعو إپو — وير :

« اسمع يا قلبى ، واندب حظ البلاد التى فيها نشأت . . . فقد خربت ، ولا حياة لمن تنادى . ابك يا قلب وحدك ، فليس ثمة من يواسيك . انظر الشمس يا قلبى وقد غيبتها الغياهب ، فلا هى مشرقة ولا هى غاربة ، انظر إلى نيل مصر وقد غاض ماؤه ، تخوضه بأقدامك إن شئت ، أما إذا أردت أن تشق مياهه بسفينتك ، فستجد مجراه شطئاناً ، وضفافه ماء جارياً .

« كل طيب ولى ، والبلاد حليفة الشقاء ، تئن تحت أقدام الغرباء ، اقتحموا علينا ديارنا ، وحل بنا ما لم يدر بخلد إنسان ، وقد وقع وقوع الفاس فى الراس .

« فالابن عدو لأبيه ، والأخ يضرب أخاه ابن أمه ، ويدير له وجهه وهو يذبح . كل طيب ولى ، والبلاد تموت ، والأرض تنزع من يد صاحبها ، ويغتصبها الغرباء . تأمل العامل يبحث دون جدوى عن عمل ، لأن أعداء البلاد أفقروا صناعتها ، والحاصد لا يملك ما حصد ؛ تأمل من لم يحرث الأرض ، ويملأ بالغلال أهراءه ، تأمل صاحب الأرض تعسره الحاجة ، والغريب يملأ كرشه .

« انظر الماشية السائمة ، لا راعى يرعاها ، والسفن وقفت ولم تعد تخطف إلى شواطئ فينيقيا ، وأضابير العدالة ألقى بها إلى قارعة الطريق يدوسها الرائح والغادى ، ودارت عجلة الدنيا كما يدور دولاب صانع الفخار . فاللصوص صعروا الخدود واستطالوا ، والأشراف عضهم الفقر واستكانوا . ومن لم يكن يملك زوج ثيران ، يحتكم اليوم على قطيع منها . لم يبق من العدالة غير اسمها ، وباسمها تقترف المظالم . سكن هرج الأفراح ، وعلا صوت العويل والنواح . والصغير يقول قبل الكبير : ليتنى كنت ترابا ، ويكاد الطفل يندب مجيئه إلى هذا العالم .

« أليست هذه بلاد رب الشمس رع ؟ متى يهب لنجدتها الراعى الصالح . من لا يعرف قلبه الموجدة ، الذى إذا قلت مواشيه . قضى يومه يجمع شملها ، ويروى ظمأها ، ويداوى عللها . ألا متى يجيء فيجتث الشر من أصله ، ويسحق البذرة الفاسدة قبل أن تنبت ؟ أين هو اليوم ، هل راح فى غيبوبة النوم ؟ »

وإذا بعم من أعمامك الأولين ، المدعو نفر — روهو ، يجيبه :

« كلا ، لم تأخذه سنة ولا نوم . سيأتى من الجنوب ، اسمه آمينى (أمينمحعت؟) أبوه من الصعيد ، وأمه من النوبه . وسيضع على رأسه التاج الأبيض ، ثم يضع على رأسه التاج الأحمر ، ليوحد الإقليمين ، وينشر السلام فى ربوع الوجهين . وسيفرح به أهل زمانه ، وسيخلد اسمه فى العالمين .

« أما الذين دبروا الشر ، ونشروا الفساد ، فسيفض فوهم من خشيته ، ويسقط الأسيويون تحت شـ ـبات حسامه ، ويكتوى الليبيون بنار انتقامه ، ويصيخ الثائرون لحكمته ، أو سطوته ، ويطأطئون رءوسهم لرأس الصل الذى يطل من جبهته .

« وعندما تطارد " معات " الظلم من سطح الأرض ، سيعود الحق إلى نصابه ، والعدالة سيرتها الأولى .

« فليفرح قلب كل من قدر له أن يشهد ذلك الزمان » .

فلنرجع هنا أيضاً الفضل لذويه . دون أن نحملهم تبعة . اقتبست هذه الخلاصة عن نبذة للأستاذ جورج شتايندورف . بتصرف شخصى . وإجمال . وقد وردت هذه النبذة فى مقدمات دليل « كارل بديكر » ، النص الإنجليزى . طبع لايبزج سنة ١٩٢٩ .

واتبعنا فيها التوقيت القصير : بدء تاريخ الأسرات فى آخر القرن الأربعين قبل الميلاد ، سنة ٣٢٠٠ . ولا يمكن الاعتماد على هذه التواريخ قبل حكم بساماتيك الأول ، أى فى مطالع الأسرة السادسة والعشرين . أما قبل ذلك ، فقد يخطئ المؤرخون التقدير . وبخاصة فى الحقبات الأولى ، بضع عشرات ، أو مئات من السنين .

والتقسيم إلى أسرات من عمل الكاهن مانيتون السمنودى ، الذى عاش لثلاثمائة عام قبل الميلاد . والغالب أنه كان من كهنة هليوبوليس . وألف تاريخه فى ثلاثة كتب ، أيام بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ، ألفه باليونانية وسمّاه مذكرات مصرية » « إجيپسياكا أپومنماتا » . ولم يكن المصريون يؤرخون إلا لحكم الملك الواحد . حسب أعوام حكمه ، ولا يتابعون تاريخهم فى سلسلة متصلة .

أما التقسيم إلى عهود ، أو دول ، أو إمبراطوريات فمن عمل المؤرخين المتأخرين . لمجرد حسن العرض . وسهولة المراجعة .

الدولة القديمة

[٣٢٠٠ — ٢٢٧٠ ق . م .]

الأسرتان الأولى والثانية : ٣٢٠٠ — ٢٧٨٠

الأسرة الأولى والأسرة الثانية تؤلفان العهد الطينى ، أو الطينيسى ، نسبة إلى العاصمة القديمة فى طينة أو طينيس . التى يظن أن موقعها إلى الشمال الغربى من جرجا ، مكان قرية البرباء ، شمال بيت خلاف . والمحاسنة .

أول الملوك منيس ، أو منا ، أو مينا ، منشئ « السور الأبيض » – حائط العجوز ؟ – وهو حصن أنشئت فى موضعه مدينة منف فيما بعد . وعثر الأثريون على قبور لبعض ملوك الأسرتين فى أبيدوس (العرابة المدفونة) قرب البَلْيَنا .

الأسرة الثالثة : ٢٧٨٠ – ٢٧٢٠

نقل زوسر عاصمته إلى منف ، وبنى فى موضع سقارة الهرم المدرج ليدفن فيه . وفى عهده أنشئت أقدم المصاطب . سنفرو (سوريد العرب ؟) بانى هرم ميدوم ، وهرم دهشور (؟) .

الأسرة الرابعة : ٢٧٢٠ – ٢٥٦٠

خوفو ، أو خيوبس ، صاحب الهرم الأكبر .
ددف – رع ، هرمه فى أبى رواش
خفرع أو خفرن ، بانى الهرم الثانى بالجيزة
منقرع ، أو منقَوْرع ، صاحب الهرم الثالث بالجيزة
شبسسكاف : مدفون بما يعرف بمصطبة فرعون ، إلى الجنوب من سقارة ، فى الطريق إلى دهشور .

الأسرة الخامسة : ٢٥٦٠ – ٢٤٢٠

أوسر كاف : هرمه فى سقارة
سهورع
نيوسر رع
أوناس أو أونيس أو أونوس : آخر ملوك الأسرة ، هرمه فى سقارة ، واكتشف فيه ماسبرو أول متون الأهرام .

الأسرة السادسة : ٢٤٢٠ – ٢٢٧٠

تيتى ، أو أطويس
فيوبس الأول — أهرامهم بسقارة
مرنرع
نفر كارع

الفترة المتوسطة الأولى

الأسرات من السابعة حتى العاشرة ٢٢٧٠ — ٢١٠٠

مجهولة التاريخ ، ويظن أن الأسرة الثامنة حكمت فى منف ، ولكن ملوكا آخرين ، من الأسرة التاسعة والعاشرة حكموا فى هرقليوبوليس . ومكانها ، فيما يظن ، إهناسيا المدينة ، أو أم الكيمان . اسمها المصرى هات — نن — نسوت . والقبطى اهنس ، وتبعد نحو ستة عشر كيلومترا إلى الغرب من بنى سويف .

الدولة الوسطى

[٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق.م.]

الأسرة الحادية عشرة ٢١٠٠ — ٢٠٠٠

عصر أمراء طيبة ، امتدوا بسلطانهم إلى الكور المجاورة ، ثم إلى كل الكور شمالا وجنوبا ، والاسم الغالب على ملوكها : منتوحوتب ، ملوكها تغلبوا على ملوك هرقليوبوليس .

الأسرة الثانية عشرة ٢٠٠٠ — ١٧٩٠

عصر بناء ، وفنون وآداب . أعظم العهود المصرية رخاء

أمينمحعت الأول : مدفون بهرمه فى لشت

سنوسرت الأول : أو سيزوستريس الأول . دفن فى هرمه بلشت

أمينمحعت الثانى : دفن فى هرمه بدهشور

سنوسرت الثانى : صاحب هرم اللاهون

سنوسرت الثالث : هذا هو سيزوستريس العظيم فى تاريخ هيرودوتس . وهرمه فى دهشور

أمينمحعت الثالث : صاحب هرم هوارة . وبانى المعبد الكبير بمدخل منخفض الفيوم ، وسماه الإغريق اللابيرانت . ومنظم خزن المياه بالفيوم .

أمينمحعت الرابع
الملكة سبك ــ نفرو
الأسرة الثالثة عشرة ١٧٩٠ ــ ١٧٠٠
يحمل ملوكها اسم سبك ــ حوتب ؟

الفترة المتوسطة الثانية

[١٧٠٠ ــ ١٥٥٥ق.م]

الأسرات من الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة

مأساة التاريخ المصرى القديم . أسرات غير معروفة . ربما كانت تحكم فى وقت واحد فى أمكنة مختلفة . ويغلب أن يكون ملوك طيبة من الأسرة السابقة استطاعوا أن يتابعوا حكمهم فى الجنوب . بينما كان يحكم ملوك الأسرة الرابعة عشرة فى خويس (سخا) .

وقضى غزو الهكسوس على الأسرتين . وحكم البرابرة الأسيويون مصر بالحديد والنار ، من عاصمتهم فى أواريس ، فى موضع صان ، إلى الشمال من فاقوس .

ويؤلف الهكسوس الأسرتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة . ويبدو أن أمراء من طيبة ظلوا يحكمون فى الجنوب كأتباع للهكسوس ، وقبورهم اكتشفت فى دراع أبى النجا ، بوادى طيبة .

أما الأسرة السابعة عشرة فهى التى أنجبت محرر مصر من الهكسوس الملك أحمس (أحموزى) ، فاتح أواريس . وأحمس هذا هو ابن أول ملوك هذه الأسرة المسمى سكنن ــ رع ، وأخو ملكها الثانى كيموزى .

الدولة الحديثة

[١٥٥٥ ــ ٧١٢ ق . م]

عهد الإمبراطورية العظمى . والفتوحات الأسيوية ، والتوسع فى بلاد أعالى النيل . تأثرت الحضارة فى حكم تحوتمس الثالث بمؤثرات أجنبية نتيجة اتصالها بشعوب الشرق الأدنى . عصر سلطان طيبة وثرائها وبذخها

الأسرة الثامنة عشرة : ١٥٥٥ — ١٣٥٠

أمينوفيس الأول ، أو أمينحوتب

تحوتمس الأول أو تحوتموزى ، قاهر أعالى النوبة . قبره فى بيبان الملوك ، وأول قبور ملوك الأسرة هناك .

تحوتمس الثانى

حتشبسوت ، سيدة الدير البحرى

تحوتمس الثالث ، قيصر الدولة القديمة ، أعظم ملوك مصر قاطبة

أمينوفيس الثانى ، أو أمينحوتب

تحوتمس الرابع . أول من عنى بتمثال أبى الهول بالجيزة ، وأزال عنه الرمال تحقيقاً لما رآه فى حلمه ، وهو مضطجع بين ذراعى من كان يظنه إله الشمس هارماخيس .

أمينوفيس الثالث ، أو أمينحوتب : هذا هو « ممنون » الإغريق ، وزوجته « تى » أم أخناتون . وصاحب الصلات الوثيقة مع أمة « الميتانى » ، على ضفاف الفرات الأعلى . بانى معابد الأقصر والكرنك والنوبة ومعبده الجنائزى كان بمدينة « هابو » ، لم يبق منه سوى « القولوسات » المعروفة باسم صنمى ممنون .

أمينوفيس الرابع وزوجته نفرتيتى : هذا هو الثائر الأول فى التاريخ ، وصاحب ديانة الواحد آتون . ومحطم أصنام طيبة . غير اسمه الآمونى إلى أخن — آتون (عبد قرص الشمس) ، وبنى عاصمته الجديدة فى موقع تل العمارنة حالا أمام ملوى . واسمها آخت — آتون (أفق قرص الشمس) .

توت عنخ — آمون : الملك الشاب المرتد إلى ديانة الأجداد ، العائد إلى طيبة .

الأسرة التاسعة عشرة : ١٣٥٠ — ١٢٠٠

هورمحب قائد الجيوش ونائب الملك ، أعاد السلام إلى الربوع ، وأكمل القضاء على آثار عبّاد الشمس ، أخناتون .

رمسيس الأول

سيتى الأول : حارب الليبيين والحيثيين . وثبت أقدام الإمبراطورية .

باني معبد أبيدوس بالعرابة المدفونة . ومعابد بالقرنة والكرنك .

رمسيس الثاني : أشهر ملوك مصر القدماء . عاد إلى حرب الحيثيين ، وصالحهم على اقتسام سورية ، محتفظاً بفلسطين .

يكاد نصف المعابد المصرية القائمة حالا ينسب إليه بناؤها ؛ وأعظمها معابد أبو سمبل والكرنك والأقصر والرمسيوم وأبيدوس ومنف وبوباسطيس . عاصمته في تانيس ، ولكن طيبة لم تتقهقر عن عظمتها .

منفتاح أو مرنفتاح : حارب الليبيين وشعوب البحر والإثيوبيين . وله معبد جنائزي في طيبة .

الأسرة العشرون : ١٢٠٠ — ١٠٩٠

ست — نخت : أعاد السلام إلى الربوع

رمسيس الثالث : قاهر الليبيين . والمدافع عن الحدود ضد البرابرة من آسيا ومن البحر . ثم قضى بقية حكمه ، نحو واحد وعشرين عاماً ، في سلام . باني معبد مدينة هابو وقصورها . بالغ في إغداق العطايا والخيرات على معبد آمون .

رمسيس الرابع — حتى رمسيس الثاني عشر : سلموا ذقونهم لكهنة آمون

هريهور ، كاهن طيبة الأكبر : استولى على الملك بعد موت آخر الرعامسة .

الأسرة الأولى بعد العشرين : ١٠٩٠ — ٩٤٥

قاوم أمراء تانيس حكم هريهور المغتصب . وأسسوا الأسرة الأولى بعد العشرين (أسرة بسوسنس وأمينمحوبت) . عهد مضطرب . خرجت فيه النوبة وفلسطين على الحكم المصري . وفي أيام هذه الأسرة تمكن كاهن من أشباه هريهور من السيطرة على مصر كلها بعد زواجه بأميرة من الأسرة التانيسية .

الأسرة الثانية والعشرون ٩٤٥ — ٧٤٥

ملوك هذه الأسرة من أصل ليبي ؛ من أفخاذ المشاواشة . وهي قبيلة ليبية من أهم القبائل التي كانت تؤلف فرقا من الأجناد المرتزقة في الجيش المصري ؛ وانزوت طيبة أمام العاصمة الجديدة في بوباسطيس .

شيشونق . وهو شيشاك التوراة : قهر التانيسيين ، واستولى على أورشليم ، وخرب معبد سليمان حوالى ٩٣٠ قبل الميلاد . ثم أسوركون ، وشيشونق الثانى إلخ .

الأسرة الثالثة والعشرون ٧٤٥ — ٧١٨ .

أسرة لا يعرف عنها إلا القليل : تف — نخت . أمير صا ومنف ، حاول إقامة حكمه فى الدلتا . ولكنه غلب على أمره أمام بعانخى ملك إثيوبيا الذى أغار على مصر ودخل منف .

الأسرة الرابعة والعشرون ٧١٨ — ٧١٢ .

حاول واحد من نسل ملوك تانيس ، هو بوكوريس بن تف — نخت ، أن يستقل بالدلتا . ولكن ملك كوش (إثيوبيا) قهره وأسره وأحرقه حيًّا ، وبذلك تم للكوشيين الاستيلاء على مصر وتأسيس الأسرة الإثيوبية .

العصر المتأخر

[٧١٢ — ٣٣٢ ق . م]

الأسرة الخامسة والعشرون الإثيوبية : ٧١٢ — ٦٦٣

شباكو أو سباكون . ثم شباتاكا

طهارقة . وهو ترهاقة التوراة : ساعد أمراء سورية وفلسطين ضد الأشوريين . ولكن هؤلاء استداروا إليه وقهروه ، بقيادة ملكهم أسارهادون سنة ٦٧٠ . واستولوا على منف ، وخضع لهم أمراء الصعيد . بيد أن انشغال الأشوريين بحرب بابل وإيلام ، كانت فرصة انتهزها بساماتيك أمير سايس (صالحجر) . بمساعدة المرتزقة الإغريق ، وطرد الأشوريين ، ووحد المملكة تحت حكمه .

الأسرة السادسة والعشرون : ٦٦٣ — ٥٢٥

عود إلى الرخاء وبعض العز القديم ، بفضل الاتصالات التجارية بالإغريق وعناية الملوك والشعب بالمثل العليا فى الفن والأدب . كما تلقوها عن عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى .

بساماتيك الأول : أمير صا ، الذى قاد الثورة ضد الأشوريين وطردهم

نخاو : غزا سورية وهزم جيش يوشع ملك اليهودية فى موقعة مجلو ؛ ثم انهزم

المصريون فى موقعة كركيمش على الفرات عندما استدار لهم بختنصر ملك بابل فأجلاهم عن سورية وفلسطين . ونخاو صاحب البعثة البحرية التى قامت من البحر الأحمر وخرجت إلى بحر الهند ، ودارت حول الطرف الجنوبى من أفريقيا ، واتجهت شمالا إلى ما يعرف اليوم بمضيق جبل طارق (أعمدة هرقل عند اليونان) . ثم عادت إلى مصر عن طريق البحر الأبيض. وقد جاءت أخبارها فى كتاب هيرودوتس .

وبدأ نخاو حفر قناة تصل بين الفرع الشرقى للنيل وخليج السويس :

بساماتيك الثانى .

أبريس أو وه – إب – رع ، أو « هو فرات » التوراة . حاول استرجاع سورية ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام بختنصر الذى فتح أورشليم سنة ٥٨٧ .

أمازيس : قائد ليبى أقصى الملك أبريس عن العرش ، وتزوج ابنة بساماتيك الثانى ، وكانت سبيله إلى الملك . وأسكن أمازيس الإغريق مدينة نوكراتيس التى نمت بسرعة حتى أصبحت من أعظم المراكز التجارية فى الشرق الأدنى

بساماتيك الثالث : هزمه قمبيز ملك الفرس فى فيلوزيوم (الفرما) على الحدود المصرية ، سنة ٥٢٥ ق . م .

الأسرة السابعة والعشرون (فارسية) : ٥٢٥ – ٣٣٨

حكم الفرس : وجه قمبيز حملة فى الصحراء الليبية . فابتلعتها الصحراء . وحملة أخرى ضد الإثيوبيين .

داريوس الأول : أتم قناة نخاو من النيل إلى البحر الأحمر . بنى فى عهده معبداً لآمون بالواحات الخارجة .

ثار المصريون على الحكم الفارسى بعد أن وصلتهم أخبار هزيمة الفرس أمام الإغريق فى موقعة ماراثون ، ولكن أكسرسيس الأول أخمد الثورة ، وولى أخاه أميراً (شتربة) على مصر .

وفى حكم أرتاكسرسيس الأول نشبت ثورة مصرية جديدة لم تنجح ؛ وصلب إناروس زعيم الثورة ، وكان أمير منطقة مريوط .

زار هيرودوتس مصر بعد سنة ٤٤٩

داريوس الثانى : تدهور الحكم الفارسى . وثار المصريون للمرة الثالثة ، واستقلوا من عام ٤٠٤ حتى ٣٤١ . وحكمهم ملوك منهم ، أدرجهم مانيتون فى الأسرات من الثامنة والعشرين حتى الثلاثين .

الأسرتان الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون : ٤٠٤ — ٣٧٨

أموريطيوس حكم فى « صا » حكماً قصيراً . وكانت أسرات أخرى تتنازع الحكم فى البلاد ، ثم جاءت أسرة من منديس (منديد فى القرون الوسطى . قرب تمى الإمديد . بموضع يعرف بتل القصر) . وتولت الحكم بمساعدة المرتزقة الإغريق . وملوكها نفيريتس وأخوريس وبسافوتيس إلخ .

الأسرة الثلاثون : ٣٧٨ — ٣٤١

نكتانيبوس الملك : عاصمته سبينيتوس (سمنود) . وكان ملكاً قوياً . بنى معابد فى فيليه . ومدينة هابو . وصرحاً فى الكرنك .

نكتانيبوس الثانى : بنى معبداً كبيراً لإيزيس فى (بهبيت الحجارة . قرب ميت عساس) وهى « هيبت » فى لغة القدماء ، وأقام صرحاً فى الكرنك .

عودة الفرس : ٣٤١ ق . م .

وعاد الفرس إلى مصر . فهرب آخر ملوكها . نكتانيبوس الثانى إلى إثيوبيا وانهال الفرس فى هذه المرة على مصر تخريباً وسلباً ونهباً .

العصر الإغريقى

[٣٣٢ — ٣٠ ق . م]

عرف إدوارد ماير هذا العهد بقوله . « فى حكم البطالسة عاد وادى النيل الأدنى . ولمدة ثلاثمائة سنة . مركزاً لمملكة من أغنى الممالك وأقواها وأكثرها رخاء . يحكمها ملوك موهوبون ، فى أول الأمر . بيد أن خلفهم الطالح المنحل . يحارب الأخ منهم أخاه ، فزلوا بها إلى الحضيض . ولم يكن لمصر حياة إلا بفضل روما ، حتى وجدت نفسها وسط معترك العالم الرومانى ثم انتهت كدولة مستقلة » .

٣٣٢ — ٣٢٣

الإسكندر الأكبر : أبدى تسامحاً نحو الديانة المصرية ، وسافر إلى واحة سيوة ، حيث أعلنه كهنة معبد آمون ابناً للإله .

وأنشأ الإسكندرية إلى جانب قرية صيادين تحمل اسم « رقودة » (راكوتيس) ، فما عتمت حتى أصبحت — بفضل البطالسة الأوائل — مركزا للثقافة الإغريقية وللتجارة العالمية . وبعد موت الإسكندر ، تفككت الإمبراطورية المقدونية .

٣٢٣ — ٢٨٥

وتقاسمها قواده ، فكانت مصر من نصيب بطليموس الأول (سوتر) ، أبوه لاجوس . وتعرف أسرته باسم الأسرة اللاجيدية . بدأ حكمها « شتربة » ، أى نائبا للملك ، حتى موت الإسكندر الثانى سنة ٣١١ ، وارتقى عرش مصر سنة ٣٠٥ . منشئ الموزيون (مدرسة الإسكندرية) ، ومدينة بطولمايس بالصعيد ، ومكانها الحالى قرية المنشا ، أو المنشية ، فيما بين سوهاج وجرجا .

٢٨٥ — ٢٤٦

بطليموس الثانى (فيلادلفوس) : بلغت مصر فى عهده ذروة توسعها الخارجى ، وسميت مديرية الفيوم باسم أخته — زوجته ، الملكة أرسينوى . استجلب الفيل من الصومال ، واستؤلف لأغراض عسكرية (؟) . ألف الكاهن المصرى مانيتون السمنودى تاريخ الأسرات الفرعونية ، باللغة اليونانية .

٢٤٦ — ٢٢٢

بطليموس الثالث (إورجيتس) : غزا مملكة السلوقيين فى آسيا الصغرى ، وتقدم لفتح بابل ، ولكنه قفل راجعاً إلى مصر ليعالج ثورة محلية . فاسترد السلوقيون ما فقدوه . وفى عهده حاول الكهنة المصريون تصحيح التقويم بإضافة يوم كل أربع سنوات ، ولم يتم لهم ذلك ، كما ظهر فيما يعرف بمرسوم كانوب ، الذى عثر عليه سنة ١٨٨١ ، فى كوم الحصن (بين دمنهور وإيتاى البارود) ، وفى تانيس سنة ١٨٦٦ . وهو مكتوب باللغة المصرية فى صورتيها الهيروغليفية والديموطيقية ، وباللغة اليونانية . أصدره مجمع الكهنة فى كانوب فى السابع

عشر من شهر طوبة سنة ٢٣٨ ق . م . فى حكم إوﺭجيتس هذا . ليمجدوا اسم الملك الذى أعاد الأصنام المصرية من آسيا ،ونشر السلام فوق الربوع .

ويقترحون فى المرسوم تعديل التقويم حتى يقع عيد إورجيتس فى اليوم الأول من العام . كما اتفق له سنة إصدار المرسوم .

٢٢٢ — ٢٠٣

بطليموس الرابع (فياوپاتور) : بدأ انحلال الدولة فى عهده . مع أنه هزم أنطيوخوس الأكبر فى موقعة رفح . وكان هذا الملك يهدد الحدود المصرية .

وتزعم أمراء طيبة فى عهده ثورات جعلتهم فى حكم المستقلين فى الجنوب

٢٠٣ — ١٨١

بطليموس الخامس (إبيفانس) : تولى العرش طفلا . تحت وصاية شرذمة من الأوغاد . فانتهزها فرصة ملكا سورية ومقدونية (أنطيوخوس وفيليب الخامس) . واقتطعا من مصر أملاكها . فلم يبق لها غير برقة وقبرص . ووضعت الأسرة بطليموسها الصغير تحت حماية مجلس شيوخ روما (السناتو) وعمت الثورات . واضطربت شئون الحكم .

١٨١ — ١٤٦

بطليموس السادس (فياوميتور) : تولى الملك تحت وصاية امه كليوباتره . وغزا أنطيوخوس مصر . ودخل منف . ولكن المبعوث الرومانى اضطره إلى الجلاء . واستدعى الشعب بطليموس التاسع (أبا كرش) ليحكم إلى جانب فيلوميتور . فدب الخلاف بينهما ، وهرب فيلوميتور إلى روما . وأعاده مجلس الشيوخ الرومانى إلى العرش وحده . وأعطيت لأبى كرش ولاية برقة

١٤٦ — ١١٧

بطليموس السابع ، ابن السادس : حكم ثم ترك الحكم لخلفه

بطليموس التاسع (أبو كرش) : حكم وحده . باسم إورجيتس الثانى . ثم طاردته ثورة . فذهب إلى قبرص . وحكمت زوجته كليوباترة ، ثم عاد إلى العرش ، وبعد وفاته سنة ١٢٧ ، حكمت أرملته وابنها

بطليموس العاشر [سوتر الثانى] ، وهذا هو بطليموس لاتيروس [حمص] ، وطورد فقام بدله :

١٠٦

بطليموس الحادى عشر (إسكندر الأول)

٩٦

وقُدمت برقة هدية إلى روما ، فتحولت إلى إيالة رومانية .

٨٨

وعاد بطليموس حمص بعد أن طاردت الثورة إسكندر الأول . وفى عهده ثار أمراء طيبة وفشلوا ، فدمرت طيبة .

٨٠

بطليموس الثانى عشر : كان يعيش فى روما ، فلما علم القائد سيلا بأن كليوباترة - برنيقة تولت العرش، وكانت محبوبة من الإسكندريين ، أوعز إلى الأمير بالسفر إلى الإسكندرية ليتزوج الملكة ، فتزوجها وقتلها بعد أسبوعين من الزواج ، وحكم وحده ، وثار الإسكندريون عليه فقتلوه فى الملعب الكبير .

٨٠ — ٥١

بطليموس الثالث عشر ، أو ديونسيوس الجديد ، المكنى بعازف الناى [أوليتس] ، أى الزمار . وهو أبو كليوباترة المشهورة . اقتطعت روما قبرص من مصر ، فطارد الإسكندريون الملك الزمار ، وأعادته روما إلى العرش . وفى عهده تم إنشاء معبد إدفو ، وبدئ فى إقامة معبد الإلهة هاتور فى دندرة .

٥١ — ٤٧

تولت كليوباترة الشهيرة ، وأخوها بطليموس الرابع عشر العرش ، تحت وصاية مجلس شيوخ روما . ولكن الغلام طرد أخته ، وحكم وحده بمعونة ثلاثة من الأوغاد . والتجأ القائد بومبيوس الأكبر ، بعد هزيمته فى فارساليا . إلى مصر . فاستقبله أمام فيلوزيوم هذا الغلام وأوصياؤه الأشرار . وذبح بومبيوس فى القارب الذى حمله من السفينة ، قبل أن يصل إلى الشاطئ ، وعلى مرأى من زوجته ورجاله على السفينة ، ومن الغلام الغادر وأوصيائه فى البر .

٤٨

نزل يوليوس قيصر بالإسكندرية ، وناصر كليوباترة على أخيها ، الذى حاول العودة إلى عرشه ، فقهرته جنود قيصر وغرق فى النيل . وعندما عين قيصر دكتاتوراً فى روما ، عين أخاً ثانياً لها شريكاً فى الحكم هو :

٤٧

بطليموس الخامس عشر ، وهو حدث ابن أحد عشر عاما ، وقتل هذا بتدبير أخته ، التى أقامت طفلها من قيصر (قيصاريون) شريكاً لها ، وهو :

٤٥

بطليموس السادس عشر .

٤٤

قتل الجمهوريون يوليوس قيصر فى مجلس الشيوخ الرومانى :

٤١ — ٣٠

استدعى مارك أنطونيوس كليوباترة إلى طرسوس بكليكيا ، بحجة تقديم حساب سياسى له . ووقع أسير غرامها ، وعاشا حياة استهتار وتبذل أعواماً طويلة ، حتى انتهى الأمر بأن أعلنت روما الحرب على كليوباترة ، وقرر مجلس الشيوخ أن أنطونيوس عدو الوطن . وقاد أكتافيانوس قيصر ، حفيد يوليوس ، جيش روما وأسطولها ، وهزم أسطول أنطونيوس فى موقعة أكتيوم ، وبعد عام ، استولى على الاسكندرية ، وانتحر انطونيوس بالسيف .

العهد الرومانى

[٣٠ ق. م — ٣٩٥ ميلادية]

دخلت مصر تحت حكم روما باعتبارها ملكاً خاصًّا للإمبراطور أغسطس قيصر [أكتافيانوس] يوفد إليها مندوباً من قبله . وتابع الإمبراطور سياسة البطالسة فى ممالأة الكهنة المصريين ، وما كان آسرع هؤلاء إلى اعتباره فرعوناً من نسل الآلهة . وكان أول الولاة الرومانيين الشاعر كورنيليوس جالاوس ، وبدأت ولايته بثورة مصرية فى الصعيد . وفى عهد أغسطس قيصر بدأ

العمل بالتقويم المصرى المعدل [اليوليانى] .

٢٤ — ٢٣ ق . م

غزت كنداسة ملكة الإثيوبيين مصر سنة ٢٤ ق . م ، وطاردها الوالى الرومانى بطرونيوس .

١٤ —٣٧ ميلادية

الإمبراطور طباريوس : وفى عهده رفع المسيح إلى السماء (٣٠ م ؟)

٣٧ — ٤١

كاليجولا ، الإمبراطور المجنون .

٤١ — ٥٤

كلاوديوس [أقلاديوس] : بدئ فى عهده بناء معبد إسنا ومعبد فى فيليه

٥٤ — ٦٨

نيرون

٦٩ — ٨٠

فسباسيان : أعلن إمبراطوراً فى الأسكندرية ، ومن هناك قام ابنه طيطس بفتح فلسطين ، وهدم أورشليم ومعبدها الكبير .

٨١ — ٩٦

دومطيانوس قيصر : أقام عبادة إيزيس وسيرابيس فى روما

٩٨ — ١١٧

ترايانوس : أعاد فتح قناة نخاو — داريوس ، بين النيل والبحر الأحمر ، باسم « آمنيس ترايانوس » .

١١٧ — ١٣٨

أدريانوس : زار مصر عام ١٣٠ م ، واصطحب صفيه الأمرد أنطنوس ، وغرق الشاب فى النيل ، فأنشأ الإمبراطور مدينة أنطنوبوليس أو أنطنوى [فى موضع الشيخ عبادة حالا على الشاطئ الشرقى للنيل ، فى مواجهة الروضة ، إلى الشمال من ملوى] . وزارها مرة أخرى بصحبة الإمبراطورة ، وكانت معهم السيدة بلبلة ، شاعرة البلاط ، فسجلت زيارة الأسرة الإمبراطورية لقولوسات

ممنون بقصيدة حفرت على ساق أحد التمثالين .

١٣٨ — ١٦١

أنطونينوس بيوس : فى عهده كان بطليموس العالم الفلكى والجغرافى [صاحب المجسطى] يتابع دراساته بالإسكندرية (حوالى سنة ١٥٠ م) .

١٦١ — ١٨٠

ماركوس أوريليوس ، الإمبراطور الفيلسوف الرواقى : فى عهده قامت ثورة « رعاة البقر» فى « بوقوليا » ، إلى الشرق من الإسكندرية . وزار أوريليوس الإسكندرية سنة ١٧٦ م .

١٨٠ — ١٩٢

قومودوس : أنشأ الأقباط فى عهده المدرسة الكاتشائية أو الديد سقالية [سنة١٩٠] وقد اشتهرت فى العالم المسيحى بفضل أساتذتها الأوائل بنطائينوس ، واكليمانضس ، وأوريجانوس .

١٩٣ — ٢١١

سبتيميوس ساويرس : انتشرت المسيحية فى الوجه البحرى ، وبدأت الاضطهادات

٢١١ — ٢١٧

كاراكلا : زار مصر ، ودارت المذابح فى الإسكندريين .

٢٤٩ — ٢٥١

دقيوس : اضطهاد المسيحيين مستمر .

٢٦٠ — ٢٦٨

جالينوس : خف الاضطهاد ، وأصيبت مصر بوباء . وفى عهده أعلن الجند الرومانى بالأسكندرية ماكرينوس إمبراطوراً ، ثم هزم وقتل ، وأعلن الجنود مرة ثانية بالإسكندرية إمليانوس إمبراطوراً ، فهزم وقتل .

٢٦٨

ووجدت الملكة زنوبيا ، أميرة تدمر ، فرصة مؤاتية لغزو مصر ، فدخلتها واحتلت الوجه البحرى .

كما احتل البليميون [أجداد البجاوين ومن إليهم] بعض الصعيد .

٢٧٠

ولكن القائد بروبوس أعاد مصر إلى الحظيرة الرومانية .

٢٧١

أنبا أنطونيوس ، منشئ الرهبنة القبطية .

٢٨٤ — ٣٠٥

دقلديانوس (ديوقليسيانوس) : ثار الصعيد فى عهده ، وهاج شعب الإسكندرية ، فجاء الإمبراطور بنفسه ، وتولى أقسى اضطهاد رومانى للمسيحيين المصريين . عصر الشهداء يؤرخ من وقته .

٣٢٠

أنبا باخوم ينشئ أول دير قبطى فى طبانا .

٣٢٤ — ٣٣٧

قسطنطين الأكبر ، أول الإمبراطرة الحانين على المسيحية ، وقد اعتنقها .

٣٢٥

وفى عهده نشأت هرطقة آريوس ، وقضى عليها مجمع نقيا .

٣٢٨

أثناسيوس بطريرك الإسكندرية ، هازم الأريوسية .

٣٣٠

بيزنطة تصبح عاصمة الإمبراطورية ، باسم روما الجديدة ، أو قسطنطينية بدء استيطان رهبان القبط لوادى الإسقيط و برية شهات [بوادى النطرون] .

٣٥٠

تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى القبطية حوالى هذا التاريخ .

٣٦١ — ٣٦٣

الإمبراطور المارق يوليانوس : ارتد عن المسيحية ، والغالب أنه لم يعتنقها ، إذ ربى تربية هلينستية ، فما إن ارتقى العرش حتى أعلن وثنيته .

٣٦٦

٣٧٣

تنيّح البطريرك العظيم أثناسيوس .

٣٧٩ – ٣٩٥

ثيودوسيوس الأكبر : أعلن المسيحية ديناً للإمبراطورية الرومانية ، واضطهد الوثنيين . والمسيحيين الأريوسيين . وبدأ هجوم الأقباط على المعابد المصرية القديمة بهدم الصنم الكبير بمعبد سيرابيس بالإسكندرية

٣٩٥

انقسام الإمبراطورية الرومانية : أركاديوس على الشرق ، وأونوريوس على الغرب .

العهد البيزنطى

[٣٩٥ – ٦٤٠ م]

٤١٢

كيرلس الأول : يرقى كرسى الكرازة المرقسية . ويغلب أن يكون هو المحرض على قتل أجمل أستاذة للفلسفة فى التأريخ : هيباسيا بنت الرياضى ثيون . تربص بها الرهبان والصبوات وقتلوها رجماً ، وسحلوها حتى صحن الكنيسة ، حيث قطعوا جسمها إرباً إرباً ، انتقاماً من تعمقها الفلسفة الوثنية .

٤٣١

كما هزم أثناسيوس آريوس ، هزم كيرلس هرطقة نسطوريوس ، بطريرك القسطنطينية فى مجمع إفسوس الأول [المجمع المسكونى الثالث] .

٤٤٩

مجمع إفسوس الثانى : يكرهه الكاثوليك . ويطلقون عليه اسم « مجمع اللصوص » ، لأن البطريرك المصرى ديوسقوروس انتصر على معارضيه بوسائل يعدونها غير كريمة . وبذلك فازت عقيدة الطبيعة الواحدة القبطية ، لوقت قصير ، فى العالم .

٤٥١

مجمع خلقدونيا [المجمع المسكونى الرابع] : هزيمة ديوسقوروس والكنيسة المصرية ، وفوز عقيدة الطبيعتين [وهى ركن إيمان الكنائس الشرقية والكاثوليكية البابوية] ، وشلح ديوسقوروس ، أو على الأقل إبعاده عن كرسى الإسكندرية . وجاء ذلك نتيجة لتكاتف جهود البابا ليون الأكبر صاحب « طومس لاون » ، والإمبراطور البيزنطى ماركيانوس . وبذلك انفصلت الكنيسة القبطية عن كنائس الشرق والغرب إلى اليوم .

٥٢٧ — ٥٦٥

يوستنيانوس المقنن : أجرى تقسيمات إدارية جديدة بمصر ، لم تعد فيها قيادة جيش الاحتلال موحدة ، بل كان كل حاكم إقليم مستقلا بجيشه ، مما ساعد على انهيار الجحافل الرومانية المشتتة أمام فرسان العرب

٦١٠ — ٦٤١

الإمبراطور هرقل : وفى حكمه تم للفرس ، أيام كسرى الثانى [سنة ٦١٩ م] فتح مصر ، واستطاع هرقل ، بعد موت كسرى ، التغلب عليهم وطردهم سنة ٦٢٦ .

٦٢٢

هجرة النبى العربى ، خاتم الأنبياء والرسل ، فى السنة الأولى للتقويم الإسلامى .

٦٣٢

انتقال سيد المرسلين إلى الرفيق الأعلى ، وخلافة أبى بكر الصديق .

٦٣٤

بدء الفتوحات الإسلامية : فتح سورية ، ووفاة أبى بكر ، وخلافة عمر ابن الخطاب .

٦٣٦

ظفر المسلمين بالروم فى يوم اليرموك . فتح دمشق .

٦٣٧

انتصار المسلمين الساحق على الفرس فى موقعة القادسية ، وسقوط المدائن [اكتسيفون] ، ونهاية الأكاسرة الساسانيين

٦٣٨

فتح بيت المقدس ، واستقبال منشئ قبة الصخرة ، ثانى الخلفاء الراشدين ، عمر الفاروق .

مصر الإسلامية

[٦٤٠ م — إلى ما شاء الله]

٦٤٠

فتح مصر بسيف عمرو بن العاص وفرسان العرب .

٦٤١

تسليم المقوقس قوروش حصن بابلون [قصر الشمع] للقائد العربى المنتصر . وإنشاء جامع عمرو .

٦٤٢

إنشاء الفسطاط معسكراً للعرب ، وحاضرة العصر الإسلامى الجديد . وسقوط الإسكندرية فى أيدى العرب بعد حصار طويل .

٦٤٥

عودة الإسكندرية إلى الروم .

٦٤٦

أعاد عمرو فتح الإسكندرية .

٦٥٦

مقتل ثالث الخلفاء الراشدين ، عثمان بن عفان ، على إثر ثورة بدأت فى مصر .

٦٥٦ — ٦٦١

خلافة على بن أبى طالب ، وقيام الحرب بينه وبين معاوية ، ودخول مصر

فى حكم الأمويين سنة ٦٥٨ .

٦٥٨ — ٧٥٠

دولة بنى أمية وعاصمتها دمشق ، وقد حرصوا على أن لا تخرج ولاية مصر من أعضاء الأسرة الأموية .

٧٤٤ — ٧٥٠

التجاء مروان الثانى ، آخر الأمويين ، إلى مصر ومقتله فيها . ودفنه بأبى صير الملك ، إلى الشمال الغربى من أشمنت .

٧٥٠ — ٨٦٨

دولة بنى العباس فى بغداد . وهروب عبد الرحمن الأموى إلى الأندلس ، وخلافته بقرطبة (سنة ٧٥٦ م] . ثورات المصريين الأقباط .

٨١٣ — ٨٣٣

المأمون فى مصر لإخماد ثورة المصريين الأقباط وعصيان البدو . بدء انتشار اللغة العربية بين المصريين جميعا .

تغلب الأجناد الترك فى بلاط العباسيين .

استقلال مصر الإسلامية

[٨٦٨ — ١٥١٧ م]

الدولة الطولونية

[٨٦٨ — ٩٠٥ م]

٨٦٨ - ٨٨٣

أحمد بن طولون يستقل بمصر وسوريا حتى حدود العراق . المسجد الجامع الذى بناه ابن طولون فريد فى العمارة الإسلامية .

٨٨٣ — ٨٩٥

خمارويه بن أحمد بن طولون . لم يقو خلفاؤه على الاحتفاظ باستقلال مصر فعادت إلى حكم العباسيين (٩٠٥ — ٩٣٥)

٩٢٥

هجوم فاشل للفاطميين على مصر .

الدولة الإخشيدية
[٩٣٥ — ٩٦٩ م]

٩٣٥—٩٤٦

محمد بن طغج الإخشيد ، حاكم من أصل فرغانى : استقل بمصر .

٩٦٦ — ٩٦٩

كافور الخصى الحبشى يحكم مصر وصيًّا على أولاد الإخشيد ، ثم يحكم باسمه تابعاً للعباسيين ، فى مصر وفلسطين وسوريا . وبعد موته يحكم أحمد الإخشيد ، حفيد مؤسس الأسرة ، ولم يبلغ سن الرشد ، وينتهزها الفاطميون فرصة لغزو مصر والاستيلاء عليها .

الدولة الفاطمية
[٩٦٩ — ١١٧١ م]

٩٦٩

جوهر الصقلى ، قائد المعز ، يفتح مصر وينشئ القاهرة عاصمة لمصر بعد الفسطاط والعسكر والقطايع .

٩٧٠

إنشاء الجامع الأزهر .

٩٧٣ — ٩٧٥

وصول المعز إلى القاهرة ومعه رفات أسرته ، ونقل خلافته إليها ، ووفاته بها .

٩٧٥ — ٩٩٦

العزيز بن المعز ، صديق العلم والعلماء . رخاء مصر فى عهده .

٩٩٦ — ١٠٢١

الحاكم بأمر الله ، ابن العزيز من أم نصرانية : ملك مجنون متعصب

سفاح . انتحل لنفسه نحلة درزية وتألّه ، وأسس داعيته ، درزى ، طائفة الدروز . مقتل الملك المشعوذ ، وهو فى تجواله الليلى بجبل المقطم ، بتدبير أخته ست الملك ، وإخفاء رمته . مما اتخذه الدروز ذريعة فى نشر خرافة ارتفاعه إلى السماء ، هروبا من شرور هذا العالم [والعالم هو الذى تخلص من شره وإجرامه !] وسيعود إلى الأرض يوما ، قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !

١٠٢١ — ١٠٣٦

الظاهر ابن الحاكم : تولى الخلافة الفاطمية وهو ابن ستة عشر عاما ، تحت وصاية عمته ست الملك ، حتى عام ١٠٢٤ .

١٠٣٦ — ١٠٩٤

المستنصر : إمعة ، سيء الطالع . غاب النيل عن مصر سبع سنوات ، فنزلت بمصر أشد المجاعات ، وتداولها القحط والطواعين ، وثار الجند من الترك والبربر ، وعاثوا فساداً ، ودمروا القصر ، ونهبوا تحفه ، وأفنوا مكتبته .

واستطاع الأرمنى بدر الجمالى ، وزير الخليفة الإمعة ، إعادة الهدوء والنظام ، وبنى أسوار القاهرة وأبوابها ومسجد الجيوشى .

١٠٩٤ — ١١٠١

المستعلى ابن المستنصر : فتح بيت المقدس وبلاد الشاطئ السورى . ثم انتزعها منه جيش الصليبية الأول .

١٠٩٦

الملك بلدوين الصليبى ، صاحب مملكة أورشليم المسيحية : حاول غزو مصر وفشل ، ومات بالوباء على رمال شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالى سيناء . ويسميه مؤرخو العرب « بغدوين » و « بردويل » ، وهو أصل اسم بحيرة البردويل المشهورة إلى اليوم بمصايد سمك البورى ، وتحضير البطارخ من حيتانه .

١١٦٠ — ١١٧١

العاضد آخر الفاطميين : تنازع على الوزارة بين ضرغام وشاور . والتجأ

شاور إلى نور الدين صاحب دمشق ، فأعاده إلى مركز الوزارة ، بمعونة الأجناد الكرد ، تحت قيادة شيركوه وصلاح الدين يوسف آل ايوب . ولما اختلف شاور مع الأكراد ، استعدى عليهم أماالريق [أمورى] الأول ، الملك الصليبي . فدخل هذا مصر ، وطارد الأكراد وحاول — كما هي عادة رجال العصابات — أن يستغل وساطته فى الاستيلاء على مصر . فاستجار الأخرق الخائن شاور بنور الدين ، وأحرق الفسطاط [نوفبر ١١٦٨] حتى لا يستولى عليها أماالريق، أو أمورى [وهو عمورى المؤرخين العرب] .

وجاء شيركوه وصلاح الدين فطاردا الصليبي إلى خارج البلاد ، وقضيا على شاور بالموت ، وتولى شيركوه الوزارة حتى وفاته (١١٦٩) .

فتولاها بعده صلاح الدين يوسف ، وحكم باسم آخر خلفاء الشيعة حتى وفاة هذا الخليفة ، ثم ارتقى عرش مصر وأسس دولة جديدة ، أعادت إلى مصر حكم السنة .

الدولة الأيوبية
[١١٧١ — ١٢٥٠ م]

١١٧١ — ١٢٠٠

أعظم ما يلفت النظر فى حياة صلاح الدين الأيوبى ، أنه وهو سلطان مصر ، بانى قلعة الجبل ، وأسوار القاهرة ، والذى اجتث المذهب الشيعى من مصر وأقام علوم السنة ، لم يزد لبثه بقاعدة ملكه أكثر من ثمان سنوات . أما العشرون عاما الباقية فما كاد يغمد فيها حسامه وينزل عن جواده ، مقاتلا فى سبيل عقيدته . يندفع كالشهب بين فلسطين وسورية وما بين النهرين ، يحرق المعتدين بناره ، ويضرب الصليبيين فى بطولة وأريحية كانت مضرب المثل ، بين الأعداء قبل الأصدقاء ، فى فروسية العصور الوسطى .

١٢٠٠ — ١٢١٨

الملك العادل ، أخو صلاح الدين : استطاع المحافظة على تماسك الدولة

بعد ما حدث من تنازع ومشاحنات عقب موت البطل الأعظم . ويجب أن يذكر للسلطانة ، أم ابنه الملك الكامل، ذلك الأثر الجميل من آثار القاهرة: مقام الإمام الشافعي .

١٢١٨ — ١٢٣٨

الملك الكامل : صاحب المنصورة أنشأها سنة ١٢٢١ ، بعد أن دافع عن دمياط ضد الصليبيين الجرمان والنيرلنديين [الصليبية الخامسة] ، الذين استولوا على ذلك الثغر ، وكان يقع إلى الشمال من موقع دمياط الحالى ، وباعوا سكانها بيع الإماء ، ونهبوا متاجرها وآثارها ، وحولوا مساجدها إلى كنائس . ثم اضطرهم الكامل إلى إخلائها سنة ١٢٢١ . فلما نزل لويس التاسع إلى البر ليحتلها سنة ١٢٤٩ [الصليبية السادسة] ، غادرها سكانها عن بكرة أبيهم ، ودخلها فرسان الصليب خاوية على عروشها ، وكأنهم يدخلون جبانة لا مدينة أحياء . وقد دفعوا ثمن صليبيتهم غالياً فى المنصورة، وكان إجلاؤهم عن دمياط، أو إجلاء من بقى منهم حياً ، بعض الثمن الذى دفعوه فدية للقديس المحارب، المحبوس فى بيت لقمان .

١٢٣٨ — ١٢٤٠

الملك العادل الثانى .

١٢٤٠ — ١٢٥٠

الصالح أيوب ، صاحب قلعة الروضة ، مهد المماليك البحرية : توفى عندما بدأ فرسان الصليبية السادسة [بقيادة لويس التاسع] يتحركون من دمياط متجهين إلى المنصورة. وأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته عن جيش المماليك الصالحية ، حتى لا يتفاشلوا ؛ وواصلوا المعركة بقيادة أبطالهم بيبرس وقطز وفارس الدين أقطاى . ثم وصل :

١٢٥٠

طورانشاه ، فسلمته شجرة الدر سلطنة أبيه ، وقاد المعركة إلى نهايتها الظافرة . ولكنه بعد الحرب لم يعرف الطريق إلى قلب مماليك أبيه ، فقتلوه .

دولة المماليك البحرية
[١٢٥٠–١٣٨٢ م]

١٢٥٠

اختار المماليك ، بعد قتل طورانشاه ، المملوكة الصالحية ، شجرة الدر ، لتولى الملك باعتبارها « والدة خليل » بن الملك الصالح . وحكمت ثمانين يوماً ، ثم تزوجت واحدا منهم هو :

١٢٥٠ — ١٢٥٧

عز الدين إيبك التركمانى ، ثانى سلاطين المماليك البحرية . ولاقى حتفه بتدبير أم خليل ، ولاحقته فى العالم الآخر مقتولة بالقباقيب .

١٢٦٠ — ١٢٧٧

الظاهر بيبرس البندقدارى : قضى على مملكة أورشليم الصليبية بعد أربع حملات صادقات ، وأقام واحداً من بقايا العباسيين خليفة بالقاهرة ، يولى ويعزل السلاطين بطريقة مسرحية ، وهو لا يملك من قوت يومه إلا ما يجود به عليه متولى السلطنة ، الذى يأمره بالحل والترحال : « إعمل برقك ، فقد عزمنا على السفر لمحاربة زيد من الملوك » . وخالف أحد هؤلاء الخلفاء السلطان يوماً ، فأمره السلطان بعزل نفسه . وإذا به يجيبه إلى طلبه قائلا : عزلت نفسى ، وعزلتك ! وأسقط فى يد السلطان ، فجمع الأئمة الأربعة ليفتوا للسلطان . فأفتوا بأن كلمة الخليفة لا قيمة لها بعد أن نطق بعزل نفسه . . . كأن كلمته كانت لها قيمة بغير ذلك ! وبنى الظاهر مسجده فى الحى المعروف حتى اليوم باسمه ، سنة ١٢٦٩ .

١٢٧٩ — ١٢٩٠

المنصور قلاوون ، حارب المغول وصدهم . وبذلك يمكن القول بأن الأيوبيين ومماليكهم أزاحوا عن مصر أكبر خطر تهددها فى عصرها الوسيط ، وأخروا قضاءها ثلاثة قرون ونصف القرن ، منذ تولى صلاح الدين ، حتى دخل سليم الأول آل عثمان القاهرة سنة ١٥١٧ . وفى عهد المماليك تطورت

العمارة الإسلامية نحو أسلوب يتميزون به . وكانوا من أعظم البناة فى تاريخ مصر منذ عهد الأسرات .

١٢٩٠ — ١٢٩٣

الأشرف خليل : قضى على آخر حصن صليبى فى الأرض المقدسة بالاستيلاء على عكا . سنة ١٢٩١ .

١٢٩٣ — ١٣٤٠

الناصر محمد بن قلاوون : أعظم سلاطين المماليك : تولى الملك وهو ابن تسع سنين . وطورد من الملك أكثر من مرة . وعاد إليه أقوى سنداً ، وأكمل شخصية . وأشهر أمراء هذا السلطان هو الأمير عماد الدين أبو الفداء ، صاحب حماة ، العالم المؤرخ والجغرافى الأشهر فى تاريخ العلوم العربية [توفى سنة ١٣٣١] . وكان الناصر بناء عظيماً وجميع ما ترك من آثار تعد فى مقدمة كنوز القاهرة . هذا والسور المائى الكبير ، فيما بين فم الخليج والقلعة . المعروف بسور « السبع سواقى » ، من آثار الناصر محمد .

١٣٠٣

حدثت زلزلة مشهورة ، هدمت غير قليل من مبانى القاهرة .

١٣٤٧ — ١٣٦١

السلطان حسن هو الابن السادس للناصر محمد ربما نسى الناس الوباء الفظيع الذى نزل بمصر إبان حكمه . فيما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٤٩ . ولكنهم يذكرون له أعظم أثر مصرى فى القرون الوسطى : وهو مسجده . بأول سوق الخيل . وإذا سألتنى عما أضع من الآثار المصرية فى أول القائمة أجبتك : معبد سيتى الأول بأبيدوس [العرابة المدفونة] ، ومسجد السلطان حسن أمام قلعة صلاح الدين .

ومات صاحب المسجد قتيلا شر قتلة . وستطالع كثيراً من مقتلات هؤلاء السلاطين . وقل من مات منهم على فراشه ، وبعضهم ألقيت جثته فى ساقية . أو فوق تل من القمامة !

دولة المماليك الجراكسة
[١٣٨٢ — ١٥١٧ م]

١٣٨٢ — ١٣٩٩

آخر أولاد قلاوون الذين تولوا عرش المماليك البحرية كان الغلام حاجى ، وسنه ست سنوات . وكانت فرصة انتهزها العملاق الجركسى برقوق ، فأزاح الغلام عن كرسى المملكة ، وغضب الأمراء وطردوا برقوق ، ولكنه عاد بعد سنة . وكانت السلطنة المصرية بحاجة إلى مثل هذا الرجل ، لأن جنساً جديداً من برابرة أواسط آسيا ، من المغول بقيادة تيمور الأعرج (لنك) بدأ يزحف على الشرق الأدنى . فدفع برقوق غائلته ، ثم أتبع ذلك بمحاربة الغازى بايزيد الأول ، خان العثمانيين . وكان برقوق بناء عظيماً .

١٣٩٩ — ١٤١٢

السلطان فرج : حدث فى الثالثة عشرة من عمره ، ابن برقوق : تولى السلطنة ، والعثمانيون يهددون ولايات مصر الشمالية ، وسافر فرج حتى بلغ دمشق ، وإذا بأمرائه الثائرين يضطرونه إلى العودة إلى القاهرة . وفى هذه الأثناء يكون تيمورلنك قد هزم العثمانيين فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ . وتلجأ السلطنة المصرية إلى مفاوضته ومصانعته . ولكن أيام الفتى فرج أصبحت معدودة ، حتى قضى عليه الأمراء ، وعلى رأسهم الأمير شيخ المحمودى .

١٤١٢ — ١٤٢١

السلطان المؤيد شيخ ، صاحب مسجد من أجمل مساجد القاهرة . بداخل باب زويلة : وكان المؤيد من أشد الملوك اضطهاداً لغير المسلمين ، وقد حكم عليهم بلبس ملابس من لون خاص ، وعمامات سوداء ، وبحمل صلبان أو كرات كبيرة من الخشب تغل فى رقابهم . وكانت أكثر تجريداته ضد أمرائه فى سورية .

١٤٢٢ — ١٤٣٨

الأشرف برسباى : أزاح الطفل ابن المؤيد شيخ ، وسافر يحارب فى قبرص ، ويجاهد ضد المغول .

١٤٦٨ — ١٤٩٦

قايتباى . آخر السلاطين العظام سياسة وجهاداً . قاوم قوى العثمانيين الصاعدة المنقضة — أيام سلاطينها الغزاة محمد الفاتح وبا يزيد الثانى — بفضل قائد عسكره الأمير أزبك . وجامع أزبك كان يقوم على حافة منخفض الأزبكية . وقد أنشئ فى ذكرى انتصاره على العثمانيين . هدم هذا المسجد سنة ١٨٦٩ . فى حكم إسماعيل . وما أكثر ما هدم من مساجد أثرية فى عهد إسماعيل! ونظم مسيو باريبه ، مدير حدائق باريس ، حديقة الأزبكية فى مساحة عشرين فداناً . وهى الحديقة التى عرفناها فى أواخر عزها قبل أن يتحول ذوقنا وتقديرنا للجمال . فندور فى الحديقة نقضم أطرافها . وننتف ريشها ونقتلع أشجارها . حتى أمست أشلاء خضراء ، وسط خضم من السيارات ، والأتوبيسات ولقايتباى أكثر من مسجد . ولكن مدفنه بالقرافة تحفة من أروع التحف . حرصنا على أن تبقى تربة ضمن الترب !

١٥٠١ — ١٥١٦

ها نحن نقترب بقلوب واجفة من نهاية تاريخ مصر المستقلة : يعتلى العرش السلطان الشهيد قانصوه الغورى ، الوحيد من بين كل أولئك السلاطين يموت فى حومة الوغى ، مدافعاً عن سلطنته فى مروج الشام . إلى الشمال من حلب . لقد صعد إلى الكرسى بعد أن أوفى على الستين ، وكان البرتغاليون قد اكتشفوا الطريق الطويل إلى الهند . حول جنوب أفريقيا ، فقضوا على المركز التجارى الممتاز الذى كان لمصر . وأخذوا يهددون بلاد المحيط الهندى وجنوبى البحر الأحمر . بيد أن السلطان الشيخ لم يقف مكتوف اليدين . بل جهز أسطولا يحارب البرتغاليين فى بحار الهند ، ويكسرهم فى موقعة « شول » إلى الجنوب من بومباى سنة ١٥٠٨ . وهذا الخطر الجنوبى لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لخطر الشمال : فسليم بن بايزيد زاحف على حدود الإمبراطورية المصرية فى شمال سورية . وقد خرج الغورى لمحاربته . فاندحرتْ الجيوش المصرية فى « مرج دابق » . وساعد على اندحارها خيانة بعض أمراء السلطان وإبان المعركة . مات السلطان وهو على جواده . وقبته ومسجده بالغورية يتيمان من جثمانه . إذ لم تعرف له جثة من بين الآلاف الذين قتلوا فى المعركة .

١٥١٧

ولم يبق لطومان باى . آخر سلاطين المماليك ، إلا أن يقاتل حرب الساقة بأرباض القاهرة ، وأن يثيرها على سليم حرباً فى شوارع القاهرة ، وينتهى أمره بالأسر فالشنق على باب زويلة .

وتتحول مصر إلى إيالة عثمانية . « عثمانلى باشاليك » . يحكمها ، نائباً عن السلطان سليم ، الأمير خاير بيك أو خاين بيك فى لغة المصريين . وينقل الخليفة العباسى المتوكل على الله إلى إسطنبول حيث يبقى حتى موت سليم سنة ١٥٢٠ . ويعود «المسكين لله» إلى القاهرة ، وفيها يلاقى ربه ، بعد أن أقام العثمانيون فى إسطنبول خرافة تنازله عن الخلافة لآل عثمان وهى الخلافة التى محا كمال أتاتورك أثرها من فوق الأرض فى مارس سنة ١٩٢٤ .

مصر الحديثة
[١٥١٧ — ١٩٥٦ م]

لفهم الحكم العثمانى يجب إدراك حقيقة أساسية . وهى أنه تدهور سريعاً جداً فى مصر . بسبب نظام فى الإدارة هو الاحتلال بعينه . ولأن الباشوات الولاة كانوا فى غالبيتهم قليلى الخبرة . طماعين . ملوثين خلقياً . حتى من كان منهم على شىء من الخلق اضطرته طريقة « تقديم الحساب » . بعد نهاية ولايته القصيرة — من عام إلى عامين . ولا حساب هناك يعتد به — عندما تحمل ذمته بمبالغ ليست فى الحسبان . ولم تدر فى خلد . أن « يعمل حساب » المستقبل بما يقيه شر النائبات .

ولأن أمراء المماليك استعادوا سلطانهم الفعلى على البلاد دون أن يخضعوا لمصلحة عليا .

لهذا استحال الباشوات والأمراء المماليك وجيش الاحتلال العثمانى [الوجاقات] إلى منسر من قطاع الطرق . وكان البيكوات المماليك هم كشاف الأقاليم [أى مديريها] وجامعى ضرائبها ورؤساء الجند فيها . ويتولى زعامة المماليك كبيران منهم :

شيخ البلد وأمير الحج . واختلطت الوجاقات العثمانية بأخلاط من أجناد المماليك وغيرهم من حثالآت الشرق الأدنى ، بل كان الأغاوات ، أى قواد الفرق ، يدرجون فى قوائم وجاقاتهم أسماء لا وجود لها ، طمعاً فى زيادة العلوفة والجماكى .

والصورة التى بقيت لنا من تلك « العصور المظلمة » حقاً ، صورة مهزوزة سوداء فى احمرار داكن ، يبدو فيها من هنا وهناك أضواء جهنمية ، تؤكد حقيقة الحياة المصرية فى ذلك الزمان . كانت شيئاً أشبه بجحيم دانتى فى أقسى طوابقه .

١٧٦٨

على بيك الكبير ، البروفة الأولى لمحمد على باشا : مملوك استقل تماماً بحكم مصر عن السلطنة واستولى على سورية .

١٧٧٣

حتى خانه مملوكه محمد بيك أبو الدهب ، ونجح فى القضاء عليه ، واستولى على الحكم وعاد إلى الحظيرة الشاهانية .

وبعد موته ، تقاسم السلطة زعيمان كبيران وشيخان من شيوخ المنسر المملوكى : مراد بيك المحمدى ، وإبراهيم بيك المحمدى ، نسبة إلى محمد بيك أبى الدهب .

١٧٩٨

وفيما بين أول يولية والثانى منه ، سنة ١٧٩٨ ، اقتحم جيش « الجمهور الفرنساوى » بقيادة سارى عسكر بونابارته ، أسوار الإسكندرية دون مقاومة تذكر ، وتقدم إلى شبريس وهزم مراد بيك ، وبلغ إنبابة وكسر جموع المماليك فى موقعة إنبابة المشهورة باسم موقعة الأهرام ، فى الواحد والعشرين من يولية ، ودخل القاهرة . وواصل قائده ديزيه زحفه إلى أقاصى الصعيد ، حتى تم « للجمهور الفرنساوى » — أى الجمهورية الأولى للثورة الفرنسية — الاستيلاء على الإيالة المصرية فيما بين يناير ومايو ١٧٩٩ .

١٧٩٨

ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنساويه: نشبت وأخمدت فيما بين ١٣ و١٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، وجاء اندلاع لهيبها عقب تحطيم نلسون للأسطول الفرنسى فى جونة أبى قير فى أول أغسطس ١٧٩٨ .

١٧٩٩

وبعد عام من معركة أبى قير البحرية . عاد بونابرت سراً إلى فرنسا فى ٢٤ أغسطس ١٧٩٩ .

١٨٠٠

وجاء العثمانيون يساندهم الإنجليز لطرد الفرنسيين . وهزمهم كليبر فى العشرين من مارس سنة ١٨٠٠ ، بالمطرية . ثم قتل سليمان الحلبى الجنرال كليبر فى حديقة بيته فى ١٤ يونية ١٨٠٠ . وتولى القيادة الجنرال عبد الله منو ، لينتهى بتسليم :

١٨٠١

القاهرة والإسكندرية فى سبتمبر ١٨٠١ ، وبالجلاء هو وجنده نهائياً عن مصر. وقد عاد الفرنسيون إليها فى نوفمبر ١٩٥٦ لبضعة أيام قضوها فى بورسعيد . ثم خرجوا منها على وجوههم عفرها الخزى والشنار .

وكان فى ضباط الحملة العثمانية ضابط مقدونى من قولة ولد سنة ١٧٦٩ . وكان يفخر بأنه من مواليد العام الذى ولد فيه نابليون بونابرت بأجاكسيو من أعمال كورسيكا .

وعينه الوالى خسرو باشا كولونيل [سرششمة] للفرقة الألبانية حتى يعينه على أجناد المماليك . ولكن محمد على لم يجىء إلا لمعونة نفسه . على حساب المماليك ، والباشوات العثمانيين ، والشعب المصرى نفسه فيما بعد . وانتهى به الحال إلى أن يلبسه الشيخة المصريون كرك الولاية ، وعلى رأسهم الرجل الطيب أكثر من اللازم ، نقيب الأشراف عمر مكرم .

١٨٠٥

وصعد محمد على إلى القلعة سنة ١٨٠٥ ، وبدأ حكمه بطرد السيد عمر مكرم

من القاهرة ، ثم بمصالحة المماليك حتى يتخلص من الاحتلال البريطانى للإسكندرية .

١٨٠٧

ولما حاول الإنجليز العودة إلى مصر ، عن طريق احتلال رشيد ، أجلاهم شعب هذه المدينة الباسلة فى أبريل سنة ١٨٠٧ .

١٨١١

وقتل محمد على ٤٨٠ أميراً مملوكيًّا فى داخل القلعة . وقد دعاهم للاحتفال بسفر ابنه طوسون إلى الحجاز لحرب الوهابيين . وإذا بأبواب القلعة تقفل ، وفرسان المماليك محصورون فى المنحدرات الضيقة المتجهة إلى الباب . وطاح الألبانيون فيهم ضرباً بالرصاص فالسلاح الأبيض . وذلك فى أول مارس سنة ١٨١١ .

١٨١٩

وقضى محمد على على سلطة الوهابيين سنة ١٨١٩ ، وقد تولى قيادة الحملة المصرية ابنه طوسون أولا ، ثم ابنه ، وقيل ابن زوجته ، إبراهيم، وحان الوقت ليتخلص محمد على من عصاباته الألبانية ، فأرسلها للحرب فى فيافى النوبة والسودان . وقد بدا له أن « النظام الجديد » فى الجندية يسمح له بحشد أولاد الفلاحين تحت قيادة ضباط أجانب من كل ملة ولون وجنس . وأثبت هذا الجيش بقيادة إبراهيم — وبشهادته — قدرة فائقة على القتال. ولكن أول المواقع التى خاضها أول جيش مصرى منذ عهد الأسرات :

١٨٢٤ — ١٨٢٧

كانت لمساعدة العثمانيين على مقاومة الشعب اليونانى الباسل ، هب فى وجه مستعمريه البرابرة ، ينتزع منهم استقلاله . وانتهت تلك المواقع — ولا فخر — بإخماد ثورة التحرير اليونانية !

ودمر الأسطول المصرى فى موقعة نافارين ، وقد انحصر بين أساطيل الروسيا وبريطانيا وفرنسا .

١٨٣٢ — ١٨٣٣

وانقلب الذى كان يساعد أسياده حتى سنة ١٨٢٧ ، إلى عدو لهم يضرب ظهورهم ، بعد هزيمتهم الكبرى أمام الروس فى حرب ١٨٢٨ — ١٨٢٩ . فقد خرج الجيش المصرى يفتح سورية وآسيا الصغرى بقيادة إبراهيم باشا ، وتألبت الدول العظمى على مصر ، وفرضت على محمد على معاهدة كوتاهية سنة ١٨٣٣ .

١٨٣٩

ثم قام السلطان محمود — الذى أطلق محمد على اسمه على ترعة المحمودية — لمحاربة محمد على ، عندما رآه يتوغل فى جنوب الجزيرة العربية .

وإذا إبراهيم ينقض على العثمانيين فى آسيا الصغرى ، ويهزمهم فى موقعة « نزيب » إلى الغرب من نهر الفرات الأعلى .

١٨٤١

وتعود جيوش إنجلترا والنمسا لتملى إرادتها على محمد على . وقد خضع وسلم للباب العالى سنة ١٨٤١ . وذهب فى أحسن بزة إلى إسطنبول يركع ويسجد ، ويقبل يد سيد المابين . وخليفة رب العالمين . ظل الله على الأرض !

ولا يبقى للألبانى المغامر سوى مصر شفالك له ، ولأكبر أفراد أسرته من بعده ؛ إلا بعض شروط تبعية ، منها جزية سنوية قدرها ثمانون ألف كيس [أى ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ ألف جنيه] . ويصاب الجبار بالعته فى أخريات أيامه .

١٨٤٨

فيتولى الحكم ابنه ، أو ابن زوجته ، إبراهيم لبضعة أشهر ، حتى وفاته قبل أبيه سنة ١٨٤٨ .

١٨٤٩ — ١٨٥٤

يتولى عباس الأول باشوية مصر ، وهو ابن طوسون بن محمد على . ويموت محمد على فى صيف ذلك العام ، ويكون حفيده قد شرع فى تبطيط ما حرثه

جده ، والقضاء على بواقى الخير من أعماله وإصلاحاته . وينفى إلى السودان باعث النهضة الفكرية فى مصر رفاعة الطهطاوى ورفاقه ، ومنهم نابغة نوابغها ، بيومى أفندى .

ويموت عباس الأول مقتولاً بيد جماعة من أخصائه ، ورفقاء متعته ، فقد كان مصاباً بلوثة جنسية .

١٨٥٤ — ١٨٦٣

ويتولى سعيد ، الشاب السمين المترف ، هاوى المظاهرات العسكرية فى البر والبحر ، وقد تربى تربية بحرية . وكان شاباً عصرياً ، بدأ فى زمانه زحف المغامرين الأوربيين وغيرهم ، وعلى رأسهم فرديناند دى لسبس الشاب الأنيق الممشوق القوام ، الذى كان يجيد الرقص وركوب الخيل ، واستغلال صداقة الباشا . وقد حصل من سعيد على امتياز الشركة العالمية لقناة السويس .

ويمتد خط القاهرة الإسكندرية الحديدى . ويعود الجيش المصرى لمساعدة الباب العالى فى حرب القرم .

١٨٦٣ — ١٨٧٩

اسماعيل الأفخم ، الابن الثانى لإبراهيم ، وقد أوفد إلى فرنسا ليتعلم . فكان كأبناء الذوات الفاسدين ، بروفة أولى لحفيده الملك المعظم . لم يحصل فى فرنسا إلا على قشور الحضارة الغربية ، ولذلك اتسمت أعماله بالتظاهر والفخفخة ، وبذل المال الوفير فيما يفيد وفيما لا يفيد . وينجح فى الاستيلاء على خمس الأراضى المنزرعة لنفسه ، دون أسرته ، ويشترى سنة ١٨٦٦ ، بفلوس المصريين ، حق بقاء كرسى الولاية فى أولاده . وفى السنة التالية يشترى ، من نفس المصدر لقباً فارغاً أهم ما فيه لكنته التركية « خديو » . أما معناه فلا يتعدى قولك نائب السلطنة فى مصر !

وينثر الذهب كأنه « ملحة فى عين اللى ما يصلى عالنبى » على حفلات افتتاح قناة السويس ، بطريقة لم يعرف لها التاريخ شبهاً فى السفه . ثم يشترى قسطاً من استقلال مصر يسمح له بشىء هام جداً : وهو حق استدانة ما يشاء ممن شاء . وترتفع الجزية المصرية إلى ٧٠٠.٠٠٠ جنيه ، ويبلغ بجيشه ثلاثين

ألف رجل يرسلهم لفتح أعالى النيل حتى حدود الحبشة وحتى خط عرض ٢ درجة شمالى خط الاستواء . ويتضخم الدين أصلا « وفوائظ » ، حتى يبلغ فى آخر حكمه مائة مليون جنيه ، فيحجز على أملاكه ، وتفرض عليه وزارة يرأسها أرمنى ، وزير ماليتها بريطانى ، ووزير الأشغال فيها فرنسى . ولكن الخديو يلعب بذيله . ويحاول أن يتهرب من وفاء الدين ، فيعين وزارة شريف باشا سنة ١٨٧٩ . من وراء ظهر الدول المستعمرة التى لبست لبوس المرابين . فتضيق صدورها به ، وتطالب الإستانة بعزل الحضرة الفخيمة الخديوية . وتنزل ورقة الرفتية على ولى النعم نزول الصاعقة .

ويتولى الحكم بدله ابنه توفيق . وهو كالحمل الوديع ، اشتراه الذئاب الأوربيون ليأكلوه فى عيدهم الكبير .

١٨٨٢

وجاء هذا العيد صباح ١١ يولية سنة ١٨٨٢ ، احتفلت به بريطانيا بإطلاق مدافع أسطولها على طوابى الإسكندرية وغير طوابيها . ونزلوا بالمدينة فى اليوم التالى بملابس العيد الحمراء والبيضاء . ثم استدارت الجيوش البريطانية واعتدت على حياد القناه المزعوم ، وظفرت بجيش عرابى بالتل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ . وكان قد قضى ليلته . قبل الموقعة . هو وجنوده ، فى الأذكار ، بحسبان أن البريطانيين ما زالوا . . . على مدد الشوف . ودخل جيش الاحتلال لحماية الحمل الوديع محمد توفيق . من الغول المصرى الذى قاده أحمد عرابى لتحريره مصر من ربقة الجراكسة والأرنؤد . ونسى عرابى القائمة الطويلة من مصاصى دماء المصريين . وأن الأمر خرج منذ زمن طويل من أيدى أسرة محمد على إلى الدائنين والمستعمرين والمستغلين . وحوكم زعيم الوطنية المصرية . ونفى إلى سيلان . وعاد منها شيخاً محطماً عام ١٩٠١ ، ومات بالقاهرة سنة ١٩١١ .

١٨٨٣

وفى عام ١٨٨٣ يتولى حكم مصر الفعلى ، تحت اسم قنصل بريطانيا الجنرال . المدعو إيفلن بيرنج ، وهو الذى اشتهر فى تاريخ الاستعمار باسم

اللورد كرومر . بطل دنشواى السفاح . وكان رجلا مصلحاً من النوع الذى عرفته مصر منذ عهد محمد على ، أى عبقرياً ينظم شئون البلاد كأن أهلها قطعان من الماشية ، يعملون لحساب حضرة صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا . وإمبراطورة الهند ، وحساب الدائنين .

١٩٠٢

وكان كل هم كرومر أن يزيد من حصيلة البلاد ، باعتبارها متفالك للمستعمرين . وكان أعظم عمل قام به ، بعد تنظيم المالية والإدارة هو بناء خزان أسوان ، الذى احتفل بافتتاحه فى ديسمبر سنة ١٩٠٢ .

ولم يبق علىّ فى استعراض هذه الصفحة السوداء من تاريخ مصر إلا أن أشير إلى جهاد بطلين من أبطال الوطنية المصرية ضد الاحتلال : مصطفى كامل ومحمد فريد . وقد مات الأول فى عنفوان رجولته ، وحمل محمد فريد راية الجهاد ، وذهب بها إلى أوربا وقد أعلنت الحرب العظمى الأولى . وسقط بطل الوطنية الثانى بعيداً عن وطنه . وكانت الظواهر كلها تنبئ بأن الوطنية برد أوراها : وقد يتمت البلاد من أبطالها صرعى ومنفيين . وأعلنت بريطانيا زوال السيادة التركية عن مصر . وأقامت بدلها الحماية البريطانية فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤ . وفى اليوم التالى . قررت عزل الخديو عباس حلمى بن محمد توفيق . وأعلنت عمه حسين كامل سلطانا على مصر .

١٩١٧

وبعد وفاته تولى أخوه باسم حضرة صاحب العظمة السلطان أحمد فؤاد .

١٩٢٢

وفى ٢٨ فبراير أعلنت بريطانيا زوال الحماية ، واعترفت باستقلال مصر [كذا كذا كذا] ! وعندما وافق البرلمان البريطانى على ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير . وكان ذلك فى ١٥ مارس . رقى فؤاد من سلطان إلى ملك . باسم حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول .

١٩٢٣

وفى أبريل سنة ١٩٢٣ . منح جلالته « شعبه العزيز » دستوراً . لم يتنبه

الناس حينئذ إلى صدوره فى شهر . . . . أبريل .

* * *

١٩١٨

لقد سئمت الخوض فى تلك الأحداث ، وآن لى أن أختم هذه العجالة متلمساً ضوء الأمل ، أشرقت به نفوس المصريين عندما تولى سعد زغلول ، ابن فلاح من مطوبس ، زعامة الوطنية المصرية . وجاهد فى سبيل استقلال مصر من ١٣ نوفمبر ١٩١٨ حتى وفاته فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ ، وقد دفعته

١٩١٩

إلى الأمام ، ودفعها ، ثورة الشعب المصرى عن بكرة أبيه ، فى مارس سنة ١٩١٩ . والقليل الذى حصلت عليه مصر فى الناحية السياسية حتى إعلان الحرب العالمية الثانية كان من أثر هذه الثورة . أما الذى حققته فعلا فهو يقظتها الفكرية والشعورية والاقتصادية ، هو جامعتها المصرية ومصرفها الوطنى أسسه محمد طلعت حرب ، هم أولئك الكتاب والشعراء والمصورون والمثالون . هم ذلك الجيل الصاعد الذى نشأ فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، ورأى بعينيه . وأحس بكل جوارحه ، كيف باءت تلك الثورة بالخيبة على يدى الملك وأعوانه . وأصحاب المصالح ، من كل لون وصنف ، يتواطئون مع المحتل ومع رأس المال الأجنبى ، ويسيرون بتلك النهضة الحضارية الرائعة فى الدرب الضيق الذى أقاموا له حدوداً وسدوداً باسم « التقاليد » ، حتى وفقوا فى مدى ثلاثين عاماً إلى أن يخضعوا أعظم حركة شعبية فى تاريخ مصر الحديثة لأغراضهم ، ويسخروها لمنافعهم . فانتهت إلى مهزلة فى شئون الحكم والاقتصاد والاجتماع ، على يدى آخر ملوك أسرة محمد على .

١٩٥٢

ثم تطلع الشمس ، بعد ذلك الفجر البعيد فى مارس سنة ١٩١٩ ، ذات صباح من يولية ١٩٥٢ ، فيعرف المصريون أن ثورة من الضباط الأحرار ضد الملك قامت بعد منتصف ليل ٢٣ يولية ، ويندفعون لمؤازرتها بقوة روحية عارمة ، تنتهى بطرد آخر أفراد أسرة الأرنؤدى ، وتولية طفل يحمله أبوه قماطه ، مولياً الأدبار إلى كعبة كابرى ، ثم إلى روما .

١٩٥٣

وما يلبث زعماء « ثورة البعث الكبرى » أن يعلنوا نهاية الملكية الزائفة ، وليدة الاحتلال البريطانى ، وقيام الجمهورية المصرية الأولى فى التاريخ وذلك ، فى يولية سنة ١٩٥٣ .

١٩٥٦

ويخرج آخر جندى بريطانى من مصر فى ١٣ يونية سنة ١٩٥٦ .
وتعود قناة السويس إلى أهلها فى ٢٦ يولية سنة ١٩٥٦ .

ثبت المراجع

إرمان (أدولف) : ديانة مصر القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر وأنور شكرى . القاهرة د . ت . [= دون تاريخ] .

إرمان (أدولف) ورانكة (هرمان) : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ؛ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال . القاهرة د . ت .

ابن إياس (محمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور . القاهرة ١٨٩٦ — ١٨٩٨ .

بدوى (أحمد) فى موكب الشمس ؛ جزءان . القاهرة ١٩٥٠ .

بدوى (أحمد أحمد) . رفاعة الطهطاوى بك . القاهرة د . ت .

تباى (رفائيل) : قوى التفرنج فى الشرق الأوسط . « المجلة » ، عدد سبتمبر ، القاهرة ١٩٥٧ .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . الأجزاء التى صدرت .

الترك (نقولا) : ذكر ملك الفرنساوية الديار المصرية والأقطار الشامية . باريس ١٧٣٩ .

الجبرتى (عبد الرحمن) : عجائب الآثار ، فى التراجم والأخبار . القاهرة ١٩٠٤ (طبعة أهلية) .

ابن جبير (محمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار . القاهرة ١٩٥٥ .

حبشى (بانوب) : شنودة الأتريبى ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

حسن (سليم) : مصر القديمة . الأجزاء التى صدرت . القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٥٧

حسن (على إبراهيم) : مصر فى العصور الوسطى ، من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى . القاهرة ١٩٥٤ .

حسن (على إبراهيم) : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية . القاهرة ١٩٤٨ .

حسين (محمد كامل) : متنوعات . القاهرة ١٩٤٧ .

حمزة (عبد القادر) : على هامش التاريخ المصرى القديم . مجلدان . القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤١ .

الرافعى (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر ؛ ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٢٩ — ١٩٣٩ .

الرافعى (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ؛ جزءان . القاهرة ١٩٣٢ .
روفيلة (يعقوب نخلة) : تاريخ الأمة القبطية . القاهرة ١٨٩٨ .
ابن زنبل الرمال : رسالة مشتملة على غزوة السلطان سليم خان مع السلطان أبى النصر قانصوه الغورى . القاهرة ١٨٦١ .
سامى (أمين) : تقويم النيل ، ثلاثة أجزاء وملحق . القاهرة ١٩٢٨ — ١٩٣٦ .
سرور (محمد جمال الدين) : دولة بنى قلاوون فى مصر . القاهرة ١٩٣٨ .
« « : الظاهر بيبرس ، وحضارة مصر فى عصره . القاهرة ١٩٣٨
السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة ، فى أخبار مصر والقاهرة . القاهرة١٨٨١
الشرقاوى (محمود) : مصر فى القرن الثامن عشر ، ثلاثة أجزاء . القاهرة ١٩٥٥ . ١٩٥٦
شكرى (منير) : أثناسيوس الرسولى ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
شكرى (منير) : المسيحية وما تدين به للقبط ، من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
الشيال (جمال الدين) : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على . القاهرة ١٩٥١ .
صالح (عبد العزيز) : التاريخ فى مصر القديمة ، مفهومه ، عناصره ، بواعث القومية فيه . القاهرة ١٩٥٧ .
صالح (عبد العزيز) : دراسات فى التاريخ الحضارى لمصر القديمة . القاهرة د . ت .
صالح (عبد العزيز) : قصة الدين فى مصر القديمة ؛ « المجلة » ، عدد نوفمبر ، القاهرة ١٩٥٨ .
صبرى (محمد) : كتاب القناة ، أسرار قضية التدويل ، واتفاقية ١٨٨٨ . القاهرة . ١٩٥٧
الطهطاوى (رفاعة رافع) : تخليص الإبريز ، فى تلخيص باريز . القاهرة ١٩٥٨ .
طوسون (عمر) : البعثات العلمية فى عهد محمد على ، ثم فى عهد عباس الأول

وسعيد . الإسكندرية ١٩٣٤ .
طوسون (عمر) : الجيش المصرى فى الحرب الروسية ١٨٥٣ — ١٨٥٥ . الإسكندرية ١٩٣٦ .
طوسون (عمر) : صفحة من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى . القاهرة ١٩٤٠ .
ابن عبد الحكم (ابو القاسم عبد الرحمن): كتاب فتوح مصر والمغرب. نيوهفن ١٩٢٢.
ابن العبرى (غريغوريوس أبو الفرج) : تاريخ مختصر الدول . بيروت ١٨٩٠ .
عبد المسيح (يسى) : اللهجات القبطية وآثارها الأدبية؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
عبد المسيح (يسى) : ساويرس بن المقفع ، وآثاره الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى . الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
عبد النور (راغب) : أوريجانوس ، وآثاره الأدبية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .
عبد الوهاب (حسن) : تاريخ المساجد الأثرية ؛ جزءان . القاهرة ١٩٤٦ .
فخرى (أحمد) : مصر الفرعونية . القاهرة ١٩٥٧ .
فوزى (حسين) : سندباد مصرى . القاهرة ١٩٣٨ .
« « : حديث السندباد القديم . القاهرة ١٩٤٣ .
« « : سندباد إلى الغرب . القاهرة ١٩٥٠ .
القمص (منسى) : تاريخ الكنيسة القبطية . القاهرة ١٩٢٤ .
كامل (مراد) : القبط فى ركب الحضارة العالمية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة . الإسكندرية ١٩٥٤ .
كامل (مراد) : يوحنا النقيوسى - من رسالة مارمينا العجايبى . الرابعة الإسكندرية ١٩٥٠ .
كمال (أحمد) : العقد الثمين ، فى محاسن أخبار ، وبدائع آثار ، الأقدمين المصريين . القاهرة ١٨٨٢ .
لبيب (باهور) : الآثار القبطية ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ، الإسكندرية ١٩٥٤ .

مجدى (صالح) : حلية الزمن ، بمناقب خادم الوطن . نشر جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٥٨ .

المسعودى (أبو الحسن) : مروج الذهب ومعادن الفضة . القاهرة ١٩٣٨ (طبعة أهلية) .

المقريزى (تقى الدين أحمد) : المواعظ الاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار . القاهرة ١٨٥٣ .

المقريزى (تقى الدين أحمد) : كتاب السلوك ، لمعرفة الملوك ؛ نشر محمد مصطفى زيادة ، جزءان . القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٤٢ .

ابن المقفع (ساويرس الأشمونين) : رسالة فى الرد على أفتخيوس بن بطريق .

مكرم (موريس) : ابن كبر ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

الملاخ (فتحى يونان) : كيرلس الرابع ؛ رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

ابن مماتى (شرف الدين أبو المكارم) : قوانين الدولة ؛ نشرعزيز سوريال عطية . القاهرة ١٩٤٣ .

ميخائيل (فايق) : كيرلس الكبير ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

ميخائيل (ملاك) : باخوميوس ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الرابعة . الإسكندرية ١٩٥٠ .

النابلسى (فخر الدين عثمان) : تاريخ الفيوم . القاهرة ١٨٩٨ .

ورل (وليم) : موجز تاريخ القبط ؛ من رسالة مارمينا العجايبى ، الخامسة ، الإسكندرية ١٩٥٤.

ولسون (جون) : الحضارة المصرية ؛ ترجمة أحمد فخرى . القاهرة د . ت .

Albright (W.F.) : From the Stone Age to Christianity; "Anchor"; New Yoık, 1957.

Amélineau (E.) : Contes et romans de l'Egypte chrétienne; 2 vol., Paris 1888.

Amélineau (E.) : Vie de Schnondé :Moines égyptiens;; Paris 1889.

Arberry (A.) : The Contribution to Islam; "The Legacy of Egypt"; Oxford 1942.

Atiya (A.S.) : The Crusades in the Later Middle Ages; London 1938.

Aveline (C.) et Al.: Egypt; "Hachette World Albuns"; Paris 1955.

Aymard (A.) : La civilisation égyptienne; "Hist. gén. des crilisations; dir. Crouzet"; T. I; Paris 1953.

Baedeker : Egypt and the Sudan, Handbook for Travellers; Leipzig 1929.

Bainville (J.) : l'Expédition française en Egypte; "Précis de l'hist. d'Egypte" T. III; le Caire 1933.

Band (M.) : Egypte; "les guides bleus"; Paris 1950.

Bell (H.I.) : Egypt from Alexander the great to the Arab Conquest; Oxford 1948.

Bell (H.I.) : Egypt and the Byzantine Empire; "The Legacy of Egypt."

Blackman (W.S.) : The Fellahin of Upper Egypt; London 1927.

Blochet (R.) : Histoire d'Egypte de Makrizi; Paris 1908.

Boreux (C.) : Département des antiquités égyptiennes; "Musée du Louvre", 2 vol.; Paris 1932.

Bouvier — Lapierre (P.) : L'Egypte préhistorique; "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. I; le Caire 1932.

Breasted (J.H.) : A History of Egypt; New York 1905 et 1909.

Breasted (J.H.) : The Dawn of Conscience, New York 1933.

Breccia (E.) Alexandria ad Ægyptum; Bergame 1922.

Butcher (E.L.) : The Story of the Church of Egypt; 2 vols; London 1897.

Butler (A.) : The Ancient Coptie Churches of Egypt; 2 vols; Oxford 1884.

Butler (A.) : The Arab Conquest of Egypt; Oxford 1902.

Capart (J.) : La Beauté égyptienne; Bruxelles 1943.

Capart (J.) : Egyptian Art; "The Legacy of Egypt."

Capart (J.) et Contenau (G.): Histoire de l'Orient ancien, Paris 1936.

Canivet (R.) et Fort (M.) : l'Egypte, pages littéraires et d'histoire, Paris 1923.

Carré (J.-M.) : Voyageurs et écrivains français en Egypte; 2 vol.; le Caire 1933.

Champdor (A.) : Saladin, le plus pur héros de l'Islam; Paris 1956.

Charlesworth (M.P.) : The Roman Empire; "Home Unversity Library"; Oxford 1951.

Charles-Roux (F.): L'Egypte de 1801 à 1882 et de l'ocupation française à l'indépendance, "Hist. de la nat. ég." dir. Hanoteaux, T. VI et T. V et VII, Paris 1936 et 1940.
Chauvin (V.) : La légende égyptienne de Bonaparte; Mém. Soc. Art et lettres du Hainant, T. IV, Mons 1902.
Childe (G.) : What Happened in History, "Penguin"; London 1942.
Childe (G.) : The Prehistory of European Society; "Penguin"; London 1958.
Colvin (A.) : The Making of Modern Egypt; London 1911.
Combe (E.) : L'Egypte ottomane, "Préc. de l'hist. d'Egypte"; T. III: le Caire 1933.
Contenau (G.) et Chapot (V.) : L'Art antique; "Hist. universelle des arts", du L. Réau; Paris 1930.
Cowell (F.R.) Cicero and the Roman Republic; "Penguin"; London 1956.
Creed (J. M.) : Egypt and the Christian Church, "The Legacy of Egypt".
Creswell (K.A.C.) : A Short Account of Early Muslim Architecture: "Penguin"; London 1958.
Creswell (K.A.C.) : Islamic Architecture in Egypt; "Baedeker's".
Cromer (E.B.) : Modern Egypt; 2 vols, London 1908.
Cromer (E.B.) : Abbas II; London 1915.
Dawson (C.) : The Making of Europe; London 1932.
Dawson (W.R.) : Medicine; "The Legacy of Egypt".
De Burgh (W.G.) : The Legacy of the Ancient World, "Penguin"; 2 vols: London 1953.
Dehéram (H.) : L'Egypte turque, du XVI. au XVIII. S. L'Exp. de Bonaparte; "Hist. de la nat. égyptienne", dir. G. Hanoteaux: T. V.: Paris 1934.
Deroches-Noblecourt (C.) : Le style égyptien; Paris 1942.
Devonshire (Mme.) : L'Egypte musulmane et les fondations de ses monuments, Paris 1926.
Didier (C.) : Les nuits du Caire; Paris 1860.
Diehl (C.) : L'Egypte chrétienne et byzantine; "Hist. de la nat. ég.", dir. Hanoteaux; T. III, Paris 1933.
Driault (E.) : Mohammed Ali et Ibrahim; "Préc. de l'hist. d'Egypte": T. III, le Caire 1933.
Drioton (E.) : Pages d'égyptologie; le Caire 1957.
Drioton (E.) et Lauer (J.-P.) : Sakkara; le Caire 1939.
Drioton (E.) et Vigneau (A.) : Le Musée du Caire; Paris 1949.
Drioton (E.) et Vandier (J.) : L'Egypte; "Clio"; Paris 1952.
Drower (M.S.) : The Political Approach to the Classical World; "The Legacy of Egypt".

Ebers (G.) : An Egyptian Princess.
Ebers (G.) : Uarda; Stuttgart u. Leipzig
Egypte (L') : Aperçu hist. et géogr. Gouvern. et instit. Vie écon. et sociale; le Caire 1926.
Engelbach (R.) : Mechanical and Technical Processes. Materials; "The Legacy of Egypt".
Erman (A.) : A Handbook of Egyptian Religion; transl. from German; London 1907.
Erman (A.) : The Literature of the Ancient Egyptians; transl. from German; London 1927.
Flaubert (G.) : Tentation de Saint Antoine.
France (A.) : Thaïs.
Frankfort (H.) et Al. : Before Philosophy; "Penguin"; London 1954.
Gardiner (A.H.) : Writing and Literature. "The Legacy of Egypt".
Gauthier (H.) : L'Egypte pharaonique; "Préc. de l'hist. d'Eg.", T. I; le Caire 1932.
Ghallab (M.) : Les surivances de l'Egypte antique dans le folklore égyptien; Paris 1929.
Ghorbal (M.C.) : The Beginning of the Egyptian Question & the Rise of Mehemed Ali; London 1928.
Ghorbal (M.C.) : The Making of Egypt; Cairo s.d. (1957 ?).
Gibbon (E.) : A History of the Decline & Fall of the Roman Empire.
Glanville (S.R.K.) éditor : The Legacy of Egypt; Oxford 1942.
Grousset (R.) : L'Egypte des Croisades; Paris 1939.
Hammer (J. von): Histoire de l'empire ottoman; trad. de l'allemand; 18 vol.; Paris 1835-1843.
Hanoteaux (G.) : Introduction générale; "Hist. de la nation égyptienne". T. I; Paris 1931.
Hénaut (de) : Manuel d'histoire de l'Egypte, de Ménès à nos jours; le Caire 1927.
Herbelin (A.) : La fresque égyptienne aux tombeaux des nobles à Thèbes; Rev. conf. fr. en Orient, le Caire 1949.
Herodotus : History; Rawlinson's translation.
Herriot (E.) : Sanctuaires.
Herz (Max) : Catalogue raisonné du Masée national de l'art arabe; le Caire 1906.
Heydt (W.) : Histoire du commesce du Levant au Moyen-Age; 2 vol.; Leipzig 1886.
Hocart (A.M.) : The Legacy of Modern Egypt; "The Legacy of Egypt."
Jéquier (G.): Histoire de la civilisation égyptienne des origines à la conquête d'Alexandre; Paris 1913.

Joinville (J. Sire de) : Histoire de Saint Louis; transt. from old French by F.T. Margials; London 1908.
Jones (A.H.M.) : Egypt and Rome; "The Legacy of Egypt".
Jouguet (P.) : L'Egypte gréco-romaine; Préc. de l'hist. d'Egypte", T.I.; le Caire 1932.
Jouguet (P.) : L'Egypte prolémaïque; "Hist. de la nat. ég."; T. III. Paris 1933.
Kayser (E.) et Roloff (E.M.) : Histoire d'Egypte; trad. de l'allemard; Paris s.d.
Kingsley (C.) : Hypatia.
Lambrino (M.) Encyclopédie par l'image : l'Egypte; Paris 1930.
Lane (E.) : An Account of the Manners & Customs of the Modern Egyptians; London 1836.
Lane-Poole (S.) : The Art of the Saracens in Egypt; London 1886.
Lane-Poole (S.) : Cairo, sketches on its History, Monuments & Social Life; London 1898.
Lane-Poole (S.) : Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem; London 1898.
Lane-Poole (S.) : A History of Egypt in the Middle Ages; London 1900.
Lange (K.) & Hirmer (M.) : Egypt; "Phaidon Press"; London.
Legrain (G.) : Louqsor sans les Pharaons; Paris 1914.
Leibovitch (J.) : Ancient Egypt; transl. from French; Cairo 1938.
Lot (F.) : La fin du monde antique et le début du Moyen-Age;Paris 1927.
Loti (P.) : La mort de Philae.
Lucan : Pharsalia; transl. from Latin; "Penguin"; London 1956.
Lyons (H.) : Geographical & Ethnographical Notes; "Baedeker's"; Leipzig 1929.
Maillet (B. de) : Description de l'Egypte; Paris 1735.
Marcel (J.) : L'Egypte depuis la conquête des Arabes jusqu'à la domination française; Paris 1848.
Mariette (A.) : Voyage en haute Egypte; Paris 1893.
Martin (H.)sous la dir. de : L'Art égyptien,grammaire de style; Paris 1929.
Maspero (G.) :Histoire ancienne des peuples de l'Orient classique; 3 vol.; Paris 1895-1899.
Maspero (G.) : L'Archéologie égyptienne; Paris 1907.
Maspero (G.) : Les contes populaires de l'Egypte ancienne; Paris 1911.
Maspero (G.) : L'Egypte; "Ars Una"; Paris 1911.
Maspero (J.) : Histoire des patriarches d'Alexandrie; Paris 1923.
Maspero (J.) : Horapollon et la fin du paganisme égyptien; le Caire 1914.
Mekhiterian (A.) : La peinture égyptiene; éd. Skira; en Suisse 1954.
Migeon (G.) · Manuel d'art musulman; Paris 1927.

Milne (J.G.) : A History of Egypt under the Roman Rule; London 1924.

Montet (P.) : La vie quotidienne en Egypte au temps de Ramsès; Paris 1946.

Moret (A.) : Mystères égyptiens; Paris 1922.

Moret (A.) : L'Egypte pharaonique, "Hist. de la nat. égyptienne", dir. Hanoteaux, T. II, Paris 1931.

Moret (A.) : Le Nil et la civilisation égyptienne; Paris 1926.

Moret (A.) et Davy (G.) : Des clans aux empires; Paris 1923.

Munier (H.) : L'Egypte byzantine de Dioclétien à la conquête arabe; "Préc. de l'hist. d'Eg."; T. II, le Caire 1932.

Musée du Caire : Description sommaire des principaux monuments; le Caire 1932.

Nasir-i-Khusru : Sefer-Nameh; trad. du persan, Paris 1881.

Nerval (G de) : Voyage en Orient; 2 vol.

Nikiou (Jean de) : Chronique; trad. Zotenberg; "Notices et extr." des manuscr. de la Biblioth. nat. et autres; T. XXIV Paris 1883.

Oesterley (W.) : Egypt & Israel; "The Legacy of Egypt".

O'Leary (de Lacy) : The Coptic Church and Egyptian Monasticism; "The Legacy of Egypt".

Paton (A.A.) : A History of the Egyptian Revolution from the Mamlukes to the Death of Mohamed Aly, 2 vol., London 1870.

Perry (E.) et Al. : Le Moyen-âge; "Hist. gén. d. civilis.", dir. Crouzet, T. III, Paris 1954.

Petrie (F.) : Social Life in Ancient Egypt; London 1923.

Petrie (F.) : Arts et métiers de l'ancienne Egypte; trad. de l'anglais; Paris 1925.

Plutarque : Vies des hommes illustres; trad. D. Ricard, Paris 1837.

Poliak (A.N.) : Feudalism in Egypt, Syria, Palestine & the Lebanon; London 1939

Quatremère (E.) : Mémoires géographiques et historiques sur l'Egypte et sur quelques contrés voisines; 2 vol. Paris 1811.

Quatremère (E.) : Histoire des Sultans Mamelouks de l'Egypte; 2 vol., Paris 1837-1844

Rhoné (A.) : L'Egypte à petites journées, Paris 1910.

Roberts (C.H.) : The Greek Papyri, "The Legacy of Egypt."

Roncière (C. de la) : Géographie de l'Egypte à travers les âges; Hist de la nat. ég. "dir. Hanoteaux, T. I, Paris 1931.

Runciman (C) : History of the Crusades; 3 vols.

Sabry (M.) : L'empire égyptien sous Ismail; Paris 1933.

Sacy (S. de) : Relation de l'Egypte par Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad; Paris 1810.

Samivel : Trésor de l'Egypte; Paris 1954.
Sammarco (A.) : Les régnes de Abbas, de Sa'id et d'Isma'il, Préc. de l'hist. d'Eg. T. IV, le Caire 1935
Savary (C.E.) : Lettres sur l'Egypte, 3 vol.; Paris 1785-1786.
Seidl (E.) : Law; "The Legacy of Egypt".
Sewell (J.W.S.) : The Calender & Chronology; "The Legacy of Egypt".
Simaika (M.H.) . Guide sommaire du Musée copte; le Caire 1937
Sloley (R.W.) : Science; "The Legacy of Egypt".
Smith (W) : History of Rome.
Smith (G Elliot): The Ancient Egyptians & the Origin of Civilization, London 1923.
Sottas (H.) et Drioton : Introduction à l'étude des Hièroglyphes; Paris 1922.
Steindorff (G.). Outline of the History of Egypt. Hieroglyphics, Religion, Art; "Baedekor's"; Leipzig 1929.
Suetonius : The Twelve Caesars; "Penguin", London 1957.
Tarn (W.W.) : Hellenistic Civilisation. London 1930.
Thurman (Cap.) : Bonaparte en Egypte, Paris 1902.
Vandier (J.) : Egypte; peintures des tombeaux et des temples; U.N.E.S C.O., Paris 1954
Vattier : L'Egypte de Murtadi, fils de Gaphiphes trad-de l'arabe; Paris 1656.
Vaux (Carra de): L'Abregé des merveilles; trad. de l'arabe; Paris 1898
Villard (M. de) . Christian Art in Egypt, "Baedeker's"; Leipzig 1929.
Volney (C.F.) Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années 1783, 1784, et 1785; 2 vol., Paris 1787.
Weigall (A.) : The Life and Times of Cleopatra, Queen of Egypt; London 1923.
Weigall (A.) . Alexandre le grand; trad de l'anglais; Paris 1934.
Wertheim (O von) : Cléopâtre; trad. de l'allemand; Paris
Wiet (G.) : L'Egypte arabe, 622-1517 A D., "Hist. de la nat. ég." dir. Hanotcaux, T. IV; Paris 1937.
Wiet (G.) : L'Egypte musulmane de la conquéte arabe à la conquète ottomane, Préc de l'hist d'Eg, T II, le Caire 1932.
Wiet (G.) . Guide sommaire du musée national de l'art arabe, le Caire 1939.
Wilson (J A.) . The Culture of Ancient Egypt (orig "The Burden of Egypt"); Chicago 1958.
Worrel (W.) A Short Account of the Copts, Michigan 1945.

رقم الإيداع		١٩٩٠ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٨٧٩-٦	ISBN

١ / ٨٣ / ١٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

هذا الكتاب أدبى فى مظهره ، تاريخى فى جوهره يتناول حياة المصريين فى عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث لا بالصبغة التاريخية التقليدية وإنما بأسلوب العرض الفنى . فهو صور من الحياة المصرية على مدى العصور . إنه جولات مصرى فى رحاب تاريخه بعيدة عن السرد التاريخى الممل وذكر قصص الملوك وغزواتهم . إن المؤلف يسلط أضواءه على الشعب المصرى وصناعته الأصيلة : صناعة الحضارة . والتاريخ المصرى بحكم طوله وتنوع وسائل دراسته ، مقطع الأوصال كأنه تاريخ أمم متعاقبة ، ولكن هذا الكتاب يعرضه لنا فى قصة واحدة متكاملة بطلها الشعب المصرى الخالد .

١٢٦٩٠/٠٣